

أشیخ ندیم اججیہر
مفتی ملائیش و بستان الشہادت

وَصَّلَ اللَّهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

بین الفلسفۃ والقیوم والقرآن

علی صراط الحق



www.aljawadain.org

مِنْ كُلِّ
الْأَذْكَارِ الْمُبَارَكَاتِ

سقا للاعب الصبا ، ومقابل الشباب ، ما احلاما ، وما امرها على
قلوبنا ، اذا عدنا اليها ، بعد طول الاغتراب ، لتراما بيمون غشاها
المشيب بسحوب من الوهن ... انها ثثير ، في صدورنا ، زويمه من
الذكريات ، يمتعج فيها الانس والمنين والاسف والوحشة والحزن والمرع
واليأس والتامي ، فياذ لنا ، في غمرة هذه الكآبة المخلدة ، ان تبكي ...
على افسنا ، وعلى اوثنك الذين فارقونا ، والذين اوشك ان نفارقهم ،
بكاء المسافر النازح ، الذي لا يختلف من نوعته ، على فراق احبة اعزاء ،
الا امل بلقاء اعزاء آخرين ، يتظرونه في بلد بعيد بعيده ...

في هذه المواقف الاخيرة من العُسر ، نجد الحياة ، في اعيننا ، انغل
واختل ما تكون ، وانقه وامر ما تكون ، فترعننا فكرة الفداء ،
ولتشعر ، اكثر من أي وقت مضى ، بمحاجتنا الى المخلود ، وبفقرنا الى
الأبيان بالثالد الأزلي السرمدي ، الذي وعدنا بهمسة اخرى ، لو لاما
ل كانت حياتنا الدنيا عبئا ظلاما .

ومن مغاني صباي ، في بلدي ، (جامع طينطال) ، الذي يشوى عند
مقطوع العمران ، في روضة من بساقيننا العطرة الساحرة ، فلي فيه ، من
ذكريات الطفولة ، كل عزيز ، انه يذكرني باصبرحات السيد ، حيث
كان ابي يأقي ، وانا ورااته ، قبل شروع الشمس ، ليزور موئلا في المقبرة
التي تجاور الجامع ، ثم يؤدي صلاة العيد فيه ، ويذكرني بامسيات
الصيف المخلدة ، التي كنت اعب فيها ، عند الشجرة في قبة المسجد ،
بين الحوض والبئر ، وابي قاعدا في غرفته ، يتعلّق حوله رهط من
الشيوخ ، يستمعون اليه ، فإذا تفقلت عدوت الى البستان ، اقطع من

سياجـه قصبة اجعلها جواماً... وينـذكرني بتلك المأذنة ذات السـلم
اللـأولـية المزدوجـة ، التي كـنا نـصـمـدـ فـيـها ، من فـنـاءـ المسـجـدـ ، لـتـجـدـ انـفـسـنـاـ ،
بعد لـحظـةـ ، فـي دـاخـلـ المـطـرـ ... وينـذكرني بـذـلـكـ المـؤـذـنـ العـبـوزـ ، الـذـيـ
كـنـتـ الجـعـلـ عـلـيـهـ أـنـ يـصـعـدـ مـعـيـ إـلـىـ المـأـذـنـةـ ، لـيـؤـذـنـ فـيـ غـيرـ وقتـ الصـلـةـ ،
وـهـوـ يـتـحـيـرـ صـحـيفـ يـعـلـلـنـيـ وـيـسـوـقـنـيـ حـتـىـ يـدـخـلـ وقتـ المـغـرـبـ ...
وينـذكرني بـأـمـيـ ، الـقـيـ كـنـتـ اـحـدـثـاـ عنـ المـأـذـنـ الـعـجـيـبـةـ ، وـالـبـئـرـ الـعـمـيقـةـ ،
وـسـيـاجـ القـصـبـ ، فـتـحـدـرـنـيـ مـنـ الـأـفـاعـيـ ، وـتـلـعـ عـلـىـ خـادـمـنـاـ ، أـنـ لـاـ
يـتـرـكـنـيـ اـطـلـعـ إـلـىـ المـأـذـنـةـ أـوـ اـدـنـ مـنـ الـبـئـرـ ...

يـذـكـرـنـيـ بـكـلـ هـوـلـاءـ ، الـذـينـ طـوـاهـ الـمـوـتـ ، قـذـهـبـواـ وـخـلـفـوـاـ فـيـ قـلـيـ
عـصـصـاـ ، تـغـورـ فـيـ الـأـعـماـقـ ، تـحـتـ رـكـامـ الـأـيـامـ وـالـسـنـينـ ، فـاـذـاـ تـعـدـتـ إـلـىـ
(ـطـيـشـالـ) ، عـادـتـ تـشـدـ عـلـىـ هـذـاـ القـلـبـ الـعـيـدـ باـصـابـعـ مـنـ جـهـرـ وـحـدـيدـ ...
وـتـطـوـعـتـ بـنـاـ الـأـيـامـ وـالـسـنـونـ ، فـبـعـدـنـاـ عـنـ الـحـيـّ ، وـبـعـدـنـاـ عـنـ الـجـامـعـ ،
وـبـعـدـنـاـ ، أـخـيـرـاـ ، عـنـ الـبـلـدـ كـلـهـ... ثـمـ عـدـنـاـ بـعـدـ طـوـلـ الـاـغـرـابـ ... وـجـلـنـيـ
الـشـوقـ إـلـىـ (ـطـيـشـالـ) ، فـجـعـلـهـ فـيـ يـوـمـ ، رـأـدـ الـضـحـىـ ، عـنـدـ غـيـرـ الـمـصـلـيـنـ ،
وـتـقـتـلـتـ فـيـ مـلـاعـبـ الـطـفـولـةـ ، وـأـثـرـتـ ذـكـرـيـاتـ كـلـهـاـ ... وـبـكـيـتـ ماـ
شـاءـ اللهـ أـنـ اـبـكيـ ...

وـفـيـاـ مـسـتـفـرـقـ فـيـ صـحـيـ ، لـاـ اـسـمـعـ أـلـاـ صـدـىـ الشـيـجـ ، مـرـدـدـهـ
قـبـابـ الـمـسـجـدـ الشـاهـقـةـ ، اـلـأـنـيـ صـوتـ مـنـ دـاخـلـ الـمـحـجـرـةـ الشـرـقـيـةـ ، الـقـيـ كـنـتـ
أـحـذـرـ ، فـيـ طـفـوليـ ، أـنـ اـقـتـرـبـ مـنـهـاـ ، خـوـفـاـ مـنـ الـقـبـورـ الـقـيـ فـيـهـاـ . ثـمـ
أـطـلـ مـنـ بـاـهـيـاـ ، شـيـخـ مـهـبـ الـطـلـعـةـ ، أـبـيـضـ الـشـمـرـ ، غـرـبـ الـزـيـ ، وـمـشـىـ
إـلـىـ . وـبـعـدـ أـنـ الـقـيـ السـلـامـ ، قـمـدـ يـحـانـيـ ، وـقـالـ بـلـغـةـ عـرـبـيـةـ فـصـيـحةـ ،
فـيـهـاـ اـثـرـ مـنـ لـكـنـةـ عـيـاهـ : مـاـ الـذـيـ يـسـكـيـكـ يـاـ اـخـيـ ?

قـلـتـ : ذـكـرـيـاتـ لـيـ ، فـيـ هـذـاـ الـمـسـجـدـ ، مـنـ عـهـدـ اـبـيـ ، وـاـيـامـ صـبـايـ .

قـالـ : وـمـنـ اـبـوكـ ؟ فـاـكـدـتـ اـتـفـظـ يـاسـمـ اـبـيـ ، حـتـىـ اـرـتـعـشـ بـدـنهـ .
وـقـالـ ، وـهـوـ يـحـدـقـ إـلـىـ بـعـيـنـيـنـ تـجـوـلـ فـيـهـاـ الدـمـوعـ : اـبـوكـ الشـيـخـ الـجـسـرـ ؟ .
قـلـتـ نـعـمـ . وـمـنـ اـنـتـ يـاـ سـيـديـ ?

قال : أنا ، في الأصل البعيسد ، من مصر ، من (آل المائى) ، المدين
نزح بعضهم الى ديار الشام ، وبعضهم الى الحجاز . ومن الحجاز ساقت الاقدار ،
جَدَّ أبي الى الهند ، واستقر فيها . وأُسْمِي « حَسْرَانَ بْنَ الْأَضْعَافِ الْبَنْجَابِيِّ » .

قلت : ما الذي جاء بك ، من الهند ، الى هذا المكان ؟

قال : ابي لست آتيا من الهند ، بل من سيرقند ، بل على الأصح ،
أني آتى من قرية (خَرَقَنْك) في سيرقند .

قلت : ما الذي جاء بك ، من ذلك المكان بعيد ، الى بلدتنا ، وما
الذي اقامك في هذا المسجد ؟

قال : عَرَجْتُ على بلدكم لأزور اباك ...

فنظرت اليه متعجبًا ، فقد مضى ، على موت ابي ، زمن بعيد .

قال : لا تعجب . جئت ، وانا في طريقى الى الحجاز ، ازور قبره ،
وازور هذا الجامع الذي حببه اليه شيخي حين وصفي لي ، واخبرني ان
اباك كان يلقى الدروس فيه . وقد دلتني المصادر على هذه الغرفة التي
كانت يأوي اليها ابوك . وووجدت هذا المسجد اشبه شيء ، بمسجد
(خَرَقَنْك) ، الذي قضيت فيه اغلب واحلى ايام حياتي ، فطاب لي ان
اقضي فيه اياماً ، قبل میقات الحج ، لأنقطع الى عبادة الله ، في مقام
الرجل الذي هدى شيخي الى الله ...

قلت : ومن هو شيخك يا مولاي ؟

قال : هو الشيخ ابو النُّور الموزون رحمه الله ، من علماء سيرقند .

قلت : اتفقي ايامك كلها بالعبادة ؟

قال : امّا الان فنعم ، ولكنني ، قبل ذلك ، كنت اكتب قصة ضلالي
وایهاني ، التي املأها عليه شيخي الموزون ، ومنها عرفت اباك رحمه الله .

قلت : ما هي قصة ضلالك وایهانك ؟

قال : أنها طويلة ، وسائلنها للناس اذا بشر الله .

ثم نهض الرجل ودخل الى غرفة القبور ، وعاد يحمل دفتراً كبيراً ،
وضئلاً بين يديه .

وقال : هذه أمالى الشيخ الموزون ، ولكنى نسختها نسخاً حسنة ، من دون ان ازيد فيها شيئاً .

قلت : هذا كتاب كبير . اتسمح لي ان احمله الى داري لأقرأه ، في ليلتين ، وارده اليك ؟

قال : اشخّسنُ الترجمة ؟

قلت : نعم أخفّسُها جداً .

قال : أسمح لك بالكتاب ، اذا وتفت بانك ابن الجسر حقاً ، وانك اهل لقراءة الكتاب .

قلت : ليس لي ان اوكل لك صدق نسي ، الا اذا تكرمت برفقتي الى داري ، ليشهد لك الناس ، ولأريك كتب ابي .

قال : لا يحتاج الامر الى كل هذا . ولكن اسألك سؤالاً واحداً .

ما هو اعظم كتب ابي ، وما هو الباب الام فيه ؟

قلت : اشهر كتب ابي (الرسالة الحيدية) ، والباب الام فيه ؛ هو الذي يدور البحث به حول اثبات وجود الله ، والرد على الطبيعين الملمدين . ولكن هذا الباب الام مدقون ، بين مباحث اخرى تتعلق باثبات النبوة ، في صدر الكتاب ، وببعض الحكم في آخره ؛ لذلك وقع في نفسي ، ان اجرد المبحث الام ، وان الحصنه ، واطبئه على حداته .

قال : آمنت بانك ابن الشيخ حقاً ، وبانك اهل حل هذه الامانة .

وكتابي هذا هدية مني اليك ، ففيه ما ذكرت من التلخيص لكتاب ابيك ، وفيه قصة ضلالي وایقاني كلها . فخذه وروجنه واطبئه واتشره بين الناس . ولا اسألك عليه اجرا ، ولكن اسأل الله الكريم ، ان يجعل عملي خالصاً لوجهه ، وان ينفع به الناس ، وينفعني ، اذا جاء اجلي ، وانقطع علي ... ،

واسفر الرجل ، بعد ايام ، الى الحجاز . وأخذت انا في وجة الكتاب ، في بعض سنين . ثم طوحت في طوايا الزمن الى (طشقند) . وكان اعظم همي ان اصل الى (خرتش) ، لازور حنيران بن الاضعف ، واعرض عليه الكتاب ، بعد الترجمة ، وازور ضريح الامام البخاري

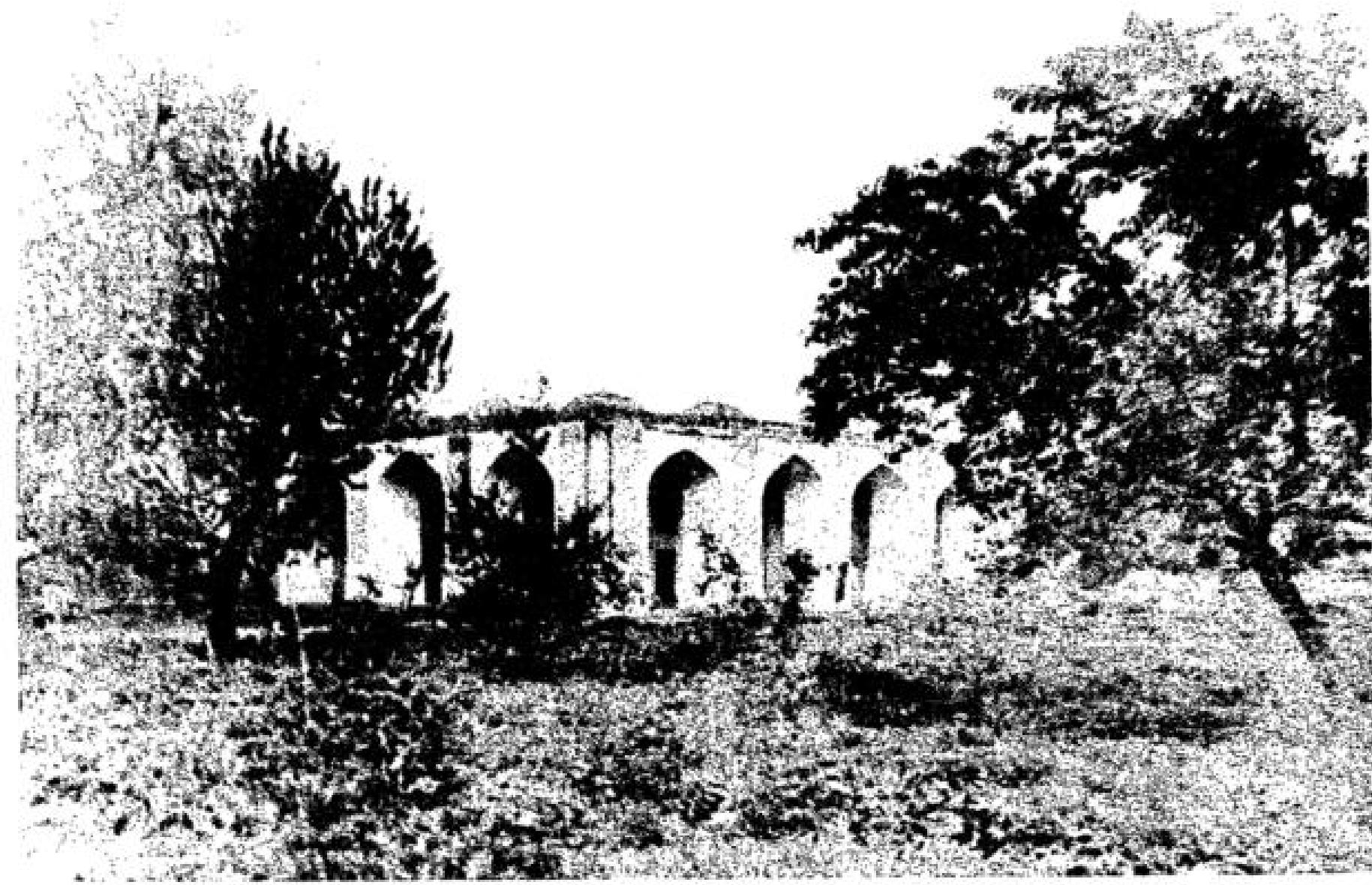
رضي الله عنه . وساعديه ، على ذلك ، رجل الشبل والمرؤة الشيخ ضياء الدين باباخان ، ابن العبد الصالح العابد الزاهد ولـ " الله باباخان مفتى البلاد الـ اكـبر رحـمـه الله " ، الذي كان من اسباب ابي ؟ فـ " لـما احس " مني بذلك الرغبة في زيارة (سـفـرـتـنـك) ، تفضل بـ " اـفـقـقـي الى سـفـرـقـنـد " ، ومنها الى (سـفـرـتـنـك) . وهـنـاك عـلـتـ من خـادـمـ السـجـدـ ، ان حـيـرانـ بنـ الـأـضـعـفـ ، كان ذـهـبـ الى اـدـاءـ فـرـيـضـةـ الحـجـ ، وـقـضـىـ شـعـبـهـ فيـ مـكـةـ . وزـرـنـاـ مـسـجـدـ الـامـامـ ، وـوقـنـتـاـ عـلـىـ ضـرـيـحـهـ ، فـاـذـاـ المـسـجـدـ كـاـ وـصـفـهـ (حـيـرانـ) رـحـمـهـ اللهـ ، اـشـبـهـ شـيـءـ ، يـحـامـعـ طـيـنـاـلـ ، بـعـزـلـتـهـ بـيـنـ الـرـيـاضـ ، وـاـذـاـ قـبـ الـامـامـ ، قـاـمـ بالـعـرـاءـ ، فيـ رـوـضـةـ صـفـيرـةـ ، تـحـتـ شـجـرـةـ وـارـفةـ الـظـلـالـ ، وـهـوـ عـلـىـ حـالـهـ ، بـلـ تـجـصـيـصـ وـلـ سـتـرـ وـلـ زـخـرـفـةـ ، وـدـسـلـتـ اـلـىـ الـغـرـفـةـ الصـفـيرـةـ ، الـقـيـانـ يـقـرـأـ يـهـاـ حـيـرانـ وـشـيـخـهـ ، فـاـذـاـ هـيـ ، كـاـ وـصـفـهـ ، تـعـلـلـ عـلـىـ قـبـ الـامـامـ . وـ، آتـيـتـ فـيـهـاـ ، وـرـحـمـتـ عـلـىـ حـيـرانـ بنـ الـأـضـعـفـ ، وـخـنـقـتـيـ الدـمـوعـ ، حـقـ شـحـجـبـ ، سـاحـيـ منـ بـكـاـيـ ... " ،

هـكـذـاـ وـصـلـ اـلـىـ هـذـاـ الـكـتـابـ الـذـيـ اـقـدـمـهـ لـلـقـرـاءـ اـدـاءـ الـأـمـانـةـ .

الفـقـيرـ اـلـىـ رـحـمـهـ اللهـ

عبدـ اللهـ نـديـمـ بنـ حـسـينـ الجـمـسـ
مـفـتـىـ طـرـابـلسـ

الفِتْرَارُ
إِلَى الشَّيْخِ الْمَوْزُونَ



مسرح القصبة: مسجد الأمام البخاري في قرية خرشنك قرب سهرقند



مسرح التقى : مسجد الامير (الحسيني غال) في طرابلس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء
والمرسلين ، وبعد :

يقول العبد الضئيل ، الفقير الى رحمة الله ، حيران بن الضعيف المأني
البنجاني :

لما كنت اطلب العلم في جامعة (بيشاور) ، كانت النفس الشلعة
مشوقة ، بفطرتها ، الى المعرفة : تستشرف كل غيب ، وتشرب الى كل
جهول ، قتبعث عن اصل كل شيء وكتبه ، وسبه وعلته ، وسره
وحكمته ؛ فكان دأبي وديندي ان اسأل التربوخ والرفاق ، عن هذا
العالم ، ما هو ، ومن خلق ، ومم خلق ، ومن الذي خلقه ، وكيف
خلقه ؟ فلا أقابل على هذه الأسئلة الا بالزجر ، ولا أجاب عليها الا
بالسخر ، فيقول الشابخ عنى : هذا ليس بعلم الله علم ولا دين ... إن هو
الآ متقلض سخيف ... حق كم هذا التسخر مني كل الرفاق ، فنبذوني ،
وتسابقا ، ترضيا للشابخ ، الى نسبزي باشتم الالقاب ، حق ضاقت بي
المجامعة ، على رـ بها ...

وزادني هذا التهم اصراراً وشكراً ، حتى وقر في نـ بي ان الحقائق
التي اشدها ، لا تدرك ولا تعلم ، الا من طريق الله سنه ، وان العقل

والدين لا يختمان ؛ ولو لا ذلك ما نظر مشائخني من الفلسفة ، ولا تهربوا من الخوض معي ؛ في كل جدل عقلي ، حول سر الوجود ؛ فاهملت دروس الدين ، وأخذت أبحث عن كتب الفلسفة ، فما وجدت منها ، في بلادنا ، الا النذر البسيط ، فصررت أقرأ بلا فهم ، وازداد ، في كل يوم ، حيرةً وشكًا ، وثرةً وجداً . وما زال هذا حالياً ، حتى يأس المشائخ مني ، وخافوا أن يسري الداء إلى الرفاق ، فعمكوا بطردي من الجامعة .

وتزل النبا على نفس أبي تزول الصاعقة ، فحاول ابن بردني إلى المهدى ، بكل ما أعطي من عقل وحنان ، ونصحني أن أترك هذه الفلسفة ، وانصرف إلى علوم الدين ، فإذا انقضت أيام الدرس كان بامكاني ، إذا شلت ، أن انكب على الفلسفة انكباباً صحيحاً . وقال لي في آخر حديثه : يا حيران ! لقد مررت في مثل الذي أنت فيه ، قالت نفسي إلى الفلسفة ، وأوغلت في الشك والجيرة ، ولكن استاذنا الأكبر العارف بالله الشيخ أبو التور الموزون السمرقندى ، الذي كان فقيهاً كبيراً ، وعلمه جليلًا ، وفيه عظيمًا ، نصحني يومئذ ، بهل ما انصحك به اليوم ، وقال لي (إن الفلسفة بحث ، على خلاف البحور ، يهد راكب الخطير والزيغ في سواحله وشطائه ، والأمان والإيان في المجتمعه وآعاقه) .
فدع عنك ، يا ولدي ، هذه القراءات الناقصة المشوهة البتراء ، فانها شديدة الخطأ على عقلك وآيائك .

قلت : وهل العقل والإيان على طرفي نقبي ؟

قال : معاذ الله .

قلت : إذا ، لماذا ينكرون عليّ ، هؤلاء الشيخ العلامة ، كل جدل عقلي في أمر العالم وخلفه ؟

قال : إن أكبر علماء الدين ، قد خاضوا في هذا الجدل العقلي ، ردًا على الشكاك والملاحدة ، والتفوا في ذلك المطبات ، ولكنهم يكتفون ، من الطالب لهذا الولع بالفلسفة ، لأنـه ، في نظرهم ، يزعزع الإيان .

قلتُ : ولكن اخواتنا ، في المدارس والكليات الاخرى ، يتدربون الفلسفة ، كعلم اصيل لا بد منه ، فما الفائدة ، اذا ، من ابعاد طلاب علوم الدين ، وحدهم ، عن المخوض في الفلسفة ، وهم قلة بالنسبة لطلاب علوم الدنيا ؟ وكيف يصنعون اذا هم اصبحوا ، يوماً ، في مركز الارشاد والفتيا ، وألقى عليهم ، احمد الناس ، شبيهة عرقته من اثر الفلسفة ، التي تعلّمتها رغم انه ؟ اتراني سأقف ، من الناس ، يومئذ ، نفس هذا الموقف الجامد ، الذي يقفه مني الاساتذة اليوم فاطرد السائلين ... لا ترى ، يا أبي ، ان دوام هذا الحال ، يؤدي الى زيادة انتشار الأخلاقيات بين الناس ... ؟

قال : هذا صحيح ، ولكن "شيخنا الموزون" يقول ، كما أخبرتك ، ان قاري الفلسفة لا يكفيه ، منها ، القليل . أفترى ان "بالمكان ان توسيع المدارس في درس الفلسفة ، حق يتحقق كل الطلاب ، وكل الناس ، فلاسفة" . قلتُ : كلاً . ولكن هذا التوسيع ، الذي هو غير ممكن ، وغير ضروري ، بالنسبة لكافة الطلاب ، أصبح ضرورياً بالنسبة لعلماء الدين ، بل واجباً اصيلاً عليهم ، ليسطروا القيام بما هو مطلوب منهم من الارشاد الى الحق ، والدعوة الى الله .

قال أبي ، وهو يهز رأسه بحرارة : هذا حق ، ولكن ما العمل ... ؟

قلتُ : وهل يَرْ ، شيخك الموزون بموعده ؟

قال : انه لم يختلف وعده ، ولكنه مال ، في شيخوخته ، الى الزهد . ثم رحل ، عن البيتحاب ، الى وطنه سرقند . وهو اليوم في قرية قرية منها ، تسمى (خرتتك) ، منقطع الى الله ، في مسجد مبني عند ضريح الامام البخاري رضي الله عنه .

قال أبي هذا ، وهو لا يعلم انه دلني على طريق القرار من الجامعة ، التي كان يحاول ردّي اليها ، وحكم على نفسه ، وهو على عتبة الشيخوخة ، بأن لا يرى وجهي الى الابد ... ووصلتُ الى سرقند بعد سفر طويل ، مشياً على الاقدام ، وسألت عن (خرتتك) ، فدلوفي عليها ، وهي غير

بعيدة عن المدينة ، فذهبت اليها مائياً ، وبلغتها فبيل غروب الشمس ، فلقيتني صيانت القرية ، بالدهشة التي يلاقى بها الغريب عند اهل القرى ، واتصل خبرني بالرجال ، فجاء ثلاثة منهم ، يرحبون بي ، ويدعونني الى دار كبير القرية ، الذي اكرم وفادتي ، وسألني عن حاجي ؟ ولما عرفها تبسم وقال : هيهات ان يسعدك الحظ بلقاء مولانا الشيخ الموزون ، فانه منقطع ، منذ اكثر من خمس سنوات ، الى العبادة ، في البستانين التي حول مسجد الامام ، ولا يأوى الى المسجد الا اذا اسدل الليل ستراه ، قيتام ، اذا كان الصيف ، في الروضة ، عند ضريح الامام ، واذا كان الشتاء ، يأوى الى غرفة صغيرة تطل على الضريح ، لا يدخلها عليه احد ابداً . وقد حاول سكثير من الناس ، ان يتصلوا به ، فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، بل نحن اهل هذه القرية لا نتصل به ، وانما نوصل اليه طعامه ، مع خادم المسجد ، فيضعه له في سياج البستان ، من غير ان يراه .

قلت : لعل الله يقدر لي ، من نعمة الوصول اليه ، ما لم يقدره لغيري . وكل ما ارجوه ان تُعْيِّنوني على ذلك ، وتعهدوا الى بحمل طعامه . فقال الرجل : هذا اهون شيء ، تطلبـه .

وفي الصباح الباكر حللت جونة الشيخ ، وامر كبير القرية ، رجلاً ، ان يدلني على البستان الذي يشرح الشيخ فيه . فسار بي حتى ادصلني الى المسجد ، ثم دلني على البستان ، وعلى المكان الذي جرت عادته ان يضع فيه الطعام ، فدفوت من سياج البستان ، ووضعت الجونة في مكانها ، ثم علقت بحروفها ورقـة صغيرة كتبت فيها هذه الكلمات :

سـا ...؟ وـمـن ...؟ وـمـم ...؟
وـكـيـف ...؟ وـأـيـن ...؟ وـمـتـى ...؟

ثم قلت راجعاً ، حتى وارثني شجرة متشابكة الاغصان ، كمنـتـ فيها ، لأرى الشيخ ، اذا حضر ، من حيث لا يراني . وبعد ساعة ، ظهر ، من خلال الاغصانشيخ مهيب الطلعة ، طويـلـ القامة ، مـهـدرـدـ الـظـهـرـ ، حـنـطـيـ المـاـونـ ، عـرـبـيـ الـوـجـهـ ، اـقـنـىـ الـأـنـفـ ، خـفـيـفـ الـعـارـضـينـ ، عـارـيـ

الرأس ، ودنا من السياج ، واقترب نحو الجوفة ، فلما تناولها ، ووسمت عيناه على الورقة ، وقرأ ما فيها ، اخذ يتلفت بيته ويسرة ، ثم ترتجع وسقط مغشياً عليه . فعدوت شهوة ، وفعلت كل ما امكن حتى انعشته . فلما افاق من غشيته ، فتح عينيه ، ونظر الى نظرة طيبة ، ثم تتم فائلاً : لا تحف . ساعده في على التهوض . فساعدته حتى دخلت به البستان ، فجلس على حرف السابقة ، فنزل وجهه ، واسلم الى السكون ، وهو مغمض العينين . وبعد صمت طويل ، سمعته يقول ، بصوت فيه بُحَّة الباكى : لا حول ولا قوة الا بالله ، يكررها ثلاثة ... ثم التفت الى وقال : يا بُنِي . لقد ازعجتني ، وافتديت علی لذة استقراري في ذلي وانكساري الى الله ، وذكرني يشرّ ما كانت تعانيه النفس من اغضان الحيرة والشك ... ساحنك الله ... ساحنك الله . من انت يا ولدي ؟ قلت : الا سيران بن عبد الله الضعيف ، تلبذك البنجاشي القديم .

قال : اهلا بك . كيف حال ابيك ؟ قلت : بخير .

قال : اراك وقعت في مثل ما وقع فيه ابوك من قبل ؟

قلت : نعم ، وهو الذي دلني عليك وارشدني اليك يا مولاي .

فنظر الى الشيخ نظرة طيبة ، ثم حول وجهه الى الماء واطال النظر فيه ، واغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : وارجحاته لكم يا شباب هذا الجيل ... اتم المخضرمون بين مدرسة الابيان من طريق النقل ، ومدرسة الادراك من طريق العقل . تأوكون قشوراً من الدين ، وقشوراً من الفلسفة ، فيقوم في عقولكم ، ان الابيات والفلسفة لا يجتمعان ، وان العقل والدين لا يأتلفان ، وان الفلسفة سبيل الاخداد ... وما هي كذلك يا ولدي ، بل هي سهل للاحسان بالله ، من طريق العقل ، الذي بُنِيَ عليه الابيات كلثه . ولكن الفلسفة ، يا بُنِي ، بغير على خلاف البحور ، يهد راكب الخطط والزيغ في سواحله وشطائه ، والأمان والإيمان في لجه واعاقه . وهذا ما قلته لأبيك من قبل ...

فاهويت على يد الشيخ اقتلها ، واسكتو اليه ما اعاني من عذاب

التردد ، والجيرة ، والشك . فاطرق طريراً ، وهو ينكث التراب يعود في يده ، ثم قال : يا سيران ، ليس الامر على ما تظن من السهولة واليُشر ، بل يحتاج الى جهد عظيم ، ووقت طويل . وقد جئني ، يا ولدي ، وأنا على حافة قبرى ... أين منزلك في القرية ؟ قلت : لا منزل لي فيها ، وقد وصلت اليها أمس ، وبيت في دار شيخها ، الذي اكرم وفادي .

قال : ليس في هذه القرية بيوت للكراء ، ولا يصح ان تبقى ضيفاً على الرجل ... فـ الآن وادهب الى القرية ، واشتري لنفسك فراشاً ، وغطاء ، ودقراً كبيراً ، وعد لتنام في المسجد ... وستحصل الليل للدرس ، فهو اهداً واصفى واوسع وقتاً ، اما النهار فلا اترك فيه عزاتي ، فإنه لم يبق لي ، من لذات الحياة ، الا هذا الانقطاع لذكر الله ، بين الرياض ، من الفجر الى مغيب الشمس . ولا يقصد عليَّ بهجي الا البرد اذا فرس ، فبعضي بين المدران ... قال اللقاء يا سيران ...

البَاخِثُونَ عَزَّ اللَّهُ

يقول حيران بن الأضعف :

جنة، المسجد، اهل فراشي، قبيل المغرب، فوجدهه خالياً، الا من شيخ عجوز يُشعل القناديل، وهو الذي رافقني الى المسجد في الصباح؛ فلما وقع بصره على "أقبل نحوي" وسلم عليّ، ثم سألني عن حالي، قال بخبرته بأنّي عزّمت على المبيت في المسجد، لأنقطع الى العبادة، يحوار الإمام البخاري رضي الله عنه، فابتىج الرجل العجوز وقال: أهلا بك، ولكنّ نرجو أن لا تحرمنا من صحبتك، كما يفعل مولاها الشيخ الموزون، الذي جاءنا، مثلك، من خمس سنوات، مجاوراً، ثم انقطع الى العبادة آثينا انقطاع، فلا نراه ابداً، لأنّه يخرج الى الفياض مع الفجر، قبل أن اجي، أنا من القرية، ولا يأوي الى المسجد، الا بعد غروب الشمس، ولا يرضى أن يراه احد من الناس.

قلتْ : انت خادم المسجد؟ قال : نعم ، انتي اخدم في هذا المسجد
منذ خمسين عاماً . قلتْ : ماي اراه خلوا من المصلين؟ قال : من اين
يأتي المصلتون...؟ ان المسجد بعيد عن القرية ، فلا يصللي فيه الا عابر
سييل ، او زائر لضريح الامام . وبعد ان صلّينا المغرب والعشاء ، ارشدني
الرجل المحجوز الى موضع الماء ، وطلب اليّ ان اطفيه القناديل ، اذا لم
اكن محتاجاً اليها ، وان ارتتعج الباب بعد خروجه ، ثم وداعني وذهب الى
القرية . ولما سرّج ارجنتُ باب المسجد . فما سمع الشیخ الموزون صوت
الرثاء ، حتى فتح باب غرفته الصغيرة وناداني ، فاتّته ، فقال ادخل ،
فدخلت وقبلت يده ، فرحب بي ، واستفسر عن حالي ، وحدّثني عن
اى ساعه كاملة . ثم قال : هل احضرت الدفاتر؟ قلتْ نعم . قال على

ان املي ، وعليك ان تكتب كلامك وكلامي ، لـ^{لترابعه} في النهار ، فقد اختارت لك طريقة الحوار ، فهي ايسر لفهم والتفهم والمناقشة ، والآن هات استلتك .

حيران - استلتي هي التي كتبتها لك ، يا مولاي ، في الورقة الصغيرة ،
ولا اجسر على تكرارها ...

الشيخ - استلتك هذه ، هي التي شغلت عقول الفلسفة ، بل عقول الناس كافة ، منذ بدأ الانسان يفكر ، والفلسفة هي التي تحاول ان تجد لها جوابا ... اما انها وجدت الجواب الصحيح ، على كل سؤال ، أو لم تجده ، فهذا شيء سوف تعرفه اذا بلفت دائرة . فالفلسفة تريد ان تعرف ، يا حيران ، حقيقة كل شيء وكتبه ، واصله ، وغایته ؟ ولا تكتفي بالظواهر ، بل تريد التفوه الى المواطن ، ولا تكتفي بهذا العالم المحسوس ، بل تريد ان تعرف ما وراءه ، وما كان قبله ، وتريد ان تعرف من الذي خلقه ، ومن اي شيء خلقه ، ومق خلقه ، وتريد ان تعرف ما هو هذا الخالق ، وما كُنته ذاته ، وما حقيقة صفاته ، وما هو هذا الانسان ، وما حقيقته ، وما هو عقله ، وكيف يتم ادراكه ، وما مبلغ هذا الادراك من الصحة ، وما هو المثير ، وما هو المجال ، ولم كان المثير خيرا ، والجميل جيلا ؟ الى غير ذلك من الاستلة التي لا تنتهي ، سيرا وراء معرفة المبادئ الاولى للكل شيء . ولذلك قالوا في تعريف الفلسفة : (انها النظر في حقيقة الاشياء) ، وقالوا : (انها علم المبادئ الاولى) ، وقالوا غير ذلك . اما انا ، فاني اعترفها لك ، بانها (محاولة العقل ادراك كُنته جميع المبادئ الاولى) ، وسوف ترى ان كنت على حق في هذا التعريف .

حieran - ان العلم يبحث ايضا ، يا مولاي ، عن حقائق الاشياء ، فهل العلم غير الفلسفة ؟

الشيخ - الفرق بين العلم والفلسفة ، ان العلم يكتفي بدرس ظواهر هذا الكون ، ونُظمُمه ، ونؤمن به . اما الفلسفة فتبحث في اصل الكون ، وعلته ، وحقيقة ، فالعالم الطبيعي يكتفي بدرس المظاهر الطبيعية للمادة ،

من غير ان يفكر في اصلها وعلة وجودها . والرياضي يبحث في الهندسة والحساب ، من غير ان يتكلف عناء التفكير في معنى المكان والزمان . وكلامها يبحثان ، بوساطة هذا العقل ، الذي يتمتعان به ، من غير ان يفكروا في كثرة هذا العقل ، وقدرته على ادراك الحقيقة . اما الفيلسوف فانه يريد ان يفهم ، في آن واحد ، كنه المادة ، واصلها ، وعلة وجودها ، ومعنى المكان والزمان ، وكثرة العقل ، وحقيقةه ، وميلفه من السلامة والقدرة على ادراك الحقيقة ؛ فيتناول ، بدرسه وبمحضه ، المقول والعقل ، في آن واحد ...

ومن البحث في الكون وعلته تكوين (فلسفة الوجود) . ومن البحث في العقل وكثيره وقدرته تكوين (فلسفة المعرفة) . ومن البحث في كنه الخير والجمال والقبح تكوين (فلسفة القيم) . والذي يعني ان ابسطه للك ، من هذه المباحث ، هو (مبحث الوجود) و (مبحث المعرفة) ، دون سواها .

حيران — لم افهم ، يا مولاي ، وجه هذه العناية بمبحث دون بمبحث ، الشيخ — وجسه العناية ظاهر ، لو تأملت . لم يبحث الوجود يتناول طبيعة الموجود ، وحقيقةه ، واصله ، وعلته ، أي الخالق والخالق ؛ ومبحت المعرفة يتناول الآراء التي قالها الفلسفة في كيفية حصول المعرفة ، ووسائلها ، وميلفها من الصحة . واستثنى ، التي تشغله بالك ، وتألقك بين بران الحيرة والشك ، تكاد تحصر في المبحثين الاولين ، وليس لها كبير علاقة بمبحث القيم ، الذي يتكلم في حقيقة الجمال والقبح والخير والشر وما الى ذلك .

حيران — حقاً ان الذي يشغل بي يكاد يكون منحصراً في (مبحث الوجود) دون سواه ، فما هو الداعي للتبسيط في مبحث المعرفة ؟

الشيخ — ان المسألة الميتافيزيقية ، التي اعلم انها هي وحدتها التي تشغله بالك ، لا يمكن درسها الا على ضوء (مبحث المعرفة) ، لأن درسنا ، للأراء العديدة ، التي قيلت في تفسير المسألة الميتافيزيقية ، لا يستمر ولا

يستقيم ، الا بعد درس طرق المعرفة ووسائلها ، والوقوف على صدق هذه الوسائل وقدرتها على ادراك اليقين من الحق الذي نبحث عنه .

حيران - اذا ، يكون مبحث المعرفة خادعاً لمبحث الوجود ، ووسيلة لادراك الحق ، في المسألة الميتافيزيقية .
الشيخ - هذا هو الواقع .

حيران - اذا ، يكون جوهر الفلسفة هو المسألة الميتافيزيقية .
الشيخ - هذا هو الواقع . فالفلسفة ، كانت وما زالت ، في جوهرها ، عبارة عن البحث عن الله .

ثم اخرج الشيخ ، من تحت وسادته ، كتاباً ضخماً ، وقال هيئاً نبدأ .
حيران - ما هذا الكتاب يا مولاي ؟

الشيخ - هذا الكتاب يحدّتنا عن مفكرين يبحثون عن الله .
حيران - ما اسمه .

الشيخ - فللسنة اليونان .
حيران - كيف قال مولاي الشيخ انه كتاب لمفكرين يبحثون عن الله .
الشيخ - نعم هو لمفكرين يبحثون عن الآلة الحق . لم أقل لك ان جوهر الفلسفة هو البحث عن الله .

حيران - اني قرأت شيئاً من اقوال هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الاولين ، فوجدت انهم كافرون .

الشيخ - نعم انهم كافرون بالآلة اليونان . واما الآلة الحق فهم يبحثون عنه . فنهم من يهتدي اليه ، ومنهم من يعجز عقله عن تصوره ، ومنهم من يقوده العجز الى الفضال . وسوف ترى ان اراءهم ، على ما فيها من ذكاء وخلاص في البحث ، تتطوى على نظرات الى الكون ساذجة حاترة ، فيها ومضات من نور الحق ، في ظلمة حالكة من الاهاب والغموض والتناقض والشك" والسفطة .

فطاليس ، يبدأ بالمقدمة الكاذبة ، التي لازمت عقول كل الفلاسفة ، بل كل البشر ، فيرى ان العالم لا يمكن ان يكون خلوقاً من (العدم المحس) .

وإن كل بداية ليست في الحقيقة سوى تغير ، فيجب اذن ، افتراض مادة أولى أزلية نسأت عنها كل الموجودات . وهذه المادة الأزلية ، هي الماء . والذي حمله على اختبار الماء ، انه بحث ، في الموجودات ، عن مادة لها قابلية التغير والتشكل ، فرأى الماء يكوبن مائماً ، فيصبح قارة ثلجاً كثيناً ، وقارة بخاراً لطيفاً ، ثم يرجع ماء . ورأى ان الرطوبة شرط في الحياة ، فاعتقد ان الماء ، الذي له هذه الخواص ، هو اصل الموجودات كلها ...

ولكن (انكسيمنس) يرى ان الهواء اكثر من الماء مرونة وقابلية للتحول ؛ لأنـه يبره فيصير ماء ، ويـسخـن فيـصـيـر بـخـارـاً ، ثم يـزـادـ تـحـلـلاً فيـرـجـعـ هـوـاءـ ؛ فـزـعـ انه لو زـادـ تـحـلـلاـ لـصـارـ نـارـاً ، وـكـوـنـ شـوـمـاًـ وـأـفـارـاًـ ، وـانـ تـكـثـفـ صـارـ سـحـابـاًـ ، ثم مـاءـ ، وـانـ زـادـ تـكـثـفـ ، اـنـقـلـبـ اـرـبـةـ وـاحـجـارـاًـ ، وـرـأـيـ انه لـازـمـ للـحـيـاةـ فـاعـتـبـرـهـ اـصـلـ الـكـائـنـاتـ ...

اما (انكسيمندر) ، الذي قنطوي افكاره على تفكير عميق ، رغم ما يبدو في ظاهرها من سخافة ، فقد قال : ان القول بالماء والهواء ، لا يتفق مع صفات الاشياء كلها : فللماء صفات ، يمتاز بها ، وللهواء صفات ، وللموجودات الاخرى صفات ، فلا يعقل ان تكون كل الكائنات ، على تباين صفاتها ، ناشئة عن اصل مختلف عنها بصفات خاصة به ... ومن هنا اضطره عقله السليم الى القول بان اصل الكائنات (مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود) .

حيـرانـ - حقـماـ انـ بـحـثـ انـكـسيـمنـدـرـ ، عنـ شـيـءـ يـصـلـحـ انـ يـكـوـنـ اـصـلـ هـذـهـ الـكـائـنـاتـ الـخـتـلـفـةـ ، وـيـخـالـفـهاـ جـيـعـاـ بـالـشـكـلـ وـالـخـدـ وـالـرـسـمـ وـالـصـورـةـ ؛ يـرـدـ عـلـىـ عـقـقـ فـيـ التـفـكـيرـ ، وـلـكـنـ ماـ مـعـنـيـهـ (مـادـةـ) ، وـانـ يـقـولـ انهـ لـاـ شـكـلـ لهاـ وـلـاـ نـهـاـيـةـ وـلـاـ حـدـودـ ؟

الـشـيـخـ - منـ هـنـاـ تـدـرـكـ صـدـقـ ماـ قـلـتـ لـكـ . فـهـؤـلـاءـ النـلـاسـنـةـ الـأـوـلـونـ ، نـورـونـ فيـ كـفـرـهـ بـآلهـةـ الـيـونـانـ ، وـمـعـقـوـنـ فيـ بـحـثـهـمـ العـقـلـ الـأـطـلـيـقـ ، عنـ مـسـدـرـ لـلـعـالـمـ ، عـنـدـ غـيـرـ هـؤـلـاءـ الـأـلـهـةـ ، الـذـيـنـ هـمـ كـلـ مـنـاتـ الـبـشـرـ ،

وأخلقهم ، ورذألهم ؛ لأن عقولهم لم تصدق ، ان يكون هذا العالم ، من خلق اولئك الآلة المبطانين ، السκέπτικον ، الكذابين ، الاحتالين ، الزفة ؟ فاختذوا يبحثون عن الآلة الحق ، الذي ليس (كمثله شيء) ، من حيث لا يشعرون

ثم جاء (فيشاغور) ، الذي لم يعجبه ذلك الاجسام ، الذي يسير في تفسير نشأة العالم وجهاً (طبيعية) ، فاتجه ، في التفسير ، وجهة (رياضية) ، فقال مع اتباعه : ان الماء والهواء وكل مادة ، منها كانت ، لا تصلح ان تكون اصلاً لهذا العالم المركب من اشياء مادية ، مادية وغير مادية ، فلا بد لنا ان نبحث عن شيء له صفة عامة ، تشمل كل شيء ، من الماديات ، وغيرها . وما من صفة تشمل العالم ، بما فيه من مادة وغير مادة ، الا صفة العدد (le nombre) ، فنحن نستطيع ان نتصور هذه الاشياء ، بلا الوان ، ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا احجام . ولكننا لا نستطيع ان نتصور شيئاً غير قابل للعد . فالعدد ، اذا ، هو الصفة الوحيدة المشتركة التي يتصرف بها كل ما في الكون . وهو ، وحده ، الذي يصلح ان يكون اصلاً له . ولما كان ما في الكون عبارة عن عدد متكرر ، والاعداد عبارة عن تكرار (الواحد) ، (فالواحد) اذن هو اصل الكون وعلمه وحقيقة .

وهذه الاراء التجريدية ، على اغراقها في الخيال ، قدل كلها على محاولة الناس ، ان يصلوا الى فكرة الآلة الحق البعد عن صفات المادة ، من حيث لا يشعرون او من حيث لا يشعرون .

حيوان - وهل كان عند هؤلاء اليونانيين القدماء فكرة وجود الله غير الله ؟

الشيخ - ان فكرة وجود الآلة الحق لم تخُل منها الارض منذ صار الانسان انساناً ، يمتاز بهذا القلب المفكّر .

وهذا (اكزوفنس) ، احد فلاسفة اليونان الاولى ، الذي سما على اهل عصره ، فنبذ اساطير اليونان القائلة بفكرة التجسيد البشري للآلة

(Anthropomorphisme) ، وسخر من آلهتهم التي تأكل وتشرب وتلد وغوت ، يقول : (ان الناس هم الذين اخترعوا الآلة وتصوروها بيشل هيئاتهم ، ولو كانت الثيران أو الاسود أو الجياد تعرف التصوير لرسمت لها الآلة على اشكالها ثوراً أو اسدًا أو جواداً . كلّا ثم كلّا . انه لا يوجد غير الله واحد ، هو ارفع الموجودات ، ليس مركباً على هيئتنا ، ولا ينفك مثل تفكيرنا بل كله بصر ، وكله سمع ، وكله فكر) . واما ادراك كنه هذا الآلة الواحد المعلم ، فان اكتزنونفس يراه مستحيلاً على عقولنا ، ويقول في ذلك كلمته ، التي قفز بها ، في تاريخ الميتافيزيقية ، الفي سنة ، الى الامام : (ما من انسان يستطيع ان يعرف الله معرفة دقيقة ، حتى لو شاءت المصادة لانسان ان يقول ، في وصف الله ، الحق كل الحق ، فهو نفسه لن يعرف انه يقول الحق) .

حيران — افهم من قوله ، يا مولاي ، ان اكتزنوفلس قفز بكلمه هذه ، الفي سنة ، الى الامام ، ان الفلسفة انتهت الى الاعان . بوجود الله ، فاذما كان الامر كذلك ، فارجو من مولاي الشيخ ، ان يريحني ، ويريح نفسه من سخافات الاولين ، التي قرأت شيئاً منها في (پيشاور) ، وينقلني الى الفلسفة الحديثة .

الشيخ — لقد أوصيتك من قبل بالصبر ، والآن اذكر لك النصيحة . فانه لا ينفعك ، ان انتقل بك ، بخطوة واحدة ، الى التبيعة التي انتهت اليها الفلسفة التي تشغل بالك ، بدون ان تكون قد عرفت ما قاله الاوائل والاوسط . فقد لا يعجبك رأي الاواخر ، ويائيك من يوسوس لك ، بان الحقيقة عند الاوائل ، فيرجع اليك شكلك ، وتمود اليك حيرتك . ولن يتم لك يا حيران فهم الاواخر ، الا اذا سقى الملم بن قبلهم . فعليك بالصبر .

حيران — لقد ادركت حركة مولاي الشيخ في الرابط بين سلاسل التفكير ، فارجو ان لا يوآخذني .

الشيخ — ثم يأتي (بارمنيدس) الذي يرى انت الماء والهواء والمعد ،

أو أي شيء آخر ، لا تصلح ان تكون اصلا للأشياء . لأن هذه الاشياء كلها (متميزة) . ونحن لا نعرف عنها الا صفاتها الظاهرة . وكل هذه الصفات يعتريها التغيير والفناء ، الا صفة واحدة ، وهي صفة (الوجود) (l'être) فهذا الوجود الدائم ، هو الذي يصبح ان تتخذه اصلا للكائنات . حيران - ما هو هذا (الوجود) ، وماذا يريد به ؟

الشيخ — ان بارمنيدس يصفه لنا با انه وجود (ازلي) ، (لا يتغير) ، و (لا يغنى) ، وليس له ماض ولا مستقبل ، بدل هو يستوعب الازل والابد . وهو (لا يتحرك) ، و (لا يتغير) ، لأن الحركة صورة للتحول ، وهو (كامل) ، وليس وراءه وجود آخر .

حيوان - كيف تكون الوجود مبراً من الحركة والتغير ، ونحن نرى هذه الاشياء متخرّلة ومتصرّفة ؟

الشيخ - ان بارئناه لا يرى ان هذه الاشياء ، التي نراها ونحس بها ، هي من الوجود ، بل ، نبهرها (مظاهر *apparences*) وهى ، لأنها فانية ، والوجود خالد : لأنها متغيرة ، والتغير يقتضي اجتماع الوجود واللاوجود ، وهذا مستحب .

حيران - افني لم افهم ، هل يريد بارمنيدس القول بوحدة الوجود ؟
الشيخ - هكذا ، يا سيد ، يفعل التجريد في المقل . فات هؤلاء
الفلسفه ، لا يريدون في القبيه انكار الموجودات ، واما هم يبحثون عن
اصل كامل ، ثابت ، غير متغير ، مجرد عن صفات الموجودات ، يصلح ان
يكونت موجودا لها ؛ وهذا اعمري هو البحث عن الله ، من حيث لا
يريدون ولا يشعرون ...

وجاء بعد بارمنيدس ، تلميذه (ميليسوس) . فزاد على رأي استاذه ان هذا الوجود غير متناه ، وان (حياة عاقلة) ؛ ولو استمعت الى يبرهانه على ان الوجود ازلي ابدي خالق متناه ، ولا متحرك ، وله حياة عاقلة ، لقللت مني ، ان هذه المقاولة نادت ببحث عن الله الواحد الأحد ، من حيث تدرني ، أو لا تدرني .

انه يقول : كل حادث لا بد له من مبدأ ، وليس الوجود حادثا ، لأنه لو كان حادثا ، لكان من اللاوجود . فالوجود ، إذا ، ليس له مبدأ وما ليس له مبدأ ليس له نهاية . وبما انه غير متنه فإنه لا يتتحرك ، لأنه لا يوجد مكان بعده يتتحرك اليه . وهو غير متغير ، لأنه لو تغير لأصبح اكثر من واحد . فهو واحد ، ازلي ، ابدى ، حي ، عاقل ، لا يتغير ... فتأمل يا حيران .

وجاء (هرقليلط) الذي يتردد في الرأي ، بين النزعة التجريدية والنزعه الطبيعية ، فقال ان الاشياء ، كما زرها ، في تغير دائم ، وقلبت مترددة ، لا تستقر على حالة واحدة ، لحظة واحدة . وان هذا الاستقرار النسبي ، الذي نشاهده ، هو وهم ، وعجزه هنا عن رؤية التغير . واستنتج من ذلك ، ان الشيء الواحد ، يكون موجوداً وغير موجود ، في آن واحد . وهذا الاتحاد الآني بين الوجود واللاوجود هو (الصيروحة) التي هي حقيقة الوجود .

ولكن هرقليلط ، لا يثبت على هذا الحال ، في تفسير الكون . بل يعود الى النزعة الطبيعية التقديمة ، فيقول : ان اصل الكون (الفار) ، تحولت الى اهواء ، ثم تحول الهواء الى اماء ، والماء الى يابس ، ثم يعود اليابس ، ماء فهو فنارا . وكأنه رأى حياة الحيوان ترافقتها الحرارة فزعم ان الروح نفسها عبارة عن نار .

وجاء (اميدوقليس) ، فيلسوف العناصر الاربعة ، فرارا ، اولا ، ان يوافق بين رأي بارمنيدس ، وهرقليلط ، فقال : ان الوجود مكون من ذرات . وان ما قاله بارمنيدس ، في وصف الوجود بأنه لا يزيد ولا ينقص ، ينطبق على الذرات ، وان ما قاله هرقليلط ، عن (الصيروحة) المستمرة ، يصدق على الاجسام ، من حيث الصور المتغيرة فيها . ثم اراد ان يتخذ رأياً وسطاً بين القائلين بتكون العالم من مادة واحدة تحول ، كالماء والهواء والنار ، وبين القائلين بان مادة الوجود لا تحول ، فوضع نظرية (العناصر الاربعة) ، التي ظلت تسيطر حتى القرن الثامن عشر ؛ فزعم ان الوجود مجموعة من عناصر اربعة هي : (التراب والماء والنار

والهواء) ، وجميع الاشياء مزوج من هذه الاربعة ، وما اختلفوا الا اختلاف نسبة هذه العناصر في كل واحد منها ...

والى هنا يبدو اميدوغلس منسجما مع العلم في عصره ، بل سابقا لمصره في وضع فكرة المبدأ الذري . ولكن حين يتكلم في مر القوة التي تحرك الذرات ، يبدأ بالتفكير السليم ، وينتهي الى الخيال العقيم ... فيما زراه يقول : ان مادة الكون موات لا حياة فيها ، ولا حركة لها من ذاتها ، ولا بد من التسليم بان حركتها منبعثة من قوة خارجية عنها ، زراه يخنج الى الخيال فيقول : ان حركة المادة عبارة عن اتصال وأنفصال ، وما ضدان لا ينشأان من قوة واحدة ، بل لا بد لها من قوتين ، احداهما تدفع والاخرى تجذب . وهاتان القوتين هما الحب والتغير (*l'amour et la discorde*) . وان العناصر الاربعة كانت متصلة بقوة الحب ، ففرقتهما قوة التغير الى اربعة ، ثم استجتمع الحب قوته ، واخذ في التأليف بين العناصر الاربعة ، ف تكونت الاشياء التي زراها ...

حيران - ولكن من اين جاءت قوة الحب والتغير ؟

الشيخ - اتريد ان تناقش رأياً مبنياً على الخيال ...؟ ان الرجل لم يكتف بهذا ، بل زعم ان الاله والنفوس تتكونت ايضاً من العناصر الاربعة ، ولكن يرجع فيها عنصر الهواء والنار ؟ فالنار هي الاله (زفس) ، والهواء هو الاله (هيرا) ، والارض هي الاله (ارهوكوس) ، ولله هو الاله الرابع المسمى (نيتيس) الذي يики فتساقط دموعه ندى على الارض ... ثم لج في هذا المذهب حق جعلنا كلنا الاله ، حيث قال : ان النفوس البشرية ليست سوى آلة خاطئة ، تضي عليها ان تقيم بعيدة عن مقر السعادة ، متلبسة باجسام الصور الفانية ... وان الاجسام الحية قلبت في الارض رؤوساً ، دون رقاب ، واذرعا بلا اكتاف ، وعيونا بلا جباء ثم تقارب ، بقوة الحب ، ف تكون انساناً ...

حيران - اكاد اعود فارجو ، من مولاي الشيخ ، ان يطوي عني ذكر هذه المخارات .

الشيخ - اني ما ذكرت لك هذه الاقوال ، الا لأوريك كيف تدرجت العقول في ادراك الكون ، وفي البحث عن قوة نسبيه ومحركه ... فهذا البحث ظل ، طيلة عصور الفلسفة ، يؤلف الجانب الاعظم من المسألة الميتافيزيقية . فاصبر فاني اسير بلئك الى غاية .

ثم جاء (ديوقريطس) الذي ينسب اليه المذهب الذري ، لأن فصله حين قال : ان الكون يتتألف من عدد لا يتناهى من الذرات (atoms) ، وهي متشابهة متجلسة ، ازلية ، ابدية ، متحركة بذاتها ، في فراغ ، ومن حركتها واختلاطها تكونت الاشياء ، وتكون العالم باسره . اما اختلاف صفات الاشياء فناتج عن اختلاف تلاقى هذه الذرات وتآثرها ، واوضاعها في الجسم ، واختلاف الناظر اليها ، وحيث على انها ازلية ابدية ، هي ان الوجود لا ينشأ من اللاوجود ، كما ان الوجود لا يصير الى اللاوجود ، ولو لا وجودها في فراغ لامشتقت عليها الحركة ؟ ومن هنا انتهى الى القول : ان في الكون حقائق اولية ثلاثة وهي الذرات والفراغ والحركة (les atomes, le vide, le mouvement) .

حيران - ليس في تكوين العالم المادي من الذرات شيء بعيد عن العقل ، ولكن من الذي خلق هذه الذرات ومن الذي حرّكها ؟

الشيخ - الجواب على استئنافك لم يكتب لديوقريطس ، بل كتب لسواء ، اما هو فقد تجرّد عن سلامه التفكير حين زعم ان حركة الذرات هي نتيجة (ضرورة عياء) تدفعها الى الحركة والتلاقي ، والتشابك والتلازج ، وتكون هذا الكون ، بما فيه من جماد ونبات وحيوان ... حتى الارواح والالله ، في نظره ، مركبة من ذرات تسير بقوة هذه الضرورة العياء . وجاء (اناكساغورزون) ، بعد ديموقريطس ، ففند آراءه في الضرورة العياء ، وسفهها ، فقال ، كأنه اعظم المؤمنين ، (من المستحيل على قوة عياء ، ان تبدع هذا المجال ، وهذا النظام الذين يتجلبون في هذا العالم ، لأن القوة الممسأ لا تُنتج الا الفرضي ؟ فالذي يحرك المادة هو عقل ، رشيد ، بصير حكيم) .

حيران - هذا عظيم ، فهل يمكن ان يكون انكساغورس قد باقوله
هذه ان ثبتت وجود الله ؟

الشيخ - لا ادري يا حيران ، فان هدى الله ، بلسان الرَّسُول ، اقدم من
اليونان وفلسفتهم ؛ بل اني ارجع ان كثيراً من فلسفة الاقدمين ، في مصر
والصين والهند ، هي بقايا نبوّات نسيها التاريخ ، فمحسّر اصحابها في
عداد الفلسفة ، ولم يتم من الرسل او اتباع الرسل .

ولكن الظاهر من اقوال انكساغورس انه كان يحوم حول هذا الاعياد ،
حين ادرك بعقله السليم ان هذا النظام الحكم ، لا يمكن ان يصدر الا عن
عقل حكيم ؛ ولذلك عُدَّ انكساغورس اول من فتح باب الفلسفة الروحية ،
وأقى برأي يحوم حول الحق ، وهذا ما جعل ارسسطو يقول عنه انه
(الوحيد الذي احتفظ برشهه امام هذيان اسلافه) .

حieran - الحمد لله ، فقد وصلنا الى مطلع الفلسفة التي تتسمى عن
المثيارات .

الشيخ - لا ريب ان الفلسفة تسير ، نحو الحق ، ولكن بخطى بطيئة ،
يمرق لها احياناً رهط من الشراك ، كالسوفسطائيين ، الذين كانوا يقضون ،
يحدّ لهم العجيب ، على كل تقدير سليم .

حieran - اني اضع بكلمة سفطة التي يراد بها الجدل الخداع .

الشيخ - نعم ، من كلمة السوفسطائية جاءت السفطة . فالسوفسطائية
هي طريقة الجماعة ، الذين يربوا في تعلم الناس قلب الحقائق ، بالجدل
الكاذب . واسمهم هذا من كلمة (سوقيشت) ، وهي قتل ، في اليونانية ،
على المعلم ، من أي فرع من الصناعات والعلوم . ثم صارت تطلق على
هؤلاء المعلمين ؟ ومنها لحقتَ العرب كلمة (سفطة) . وليس لسوفسطائيين
مذهب فلوفي معلوم ، ولا اراء تربطها روح الفلسفة ، التي تبحث عن
الحق ، ولكنهم جماعة من المعلمين ظهرروا في بلاد اليونان ، في ظروف
اجتماعية ، كانت تطبع فيها على البلاد موجة من الشر والكفر بالله
الاساطير ، وموجة من الديقراطية فتحت الناس ابواب المناصب ، من

طريق التلاعب بالجماهير ؟ فهروا في تعلم الناس فنون البيان ، والخطابة ، والجدل ، وترويض الكلام . وكانوا يفخرون بأنهم يستطيعون أن يؤيدوا الرأي ونقضه ، وقادوا في غوايتم ، حتى كادت طريقة تؤدي إلى هدم أسس العقل والمعرفة ، وغزيف الأخلاق .

واشهرهم (بروتاغوراس) ، واضح المحور الذي تدور عليه سخافات السوفسطائيين ، بقوله المشهور (إن الإنسان مقياس كل شيء) ؟ فقد كان العلماء وال فلاسفة يرون أن الحقيقة تدرك بالعقل لا بالحس ؛ لأن الحواس خادعة ، فجاء بروتاغوراس بهذا ، ينكر المعرفة بالعقل ، ويذم أن الاحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة . ولما كان الناس يختلفون باحساساتهم ، باختلاف أجسادهم ، وأعمارهم ، فقد أصبح ادراك الحقيقة مستحيلاً ، واصبح ما يدركه كل شخص صحيحاً ، بالنسبة إليه ، ولا يوجد شيء يمكن أن يسمى خطأ ، لأن كل رأي هو صحيح بالنسبة للشخص المدرك ... وقد أطلق العرب على هذا المبدأ ، القائل بأن الإنسان مقياس كل شيء ، اسم (العنديّة) ، لأنه يؤدي لاعتقاد كل فرد بما عنده .

ثم جاء أحدهم ، (غورجياس) ، فدفع السوفسطائية إلى غايتها الأخيرة في السخافة والهذيان والتعطيل ، حين انكر ، دفعة واحدة ، وجود الأشياء . وقال باستحالة المعرفة ، والتعارف والتفاهم ، بين النامن . وانت ترى أن هذا الهذيان أضف واهون من أن يدخل في مباحث الفلسفة ، وإن كان له الفضل من حيث أنه خلق لنا سocrates ...

حيران - كيف خلق هذا الهذيان سocrates الحكم ؟

الشيخ - إن سocrates هو الذي أسس وبين فلسفة المعرفة ، التي لا تزال تسيطر على العقول السليمة ، منذ أكثر من ألفي سنة إلى اليوم الذي نحن فيه ، منها اختلف الجدل حولها ، يا حيران . وما كان لocrates في الفلسفة من غرض إلا أن يضع قواعد المعرفة على أساس العقل ، والألا أن يوّظف دعائم (الفضيلة) ، في صدور الناس ، على أساس من الحق الذي لا ريب فيه . فقد رأى هذا الفيلسوف القدّيس ، أن أخلاقي عصره قتّار

اما مجمل السوفسطائيين الذين انكروا المقل ، والحق ، واليقين ، وفضائل الاخلاق ، بما زعموا من رد اصول المعرفة كلها الى الاحسان ؟ فاراد ان يرد ، اصول المعرفة ، الى العقل ، الذي يتحقق للناس جديما على احكامه بلا خلاف ، ليصل بهذا الى وضع حد وتعريف للفضيلة .

يقول سocrates : لا يعقل ان تكون المعرفة مبنية على الحواس ، لأن الحواس تختلف باختلاف الافراد والظروف والاحوال ، فعليها ان فلتensus اصلا ثابتا للمعرفة ، لا يختلف فيه الناس ابدا . واذا نظرنا الى معارفنا ، رأينا انها تنطوي على ادراكات جزئية ، تأثينا من طريق الحواس ، وعلى ادراكات كليلة عامة ليس لها وجود في الخارج ليتمكن الاحساس بها وضرب على ذلك مثلاً معنى (التنوع) الذي تدركه عقولنا ، يجمع الصفات التي يشترك بها كل افراد النوع ، وطرح الصفات العارضة التي تظهر في بعض افراده ؛ فقال ان هذا الامر ، شيء لا يحسن ، ولا وجود له في الخارج ، هو ادراك كلي ، لا يرتاب عاقل في كونه من عمل العقل وحده وهذا الادراك الكلي العقلي ، هو الذي يجب ان تؤسس عليه المعرفة . فاذا كانت المدركات الحسية الجزئية تختلف باختلاف الافراد والظروف والاحوال والاواع ، فان العقل ، الذي هو عام ومشترك بين الناس ، لا يختلف ما دام سليما . ونحن ، بهذه الادراكات العقلية الكلية ، نستطيع ان نضع لكل شيء حد وتعريفا ، ولستطيع بهذا ، ان نضع مقاييس صحيحة ثابتة للحقائق ، ونعرف ما هي الفضيلة .

وجاء بعد سocrates ، تلميذه (افلاطون) الشير ، فأيد نظرية المعرفة التي وضعها استاذه ، وزادها توسيعا . ولكن لا ندرى لماذا وضع هذه المعرفة على اساس (الممثل) وأي شيء يقصد بالممثل ؟

انه يقول : ان المعاني الكلية ليست بما يمكن ادراكه بالحواس ، وإنما يكون ادراكتها بالعقل وحسده ؛ فابجال والقبح ، مثلا ، هما معنيان تدركهما في اشياء كثيرة مختلفة في مظاهرها واشكالها ؛ فما الذي عرّفنا ان هذه الاشياء تشارك في الجمال ، وهذه تشارك في القبح ؟ ليست

سواسنا هي المدركة هنا الاشتراك ، بل هي عقولنا ، التي تقابل وتقارن بين الاشياء المشتركة في المجال ، فتدرك ان فيها جمالاً . ولكن لكي تقدر عقولنا على هذه المقابلة والمقارنة ، لا بد ان تكون لديها فكراً ، اصيلة سابقة ، عن المجال والقبح . ولو قلنا ان هذه الفكرة من اختراع عقولنا ، لرجعنا القهري الى السوفسطائية ، التي تقيس الحقائق بقياس شخصي فرديٍّ حض . فلا بد لنا ، اذن ، ان نقول ان هذه المعانى الكلية لها وجود حقيقي وراء عقولنا ؛ وهذه هي التي اطلق عليها افلاطون اسم (*المُثُل les idées*) . وقال ان ثقوننا ، قبل حلولها في الاجسام ، كانت تعيش في عالم *المُثُل* ، فما حللت في الاجسام ، نسيت عالم المثل ، بعض التبيان ، ولكن اذا وقعت نظرها على معنى كليٍّ ، كالمجال والقبح ، قد ذكرت مثاله ، فادركت ، بالمقارنة ، ما في الاشياء من جمال او قبح . وهكذا الحال في كل المعانى الكلية كالفضيلة والعدل والخير وغير ذلك . فالعلم هو ذكر *المُثُل* ، والبهلوان يبيان لها . وما التجارب ، في الحياة الدنيا ، الا وسيلة لتنمية العقول وتذكيرها ، بما عرفته ، من قبل ، في عالم *المُثُل* ...

حيران - ولكن ما هذه *المُثُل* يا مولاي وما حقائقها ؟

- حق لك ان تعجب ، وقد عجب من قبلك ارسسطو ؛ فان افلاطون وصف هذه المثل بأوصاف عديدة يجعلها غير مفرومة ولا معقوله ، الا اذا كان يريد بها ما في علم الله تعالى من الامور ؛ وهذا ما ارجعه يا حيران ؛ فاته يقول عن المثل : أنها ليست مادية ؛ بل هي معان مجردة ، وان عناصر وجودها من نفسها لا من شيء خارج عنها ، وأنها اساس الاشياء ولا تعتمد على شيء ، بل غيرها يعتمد عليها ، وهي دائمة وثابتة وابدية وسائكة وكاملة ، ولا يحدّها زمان ولا مكان . افلا تفهم ، من هذا الوصف ، انه يكاد يريد ما في علم الله من الامور ؟

حيران - هل كان افلاطون يؤمن بوجود الله ؟

الشيخ - ان افلاطون من اول الفلاسفة القائلين بوجود الله ، وبأنه

الخالق للعالم والمدبر لأمره . ويقيم على ذلك برهان النظم ، فيقول ان العالم آية في الجمال والنظام ، ولا يمكن ابداً ان يكون هذا نتيجة علل اتفاقية ، بل هو صنع عاقل ، كامل ، توخي الخير ، ورتب كل شيء عن قصد وحكمة .

ولكن افلاطون حين يريد ان يتصور ويصف كيف خلق الله هذا العالم ، تعارض عقله العقدة التي تعارض عقولنا جميعاً ، فلا يستطيع ان يتصور الخلق من العدم ، فيقول ان الاشياء مؤلفة من مادة (matière) وصورة (forme) . وهذه الصورة هي التي تجعل المادة شيئاً معيناً . وهي من او المُثُل التي تعطي الشيء طابع شكلها . فالشيء ، قبل ان يأخذ صورة مثاله ، كان مادة ، لا صفة لها ولا شكل ، ثم اخذ ينطبع على مثاله ، فاكسب حقيقة الوجود بعد ان كان عدماً . وان الذي يعطي المادة طابع مثالها ، فيوجدها ، بعد ان كانت عدماً ، هو الله .

حيرات - اني لم افهم كيف كانت المادة قبل ان تأخذ طابع الصورة عدماً .

الشيخ - انك لا تفهم ، وانا ايضاً لا افهم ، وافلاطون نفسه ، بעהه السليم الكامل السامي ، لا يفهم كيف يكون الشيء مادة وعدماً في آن واحد . ولكن هذا العقل الجبار يُساق ، كغيره من العقول الجبار ، الى تقرير هذه المزامع بسبب العجز ، عن تصور الخلق من العدم المضى ، الذي يأكينا من (قياس التمثيل) الخادع ، المسيطر على عقولنا ، التي ما تعودت تصور خلق شيء من العدم : انهم يرون الاشياء ، ويررون انها متغيرة من صورة الى صورة ، فيحكون ان هذه الصور 'محَدة' ، ويجربُهم الجدل العقلي الى تصور مادة قديمة بلا صورة ، ويحارون في وصف ماهية هذه المادة ، التي لا صورة لها ، فيقولون انها بلا صفة ولا شكل ولا لون ولا حجم ولا وزن ولا طعم ولا رائحة ، لأن جميع هذه الاوصاف تأتي من الصورة ، فيلتهي بهم الأمر ، الى القول بأن المادة (عدم) ، ثم تعجز عقولهم عن تصور خلق العالم من العدم ، فيقولون

ان الله وجد المادة التي لا شكل لها ولا صفة ، ورأى **المثال المجردة** ، فشكّل المادة على صورة المثل ، أي اعطى الصورة للمادة فصارت شيئاً معيناً ، فكانهم ينتهون بذلك الى القول ، ان الله خلق العالم بادائه التي اوجدها من العدم ، واعطاه صوره التي كانت في عالمه القديم ... وبغير هذا يكون كلامهم خلفاً غير مفهوم ولا معقول . وعلى كل حال ، فات افلاطون ادرك وجود الله ، وادرك انه الخالق المدبر لامور هذا الكون بقدرته وحكمته ، ولكنه لما اراد الدخول في سر " الخلق ادركه العثار ، كما ادرك تلميذه ارسطو ، سيد الفلسفه المؤلهة القدمين .

خيران - انني اعرف ان ارسطو هو اعظم الفلسفه القدمين وهو واضح علم المنطق حق ثقبيه بالعلم الاول ، فكيف ادركه العثار ؟

الشيخ - ان ارسطو ، هو حقاً ، اعظم الفلسفه المؤلهة القدمين ، وكان من المؤمنين بوجود الله ، ولكنه لما اراد السخون في سر الخلق ، ادركه العثار كما ادركه سواه . ولو سمعت الى رأيه في المعرفة ، لعجبت كيف يتعدى هذا العقل الجبار الحكم .

الله يقول ان اول خطوة يخطها الفكر في سبيل المعرفة هي (الادراك الحسي) . فإذا تجمعت في النعم طائفة من الادراكات الجزئية الحسية ، واحتفظت بها الذاكرة ، بدأ الحكم . مرحلته الثانية في (التجربة) ، التي تقوم على مقارنة الاشياء ، ومعرفة علاقتها ، وعللها ، وأسبابها . ثم ينتقل الفكر الى المرحلة الثالثة وهي مرحلة (التأمل النظري) للوصول الى الاستنتاج والحكم . والطريق الفطري ، الذي يسلكه العقل في هذه المراحل ، من الادراك الحسي ، الى التجربة ، الى المقارنة ، والتأمل والتعليل ، والقياس ، والاستنتاج ، والحكم ، هو المنطق الفكري الذي رتب ارسطو قواعده ، وجعله علماً ، فاستحق به ان يُسمى ، في تاريخ الفلسفه ، باسم (المعلم الاول) .

ولكن هذا المعلم الاول ، صاحب هذا المنطق السليم ، لما اراد ان يفسر نشأة العالم ، تعثر في عقبة الفكرة (المادية) ، التي تسيطر على عقولنا ،

وتحذفها بقياس التمثيل الذي قعده الإنسان ، من ممارسة الأشياء المادية في الحياة ، فصعب عليه أن يتصور خلق المادة من العدم ، فادعى قدم المادة . ثم ساقه عقله السليم إلى الاعتراف ، بأن هذه المادة يستعمل ان تكون شيئاً مميتاً ، لأنها بلا صورة ، فحار في تعريفها . واتجه به الأمر إلى أن قال عنها أنها عبارة عن (قابلية التلقي) ... فكانه قال أنها عبارة عن العدم ،

حيوان - لقد ارتكب عقلي يا مولاي ، فاووض لي باشه كيف تكون المادة عبارة عن قابلية التلقي ؟

الشيخ - إنك معدور . وساوضح لك رأيه بأوجز كلام وأبسطه : يقول الفيلسوف المعاصر هنري بونغسون (ان جزء من حقولنا نتأتي بغير ادراك الأجسام المادية) ، فاكتسب من هذا المحيط المادي أكثر تصوراته) ، وهذا صحيح ، ولا تكاد تستطيع التخلص منه أكبر العقول ، حق عقل ارسطو . فلما أراد أن يفسر نشأة العالم ، فسرها كما يفسر نشأة آية اداة ، يصنّها الإنسان ، من مادة معينة ، على هيئة معينة ، لغاية معينة ...

فهو يقول : أن كل شيء ينشأ ويتكون بتأثير علل أربع :
العلة المادية (la cause matérielle) وهي المادة التي يتكون منها الشيء .
والعلة الصورية (la cause formelle) وهي الصورة التي تصير بها المادة شيئاً مميتاً .

والعلة الفاعلة (la cause efficiente) وهي العلة التي تصنع الشيء ، وتعطيه شكله وصورته .

والعلة الفائقة (la cause finale) ، وهي الغاية التي من أجلها قامت العلة الفاعلة بصنع ذلك الشيء ، على تلك الهيئة .

فالعلة المادية في السرير مثلاً ، هي الخشب . والعلة الصورية فيه ، هي (الصورة) التي «خلقت» على الخشب ، فجعلتها بشكل سرير ، لا بشكل مائدة . والعلة الفاعلة ، هي النجبار الذي صنع السرير . والعلة الفائقة هي النوم والراحة .

ثم مزج ارسطو بين (الصورية والفائبة والفاعلة) ، وركّزها في علة واحدة ، مختاراً (الصورة) ، فقال : إن العلة الصورية ، التي هي ماهية الشيء ، كامنة في نفس الغاية وفاجعة منها ، لأن الشيء إنما تتحقق فيه الغاية عند اخذه لصورته ، وإنما تُركِّب الصورة على الغاية منه . وإذا كانت العلة الصورية متعددة بالغاية الفائبة ؛ فقدم ، فيها أقيمتان من العلة الفاعلة ، لأن العلة الفاعلة ، إنما يظهر اثرها في الغاية والصورة . فالسرير لا يمكن صنعه ، إلا إذا سبقت الغاية هذا الصنع ، ولا تخرب الغاية من القوة إلى الفعل ، إلا بعد صنع السرير واعطائه صورته المخصوصة . والفاعل الذي هو التجار لم يكن فاعلاً بالفعل إلا بعد أن صنع السرير ، أمّا قبل ذلك فالتجار فاعل بالقوة .

وبعد تركيزه العلل الثلاث الصورية ، والفائبة ، والفاعلة في (الصورة) لم تبق لديه إلا العلة المادية وهي (المادة) ، أو الميولى .

حيران - ارى ان ارسطو يسير حق الان سيراً معقولاً في تفسير نشأة التنويعات التي في هذا العالم . ولكن مثال السرير والتجار لا ينطبق على قضية نشأة اصل العالم ، فخشب السرير موجود اصلاً . وليس التجار هو الذي اوجده ، وإنما هو الذي خلع عليه صورة السرير . فن الذي اوجد الخشب وخلقه ؟ بل من الذي اوجد مادة العالم الاصيلية وخلقها ، وخلع عليها صورتها الميولانية الاصيلية ؟

الشيخ - ان ارسطو لا يقصد (بالمادة والميولى) ما تفهمه نحن من كلمة مادة ، لأن المادة ، التي نفهمها نحن ، لها شكل وحجم وزن ، على الأقل . أما الميولى عند ارسطو فليس لها صفات مطلقاً ، ولا تأخذ صفاتها إلا من الصورة . فهي قبل ان تأخذ صفاتها لم تكن شيئاً يمكن وصفه وتحديده . أي ان الميولى ، عند ارسطو ، ليست الا شيئاً بالنوع (en puissance) ولكن بعد تلقي الصورة ، تصبح شيئاً معييناً (بالفعل en acte) ؟ فالميولى عنده ما هي الا عبارة عن قابلية التلقي (réceptivité) ، وهذا ما جعلني اقول لك ان المادة التي ذكرها ارسطو هي عبارة عن العدم .

حيران - ولكن هذا يا مولاي شيء غير مفهوم ولا معقول .
الشيخ - فعم انه غير مفهوم ولا معقول ، ارسطو نفسه يدرك انه
غير مفهوم ولا معقول . لذلك زواه بعد ان قسم اصل العالم الى (مادة
وشكل) قال : انه لا يتصور وجود صورة من غير مادة ، ولا وجود
مادة من غير صورة ؛ فالصورة لا يمكن ان تظهر الا في مادة ، والمادة
لا يمكن ان تظهر الا في صورة . وهذا الانقسام ، الذي تحدث عنه ،
هو في النهاية فقط . وهذا هو اساس فلسفته الميتافيزيقية التي خلص منها
إلى القول ، بأن العالم قديم باداته وصورته وحركته وحركته .

حيران - ومن هو المحرك الذي اعطى العالم صورته وحركته ؟
الشيخ - يقول ارسطو ، هو الله ، وانه هو العلة الصورية والثانية والحركة .
حieran - اذا كان الله هو العلة الصورية والثانية والحركة ، فهو ، اذا ،
الذي اعطى الصورة للبيروي التي لم تكون شيئاً سوى (قابلية التلقي) ،
على رغم ارسطوز ، وبالتالي يكون الله هو الذي خلق العالم باداته وصورته ،
فكيف يمكن للعالم قديماً باداته وصورته وحركته ؟

الشيخ - ان ارسسطو يريد ان يخرج من هذا التناقض في قضية القيمة ،
فيقول ان العالم لا أول له في الزمن ، واما سبق الله العالم ، كما تسبق
المقدمة النتيجة . وان علاقة الله بالعالم ، ليست علاقة علة بعمل ، ليكون
للزمان دخل فيها ، ولكن هي علاقة منطقية . فالله من خلق العالم وجوده ،
كما تفتح المقدمة النتيجة وجودها . وتقدم المقدمة على النتيجة هو بالفكرة
لا بالزمن .

والذى جرّه الى القول بقدم العالم ، هو اعتقاده بقدم الحركة . فهو
يقول : ان العلة الاولى للحركة ، وهي الله ، ثابتة ، ولها نفس القدرة من
الاصل . فلو قررنا وقتاً لم تكون فيه حركة ، لزم عن ذلك ان لا تكون
حركة ابداً ؛ لأن القول بمحدود الحركة ، بعد ان لم تكون ، يعني ان
مرجحاً قد استجداً ، فأوجب الحركة ، والحال ان المحرك الاول ثابت ،
له نفس القدرة ، ولا يتتصور حصول مرجح يرجع عنده الحركة .

وهذا الخطأ في الاستدلال نشأ من الورف عند صفة (القدرة) وتناسى صفة (الإرادة) وهو الخطأ الذي خسّد كثيراً من الناس ... وقد رد عليه الغزالى ، كما سترى عندما أحدثك عنه ، رداً مفصلاً حيث قال : (إن العالم حدث بارادة قديمة ، اقتصت وجوده ، في الوقت الذي وجد فيه . وإن يستمر العدم إلى الغاية التي استمر إليها . وإن قدّم العلة لا يُكتسب قدم المعلول ، إلا إذا كان المعلول من شأنه أن يصدر عن علته صدوراً (ضرورياً) ، ولا يكون صدوره ضرورياً إلا إذا تكافأ المعلول مع العلة ؛ وليس بين الله والعالم (المتغير) تكافؤ ، حتى يصدر عنه العالم صدوراً ضرورياً .

فلا مجال للقول بقدم الحركة ، كما زعم ارسيلو ، لأنها ليست ضرورية عقلاً . ولا مجال للقول بتجدد مرجع ، كما تزعم ، لأن الإرادة القديمة هي التي عينت وقت الحركة ...)

حيران – إن هذا البيان في غاية الوضوح ، فكيف غفل عنه المعلم الأول ؟

الشيخ – أعود فاكير عليك أن الخطأ الفكري الأول ، الذي نشأ عنه كل هذه الأخطاء والتحكّمات ، هو عجز العقول عن قصور الخلق من العدم ، ووهمها في ادراك معنى الزمان وحقيقة ، وما اعتبرها من استشكالٍ في (مدة التأرك) قبل الخلق ، وسترى الرد على هذا كله في كلام الغزالى ، وأبن طفيل ، وعانياويل كانط . وبعد فاتنك ، إذا تبعتم جميع ما قاله ارسيلو في العلم والفلسفة ، ستتجدد ابن الرجل ، على عظم عقله وسعة علمه ، قد وقع في تخلخلات واوهام وتخيّلات كثيرة ، عندما حاول أن يتوصّل بعقله إلى ادراك سر الخلق . كما انه وقع في اخطاء علمية عديدة . فلا تجعله في مقام التقديس والعصمة ، الذي جعل فيه عاشقه ، ابن رشد .

خذ للك مثلًا انه يقول ، في جملة ما روي عنه : إن الله لا يحرك العالم حرقة الدفع ، لأن هذا يستلزم ان تُنسب إليه حرقة محدودة ، ولكنه يحب العالم إلى غايتها ، كما نجذب نحن إلى الخير والجمال ، بدون

عمل منها . ويروى عنه في موضع آخر : ان الله حرك العالم حركته الدائريّة ، ثم تركه يدور على نفسه . ولا ادري ما الفرق بالنسبة الى الله بين حركة الدفع والحركة الدائريّة ، ويقول ان هذه الحركة الدائريّة هي علة دوران الشمس حول الارض ... وعلة ما يظهر على الارض من كون وفساد ، اذ تتحول العناصر وتتلاজ ، وت تكون اجساد ، وتتمو وتغنى ، بتفاعل القوتين الفاعلتين ، وهما ، الحار ، والبارد ، والقوتين المفعليتين ، وما الرطب واليابس ... ويقول ان الارض ساكنة ، وهي مركز العالم ... ويقول عن الله انه يتغلب ذاته فقط ، ولا يعقل غيره ، لأنّه اذا عقل غيره ، فقد عقل اقل من ذاته ... الى غير ذلك من التحکمات ، والسخافات ، التي تناقض قوله السابق ، ان الله هو العلة الفاعلة والمحركة ، وتناقض العلم والعقل ، والمنطق الذي وضعه (المعلم الاول) . ولذلك يترجح عندي ان الروايات عنه ليست كلها صحيحة .

وملهم ان ارسطو لم ينكر وجود الله ، بل اكده ، ولكنه لما اراد وصف ذات الله وكيفية الخلق ، ادرك عقله الكلال ، كما ادرك اوائل الذين رووا عنه وشرحوا اقواله ...

ثم اصيّت نظرية الوجود الميتافيزيقية بنكسة (مادية) عند الرواقين والايقوريين ، ادت الى ظهور (الشكاك) . حتى جاءت (الفلسفة الاغلاطونية الحديثة) ، تؤكد وجود الله خالق الكون . وهكذا تذكر الدور الاول الذي بدأ بال MATERIALIA ، على لسان الفلسفه الاولين ، ثم قوسته السفطية بشكتها المسخيف ، ثم انتهى بتوكيده وجود الله الخالق للعالم على لسان الفلسفه الاهلين : سقراط ، وافلاطون ، وارسطو ..

حيران - وماذا يقول الرواقيون والايقوريون ؟

الشيخ - اما الرواقيون فائهم ، في نظرية المعرفة ، يعودون الى الشك في قدرة العقل على التمييز بين الحق والباطل ، اذ يقولون : ان المعرفة قصدر عن الاشياء المحسوسة ، وتصل اليها بواسطة الحواس ، وما المدركات السكلية الا افكار كوتتها عقولنا ، مما تلقت في الحياة من احساسات

جزئية ؟ فلا يجوز ان تتخذها مقياساً للتمييز بين الحق والباطل ، ويخلصون من هذا الى القول بأن الحقيقة انا نعرف من طريق (الشعور) ، فالشيء الحقيقي يبعث فينا شعوراً قوياً ليس لإنكاره سبيل .

اما في نشأة العالم ، فان الرواقين ، يكادون يكونون ، مؤلفة " وملحدين في آن واحد : فيبنا تراهم يقولون ، انه ليس في الوجود الا المادة ، وان كل موجود مؤلف من عنصرين : منفعل (passif) غير متحرك ، وفاعل (actif) وهو القوة التي تعطي المادة حركتها ، وجميع اشكالها ، وان هذه القوة ما هي الا (نار) ، تراهم يقولون ان الله هو النار الاولى ، وانه لم يكن في الاصل غير الله ، في هيئة نار ، ثم تحركت هذه النار ، وتحولت جزء منها الى هواء ، وجزء من الهواء الى ماء ، وجزء من الماء الى تراب . وسيعود كل شيء الى النار ، ثم يرجع ككرة اخرى ... وان الله هو نفس العالم ، والعالم جسم الله

حيران - عجيب والله امر هؤلاء . أليس الرأي في تفسير الوجود يجب ان يكون مبنياً على الرأي في طرق المعرفة . فain هو رأيهم في (الشعور) القوي ، الذي اعتبروه أساساً لمعرفة الحقيقة ؟ وكيف استطاع هذا الشعور ان يدرك ويتصور هذا الاله الناري العجيب ؟

الشيخ - حق لك ان تعجب ، وما ذكرت لك رأيهم هذا ، الا لأدلةك على الرابطة ، التي بين مخافات هؤلاء وهذين بعض المؤخرین .

اما الابيقربيون فائهم ، في نظرية المعرفة ، لا يكادون يخرجون عن رأي ارسطو ، فيقولون ان ما لدينا من الافكار ، هو مسلمة من الاعراكات الحسية ، تحتفظ بها الذاكرة ، ثم تتناولها بالموازنة والمقارنة ، لتصل الى الاحكام الكلية ، فالادرار الحسي هو مقياس صحيح ، وما بني عليه من الاعراكات والاحكام صحيح ايضاً .

ثم يتسمى (ابيقرور) شيخ الطريقة في تفكيره حين يقول : انتا انا تتعرض للخطأ ، عندما تتجاوز ما انت به الحواس ، فتحاول ان تستنتج منه رأياً في الامباب الحقيقة ، التي تخفي وراء الظواهر .

ولكن هذا العقل السليم ، للذى يعترف بعجزنا عن ادراك ما وراء الطبيعة ، يخرج عن هذه الطريقة الحكيمية الخالدة ، التي رسماها للمعرفة ، عندما يتكلم في نشأة العالم ، فلأنهنا نراهما كلها حدس وتخمين .

انه يأخذ برأي ديوغرطس ، فيرى ان اصل الوجود هو الذرات ، وانها متحركة بذاتها ، ويقول ان علة حركة كلها موجودة فيها ، وهي ثقلها ، وانها لثقلها تتحرك من اعلى الى اسفل ولكنها تتحرك قليلا ، وهي ساقطة ، فلتلتقي ، وتتولف المركبات . . وان الحياة كلها نشأت عن هذا التأليف مصادفة واتفاقا ...

حيران - لم افهم لماذا فرحن ان تكون الذرات متحركة من اعلى الى اسفل ، بقوة ثقلها ، والثقل هو اثر الجاذبية .

الشيخ - ان ابيقور يُعذر في هذا التصور ، لأن ناموس الجاذبية لم يكن معروفا في عصره ، كما تعلم ، فأخذ بظاهر ما تأصل به الحواس ، من سقوط الاجسام ، بقوة الثقل ، من اعلى الى اسفل ، وبقي على شرطه ان لا تتجاوز ما تأصلنا به الحواس . ولذلك لا يُعذر حين يخرج عن هذا الشرط ، ويزعم ان الحياة نشأت صدفا واتفاقا !

وبعد ، فليس هذا الخروج عن شرطه في هذا الرأي باعجب من قوله بوجود آلة باشكال بشرية يأكلون ، ويشربون ، ويتكلمون اليونانية ، واجسامهم من عنصر الضوء ، وهم في مادة دائمة ، ولا يتذمرون في شؤون العالم ، فتأمل ...

اما رأيه بتكون العالم ، والحياة صدفة واتفاقا ، فليس هذا او انت مناقشه ، وسنصل الى هذه المناقشه ، اذا وصلنا الى الذين تبنوا هذا الرأي في العصور الحديثة ،

حيران - ومن هم الشراك الجدد ، وهل اتوا بشيء غير الذي اتي به السوفسطائيون ، سعى يمدثني الشيخ عنهم ؟

الشيخ - لو لا ان مؤلاء الشراك الجدد اتوا بأمر جديد ، لما حدثتك عنهم . اني اسير في الحديث معك عن الاراء الفلسفية ، في نظرية المعرفة ،

إلى غاية... ولولا الشكاك الجدد كرام لا يجوز ان تجدها كل الجهل و
فيما يلي ، اذا قرأتها بعد ذلك ، كثير من الارتكاب .

ولا ريب في ان الامر ، الذي يتفق به السوفسطائيون القدامى مع
الشكاك الجدد ، هو الشك ؛ ولكن الفرق بينهم يتجل في الطريقة ،
والاسلوب ، والغاية . فالسوفسطائيون ليسوا باصحاب مذهب فلسفى كما
عللت ، بل هم مملعون محترفون متكتسبون . اما الشكاك فلم تكن غايتها
الكسب ، ولكنهم جماعة من المفكرين ، يخيل لهم ان الوصول الى الحقيقة
امرا غير مستطاع ، فشكوا وقالوا : (لا كذبى) ، وجعلوا (الالاfrica)
مذهباً فلسفياً قائمًا بذاته .

وخلاصة مذهبهم : اتنا لا نعرف من الاشياء الا ظواهرها ، وهى
تظهر بظاهر مختلفة ، وليس لدينا وسيلة للتمييز بين الفكرة الحقيقية
وغيرها ، بما نراه في المقام ، او يخيل لنا بنخاع المواس ، وان المواس
قد تفضل ، كما ان ادراكات الحس تختلف باختلاف الظروف والاواعض
والاحوال في الشخص المدرك والشيء المدرك . ثم ذهبوا الى اكمل من
ذلك فانكروا قانون العلية ، وقالوا ان الناس يفتررون على الاشياء
بظواهرها ، ولكن هذه الظواهر تفسر باشكال مختلفة ، فلا مجال لقطع
والجزم في شيء . وانكر بعضهم صحة القياس والاستقراء ، ثم تماهى
بعضمهم في الشك حتى زعم ان المبادئ الاولية هي نفسها فرض غير
مبرهنة ، واننا لو اردنا تقاديم التسلسل في البرهان ، وقعننا في البرهان
الدوري ، الذي يقيم المقدمة على النتيجة ، والنتيجة على المقدمة ، وهو
باطل ؟ فالبرهان ، اذا ، ممتنع .

والمعتدلون من مؤلاء الشكاك هم الذين يطلق عليهم اسم (الاحتالين)
Probabilistes ، لأنهم قالوا برجح بعض الحقائق ، التي تبدو لنا واضحة ، من
غير ان تتجاوز هذا الترجيح الى البرهنة على صحتها ، فعملينا ان نأخذ بالتجربة ،
واما رأينا ظواهر الطبيعة ، وترابط اسبابها ، توقيعنا ظهور النتائج ، من
غير ان نعتقد ان هذه النتائج ترتكز على اساس (قانون العلية) .

حيوان - حتى ان غلوّ هؤلاء الشكاك في انكار الحقائق اشد خطراً من هذيان السوفسطائيين ، فارئنكم ينكرون الحقائق ويمترفون بان انكارهم يقوم على اساس المماراة في الجسد ، اما هؤلاء فانهم جادون في انكار المبادي " العقلية غير هازلين .

الشيخ - ان علوم يبدو قبيحاً وسخيناً جداً ، كما قلت ، في انكار المبادي " العقلية الاولية " ، التي زعموا انها هي ايضاً فروض غير مبرهنة .. اما الاحماليون منهم فقد كانوا في بعض نظراتهم الى الظواهر الطبيعية ، على شيء من " بعد النظر " ، وقد ايدت المفاجآت الحديثة في العلم ، ويجوب القول (بالاحتال) ، فيما لم يتم البرهان المطلبي القاطع على صحته ، فانك لو قارنت بين آراء الاقديمين عن الارض والشمس والكتواكب ، وعن المادة وحقيقةها ، وبين حقائق العلم في عصرنا الذي نعيش فيه ، لوجدت فروقاً كبيرة ، تدللك على ان القول بالاحتال والتربيح ، ليس فيه صكثير من الغلوّ . ولكن الغلوّ ظهر في زعمهم ان كل المبادي " العقلية الاولية " تفتقر الى برهان ؛ لأننا اذا كنا تتطلب ان يقام لنا البرهان مثلاً ؛ على ان الكل " اكبر من جزئه " ، وعلى ان الحاوي اكبر من المحوى ، وعلى عدم جواز اجتماع التقىضين ، وعلى ان الواحد نصف الاثنين ، تكون قد طلتقنا عقولنا ، وتقطلبتنا اقامة ميزان التفكير ، بعقول ورءاء حقول البشر ، وهذا خروج عن الموضوع ؛ لأننا اما ننظر الى الحقائق بهذه المقول ، التي تتطوى بفطريتها على مبادي اولية بدائية ، لا يمكن ان يتطلب العقل برهاناً عليها ، وهي الاساس الذي يرتكز عليه الحكم على كل ادراك عقلي ؛ فانكارها تعطيل لعمل العقل ، فضلاً عما فيه من تناقض ، يجعل الفائدين بها عرضة للسخرية اذا قيل لهم : «طالما ان المعرفة عندكم مستحبة ، فكيف عرفتم انها مستحبة؟ وكيف عرفتم ان الفضائل الاولية غير مبرهنة؟
وان الحواس تخدع ، والمقول تخطيء؟ وكيف عرفتم ان التسلسل باطل ،
وان البرهان الدورى غير صحيح ..؟ ان هذه الاقوال هي (معارف) ،
فاذما صع قولكم ان المعرفة مستحبة ، تكونون قد عرفتم الحقيقة ،

ويكون قولكم ان المعرفة مستحبة قولاً باطلاً، و اذا لم يصح قولكم ، تكون المعرفة غير مستحبة...، وان قلتم ان بطلان النور والتسلسل بدبيهي في العقول ، فقد اعترفتم بوجود قضية عقلية اولية يقطع العقل بصحتها ، وان انكرتم هذه البداهة انهارت حججكم من اساسها ...

حيران - كيف ، اذا ، ثبت ايمان الافلاطونية الحديثة بين اشواك تلك المادة الرواقية الايقورية وهذا الشك المعلل للعقل ؟

الشيخ - اتفجب من هذا ، وهو التطور الدوري الدائم لقضية الایمان ، الذي لا ينهض من كبوته ، ولا يستيقظ من خفته ، من طريق العقل او من طريق الوحي ، الا بعد دور من الشك والاخاء ؟

لقد اجتمع للافلاطونية الحديثة الامران كلاماً : العقل والوحي ، فهي مزدوج من مذهب افلاطون والنصرانية بدأ بها (فيلون الاسكندرى) وجددها بعد ذلك (افلوطين) . فقد نشأ فيلون في الاسكندرية قبل المسيح بعشرين سنة ، ومات في الرابعة والخمسين من الميلاد ، أي في الوقت الذي كانت فيه مدينة الاسكندرية قد خللت الدنيا ، في مركزها العالمي العظيم . وكان المذهب المسيطر فيها ، يومئذ ، هو مذهب افلاطون ، وكثير البحث والجدل في اصل العالم ، وكوفته حداثاً أو قديماً ، فوضع فيلون الاسكندرى شرحاً كثيراً لآراء افلاطون . ثم جاء بعد ذلك (افلوطين) بين سنة (٢٠٧ و ٢٤٠) فجدد هذا المذهب ، الذي عرف بعد ذلك (بالافلاطونية الحديثة) .

وخلصة رأي الافلاطونية الحديثة في نظرية الوجود وخلق العالم : ان هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التغير ، فلا يمكن ان يكون قد وجد بنفسه ، بل لا بد له من خالق مبدع ، وهذا الخالق هو الله ، وهو واحد احد ، ازلي ، ابدي ، قائم بنفسه ، وهو فوق المادة ، وفوق الروح . ولما كان الشبه منقطعاً بينه وبين الاشياء ، فلا يمكن وصفه الا بصفات (سلبية) : فهو ليس مادة ، ولا يوصف بأنه متعرك أو ساكن ، ولا يقال انه موجود في زمان أو في مكان . ولا يمكن ان تضاف اليه صفة ،

لأن هذه الإضافة تشبيه له بشيء من مخلوقاته ، وتحديد له . وهو لا ينافي ،
وكامل ، ولا يفتقر إلى شيء . ولسنا نفهم من طبيعته إلا أنه يخلق كل
شيء ، ويسمو على كل شيء ، ولا تدرك كنهه العقول .

وهذا الكلام ، على ما فيه من حق ، ينطوي على كثير من الغلو في
التنزيه ، حق يكاد يجعل الله موجوداً بلا ماهية . فالاكتفاء بالصفات السلبية
غير صحيح ، لأنـه وإنـ كانـ فيهـ اعترافـ وإيمـانـ بـصفـاتـ الـوـجـودـ ، والـقـدـمـ ،
والـبـقاءـ ، والـخـالـقـةـ لـالـحـوـادـثـ ، والـقـيـامـ بـالـنـفـسـ ، إـلـاـ أـنـهـ لـاـ يـثـبـتـ لـهـ صـفـاتـ
الـعـلـمـ ، والـقـدـرـةـ ، والـإـرـادـةـ ، معـ أنهاـ مـتـوجـبةـ عـقـلاـ لـهـ تـعـالـىـ .

وعلى كل حال ، فالمهم أن المذهب يعترف بوجود الله وبأنه خالق العالم ، فلا
غرض لنا بالأسباب في نقدـهـ ، لـفـلـتـهـ عـنـ بـعـضـ صـفـاتـ اللهـ تـعـالـىـ ، المتـوجـبةـ لـهـ
عـقـلاـ . ولـكـنـيـ أـرـيدـ أـعـلـمـ بـأـخـطـاءـ أـخـرـىـ ، وـقـعـ فـيـهاـ صـاحـبـ المـذـهـبـ ،
أـفـلـاطـلـينـ ، حـيـنـاـ أـرـادـ أـيـصـفـ كـيـفـيـةـ الـخـلـقـ ، فـجـمـعـ بـهـ الـخـيـالـ ، وـرـدـّىـ فـيـ هـوـةـ
مـنـ الـأـوـهـامـ ، حـيـثـ يـقـولـ : أـنـ اللهـ لـاـ يـكـنـ أـنـ يـخـلـقـ الـعـالـمـ مـبـاشـرـةـ ، لـأـنـهـ
لـوـ خـلـقـهـ مـبـاشـرـةـ لـأـضـطـرـ لـلـاتـصالـ بـهـ ، وـهـوـ وـاحـدـ لـاـ يـصـدرـ عـنـ الـعـالـمـ الـمـمـدـ ...

حـيـرـانـ – أـذـنـ ، كـيـفـ كـانـ الـخـلـقـ ؟

الـشـيـخـ – يـقـولـ لـنـاـ أـفـلـاطـلـينـ : أـنـ تـفـكـيرـ اللهـ فـيـ نـفـسـ نـشـأـهـ (ـفـيـضـ)ـ ،
وـهـذـاـ الـقـيـضـ هوـ الـعـالـمـ . وـأـوـلـ شـيـءـ اـنـبـثـقـ عـنـ اللهـ هوـ (ـالـعـقـلـ)ـ ، وـهـذـاـ
الـعـقـلـ لـهـ وـظـيـقـتـانـ : التـفـكـيرـ فـيـ اللهـ ، وـالـتـفـكـيرـ فـيـ نـفـسـ . وـمـنـ الـعـقـلـ
انـبـثـقـتـ (ـنـفـسـ الـعـالـمـ)ـ ، وـمـنـ نـفـسـ الـعـالـمـ انـبـثـقـتـ النـفـوسـ الـبـشـرـيـةـ ، وـانـبـثـقـتـ
نـفـسـ ثـانـيـةـ ، هيـ الطـبـيـعـةـ . وـانـ نـفـسـ الـعـالـمـ هـذـهـ هيـ مـنـ الـعـالـمـ الـرـوـحـانـيـ ؛
غـيـرـ أـنـ مـرـكـزـهـ عـلـىـ هـامـشـهـ ، وـقـرـبـاـ مـنـ عـالـمـ الـعـسـوسـ ، وـهـيـ الـوـسـيـطـ
بـيـنـ عـالـمـ الـمـحـسـوسـ وـبـيـنـ الـعـقـلـ ...

وـاـنـاـ ذـكـرـتـ لـكـ هـذـهـ الـخـيـالـاتـ عـنـ كـيـفـيـةـ الـخـلـقـ ، وـالـقـيـضـ ، وـالـأـنـبـاثـ ،
وـالـعـقـولـ وـالـنـفـوسـ ، لأـدـلـكـ عـلـىـ هـذـاـ تـلـكـ السـخـافـاتـ ، الـتـيـ وـقـعـ بـهـ الـفـلـاسـفـةـ
الـإـسـلـامـيـونـ ، الـذـيـنـ اـخـذـواـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـفـلـاطـلـيـنـ الـحـدـيـثـةـ وـكـانـواـ يـطـلـقـونـ
عـلـيـهـاـ اـسـمـ مـذـهـبـ (ـالـإـسـكـنـدـرـانـيـنـ)ـ وـيـسـمـونـ أـفـلـاطـلـينـ (ـالـشـيـخـ الـبـرـوـنـيـ)ـ .

من فَارَانِ إِلَى الْبُرْيَنِ

نور علیت نور

يقول حيران بن الأضعف : عرفت من كلام الشيخ انه سيدحتني في هذه الليلة عن الفلسفه المسلمين ، وكان لدى كتاب يتحدث عن الرازي والفارابي وابن سينا ، غارت عليه في خزانة أبي ، فأخذت اطالعه في النهار ، وما حان وقتى مع الشيخ دخلت عليه وانا اتأبط الكتاب ، فلما رأى قال :
الشيخ - ما هذا الكتاب يا حيران ؟

حيران - لقد ظنت انك ستحدثني عن فلامقة المسلمين ، وهذا الكتاب فيه كلام عن الرازي والفارابي وابن سينا .

الشيخ - هل قرأت
نعم قرأت بعضه ، ففهمت شيئاً ، وغابت عن فهمي اشياء ، فقد وقعت فيما قرأت على كلام صعب معقد فيه شيء مما ذكر مولاي الشيخ عن ترهات الافلاطونية الحديثة ، فهل كان هؤلاء الثلاثة من ضعيفي الاعيان بالله كما يشاع عنهم ؟

الشيخ - معاذ الله يا حيران ، انهم من اعظم المؤمنين بالله ، ومن اصدقهم برهانا على وجود الله ، وكيف لا يكتفون كذلك ، وهم كثيرون من فلاسفة المسلمين ، قد جمعوا الى ايمان الوحي الصادق ، ايمان العقل السليم ، دورا على نور ، ولكن هؤلاء أخذوا بترهات الافلاطونية الحديثة وخجالتها في مراتب الخلق ووسائله ، وانخلط عليهم الامر فحسبوها من كلام ارسسطو ، وحال اجلالهم للعلم الاول ، دون تحيصها ، لذلك كان على من يكتب عن هؤلاء ان يمحض اقوالهم ويتierz بين ما فيها من الحق التبر و الباطل المظلم ، وهذا ما لم يفعله الذين كتبوا عنهم ، امما عجزا عن التمييز ، او زهدآ في نصرة الاعيان ، او كيدها للاعيان .

فالرازي كان من أصدق المؤمنين . ولو لم يكن لدينا دليل على صدق إيمانه الا قوله « ان وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدرتها على اتقان الصنعة يدل على وجود خالق احسن كل شيء خلقه » لكتفانا . فهذا الكلام ، عندي ، ادل على صدق الإيمان من كل برهان نظري مركب ، لأنه يعتمد على البرهان البسيط الواضح الذي لا سبيل الى الشك فيه ، لامن قائله ولا من سامعه . والذي يهدى الناس مثل هذا لا يكون ضعيف الایمان يا حيران .

حيران - والفارابي ، ما رأي مولاي الشيخ فيه ؟

الشيخ - الفارابي ياخيران ، من اعظم الفلسفه المؤمنين ، واصحهم منطقا ، واصدقهم برهانا على وجود الله ؛ فقد بدأ بالدفاع عن العقل ، فاثبت له احكامه الاولية البديهية ، التي تعتمد عليها البراهين كلها ، والأخذ ، من هذا ، طريقه الى اثبات وجود الله ؛ وما زالت اقواله ، في المعرفة والوجود ، تتحكم في عقول العلماء والفلسفه والمتكلمين ، الى يومنا هذا الذي لحن فيه .

يقول الفارابي : ان الملم ينقسم الى تصور مطلق ، وتصور مع تصديق . فمن التصور ما لا يتم الا بتتصور يعتقد ، كما لا يمكن تصور الجسم ما لم يتتصور الطول والعرض والعمق . وليس يلزم ذلك في كل تصور ، بل لا بد من الاتهاء الى تصور يقف ولا يتتصور تصور يعتقد ، كالوجود ، والوجوب والامكان ؛ فان هذه لا حاجة الى تصور شيء قبلها ، بل هي معان ظاهرة ، صحيحة ، مركوزة في الذهن .

اما التصديق فنه ما لا يمكن ادراك ما لم تدرك قبله اشياء اخرى : كا ان يريد ان تعلم ان العالم (محدث) ، فيحتاج ، اولا ، ان يحصل التصديق بان العالم (مؤلف) ، وكل مؤلف محدث . وهذه (احكام اولية) ظاهرة في العقل ، كما انت طرف في التقىض ، ابدا ، يكون احدها صدقا والآخر كذبا ، وان الكل اعظم من الجزء . وهذه معان مركوزة في الذهن يمكن اظهارها (على سبيل التبيه) اذا لاشيء اظهر منها ، ولا يبرهن عليها ، لأنها بيضة بنفسها ، ويقينية الى اقصى درجات اليقين ، ولا يمكن

الاستفهام عنها في اقامة البرهان على اي قضية ، لأنها اسْنُّ واصولٌ بدائية .

حيران - هذا والله كلام في أعلى مراتب اليقين .

الشيخ - وعلى هذا اليقين وضع الفارابي برهانه على وجود الله فقال :
أن الموجودات على ضررين : أحدهما (مسكن الوجود) ، والثاني
(واجب الوجود) . وممكن الوجود ، إذا فرض غير موجود ، لم يلزم عنه
حال ، وليس يعني ، بوجوده ، عن عنته ، وإذا وجد صار واجب الوجود
بغيره ، لا بذاته . أما (الواجب الوجود) ، لمن فرض غير موجود لزم
هذه حال ، ولا علة لوجوده ، ولا يجوز كون وجوده بغيره . والأشياء
(المكنته) لا يجوز أن تتر بلا ذاته ، في كونها علة وعلولا ، ولا يجوز
كونها على سبيل الدور ، بل لا بد من انتهاها إلى شيء واجب ، هو
الموجود الأول ، الذي هو السبب الأول لوجود الأشياء ، وهو الله تعالى .

حيران - وهذا ، والله ، كلام في أعلى مراتب اليقين .

الشيخ - لا يكفي أن تقول ، يا حيران ، أنه كلام في أعلى مراتب اليقين ،
بل احفظه في صدرك ولا تدعه حسدا من المجادلين في الله ، بغير علم
ولا هدى ، يتفللوك إليه بمحض أرجوك تشويش . وسوف ترى كيف سيطر
هذا البرهان على للعقل ، حتى جاء (لايتز) العظيم بجذبه ويعتمده بعد
سبعينة عام .

حيران - أذن ، كيف ذاك مولاي أن الفارابي اخذ بآراء
الإغلاطوية الحديثة ؟

الشيخ - أني على يقين من أن آرائه الإغلاطوية الحديثة ، في
سر الخلق والتكون ، ومراتبه ، كان بلسانه لا يقلبه ، ظاهراً وتفاخراً
بالتحدق والتفلسف . فالعقل الذي يضع قواعد المعرفة بذلك الازان ،
لا يخوض في هذه المivialات عن قناعة وإيمان . ولو استمعت إليه كيف يقر
بعجز العقول عن ادراك أسرار الله ، في كنه ذاته ، وصفاته ، ورأيته
كيف يستمسك بآرائه ، وحكمته ، وادبه مع الله ، لكنذبت كل ما ألب
إليه من هذيان ، في مراتب الخلق ووسائله .

انه يقول : (ولما كان الباري اكل الموجودات ، وجب ان تكون معرفتنا به اكل معرفة ، كما ان معرفتنا بالرياضيات اكل من معرفتنا بالطبيعتيات ، لأن موضوع الاول اقل من موضوع الثانية . ولتكن امام (الموجود الاول) كأتنا امام امير الانوار فلا تستطيع احتاله ، لضعف ابصارها ، لأن الضعف النامي عن ملابستنا بالمادة يقيّد معارفنا ويعيقها) .

هكذا ، يا حيران ، يتسمى هذا الرجل في بيانه واتزانه ، واقراره بالعجز الذي اقر به كل عاقل ، حتى اذا اراد ان يقدّم الافلاطونية الحديثة في تكتناتها ، عن كيفية خلق العالم ، فلنخُبّ التحدّث والتفلسف في افقه ، فلم يكتف بما اخترعه الافلاطونية الحديثة من عقول ، ونفوس ، وافلاك ، بل زادها عقولا ، ونفوسا ، وافلاكا ، حتى لتصبح ان الذي يخال هذه الاخيلة انسان آخر غير الفارابي .

حيران - وهل وقع ابن سينا ، الذي اسع انه اعظم من الفارابي ، في مثل ذلك ؟

الشيخ - ان ابن سينا من اعظم фلاسفة المؤمنين ، وهو اشبه الناس بامتداده الفارابي ، سموا ، واتزانا ، عند البحث في (المعرفة والوجود) ، واسفافاً عند الكلام في مراتب الصدور ، والعقول ، والأفلاك .

فاستمع اليه في مبحث المعرفة يقول : ان الادراك الحيواني ، اما في الظاهر ، واما في الباطن . فالادراك الظاهر هو بالحس ، ووراء المشاعر الظاهرة ، شيئاً وشيئاً لاصطياد ما يأتي به الحس من الصور : من ذلك قوة (مصورة) تثبت صور المحسوسات بعد زواها . وقوة تسمى (وما) وهي التي تدرك من المحسوس مالا يحس ، كالقوة التي بالشاة اذا رأت شبح الذئب تدرك عدواته لها ، اذا حاسة البصر ، وحدها ، لا تدرك هذه العداوة . وقوة (حافظة) وهي خزانة ما يدركه الوهم ، كما ان المصورة خزانة ما يدركه الحس . وقوة (مفكرة) وهي التي تتسلط على الودائع في خزانة المصورة والحافظة ، فتختلط بعضها ببعض ، وتفصل بعضها عن بعض .

ثم يقول ، وما اجمل واعظم ما يقول : الحس لا يدرك (صيرف المعن) ، ولا يدرك الصورة الا في المادة ، والا مع علائق المادة ، من كم ، وكيف ، وابن ، ووضع ، والروح الانسانية هي التي تتمكن من تصور المعن بمحضه وحقيقة ، منقوضاً عنه الواقعية ، مأخوذًا من حيث يشارك فيه الكثير ، وذلك بقوة تسمى (العقل النظري) ، وليس من شأن المحسوس ، من حيث هو محسوس كان يعقل ، ولامن شأن المقول ، من حيث هو مقول ، ان يحسن ... ، والحس ، تصرفة فيها هو من عالم الخلق ، والعقل تصرفة فيها هو من عالم الامر ، وما هو فوق الخلق والامر فهو محتجب عن الحس والعقل ، والذات الاحادية لا سبيل الى ادراك كنه ذاتها ، بل تعرف صفاتها ، وان عقولنا لا قدرة ان تكون حكماً ، تحكم بها على اعمال الله تعالى ، واسراره في خلقه ، وتدبره وقضائه وقدرته .

حيران — له هذا البيان الساحر الرائع ا

الشيع — اروع منه برهانه على وجود الله ، فانه ينبع نفس النهج الذي سلكه الفارابي ، ويأتي بنفس الدليل على اثبات وجود الله ، حيث يقول : انه لا ينبغي ان نلتزم البرهان على اثبات الباري بشيء من مخلوقاته . بل ينبغي ان تستنبط من (امكان) ما هو موجود ، و (ما يجوز) في العقل وجوده ، موجوداً اولاً (واجب الوجود) ، ... وهذا العالم (ممكن) يحتاج الى علة تخرج له للوجود ، لأن وجوده ليس من ذاته ... وبهذا لا تحتاج ، في اثبات (الاول) ، الى تأمل بغير نفس الموجود ، من غير ان تحتاج للاستدلال عليه بشيء من مخلوقاته ، وان كان ذلك دليلاً عليه ، الا ان الاستدلال الاول ، او ثق ، واشرف . . . والاستدلالان كلاماً موجودان في قوله تعالى : (سُتُّرْهُمْ أَبَايَتَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ تَحْقِيقٌ لَّهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُفِرْ بِرِيقَكُمْ أَنَّهُ تَعْلَمَ كُلَّ شَيْءٍ وَشَهِيدٌ) . هذا بعض بيانه الساحر ، وبرهانه الباهر ، في (العقل والمعرفة والوجود) ، فاحفظه يا حيران ، فاني سأريك كيف اقتبس برهانه على وجود الله ، بعض اعاظم الفلاسفة المتأخرین ، اقتباساً يكاد يكون حرفياً . . .

حيران - لقد قرأت ان ابن سينا يجزي اسطو في رأيه عن قدم العالم ؟
الشيخ - ان ظاهر كلام ابن سينا يدل على انه يعارضه ، ولكنني افهم ،
من باطن كلامه ، انه يخرج عن كلام اسطو ، ويفسر معنى القدم تفسيرا
يدعيا ، يدل على بعد نظره ، وسلامة فلسفته ، وصدق ايمانه ، حيث
يقول : (القدم يقال على وجوه) : (قدم بالقياس) ، وهو شيء زمانه في
الماضي اكثر من زمان شيء آخر ، فهو قديم بالقياس اليه . واما (القدم
المطلق) فهو ايضا يقال على وجوهين : بحسب الزمان ، وبحسب الذات .
فالقديم (بحسب الزمان) ، هو الذي ليس له مبدأ زماني ، والقدم (بحسب
الذات) هو الذي ليس له مبدأ يتعلق بها ، وهو الواحد الحق ، تعالى عما يقول
الطلابون علواً كبيراً) .

فن كلامه هذا في معنى القديم ، وهو يشير به الى معنى الزمان ، الذي
اوسعه الغزالي من بعده ، يظهر لك اذا لا يرى ابدا ان العالم قديم بذاته ،
وغير مخلوق لله . بل يريد ان قدم العالم ، انتا يسمى قديما مطلقا ، لأن
الله خلقه قبل الزمان فليس له مبدأ زماني . ولا يقاس هذا القدم المطلق
الزماني (بالقدم المطلق الذاتي) ، الذي يوصف به الله القديم المطلق الازلي
الحق ، فقد كان الله ولم يكن عالما ولا زمان ، ثم خلق الله العالم فبدأ الزمان .
وإذا كان العالم يوصف بأنه قديم ، فلما يراد انه قديم بحسب الزمان ،
لا بحسب الذات .

حيران - ان ذهني يرقبك ويكل : يا مولاي ، عند تصور هذا الزمان
الذي لم يكن له وجود .

الشيخ - لا تبتasis يا حيران ، نسوف ترى ان اعظم الفلسفه
كالغزالى ، وابن طفيل ، وعماروثيل كانط ، يشرون الى هذا الارتكاك الذي
يعترى العقول .

حيران - لماذا لا تحدثني يا مولاي عن الغزالى ، فانك تكتد من ذكره ؟

الشيخ - سأحدثك عنه اذا جاء دوره في الترتيب الذي اخترته لك ،
بعد ان احدثك عن ابن مسكويه وابن خلدون وابن طفيل .

حيران - اني لم اسع لابن سكوريه بهذه الشهرة .

الشيخ - ان لابن مسكوريه ، في فلسفة الاخلاق والمعروفة والوجود ،
كلاما لا يقل حسوا وبيانا عما جاء به اعظم الفلسفه ، وساذكر لك طرقا
من آرائه في (المعروفة والوجود) ؛ اما فلسفة الاخلاقية ، التي اشتهر بها اکثر
ما اشتهر في النواهي الاخرى ، فلا احدثك عنها ، لأنها ليست من موضوعنا
الذى نحن فيه ، ولكنني اوصيك بان تقرأها ، لأنها من اطرف ما كتب
في (فلسفة القيم) .

يقول ابن مسكوريه ، في المعرفة ، بعد ان يتكلم عن النفس ، ويبرهن
على أنها ليست بجسم ولا عَرَضٌ :

ان الجسم قواء لا تعرف العلوم الا من الحواس . اما النفس فانها
وان كانت تأخذ كثيرا من مباديء العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها
مباديء اخر وافعال لا تأخذها عن الحواس البسيطة ، وهي المباديء الشرعية
المالية ، التي تُبيّنُ عليها القوامات الصحيحة . وذلك : أنها اذا سُكِّت
انه ليس بين طرق التقبض واسطة ، فأنها لم تأخذ هذا الحكم بشيء اخر ،
لأنه (أولي) ، ولو اخذته من شيء آخر لم يكن أوليا .

فالحوامن تدرك المحسوسات فقط . واما النفس فانها تدرك اسباب الاختلافات ،
راسيات الاختلافات ، التي في المحسوسات ، وهي معقولاتها التي لا تستعين
عليها بشيء من الجسم ، ولا اثار الجسم . وكذلك اذا سُكِّت على الحس ، انه
صدق او كذب ، فليس تأخذ الحكم من الحس ، لأن الحس لا يضاد نفسه ،
ونحن نجد النفس العاقل فيها ، تستدرك شيئاً كثيراً من اعطاء الحواس
ثم ان النفس ، اذا علمت ، أنها ادركت معقولاتها ، فليس تعلم هذا العلم
من علم آخر ، فانها لو عللت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك العلم
ابضاً الى علم آخر ، وهذا غير بلا نهاية . خاذن علمها بأنها علمت ، هو من
ذاتها وجوبها ، اعني العقل ، وليس تحتاج في ادراكتها ذاتها الى شيء
آخر غير ذاتها) .

هكذا يفصل ابن مسكوريه نظرية المعرفة الحسية والعقلية ، تفصيلا

دقيقاً رائماً ، يوافق ، بل يسبق ويتفوق ما ذهب اليه اعظم المتأخرین
أمثال ديكارت ولوک وعمانوئيل كانط . وقد يكون هذا منهم نتيجة
توافق في التفكير ، وتوارد في الخواطر ، ولكنني ارجح بان اقوال هؤلام
الفلاسفة المسلمين قد غذت كثيراً من آراء المتأخرین ، وان لم يعترفوا
لهم بهذا الفضل ...

اما في (الوجود) ، فان ابن مسكويه يعترف بان العالم مخلوق ، واد
الله تعالى خلقه من العدم ، حيث يقول : ان الصانع جل جلاله جل "غامض .
اما انه جل" ، فمن قبيل انه الحق" ، والحق نبيه . واما انه غامض ،
فلضعف عقولنا ، بسبب تکاثر الاغشیة المیولانية على جوهرها . وان الله
الواحد الازلي ابدع الاشياء كلها من لانيه" ، اذ لا معنى للابداع ان" كان
عن شيء موجود .

ولابن مسكويه ، في وصف تسلسل المخلوقات ، ونموها ، وارتقائها ، رأى
بديع يشير فيه الى مذهب الشوه والارقاء ، اشارة صريحة ، لم يزد عليها
المتأخرین ، الا في التفاصيل ، حيث يقول : ان الموجودات مراتب ، وكلها
سلسلة متصلة . . . وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم لايزال يترقى ،
ويتقدّم ، حتى يصل إلى افق النوع الذي يليه ، فالذاتات في افق الجماد ، ثم يترقى
حق يبلغ أعلى درجة ، فإذا زاد عليها قبيل صورة الحيوان . وكذلك
الحيوان يبدأ بسيط ثم يترقى حتى يصل إلى مرتبة قريبة من الانسان .
ثم يتخلص ، أن مسكويه ، من هذا ، الى القول بان الانسان نفسه لايزال يترقى ،
ويزداد ذكاء ، وصحة في التفكير ، وجودة" في الحكم ، حق يبلغ الافق الاعلى
الذي يتعرض به لأحدى منزلتين : اما ان يديم النظر في الموجودات ليتناول
حقائقها ، فتلوح له الامور الاهمية ، واما ان تأتيه تلك الامور من الله تعالى ،
من غير سعي منه . وصاحب المزلاة الاولى هو (الفيلسوف) ، وصاحب
المزلاة الثانية هو (النبي) الذي يتلقى فيضاً من الله تعالى . فماذا التقى
من وصل من اسفل بال الفلسف ، ومن تلقى من اعلى بالفيض ، اتفق رأيه ،
وصدق احدهما الآخر ، بالضرورة ، لاتفاقهما في تلك الحقائق .

حيران - ارى مولاي يذكر كلام ابن مسكونيه عن النشوء والارتفاع ، بدون ان يعقب عليه بكلمة ، ويدرك كلامه عن تساوى النبي والfilisوف بدون ان ينتقده ، فهل يقرّ مولاي الشيخ هذا القول ؟

الشيخ - اما عن النشوء والارتفاع ، فائزك الجواب الى شيخي الجسر رحه الله ، الذي سأحدثك عنه اذا جاء دوره ، فقد تكلم ، عن فلسفة النشوء والارتفاع التي تشغل اليوم بالكم ، انتم الناشئة ، كلاما فيه كثير من آيات المسؤلية في التفكير . . .

واما كلام ابن مسكونيه عن تلاقي الفيلسوف مع النبي على الحق ، فمن اين اتاك انه يريد به معنى التساوى في القدر ، والقيمة ، والكرامة ، والعصمة ، والعلم ؟ انه اما اراد التلاقي على (الحق) في شيء واحد ، وهو الايمان ، بوجود الله ، دون ما سوى ذلك من امور النبوة ، واحكام الشرائع ، التي يستعد المتفلسف السليم التفكير للتصديق بها ، من غير ان يستطبع ادراكتها بنفسه ، بلا وحي ولا رسالة . ولا ريب في ان الايمان بوجود الله الواحد الاحد ، الازلي الابدي ، القادر ، الحالق ، الباري ، المصوّر المتصف بصفات الكمال ، قد يصل اليه الانسان بعقله من طريق التأمل النظري الصحيح . وهذا الايمان العقلي الحالص ، مطلوب في الشرع من المؤمنين . ولا يمكن ان يفهّم من هذا عدم الحاجة الى النبوة ، لان الدين يستطيعون الوصول الى هذا الايمان بالله ، وصفات كماله ؛ من طريق التفكير ، هم القلة ، بل الندرة . فلا بد من النبوة ، لنشر هذا الهدى الكريم ، بين الناس كافة .

هذا ما اراني افهمه من كلام ابن مسكونيه . واني به لفرح وفخور ، لانه يؤيد الرأي القاطع ، الذي أرشدته اليه ، ثم خبرته بنفسي ، بعد حياة طويلة وتأمل عميق ، وهو ان نتاج الفلسفة الصحيح لا يتنافى أبداً مع الدين الحق ، في اثبات وجود الله ووحدانيته ، بل يؤيد هذا الاثبات الذي جاء به الوحي بالنظر العقلي الحالص . وسترى ان ابن طفيل يؤيد هذا الرأي في قصة الايمان والعقل .

حieran - ماذا يقول ابن طفيل ، وما هي قصة الايمان والعقل ؟

الشيخ - لقد ابدع ابن طفيل في تصوير هذا التلاقي ، بين النظر العقلى الحالى ، وبين الوحي ، في قصته الشهيرة «حي بن يقطان» ، وسألخها لك فى الليلة القادمة ، لات الذى يقى من هذه الليلة يضيق عنها ، ولا اريد ان امر بها مروراً عابراً .

حيران - لماذا يحدثني مولاي عن ابن خلدون وهو من المؤرخين لا من الفلاسفة ؟

الشيخ - ابن خلدون عالم كبير واسع الاطلاع متزن التفكير ، بذل مجهوده في فلسفة الاجتماع والتاريخ ، فاخرج للناس (مقدمة) تاريخه العظيمة التي استحق بها ان يُعتبر ، عند علماء الغرب ، وأضما لفلسفة الحضارة . وتجد زبدة فلسفته السامية البديعة في (التاريخ والاجتماع) ملخصة في موجز كنت وضعته قبل عشرين عاماً . أما مباحث الفلسفة الأخرى فلم يعن بها عناية خاصة ، وإن كانت (مقدمته) لا تخلو من آراء قيمة ، في مبحث المعرفة والوجود ، يطيب لي وللك ان تعرفها ، لدرك كيف يتفق اكابر العلامة ، واعاظم المفكرين على الحق الذي لا يرب فيه .

اما في المعرفة ، فله كلام في اعلى مرافق السمو و الجمال ، فهو يرى ان الاصل في الادراك اىما هو المحسوسات وان جميع الحيوانات ، من الناطق وغير الناطق ، مشتركة في هذا الادراك الحسي ، ولكن الانسان يتميز عنها بادراك (الكليلات) وهي مجرد من المحسوسات . ثم يتحدث عن المباديء الأولية المركزة في عقولنا بفطرة الله فيقول : ان تصورات الفكر ، منها رُدت الى تصورات سابقة ، فليس كل ما يقع في النفس من التصورات يُعرف سببه ، اذ لا يطلع احد على مباديء الامور النفسانية ، وعلى ترتيبها ، اىما هي اشياء يلقاها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً ، والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغايتها . راجعا بحث العلامة ، في الفالب ، بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة .

ويعرف ابن خلدون بعجز العقل عن ادراك كنه الاشياء بذاتها فيقول : ولا تثنى بما يزعج تلك الفكر ، من انه مقتدر على الاحاطة بالكتانات ،

واسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وصفة رأيتك في ذلك .
واعلم ان الوجود عند كل مدرك ، في باديء رأيه ، منحصر في مداركه
لا يمدوها . والامر في نفسه يخالف ذلك ، والحق وراءه .

يقول هنا ، ثم يخشى ان يفهم من كلامه اتهام العقل بالعجز المطلق ، الذي
قال به الشكاك ، واهل السفسطة ، فيبادر الى القول : (وليس ذلك بقادح
في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، واحكامه يقينية لا كذب
فيها . غير انك لا تطبع انتuron به امور التوحيد والاخرة وحقيقة
النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طبع في الحال)
ومثال ذلك : مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، قطعه ان
يزن به الجبال . وهذا لا يدل على ان الميزان في احكامه غير صادق ،
ولكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له ان يحيط
بالله وصفاته ، فأنه ذرة من ذرات الوجود الخالص منه .

وهكذا يتفق ابن خلدون ، في هذا ، مع الفزالي ، وكثير من عقلاه
المتقدمين والمتاخرين ، الذين سوف ترى انهم لم يخرجوا عن هذا الرأي ،
في قدرة العقل وعجزه .

اما رأيه في الوجود فيعتمد فيه على الدليل المشهور ، دليل الحدوث ،
فيفعل :

(ان الحوادث في العالم ، سواء كانت من الذّوات او من الافعال ، لا بد
ها من اسباب متقدمة عليها ، وكل واحد من هذه الاسباب حادث ايضاً ،
فلا بد له من اسباب اخرى ، ولا تزال تلك الاسباب مُترقبة حتى تنتهي
الى مسبب الاسباب ، وموجدها ، وختالقها سبحانه لا الله الا هو) .

بَيْنَ وَحِيَّنِ

يقول حيران بن الأضعف : وفي مساء اليوم الثاني ، قال لي خادم المسجد المجنوز ، وهو يعطيني كتيباً صغيراً ، سلّمَ هذا الكتاب الى مولانا ، فقد مضى عليه يومان وهو يلتجئ في طلبه ؛ فأأخذت منه الكتاب ، ولاما دخلت على الشيخ ، ورأته في يديه ، بدا عليه البشر وقال :

الشيخ - وأخيراً وجدوه ... ليس الذنب ذنبهم ، على كل حال ، وإنما هو ذنبي . تصور ، يا حيران ، التي كتبت قد وضعت هنا الموجز في الفلسفة ، منذ عشر سنوات ، على ما اظن ، ثم طبعوه باذني ، وإنما اليوم لا أملك منه سوى نسخة واحدة لا ادري أين حلها ...

حيران - وما هو وجه الضرورة لهذا الموجز حق لج مولاي في طلبه ؟
الشيخ - ليس نسخة ضرورة ، ولكنني أريد أن الحفص للك قصة (حيي بن يقظان) ، وهي ملخصة في هذا الكتيب ، ففضلت أن أوفر على نفسى عناء تذكرها وتلخيصها من جديد .

حieran - لقد فهمت من مولاي الشيخ ، أنها قصة خيالية وضعها ابن طيفل ، فهل تكون الفلسفة ، التي هي البحث عن الحق ، في حنایا قصة من نسيج الخيال ؟

الشيخ - ليس في القصة من الخيال الا اسم البطل والمسرح ، يا حيران ، ولو أبدلتَ كلمة (حيي بن يقظان) بكلمة (القتل) ، واعتبرتَ ان الجريمة النائية هي ارضنا التي نعيش عليها ، لأنقلبت القصة تاريخاً صحيحاً ، ليس فيه اثر للخيال .. الا حيث يتخلى (القتل) ، (البطل) عن دوّره ...

حيران - وكيف ذلك يا مولاي ؟

الشيخ – ان آراء ابن طفيل ، في المعرفة ، والوجود ، والإيمان بالله ، والفضيلة ، واضحة في ثنايا قصته ، التي لو لا ما فيها من بعارة لابن سينا وغيره على اوهامهم في (مراتب الصدور) ، وكانت قصة الحق من الفلسفة ، بل قصة العقل ، كيف يتدرج في مسالك المعرفة ، ويترافق في مراتب الفلسفة ، حتى يُعرف الله والحق والخير والجمال ...

و قبل ان اقرأ عليك خلاصتها ، اريد ان اضع امام عينيك اهم الآراء ، التي اراد ابن طفيل ان يبسطها في ثنايا قصته ، لتكون علاماً بما بين السطور من مقاصد وافكار .

لقد اراد ابن طفيل ان يبين في قصته الحقائق الآتية :

أ – المراتب التي يتدرج بها العقل ، في سلم المعرفة ، من المحسوسات الجزئية الى (الافكار الكلية) .

ب – ان العقل الانساني قادر ، من غير تعلم ولا ارشاد ، على ادراك وجود الله ، بأثاره في خلوقاته ، واقامة الادلة الصادقة على ذلك .

ج – ان هذا العقل قد يعتريه الكلال والعيوب في مسالك الادلة ، عندما يريد تصور الازلية المطلقة ، والمعدم المطلق ، واللانهائية ، والزمان ، والقدم والحدث ، وما شاكل ذلك

د – ان العقل سواء ترجع لديه (قدم العالم او حدوثه) ، فان اللازم من كل واحد من الاعتقادين شيء واحد ، وهو وجود الله .

هـ – ان الانسان قادر ، بعقله ، على ادراك اسس الفضائل ، واصول الاخلاق العملية ، والاجتماعية ، والتحليّ بها ، واحضان الشهوات الجسدية لحكم العقل ، من غير اهان لحق الجسد ، او تفريط فيه .

و – ان ما تأمر به الشريعة الاسلامية ، وما يدركه العقل السليم ، بنفسه ، من الحق والخير والجمال ، يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف .

ز – ان الحكمة كل الحكمة ، هي فيها سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، دون مكافحتهم بحقائق الحكمة وامرارها ، وان الخير كل الخير للناس ، هو في التزام حدود الشرع ، وترك التعمق .

حيران - ما اشد شوقى الى قرائة هذه القصة العجيبة .

الشيخ - اليك تلخيص القصة :

يصور لنا ابن طفيلي ، طفلاً رضيعاً يسمى (حبي بن يقطان) ، ألقى
به في جزيرة خالية من الناس ، فحدثت عليه ظبية ، فقدت ولدها ، فارضعته
وتعهدته ، حتى ايقن وتعلم اصوات الحيوانات . ورآها كاسية مسلحة ، وهو
عار اعزل ، فانحدر من الورق والريش سراً وكسأة ، ومن العصى سلاماً ...
ثم ماتت الظبية ، فهاله سكتها وسكنها ، فأراد ان يعرف علتها ،
فلم يجد في ظاهرها تغيراً ، فتراجع عنده ان العلة في عضو محظوظ عن
بصره ، فشقى صدرها ، بالحمد لله من المبارة وشقاق القصب اليابس ، حتى
اهتدى الى قلبها ، فلم يجد في ظاهره آفة ، فلما شقه وجد البيت الاسر
منه خالياً ، فقال : ان هذا الشيء ، الذي كان في هذا البيت وارتحل عنه ،
هو الذي افقد الظبية حياتها . وانه يذكر في هذا الشيء ، فأدرك ان
الظبية هي ، في الحقيقة ، ذلك الشيء المرتحل . وما جسدها الا آلة .
وزاده يقيناً بهذا ، انه رأى الجسد يُشنق . ثم رأى غراباً يواري اخاه البيت ،
قواري ، هو مثله ، الظبية في التراب .

ثم اكتشف النار ، وقبس منها ، وانه يتعذبها ، وجرب ان يلقي
فيها بعض ماطرحة البحر من الحيوانات ، فاهتدى الى شيء اللحوم
وانضاجها ... وزاد عجبه من هذه النار التي لها قوى كبيرة ، وخطر بباله
ان الشيء الذي ارتحل من قلب الظبية قد يكون من جوهر النار ، فأخذ
يبحث عن ذلك بتلريح الحيوانات ، فتعلم كثيراً من وظائف اعضائها .
ثم بدا له ان يُعمر بيته يأوي اليه ، وان يتخد اسلحة يدافع فيها عن نفسه ،
ويصطاد بها الحيوانات .

وكان قد بلغ العام الحادي والعشرين من عمره فأخذ يتأمل في هذا
الكون ، وما فيه من حيوانات ونباتات ومعادن ، فرأى لها اوصافاً كثيرة
وافعalaً مختلفة ، وانها تختلف ببعض الصفات ، وتتفق في بعضها ، ف تكونت
عنه فكرة (الكثرة) . ثم اخذ ينظر الى الحيوانات والنباتات ، وما يتفق

فيه كل منها ، وما يختلف ، ف تكونت عنده فكرة (النوع) وفكرة (الجنس) . ثم رأى الحيوان والنبات جنسين متفرقين في بعض الامور كالنفدي ، فاعتقد أنها شيء واحد . ثم نظر إليها وإلى الجماد فرأى أن الثلاثة تتفق في (الجسمية) ، ولكن تختلف في الخواص الأخرى ، فأعتقد أن الكل شيء واحد ، وإن عنته الكثرة . ثم تأمل في هذه الأشياء كلها ، فوجد أنها تتحدد في معنى (الجسمية) وتحتاج في الصورة ، ولاح له أن الروح الحيواني لا بد أن يكون شيئاً زائداً على هذه الجسمية ، وهو الذي يصلح لأن يعمل تلك الأفعال الغريبة ، ويفهم ضروب هذه الأدراكات ؟ ففضل في عينه أمر (الروح) ، وعلم أنها أعظم وأسمى من الجسد الفاني . ثم أخذ يفكّر في أصل الأشياء فزعزع أن يبسطها الماء والتربة والهواء والنار ؟ فنظر لعله يجد وصفاً جاماً لهذه الأجسام ، فلم يجد إلا معنى (الامتداد) ولكن وراء هذا الامتداد معنى آخر وهو (صورة) الشيء الذي تبدل وتحول ، ف تكونت عنده فكرة (المادة والصورة) ، فأشraf بذلك على تجذّم العالم العقلي .

ثم عاد إلى الأجسام البسيطة ، فرأى صورها تتغير ، كلامه يكون ماء ، فيصبح يخاراً ، ثم يرجع ماء ، فادرك أن اختلاف الصور لا يمكن أن يكون من أصل الشيء ، وعلم أن كل حادث لا بد له من سبب . وتحقق له أن الأفعال المنسوبة إلى الأشياء ، ليست في المقدمة لها ، وإنما هي لفاعل يفعل بها . فحدث له شوق لمعرفة هذا الفاعل ، فجعل يطالبه من جهة المحسوسات ؟ ولكن لم ير ، في المحسوسات ، شيئاً يريضاً عن الحدوث ، والافتقار إلى الفاعل ، فأطربها كلاماً ، وانتقل إلى الأجرام ، وتذكر فيها وتساءل : هل هي ممتدة إلى ما لا نهاية ؟ فتغير عقله ؟ ثم ادرك ، بقوّة نظره ، أن جسماً لا نهاية له باطل ، وشيء لا يمكن ، ومعنى لا يعقل ، ثم تذكر في العالم يحملته ، هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن ، وخرج إلى الوجود بعد العدم ، أو هو أمر كان موجوداً ولم يسبقه العدم ؟ فتشكل في ذلك ، ولم يتراجع عنده أي الحكيم ؟ وذلك أنه كان إذا

ازمع على اعتقاد (القديم) ، اعتبرضته عوارض كثيرة ، من استحالة وجود لا نهاية له ، وان هذا الوجود لا يخلو من المخواط ، فهو محدث ايضاً ؛
واما ازمع على اعتقاد (الحدث) ، اعتبرضته عوارض اخر ؛ وذلك انه
كان يرى ان معنى حدوثه ، بعد ان لم يكن ، لا يفهم الا على معنى ان
الزمان تقدمه ، والزمان في جملة العالم ، وغير منفك عنه ، فاذًا لا يفهم
تأخر العالم عن الزمان . ثم كان يقول : لم احدثه المحدث الآن ، ولم
يمحدث قبل ذلك ، ألطارى طرأ عليه ، أم لتغير حدث في ذاته ، ولا
شيء هنالك .

وما زالت تعارض عنده الجحج ، حتى تحيّر ، وجعل يفكّر ما الذي
يلزم عن كل واحد من الاعتقادين ؟ فلعل اللازم عنها يكون واحداً .
قرأى انه ان اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد الدفن ،
فاللازم عن ذلك ، ضرورة ، انه لا يمكن ان يخرج الى الوجود بنفسه ،
وانه لا بد له من فاعل ينجزه الى الوجود ، وان ذلك ليس بجسم ،
لأنه لو كان جسماً ، لاحتاج الى محدث ، ولو كان المحدث الثاني جسماً ،
لاحتاج الى محدث ثالث ، والثالث الى رابع ، ويتسلى الى غير نهاية ،
وهو باطل . وان اعتقد قدم العالم ، فان اللازم عن ذلك ان حركته
قدّية ؛ وكل حركة لا بد لها من محرك ، ضرورة . والمحرك اما ان
يكون قوة سارية في جسم من الاجسام ، واما ان لا يكون كذلك .
وكل قوة سارية في جسم تقسم بانقسامه ، فتضيق بضعفه ، وكل جسم
لا محالة متجدد ، فكل قوة متجدد . فلا بد ان يكون المحرك بريئاً عن
المادة وعن صفات الاجسام . فاتّهى نظر (حي بن يقطان) ، من هذا
الطريق ، الى ما انتهى اليه بالطريق الاول . ولم يضره تشكيكه في قدم
العالم وحدوثه .

ثم رأى انه يتوجب ، عقلاً ، لهذا الفاعل العظيم ، جميع صفات
الكمال ، من علم وقدرة وارادة واختيار ورحمة وحكمة .
ولما حصلت له المعرفة بهذا الفاعل العظيم اراد ان يعرف باي شيء

عرفه ؟ فلم يجد في الحواس وسيلة لادراكه ، لأنها إنما تدرك الأشياء ، وهو بريء من صفات الأشياء . فتبيّن له أن ذاته التي ادرك بها هذا الفاعل ، بريئة من الجسم ، ثم تحقق له أن هذه الذات البريئة من الجسم لا يعترفها الفناء ، وإنما تتبع في حياة خالدة ، منعة أو معذبة ، بحسب ما كان لها من حظ الاقبال في حياة الدنيا ، على ملاحظة الفاعل المظيم ومرافقته ، فحمله هذا الاعتقاد على أن يفكّر بطريقة ينظم بها حياته ، ليتصرف إلى التأمل في هذا الخالق .

ولما نظر إلى نفسه ، رأى فيها شيئاً من سائر أنواع الحيوان ، يحيطه الحس ، وهو البدن المظلم الكثيف ، الذي يطالب بالحسوسات ، وعلم أن هذا البدن لم يخلق له شيئاً ، وإنما يجب عليه أن يصلح من شأنه ، وهذا لا يكون إلا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوانات ... ورأى أنه يشبه ، من جهة ثانية ، الكواكب ، من حيث أن لها أجساماً ، وذرات عارفة تعرف (الموجود الواجب الوجود) . ورأى من جهة ثالثة ، أنه ، يحيطه الأشرف ، الذي عرف به (واجب الوجود) ، فيه شبهة مماثلة ، فوقد في نفسه وجوب للتشبه بهذه الثلاثة : فيتشبه بالحيوانات في فعل ما يضمن صلاح جسمه وبقائه بقدر الضرورة والكافية ، ويقتصر على التغذى بالنباتات ، وإن لم يحيطها أحد من الحيوانات ، على شرط أن يحتفظ ببنود النبات ، وإن يختصار من الحيوانات أكثرها وجوداً ، وإن لا يستأصلها . ويتتشبه بالابرام الساوية ، من حيث أنها شفافة ومنيرة وظاهرة ، ومتحركة بالدوران ، ومن حيث أنها تعطي ، ما تحتها ، النور والحرارة ، ومن حيث كونها تشاهد (واجب الوجود) ، وتصرف بمحنته ، ولا تتحرك إلا بشيئته ؛ فاللزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضررة ، من الحيوان والنبات ، وهو يقدر على إزالتها ، إلا وزيلها ، ففي وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب ، أو تعلق به نبات آخر يؤذيه ، أو عطش عطشاً يكاد يفسده ، ازال عنه ذلك ؟ ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع ، أو نشب به ناشرب ، أو تعلق به شوك ، أو

مسه ظماً او جموع ، تكفل بازالة ذلك ، واطعمه واسقاء . ومن وقع نظره على ماء يسيل الى سقي نبات او حيوان ، وقد عاشه عن بصره عائق ، ازاله . وألزم نفسه التشبه بالكتواب بالطهارة والنظافة في جسده ولباسه . وألزم نفسه ، من ضروب الحركة ، الاستدارة مثلها ؛ فكان يطوف بالجزيرة ، ويدور على ساحلها ، او في بيته ، ادواراً متعددة ، اما مشياً او هرولة ، ويدم التشبه بها ، بالتفكير بالوجود الواجب الوجود ، ويحاول ان ينقطع عن عالم المحسوس ، وان يستترق في التفكير ، مستعيناً ، على ذلك ، بـ " حواسه ، والدوران على نفسه ، حتى يغيب عن احساسه ، ويتخلص من عوائقها ، ويتاح له مشاهدة الموجود الواجب الوجود .

اما التشبه بالله ، فرأى حبي بن يقطان انه لا يتيسر ، في صفات اليمباب ، الا في صفة العلم ، وهو ان يعلمه ولا يشرك به شيئاً . واما في الصفات السلبية ، التي تتنزه عن الجسمية فقد حاول (حبي) انت يتجزء من جسمانيته ، منقطعاً الى التفكير في الله ؛ فكانت تمضي عليه ايام ، وهو مستسلم الى هذه الغبوبة . وما زال يطلب الفنا عن نفسه ، والاخلاص في مشاهدة الحق ، حق تائى له ذلك ، وغابت ذاقه في جملة الذوات ، ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود . وحصل له من اللذة ، ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وتلك حال ، يقول (حبي) انه لا يمكن وصفها ، ولا التعبير عنها ؛ ومن رام شيئاً من ذلك ، فهو عازلة من يريد ان يذوق الالوان ، او يطلب ان يكون السواد حلواً او حامضاً ...

ثم يذكر ابن طفيل ، يا حيوان ، بلسان حبي بن يقطان ، وصفاً خيالياً غريباً لما شاهده في الملوك الاعلى ، والافلاك الاخرى ، بكلام يعترف ، هو نفسه ، انه غير مفهوم . ويقول فيه ان مجال العبارة ضيق ، وان الالفاظ توهם غير الحقيقة .

ثم ينتقل ابن طفيل ، في القصة ، الى وصف جزيرة قريبة من جزيرة حبي بن يقطان ، فيها ملة تدين بدین بعض الانبياء (ويعني بذلك الملة

الحمدية) ، وانه كانت من جملة المؤمنين ، بهندا الدين الجديد ، فتبيان
 (احدها يدعى (انسال) والآخر (سلانت) . فأخذنا يتفقان في الدين
 الجديد ، ومحاولان ادراك ما وراء تلك الشريعة من صفات الله وملائكته
 واخبار المعاد . فكان احدها (انسال) اشد غوصاً على الباطن ، واطمع
 في التأويل . وكانت الثانية (سلانت) اكثر احتفاظاً بالظاهر ، وابعد عن
 التأويل . فانصرف انسال الى اعتزال الناس ، اخذنا بما ورد ، في الشريعة ،
 من اقوال تحمل على (العزلة) . وانصرف سلانت الى معاشرة الناس ،
 اخذنا بما ورد ، فيها ، من اقوال تحمل على (مداراة الجماعة) . وكان اختلافها
 سبب افترائها . ثم ارتجل (انسال) الى الجزيرة ، التي فيها سبي بن يقطان ،
 ليغتزل الناس ، وينقطع الى العبادة . واجتمع (حبي) ؛ فلما سمع (حبي) ،
 قراءة انسال ، ورأى صلاته وتسبيحه ودعاه ، ادرك انه من الذوات
 المعرفة ، وان لم يفهم كلامه . وعلمه (انسال) اسماء الاشياء كلها ، حتى
 استطاع النطق والكلام . واحضر (حبي) صديقه الجديد بتاريخ حياته
 وكيف انه ترقى بالتفكير حق انتهى الى معرفة الله تعالى . فلما سمع منه
 (انسال) وصفه لذات الحق ، لم يشك في ان جسم الاشياء التي وردت
 في شريعته ، هي نفس ما عرفه حبي بن يقطان وادركه بعقله ، فتطابق عنده
 (المقول والمنقول) ، وقررت عليه طرق التأويل . ولما اخبر (انسال)
 صديقه (حبي) بما ورد في شريعته ، لم ير حبي فيه شيئاً على خلاف ما شاهده ،
 وعرفه بنفسه . فعلم ان الذي وصف ذلك ، وجاء به الحق في وصفه ، صادق
 في قوله ، رسول من عند ربه ، فآمن به وصدقه وشهد برسالته . ثم تعلم
 ما جاء به هذا الرسول من امر ونهي فالترمه كله . الا انه يقي في نفس حبي
 امران ، لم يتضمن له وجه الحكمة فيها : احدهما : لم يضرب هذا الرسول الأمثال
 للناس ، في اكثر ما وصفه ، من احوال العالم الاهلي ، ولم يضرب عن المكافحة ،
 حق وقع بعض الناس في التجسيم ، وأعتقدوا في ذات الحق اشياء هو منها عنها ؟
 والثاني : لم يقتصر هذا الرسول على هذه الفرائض ، وابايع اقتناه الاموال ،
 والتلوّح في المكاسب ، سعى لفراغ الناس للباطل ، واعرضوا عن الحق ؟

وحدثتْ (حبي بن يقطان) نفسه ، ان يتصل بالناس ، ويحدثهم بما اتضح له ، من الحق ، بالمشاهدة ، وفأوضح صديقه (ابسال) بذلك ، وفقيض الله لها سفينـة مارة بالقرب من الجزيرة ، فاقتلتـها الى جزيرة ابسال . واجتمع (ابسال) بـاصحـابـه ، وعرـفـهم بـحالـه (حـبيـنـ يـقطـانـ) وـمـقـامـه ، فـأـعـظـمـوه وـيـخـلـوـهـ وـاقـبـلـوـهـ عـلـيـهـ ، فـشـرـعـ (حـبيـ) فـي تـعـلـيمـهـ ، وـبـثـ " اسـرـارـ الحـكـمةـ " اليـهـ ، فـاـخـرـجـ عنـ الـظـاهـرـ الـاقـبـلـاـ ، حـتـىـ جـعـلـواـ يـنـقـبـضـونـ عـنـهـ فـيـلـسـ منـ اـخـلـاصـهـ - وـهـ خـاصـةـ الـقـوـمـ - فـكـيـفـ بـحـالـ العـامـةـ ، الـذـينـ وـجـدـهـ مـتـكـالـبـينـ عـلـىـ الدـنـيـاـ ، مـنـغـسـيـنـ فـيـ الـجـهـالـةـ ؟ فـتـحـقـقـ لـهـ اـنـ مـخـاطـبـةـ النـاسـ بـطـرـيقـ المـكـاشـفـ لـاـ يـقـنـعـهـ ، وـاـنـ تـكـلـيـفـهـ مـنـ الـعـلـمـ فـوـقـ الـقـدـرـ الـذـيـ كـلـفـوـهـ لـاـ يـكـنـ ، وـاـدـرـكـ اـنـ الحـكـمةـ كـلـهـ ، وـاـهـدـيـةـ وـالـتـوـقـيـتـ فـيـاـ نـطـقـ بـهـ الرـسـلـ ، وـوـرـدـتـ بـهـ الشـرـيـعـةـ ، وـاـنـ لـكـلـ عـلـمـ رـجـالـاـ ، وـاـنـ كـلـاـ مـيـسـرـ لـاـخـلـقـ لـهـ . فـأـنـصـرـفـ اـلـىـ (سـلـيـانـ) وـاصـحـابـهـ ، مـنـ اـهـلـ الـظـاهـرـ ، وـاعـتـدـرـ اليـهـ عـماـ تـكـلمـ بـهـ مـعـهـ ، وـاعـلـمـ اـنـهـ قـدـ رـأـىـ مـثـلـ رـأـيـهـ ، وـاهـتـدـىـ لـمـثـلـ هـدـيـهـ ، وـاوـصـاهـ بـالـتـزـامـ مـاـ هـمـ عـلـيـهـ مـنـ الـوقـوفـ عـنـ حدـودـ الشـرـعـ ، وـالـاعـيـانـ بـالـتـشـاهـيـاتـ ، وـالـتـسـلـيمـ بـآـيـاتـهـ ، وـاجـتـنـابـ الـخـوضـ فـيـاـ لـاـ يـعـنـيـهـ ، وـالـاعـرـاضـ عـنـ الـبـدـعـ ، وـالـاهـوـاءـ ، وـالـاقـتـداءـ بـالـسـلـفـ الصـالـحـ ، وـاـنـهـ لـاـ نـجـاحـ الاـيـهـذـهـ الـطـرـيقـ ، وـاـنـهـ اـنـ اـرـتـقـسـواـ ، اـلـىـ يـهـاـعـ الـاـسـبـصـارـ ، اـخـتـلـلـ مـاـ هـمـ عـلـيـهـ مـنـ اـمـرـ دـيـنـهـ ، وـتـذـيـدـهـواـ ، وـاتـكـسـواـ وـسـاءـتـ عـاقـبـتـهـمـ ؛ وـاـنـهـ بـقـواـ عـلـىـ مـاـ هـمـ عـلـيـهـ مـنـ اـمـرـ دـيـنـهـ فـازـواـ . ثـمـ وـدـعـهـ وـعـادـ مـعـ صـاحـبـهـ (اـبـسـالـ) اـلـىـ جـزـيرـةـهـ ، وـبـقـيـاـ فـيـهـ ، يـعـبـدـهـ اـللـهـ تـعـالـىـ ، حـتـىـ اـعـلـمـهـ بـالـيـقـيـنـ .) .

خُصُوصَةُ الْمُؤْمِنِينَ

يقول حيران بن الضعيف : قضيت نهاري كله كالشلل النشوان بما سمعته
أمس من قصة (حي بن يقطنان) ، وعكفت عليها ، حق اقبل الليل ،
اكرر تلاوتها ، واقصر فيها كشفه ابن طفيل من الحق في امر القيدم
والخدوث ، ولا سيما قوله ان ارتباك العقل وكلاله عن تصوّرها ليس بقادةح
في الاعيان بالله ، لأن العقل اذا آمن بحدث العالم ، آمن بوجود الله الذي احدثه ،
وإن كلّ عن تصور الحدوث فطن بالقدم ، فإنه لا بد من الانتهاء ، بهذا
أيضاً ، الى اليمان بوجود الله الذي اعطى المادة حركتها الدائنة . ولما دخلت
على الشيخ ، بعد صلاة العشاء ، لاحظ على وجهي آيات البشر ، قبسم وقال :
الشيخ - الآن بدأت تباشير الفجر يا حيران .
حيران - اي فجر هذا يا مولاي ؟

الشيخ - فجر ايمانك بان الفلسفة والدين لا يتناقضان عند اهل العقول
السليمة . والا فما اراك مستبشراً ؟
حيران - هذا هو الحق يا مولاي .

الشيخ - سأحدثك اليوم عن صاحبك الغزالي الذي طالما كنت تتعجل
المدحث عنه .

حيران - ما اعظم شوق الى حديثك عن الغزالي .
الشيخ - وانا ايضاً ما اعظم شوق الى تحدثك عن الغزالي بالذات .
حيران - وما وجده الشوق عندك يا مولاي ؟

الشيخ - ان الغزالي ، في شبابه ، صورة عنك وعن امثالك من الناشئة
في شكله وحياته ، وولوعه بالفلسفة ، ورغبته في معرفة الحق ؛ فلعل
قلبك يطمئن اذا عرفت احواله ورأيت ان هذه الشك ، الذي انت فيه ،

قد يُعاري اعظم العقول اتزاناً واصدق القلوب ايقاناً . هذا وجه الشوق عندك ؟ فما هو وجه الشوق عندك ؟

حيران - اني سمعت ان شهرة الغزالى طبّقت المافقين ، حتى لقيوه بمحاجة الاسلام ثم رأيت أن كثيراً من علماء الدين لا تعجبهم طريقته .

الشيخ - هؤلاء هم العلماء (السلفيون) الذين يكرهون هذا التعمق الفلسفى في الاستدلال على وجود الله ، وفي البحث عن صفات كماله ، فلا يعجبهم الخوض مع الفلاسفة ، ولو كان للرد عليهم ، لا من الغزالى ولا من علماء الكلام ، فكيف اذا رأوا عالماً من علماء الدين يبلغ به الخوض في الفلسفة الى ان يضع كتاباً خاصاً في تبسيط آراء الفلسفة وادلتهم وشبهاتهم واستشكالاتهم كأنه واحد منهم ؟

حieran - وهل يرى مولاي ان اولئك السلفيين على حق في كراحتهم للخوض مع الفلاسفة ، اذا كان الخوض للرد على شبهاتهم ؟

الشيخ - انهم كانوا على حق قبل ان تعم البلوى ؟ فقد كان المسؤولون في العصر الأول من الاسلام لا يعرفون هذا الجدل الفلسفى حول وجود الله وصفاته ، واما بعد ان ترجمت الفلسفة اليونانية ، وخاص كثير من علماء المسلمين فيها والتقو ، وانتشرت بين الناس شبهة الفلسفة واشتهرت وعنت البلوى ، وانبرى كثير من علماء الدين للرد على تلك الشبهة ، فقد اصبح الخوض في الفلسفة امراً لا بد منه ، بل اصبح الاطلاع عليها واجباً على علماء الدين بوجه اخص ليتمكنوا من حسن الدعوة الى الاعيان بالله .

حيران - ولكن مولاي يقول ان الغزالى وضع كتاباً خاصاً بسط فيه آراء الفلسفة كأنه منهم ، من غير أن يرد عليهم .

الشيخ - يقول الغزالى ، وما أصدق ما يقول : (ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنته ، رد في عمارة) وهذا رأى أن يطلع على آراء الفلسفة الالهيين اطلاعاً تاماً قبل ان يرد عليهم ، فوضع كتابه المسماً (مقاصد الفلسفة) الذي بسط فيه آراءهم وشبهاتهم واستشكالاتهم بسطاً وافياً كأنه احدهم ، شأن القوي الراسي على صخرة الحق ، لاشان الضعيف المتقلل

الذي يحمد الخوف على انت يطوي بعض ادلة الخصم او يحيطها بمحاجب من الغموض والاهمام ، واراد بذلك ان يبرهن لهم على انه كامل الاطلاع على اقوالهم ، عميق الفهم لشبهاتهم . ثم وضع بعد ذلك كتابه الشهير (تهافت الفلسفة) الذي قولي¹ به إبطال ما يخالف العقل والدين من اقوال اولئك الفلاسفة الالهيين المقربين بوجود الله القائلين يقدم العالم مع الله ، دون سواهم من الماديين المسكرين بوجود الصانع ، الذين قال عن مذهبهم : (ان هذا المذهب المادي لم تقل به الا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوبة والآراء المعكوسه الدين لا يُؤبه لهم ولا يُعبأ بهم ففيما بين النظائر) .

حيران – كيف ذلك يا مولاي وانا ارى ان مذهب الماديين اشد خطراً على الابيان ؟

الشيخ – انت تراه اشد خطراً في هذا العصر الذي نحن فيه ، اما في عصر الغزالي فقد كان الابيان بوجود الله اقوى من ان يتطرق اليه الشك ، واما هي "شبة" عرب الناس ، بعد ترجمة كتب الفلسفة الالهيين ، ولا سيما ارسطو والافلاطونية الحديثة ، في كيفية الخلق وزمانه وقدم العالم وغير ذلك ، فأراد الغزالي ، وهو رجل الدين ، ان يفرغ الى معالجة هذه البلوى وإبطال هذه الشبة .

حieran – لقد ذكر مولاي الشيخ ، عند الحديث عن ارسطو ، بعض الذي ردّ به الغزالي عليه في مسألة خلق العالم ، فأرجو ان اسع الان ايضاحاً لكل ما ورد في كتابه (تهافت الفلسفة) .

الشيخ – سأبسط لك ، من كتاب التهافت ، كلامه في حدوث العالم ، وكونه خلوقاً لله ، وماردّ به على الفلسفة في هذا الباب دون سواه . اما ردوده في الابواب الأخرى فلا اذكرها لانها كلها تتتطوى تحت هذا البحث الامم الأعظم ، ففي تم² الابيان بوجود الله ، وبأنه هو الخالق لهذا العالم ، اصبح الجدل في الامور الأخرى هائلاً . ولكنني سأحدثك اولاً عن رأيه في المعرفة لترى كيف كان شكه في حواسه وعقله ، وكيف عالج هذا الشك بالأدلة العقلية الأولية البديهية ، كما عالجه (ديكارت) الذي جاء بعده بستة عصور .

يصف الغزالي شكته فيقول : ان التعطش الى درك الحقائق كان دأبه ودينه ، وانه حاول ان يعرف حقيقة الفطرة التي يكون عليها الانسان قبل الاعتقادات العارضة ، ليتوصل بذلك الى العلم اليقيني الذي لا يتطرق اليه ريب ولا يتسع القلب للشك فيه ؛ ولما امتحن علومه لم يجد من بينها علما يبلغ مرتبة اليقين الا الحسّيات والعقليات ؛ ولكنه تأمل في المحسوسات فلم يجد فيها امانا لأن العين قد تخدع فتري الظل ساكنا وهو متحرك ، وترى الكوكب صغيراً وهو اكبر من الارض . ورأى ان الذي كذب الحس وعرفه خداعه هو العقل . ولما بطلت ثقته بالمحسوسات لم يبق لديه الا العقليات . فحاول ان يشكك نفسه فيها فرأى أنه كان واثقاً بالمحسوسات حتى كذبها العقل ، ولو لاه لاستمر على تصديقها . ولعل ورائه العقل حاكما آخر اذا تجلّى كذب العقل في حكمه كما تجلّى العقل فكتّب الحس في حكمه . وتوقف عقله في الجواب وتأيد الشك والاشكال عنده بما يراه النائم من امور يعتقد اتها حقيقة ثم يظهر له عند اليقظة انه لم تكن الا احلاماً . ودام شكته هذا مدة شهرين كان فيها ، كما يصف نفسه ، على منذهب السفسطة ، بحكم الحال لا بحكم النطق والقال .

ثم ما زال يتأمل حق وقر في نفسه انه ليس له علاج الا بالدليل ، فأدرك ما ادركه (عمانوئيل كانط) بعده بستة عصور ، وهو وجود الافكار الفطرية وهي الاوليات الضروريات البديهيات التي لا تقوم الادلة الصحيحة الا عليها ، ولا يصل العقل الى اليقين الا بها ، ورأى ، مثلاً رأى الفارابي من قبل ، ان هذه الاوليات هي معانٍ ظاهرة مركبة في الذهن ولا شيء اظهر منها ، ولا يرهن عليها ، لأنها بيتنة في نفسها ويقينية الى اقصى درجات اليقين ، ولا يمكن الاستغناء عنها في اقامة البرهان على اي قضية ، لأنها اسس واصول بديهية لا مجال للشك فيها عند عاقل .

ثم نظر فيما قالوه عن الادراك الحسي والادراك العقلي ، فرأى ان المحسوس تأتي بالمدركات الحسية بمجموعة فيتناولها العقل بالتفصيل والمقارنة ، ولكنه أدرك ، كما ادرك من قبله ابن سينا ، ان هذا العقل بمحكم بثبوت

شيء لا اشارة له ولا وضع ولا يكون منشؤه الحس ، وهو المعمول في نفسه لا المدرك من المواد . اي انه ادرك كما ادرك عمانوئيل كافط من بعده ان للعقل فطرة خاصة يتمكن بقوتها من اصدار احكام الشائبة الجديدة لا يكون منشؤها الحس ولا يمكن ادراها من المواد . وهكذا رجع الى يقينه بالعقل واحكامه ، كما رجع (ديكارت) من نفس الطريق وبنفس الاقوال .

واذا لم يكن الغزالي سابقاً في ادراكه ان هذه الأوليات البدئية ليس منشؤها الحس ، فإنه ليسمو على السابقين واللاحقين حين يبحث ، في ردة على ارسطو ، عن معنى (الزمان والمكان) ، ويصف ارتباك العقل عند تصور الزمان الذي لا زمان قبله والمكان الذي لا مكان بعده . وسوف ترى يا حيران ان عمانوئيل كافط ، الذي جاءه بهذه باجيال ، قد اخذ ، في قضية الزمان والمكان ، وارتباك العقل فيها ، بجميع ما قاله الغزالي .

حيران - ما اعظم افتخاري بهذا السبق ، وكم انا مشتاق الى سماع كلامه في هذا الباب .

الشيخ - ان جوهر البراهين التي يسوقها الغزالي للرد على القائلين يقدم العالم يكاد يكون مرتکزاً على الكلام في (صفة الارادة) التي غفل ارسطو وغيره عن تحديد معناها ، وعلى الكلام فيحقيقة معنى (الزمان) .

يقول الغزالي لأرسطو ولل فلاسفة الالهيين : انكم تمارفون بوجود الله وتصفونه بكل صفات الكمال ، ولكنكم قلتم بقدم العالم وبأنه لم يزل موجوداً مع الله ، ومعلولاً له ومساوياً معه ، غير متأخر عنه بالزمان ، مساوية المعلوم للعلة ، وان " تقدم الله على العالم هو كتقدم المقدمة على النتيجة " ، أي هو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان ، وان صدور العالم عن الله كان صدوراً (ضرورياً) . والذي يعากم الى هذه المزاعم انكم قلتم : لا يمكن صدور حدث من قديم لأن القديم اذا لم يصدر عنه العالم ثم صدر فلا بد لهذا الصدور من مرجع ، فمن هو محدث هذا المرجع ، ولم لم يحدث العالم قبل حدوثه ؟ وانه لا يمكن ان يحال ذلك على عجز

القديم عن الإحداث ، ولا على استحالة المحدث ، ولا يمكن ان يقال لم يكن قبله غرض ، ثم تجده غرض ، ولا ان يحال على فقد آلة ، ولا ان يقال صار مريداً بعد ان لم يكن مريداً ، لأن حدوث الارادة في ذاته محال . واستشكلت في (مدة الترك) التي مضت قبل ان يخلق الله العالم ، فقلت ان الله قبل خلق العالم كان قادرآ على الخلق فكانه صبر ولم يخلق ثم خلق . ومدة الترك هذه ان كانت متناهية صار وجود الباري متناهي الاول . ولا يجوز عقلاً ان تكون غير متناهية .

وبعد ان يفصل الغزالي اقوال الفلاسفة ويورد حججهم لا ينقص منها شيئاً ، شأن القوي " الواثق من قدرته على دحضها ، يرد عليهم من اسهل طريق واهونه ردًا بسيطًا موجزاً ينبعش من نفس اقوالهم وادلتهم ومن احكام المنطق التي وضعوها ، ومن اعترافهم بوجود الله واقرارهم بصفات كماله ، فيقول لهم ما خلاصته :

لقد استبعدتم صدور حادث من قديم ، ولا بد لكم من الاعتراف به ، فان العالم (حوادث) وها اسباب . فان قلت ان الحوادث استندت الى حوادث الى غير نهاية فهو محال ، وليس ذلك معتقد عاقل . ولو كان مكناً لاستئنفتم عن الاعتراف بالصافع واثبات واجب الوجود . واما كانت (الحوادث) لها طرف ينتهي اليه تسللها فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلا بد اذاً ، على اصلكم ، من تجويز حادث من قديم .

اما قولكم بتصور العالم عن الله صدوراً (ضروريًا) فان هذا الصدور الضروري لا يسمى (فعلاً) . ومن قال ان السراج يفعل الضوء والشخص يفعل الظل" فقد جازف وتوسّع في التجوز ، فالفاعل لا يسمى فاعلاً بغيره كونه سبباً بل بكونه مسبباً على وجه مخصوص ، وهو وقوع الفعل منه على وجده (الارادة والاختيار) . وتصور المعلول عن علته صدوراً (ضروريًا) لا يكون الا اذا تكافأ المعلول مع العلة ، وليس بين الله والعالم (التفير) تكافؤ حق يصدر عنه العالم صدوراً ضروريًا .

وانت تعرفون بوجود الله وتصفونه بكل صفات الكمال ، ومن اول

صفات الكمال (القدرة والارادة) ، والارادة صفة من شأنها تغيير أحد الصدرين عن الآخر ، ولو لا ان هذا شأنها لاكتفينا بوصف الله (بالقدرة) . ولكن لما تساوت نسبة القدرة الى الصدرين (يعني الایجاد والعدم) كان لا بد من صفة تخصص الشيء عن صدره وهي الارادة .

فاما وانه قد ظهر ان الارادة من جملة صفات الكمال المتوجبة له عقل ، وان الخلق بعد العدم لا يكُون بمجرد القدرة بل لا بد له من الارادة التي تفضل الایجاد على العدم ، فلم تتذكرةن على من يقول ان العالم حدث (بارادة قديمة) اقتضت وجوده في الوقت الذي " وجد فيه " ، وان يستمر العدم الى نهاية التي استمر اليها ، وان يبتدئ " الوجود من حيث ابتدأ " ، وان الوجود قبله لم يكن مراداً فلم يحدث ، وانه في وقته الذي حدث فيه مراد بالارادة القديمة ؟ فما المانع لهذا الاعتقاد وما الحيل له ... ؟

حيوان – هذا ، لمعري ، كلام في غاية الوضوح ، فالفلاسفة الالهيون هم الذين قالوا ابن العالم (متغير) وهم الذين قالوا ان العالم (حوادث) لها اسباب وعلل ، وهم الذين قالوا باستحالة (التسلسل) الى غير نهاية ، وهم معرفون بوجود الله ، ومقررون بتوجّب كل صفات الكمال له عقل ، ومن ابرز صفات الكمال (الارادة) التي معناها ان يكون الله مربداً مختاراً يخلق او لا يخلق ، و اذا قضى بالخلق سدد له وقته . وبهذه الارادة القديمة تنتفي كل الشبهة التي ذكروها عن تجدد مرجح أو تجدد غرض .

هذا ظاهر ؛ ولكن حسيف استطاع الغزالي ان يرد على استشكالهم في (مدة الترك) التي مضت قبل خلق العالم ؟ ان ذهني يكل يا مولاي عن تصور ان تكون مدة الترك متناهية لأن هذا يؤدي الى اعتبار وجود الله متناهي الاول في الزمن ، وان قلت انها غير متناهية في الزمن فكيف اذا خلق العالم ؟

الشيخ – هنا يتسامي الغزالي في تفكيره ف يأتي بكلام بديع يسبق به الاولين والآخرين فيبين معنى الزمان الذي لم يكن له وجود قبل خلق العالم .

حيوان – الزمان لم يكن له وجود قبل خلق العالم ؟

الشيخ - نعم نعم ان الزمان لم يكن له وجود ولا يمكن تصور وجوده قبل خلق العالم . فما هو الزمان يا حيران ؟ هل هو شيء سوى الفكرة التي تتصورها من تعاقب الحوادث في العالم ؟ وإذا لم يكن عالم ولا حوادث تعاقب فكيف تتصور الزمان ؟ ولكنك مغمور في كلام ذهنك عن تصور زمان حادث مبتدأ لا زمان قبله ؟ وهذا ما ادركه الغزالي وادركه من بعده عمانوئيل كافنط .

حيران - ماذا يقول الغزالي ؟

الشيخ - انه يقول للذين استشكّلت عقولهم في (مدة الترك) وكونها متناهية أو غير متناهية : ان الزمان حادث وخلق وليس قبله زمان اصلا ... وما تصوركم وجود الزمان الا من عجز الوهم . فان الوهم يعجز عن فهم وجود مبتدأ الا مع تقدير (قبل) له . وذلك (القبل) الذي لا ينفك الوهم يظن انه شيء محقق موجود هو (الزمان) . وهذا العجز في الوهم كعجزه عن ان يقدر تناهي الجسم في جانب الرأس ، مثلا ، الا على سطح له (فوق) . فيتوجه ان وراء العالم مكانا ، اما خلاء واما ملء . واذا قيل له ليس فوق سطح العالم (فوق) ولا بعد ابعد منه ، كل الوهم عن الانجان ...) .

والوهم ، في تقديره فوق العالم خلاء ، خطيء ، لأن الخلاء هو بعد لا نهاية له . والخلاء في نفسه غير مفهوم . فالبعد تابع للجسم . فاذا كان الجسم متناهياً كان البعد التابع له متناهياً ، فانقطع الخلاء . فثبتت ان ليس وراء العالم لا خلاء ولا ملء ، ولكن الوهم لا يذعن لقبول هذا . وكما جاز ان يكون الوهم خطئاً في تقدير (البعد المكاني) ، فكذلك يكون خطئاً في تقدير (البعد الزماني) ، فالبعد المكاني تابع للجسم ، والبعد الزماني تابع للحركة . لأن البعد المكاني هو عبارة عن امتداد اقطار الجسم ، والبعد الزماني هو عبارة عن امتداد الحركة ، وكما ان قيام الدليل على تناهي اقطار الجسم منع اثبات بعدي مكاني وراءه ، فقيام الدليل على تناهي الحركة ينبع من تقدير بعدي زماني وراءها) .

وهكذا يبسط الغزالي فكرتهِ الزمان والمكان ، ويعتبرها نابعتين من خلق العالم وتحريكه ، ويرى انه لا يصحَّ ان تكون قضية الزمان اساساً للبرهنة على قسم العالم أو حدوثه . وسوف ترى ، يا حيران ، انه فيما ذكره عن اثر الوهم في تصور البعد المكاني والبعد الزمني ، قد سما على اهل عصره ، وتقدَّ بيصيرته الى ما انتهى اليه عقل (عما وُئْلِيَ كانط) ، بعده ستة عصور ، حتى ليكاد ، الواحد منها ، يكون متفقاً مع الآخر بالالفاظ ، فضلاً عن المعاني ... فهل اخذ الثاني عن الاول ، أم هو الحق الذي تلاقى عليه العقول السليمة يا حيران ...؟

ثم يلتفت الغزالي الى الذين اخذوا برأي الافلاطونية الحديثة في مراتب الخلق والصدر ، فيشبعُهم بهكذا حيث يقول عن زعمهم ان الواحد لا يصدر عنه الا واحد : (يلزم من قولكم هذا ان لا يكون في العالم شيء واحد مركب من افراد ، بل تكون الموجودات كلها آحاداً ، فكيف ، اذاً ، وجدت هذه المركبات التي زواها في العالم ؟ أمن علة واحدة ، فيبطل قولكم لا يصدر من الواحد الا واحد ، أو عن علة مركبة ، فيتجوَّه السؤال نفسه في تركيب العلة ...)

واما عن قولهم ان المبدأ الاول فاض عنه (العقل الاول) وبتعنته لعلته يصدر عنه عقل ثان وثالث ، وافلاك ونفوس ، فيقول لهم : (ان ما ذكرتموه تحكمـات ، وهي ، على التحقيق ، ظلمات فوق ظلمات) لو حكاـه انسـان عن منـام رأـه ، لا تستـدل به على سـوء مـزاجـه . وانه ، على رأـيـكم هذا ، يكون المـعـلـول اـفـرـفـ منـ العـلـةـ ، من حيث انـ العـلـةـ ماـ فـاضـ عنهاـ الاـ وـاحـدـ ، وقد فـاضـ عنـ هـذـاـ ثـلـاثـةـ : عـقـلـ وـنـفـسـ وـفـلـكـ ، ومن حيث انـ الاولـ ماـ عـقـلـ الاـ نـفـسـ ، وـثـانـيـ عـقـلـ نـفـسـ ، وـنـفـسـ المـبـدـأـ ، وـنـفـسـ المـعـلـولـاتـ ... ومن قـنـعـ انـ يـكـونـ قولـهـ فيـ اللهـ تـعـالـيـ رـاجـعاـ الىـ هـذـهـ الرـقـبةـ ، فقد جـعلـهـ اـحـقـ منـ كـلـ مـوـجـودـ يـعـقـلـ نـفـسـ وـيـعـقـلـ غـيـرـهـ ؛ وقد اـنـتـهـيـ بـكـمـ التـعـقـمـ فيـ التـعـظـيمـ اـلـىـ اـنـ اـبـطـلـمـ كـلـ مـاـ يـقـنـعـهـ مـنـ الـعـظـمـةـ ، وـقـرـيـتـ حـالـهـ مـنـ حـالـ الـبـيـتـ ، وهـكـذاـ يـفـعـلـ اللهـ بـالـزـائـنـينـ .)

يقول حيران بن الأضعف : وهذا سكت الشيخ الموزون ، وأغضض عينيه ،
واحني رأسه ، واستسلم إلى سكون عميق حتى خلته يشكو شيئاً ، ولكنني
احترمت صحته وصبرت . وبعد برهة وجيزة رفع رأسه فسألته :

حيران - هل يشكو مولاي الشيخ شيئاً ؟

الشيخ - كلا يا حieran لا يشكو شيئاً ولكنني ، وقد انتبهت من الحديث
عن الغزالى ، استعرض الكلام عن ابن رشد ، فأرى أن ترك الحديث عنه
إلى الليلة القادمة .

حieran - أرجو أن لا يقطع مولاي سلسلة الحديث عن هذين الخصمين .

الشيخ - أيّ خصمين ؟ إنها خصومة المؤمنين يا حieran .

حieran - ماذا يريد مولاي بخصوصة المؤمنين ؟

الشيخ - إن ابن رشد يتفق مع الغزالى في جميع آرائه عن الوجود
والخلق والخالق .

حieran - كيف ذلك وانا اسمع ان ابن رشد ، هو عدو الغزالى ونادمه
ومخالفه في كل آرائه ، حق انه وضع في نقهه كتابه المشهور (ثهافت
التهافت) . واسع ايضاً ان ابن رشد كان من القائلين بقدم العالم ، وبانكار
الروح والعقل والشخصية الانسانية ، وهذا اثيم بضعف الايات ، وشكب
في هذا السبيل نكبة كبيرة .

الشيخ - إن ابن رشد عالم من اعظم علماء الدين ، وفيه مفكرون من اصدق
الفلسفه المؤمنين ؟ فكمن على يقين من هذا ، ويا لك ان تأخذ او تؤخذ بما
اتهمه به بعض رجال الامهات ، او علماء الكلام ، او بما اذيع عنه بين
ال العامة من سوء القالة ، فكلهم قد اخطأوا في فهم هذا المفكر العبقري المؤمن .

والذي جعل الناس يظنون به الظنو ، يرجع إلى اسباب كثيرة ،
منها العرضي ، ومنها الجوهري . أما العرضية : فنها إن ابن رشد اولع
بفلسفة ارسطو وشرحها ، على ما روي عنه ، شروحاً ثلاثة : شرح مختصر
كان الكلام فيه لابن رشد ، وشرح متوسط كانت ابن رشد يتناول فيه ،
عند مطالع الفصول ، فقراتٍ من كلام ارسطو ويشرحها ، وم منها شرح

مطول كان يذكر فيه كلام ارسطو فقرة فقرة ويشرحه شرعاً وافياً . ولا يخفى عليك ان طريقة الشرحين المختصررين قد تحمل الفارق على الظن بأن الكلام يعبر عن رأي ابن رشد نفسه ، والحال ان ابن رشد انا كان في كل ذلك يفسر كلام ارسطو .

ومنها اغلاط الترجمة ، قأن ابن رشد لم يأخذ فلسفة ارسطو عن كتبها اليونانية ، بل اخذها معرية مخلوطة بما كتبه الاسكندر الافروdisy ، وثامسطيوس الاسكندري . ثم لما أخذ الافرنج فلسفة ابن رشد ، لم يأخذوها من كتبه العربية ، بل اخذوها من المترجمات اللاتينية والعبرانية . وتأهيلك بما يقع في هذه السلسلة الطويلة من التعریب والترجمة والنحو من تشويش وايهام ، وخلط بين آراء ابن رشد الخاصة ، وآراء ارسطو وأفلاطون ، والافلاطونية الحديثة . وهذا ما جعل الفيلسوف اللاهوتي توماس اكويناس ، يرمي ابا الوليد باللحاد ، ويحمل عليه حلة شعواء بلغ من اشتئارها ، بين الناس في اوروبا ، ان احد المصورين وضع صورة كبرى جعل فيها اكويناس على كرسى عالى ، وابن رشد ساقطاً على الأرض امامه ، اشارة لانتصار اكويناس على ابي الوليد . ومن الغريب ان هذه الصورة الفلسفية حوت ايضاً صوري ارسطو وأفلاطون ، وقد جعلا في مكان قريب من اكويناس ، وفي يد كل منها كتاب يقصد منه شعاع الى رأسه ، توجهها بما استفاده من فلسفتها ، وما قبسه من ثورها . اما ابن رشد ، الذي لم يكن له عمل سوى شرح ارسطو ، والذي يتضح من كتبه الخاصة التي يقيت لها انه من اعظم المؤمنين بالله وبيوم الدين ، فقد جعله المصوّر الفيلسوف مطروحاً ارضاً ، كالملوّب الملعون . والحال ان توماس اكويناس اذا كان قد انتصر حين قال بوجود الله ووحدانيته وحدوث العالم ، فاما انتصر على ارسطو وأفلاطون اللذين يشير المصوّر الى كونه تلقى النور منها ، واما انتصر بالأدلة التي اتفق عليها ابن رشد مع الفزالي

ومن اسباب النكبة ان ابن رشد كان معجبًا بارسطو الى حد التقديس . ومن هنا اتاه الحرص الشديد على الدفاع عن آرائه وتأویلها . فلما وضع الفزالي

كتابه (تهافت الفلسفة) ، وردّ فيه على ارسطو وغيره ، في مسألة قدم العالم وخلقه ، عبد ابن رشد للردّ على الغزالي في كتاب سماه (تهافت التهافت) . فنذاع بين الناس ان (حجۃ الاسلام) يدافع عن الدين ، وأن ابن رشد يكذبه . والحق ان الرجل لم يكذب الغزالي ، ولا كذب المتكلمين من الاشاعرة في الامور الجوهرية . ولكنـه ، سامعـه الله ، لم يكن مخلصاً كل الاخلاص في وضع هذا الكتاب ، وفي تسميـته ، ولا مبرأً من حبـ التـحدـق ، واظهـارـ الفـضـلـ والـسبـقـ فيـ مضـمارـ الفـلـسـفـةـ ، فـناقـشـ الـامـامـ ، فيـ كلـ ماـردـ بهـ عـلـىـ الفـلـسـفـةـ منـ المسـائلـ ، مـناـقـشـةـ لمـ يـقصـدـ يـهـاـ إـيـطالـ الحـقـائـقـ الـتـيـ دـافـعـ عـنـهاـ الـامـامـ ، بلـ اـرـادـ يـهـاـ اـظـهـارـ خـطـاءـ فيـ طـرـيـقـ الـاسـتـدـالـلـ ، وـتـقـصـيرـهـ فيـ فـهـمـ مـقـاصـدـ الـفـلـسـفـةـ . وـقـدـ كـانـ ، رـحـمـهـ اللهـ ، فـيـ غـنـىـ عـنـ هـذـاـ الـلـفـزـ وـالتـقـيـقـ ، معـ رـجـلـ يـدـافـعـ عـنـ الدـينـ ، وـكـانـ يـكـفـيـهـ أـنـ يـتـنـاؤـلـ الـمـسـائـلـ الـكـبـرـيـ كـوـجـودـ اللهـ وـخـلـقـ الـعـالـمـ ، فـيـسـيـنـ ، باـسـلـوبـ الـعـالـمـ الـخـلـصـ الـعـفـ (الـلـسـانـ) ، أـنـ الـفـلـسـفـةـ لـمـ يـنـكـرـهـاـ ، وـيـتـنـاؤـلـ لـهـ مـاـشـاءـ وـارـادـ مـنـ اـقـواـلـهـ ، مـنـ غـبـرـ غـزـ اوـ مـلـزـ ، وـمـنـ هـوـنـ اـنـ يـسـمـيـ كـتـابـهـ (ـتـهـافـتـ التـهـافـتـ) ، فـيـ مـقـابـلـةـ تـسـمـيـةـ الغـزـالـيـ لـكـتـابـهـ ؟ فـفـيـ هـذـهـ التـسـمـيـةـ ، مـنـ الـظـلـمـ وـقـصـرـ النـظـرـ ، مـاـلـاـ يـتـنـقـقـ مـعـ الـحـقـ وـالـحـكـمةـ وـالـاخـلـاصـ وـالـادـبـ مـعـ اللهـ . فالـغـزـالـيـ اـنـاـ سـمـيـ مـكـتـابـهـ (ـتـهـافـتـ الـفـلـسـفـةـ) وـهـوـ يـعـقـدـ اـنـ يـبـطـلـ اـقـوـالـ جـمـاعـةـ يـكـادـونـ يـنـكـرـونـ وـجـودـ اللهـ ، بـهـاـ يـرـعـمـونـ مـنـ قـدـمـ الـعـالـمـ ، وـبـهـاـ يـقـولـونـ فـيـ عـلـمـ اللهـ وـارـادـهـ ؟ وـسـوـاءـ اـكـانـ عـلـىـ حـقـ فـيـ فـهـمـ لـاقـواـلـهـ ، اوـ عـلـىـ غـيرـ حـقـ ، كـاـيـظـنـ اـبـنـ رـشـدـ ، فـانـهـ عـلـىـ كـلـ حالـ وـجـلـ مـخـلـصـ يـدـافـعـ عـنـ اللهـ وـيـدـعـوـ اـلـىـ الـإـيمـانـ ، وـيـسـدـ عـلـىـ النـاسـ بـاـبـ الشـبـهـاتـ . فـأـيـ دـاعـ يـدـعـوـ لـأـنـ يـسـمـيـ عـلـمـ هـذـاـ (ـتـهـافـتـ) مـنـ غـبـرـ تـفـكـيرـ ، عـاـيـنـجـمـ عـنـ هـذـهـ التـسـمـيـةـ مـنـ تـصـفـيـرـ لـقـدـرـ الـكـتـابـ ، وـتـزـهـيدـ لـلـنـاسـ فـيـ وـتـشـكـيـكـ لـهـمـ بـهـاـ يـنـطـوـيـ عـلـيـهـ مـنـ الـحـقـ وـالـحـيـرـ ؟

منـ هـنـاـ ، يـاحـيـرـانـ ، جـاءـتـ النـكـبةـ لـأـبـيـ الـوـليـدـ ، وـقـدـرـتـ عـلـيـهـ ، وـمـنـ هـنـاـ فـتـحـتـ عـلـيـهـ لـأـعـدـائـهـ وـحـسـادـهـ اـبـوـابـ الـأـذـىـ وـالـوـقـيـعـةـ ، وـفـشـاـ بـيـنـ النـاسـ ، مـنـ غـبـرـ الـحـقـقـيـنـ ، سـوـءـ الـقـالـةـ فـيـهـ . اـمـاـ الـحـقـقـوـنـ الـخـلـصـيـنـ ، الـدـينـ يـتـرـفـعـ بـهـمـ

أدب العلم عن كفان الحق ، فيعلمون أن ابن رشد ، كان من أصدق المؤمنين ، ومن أعظم المفكرين ، ومن أعرفهم بطرق الاستدلال على الله . ولكن علم الرجل كان أكبر من عقله يا حيران

حيران - وما هي أسباب التهمة التي قال عنها مولاي الشيخ أنها جوهرية ؟

الشيخ - الأسباب الجوهرية ، واعني بها ما يتعلق بصييم فلسفة الرجل ، تكاد تحصر بأمر واحد : وهو أن ابن رشد كان يستصعب ، لنفسه ، أو لغيره على الاصح ، الأدلة النظرية المركبة (كدليل الحدوث ودليل الوجوب) الذين قال فيها الفلسفه واعتمد عليها المتكلمون ، أكثر ما اعتمدوا ، في الاستدلال على وجود الله . وكان يفضل عليها (دليل النظام) الذي يسميه هو (دليل العناية والاختراع) . وربما كانت على حق في تقضيه ، ولكنه لم يكتفى بهذا ، بل طعن في طريق الاستدلال الأوليين ، وزعم أنها غير صحيحتين ، وتكلم في معنى الحدوث والقدم ، ومعنى (الإرادة) ، وأكثر من الجدل ، وتعمد ، في بعض ردوده على المتكلمين ، أضعفوا وجه استدلالهم ، وهو يدرك أن بعض الصحف في كلامه . فكانوا كانوا في هذا تاجراً ، يريد أن يُكبد بضاعة جاره للتزويج بضاعته . وما هذا شأن المتأجرين في مرضاه الله ، وجهاً في سيله ، من التأزر على نصرة الحق ، من كل الطرق التي تقضي إليه . وكان يكفيه أن يشير إلى ما يلاقيه الذهن ، من الصعوبة في طريقه الاستدلال الآخرين ، وأن ينصح بابعاد غير العلماء عنها ، وبالالتزام بطريقه الاستدلال السهلة الصالحة لخاطئة الناس كافة ، من غير أن يحاول إبطال أدلة قام البرهان العقلي القاطع ، عند العقلاء ، على صحتها .

حieran - وهل كان ابن رشد من يقولون بقدم العالم وينكرن صفتة الأرادة الله تعالى ؟

الشيخ - أبداً ، لم يقبل بقدم العالم . وحاشا ان ينكروا صفة الإرادة الله ؛ ولكن الرجل ، كان يتغافل في أبصري معنى القدم ، وايضاً معنى الإرادة ، لا شيء ، سوى ان يبرهن على ان أرسطو والفلسفه لم ينكروا وجود

الله ، ولم ينكروا صفة الارادة . وهل يعقل يا حيران ان يكون ابن رشد فائلاً بقدم المادة على معنى انها غير خلقة الله ، موجودة بذاتها وغایر مفتقرة الى من يوجدتها ، وارسطو نفسه لم يقل بذلك ، بل قال بقدمها ، على معنى ان الله لم يزل خالقاً من الأزل ؟

يدلّك على هذا قوله في كتابه (فصل المقال) : (واما مسألة قدم العالم وحدوده فإن الاختلاف فيها ، عندي ، بين المفكرين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء . وذلك انهم : اتفقوا على ان هنا ثلاثة اصناف من الموجودات : طرفان ، وواسطة بين الطرفين ؛ فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة . فاما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره ، وعن شيء ، اعني عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم عليه اعني على وجوده وهذه هي حال الاجسام التي يدرك تكوينها بالحس مثل تكون الماء والهواء والارض والحيوان والنبات وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة . واما الطرف المقابل لهذا ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، لا تقدمه زمان وهذا ايضاً اتفق الجميع من الطرفين على تسميتها (قدماً) ، وهذا الموجود مدرك بالبرهان وهو الله تبارك وتعالى الذي هو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره . واما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان ، لكنه موجود عن شيء اعني عن فاعل وهذا هو العالم باسره فهذا الموصود الآخر ، الأمر فيه بيّن : انه قد اخذ شيئاً من الموجود الباقي الحقيقي (يعني عالم الشهادة) ومن الموجود القديم (يعني الله) ؛ فهو ناج ، عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه الحديث ، ما ثابنا . ومن غلّب عليه ما فيه من شبه الحديث سماه محدثاً . فاذ ، ترى ، يا حيران ، من هذا الكلام ، انه يعترف بحدود العالم ، ويواجهه الله عبادته الأصلية وصورته الحاضرة ، ولكنكه يحاول التقرّب

بين رأي المتكلمين ورأي ارسطو . والذى افهمه من كلامه هذا ، ومن اقواله الأخرى ؛ انت فكره قد تغير في نفس الصعوبة التي تمثّل بها ابن طفيل ، وغيره من الفلاسفة ، عند تصور معنى الخلق من العدم ، ومعنى الزمان ؟ فليجأ إلى القرآن ، ففهم منه ان الخالق العليم الحكيم ، الذي يعلم ما يعتري عقولنا من الكلال في تصور هذه الأمور ، اراد انت « يهون على الناس أمر الآيات ، فخاطبهم » ، على قدر عقولهم ، بما يدل على ان خلق هذا العالم المشاهد كان من مادة خلقها الله من قبل ؟ فقال رحمة الله في كتاب فصل المقال « انت قوله تعالى » ، (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) ، يقتضي ، بظاهره ، وبجوداً قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان . وان قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) يقتضي ، بظاهره ، ان السموات خلقت من شيء » .

وكانه ، رحمة الله يخاف ان يكون هذا الكلام العقلي ، عن تصور تلك الأمور العويضة ، سبباً للتهمة ، فيعتذر فيه عن نفسه ، وعن غيره ، حيث يقول : (ويُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الْمُخْتَلِفُونَ فِي هَذِهِ الْمَسَائلِ الْعُوِيْضَةِ ، أَمَّا مُصَيْبَيْنِ مَأْجُورَيْنِ ، وَأَمَّا مُخْطَلَيْنِ مَعْذُورَيْنِ ؛ فَإِنَّ التَّصْدِيقَ بِالشَّيْءِ ، مِنْ قَبْلِ الدَّلِيلِ الْقَائِمِ فِي النَّفْسِ ، هُوَ شَيْءٌ اضْطَرَارِيٌّ لَا اخْتِيَارِيٌّ . اعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَصْدِقَ أَوْ نَنْصَدِقَ ، كَمَا لَنَا أَنْ نَقْوِمَ أَوْ لَا نَقْوِمَ . وَإِذَا كَانَ شَرْطُ التَّكْلِيفِ الْأَخْتِيَارِ ، فَالْمَصْدِقَ بِالْخُطْطِ ، مِنْ قَبْلِ شَبَهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ ، إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، مَعْذُورٌ) .

ويذكرني اعتذاره هذا ، يا حيران ، بما كتبه الشيخ محمد عبد المצרי في حاشيته على شرح العقائد العضدية ، بعد ان برهن على حدوث العالم ، وأخذ في الاعتذار عن تعجز عقولهم عن تصور معنى الحدوث ، والزمان ، حيث يقول : (واعلم اني وان كنت برهنت على حدوث العالم ، وحققت الحق فيه ، على حسب ما ادّى اليه فكري ووقفني عليه نظري ، فلا اقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بهذبهم هذا ، او انكروا به ضرورة من الدين القوي . وانما اقول انهم قد اخطأوا في نظرهم ، ولم يسددوا مقدمات

أفكارهم . ومن المعلوم ان من سلك طريق الاجتهاد ، ولم يعول على التقليد في الأعتقد ، ولم تجحب عصمته ، فهو معرض للخطأ ؛ ولكن خطوه عند الله ، واقع موقع القبول ، حيث كانت غايتها من سيره ، ومقصده من تحيص نظره ، ان يصل الى الحق ، ويندرك مستقر اليقين) .

هذا بعض كلام الشيخ محمد عبده . ولست اراه فيه ، الا معتبراً عن ابن رشد بالذات ، ومشيراً الى مَا يعتري المقول من الارتباك في تصور معنٍ القدم المطلق والابتهاة المطلقة والزمان والمكان ، وغير ذلك ما نوه به الغزالي نفسه وابن طفيل والتأخرون .

فهل رأيت يا حيران ، في كلام ابن رشد انه يقول بان المادة الأصلية التي خلقت منها العالم غير مخلوقة لله ؟ وهل رأيت فيه شيئاً يدل على ضعف الأدلة باهلاه ؟

حيران – كلاً يا مولاي كلاً ، بل فيه شيء يدل على قوة الأدلة باهلاه ، وعلى الرغبة في توفير هذا الإيمان ، وتسهيله للناس كافة ، وبالبعد يهم عن كل ما يرتكب العقل فيه ...

الشيخ – اما مناسب الى ابن رشد من انكار (صفة الارادة) فأنه غير صحيح . ولكن ابن رشد عندما ناقش الغزالي والمتكلين في معنٍ الارادة ، اراد ، كما دعا ، ان يتقيئها ، ففصل معنٍ الارادة (بالفعل) والارادة (بالقوّة) . ثم نفى وانكر ان يكون الفلاسفة القدماء قالوا ان العالم يصدر عن الله على سبيل الطبيع بلا ارادة ؛ وانتهى الى اثبات الارادة لله ، والبرهنة عليها ، بمثل ما يرهن به الغزالي . حيث يقول في الرد عليه (اما قوله عن الفلاسفة ، افهم يرون ان ما يصدر عن الباري تعالى يصدر عن طريق الطبيع ، فقول باطل عليهم ، والذى يرونها في الحقيقة ، ان صدور الموجودات عنه ، هو بجهة اعلى من الطبيعة والارادة الانسانية . فان كلتا الجهتين يتحققها النقصان ، اذ قام البرهان على انه لا يجوز ان يكون صدور الفعل عنه صدوراً طبيعياً ، ولا صدوراً ارادياً على نحو مفهوم الارادة هنا (اي بين الناس) ؛ فهو صادر عنه بجهة اشرف من الارادة ؛ ولا يعلم

تلك الجهة الا هو سبحانه . والبرهان على انه مريد ، انه عالم بالضدين ؟
فلو كان فاعلاً من جهة ما هو عالم فقط ، لتفعل الضدين معاً . وذلك مستحيل .
فوجب ان يكون فعله احد الضدين باختيار) .

ومن هذا تعلم ، يا حيران ، ان الرجل انا يجادل ليظهر التحقيق ،
ويدافع عن الفلسفة ، ثم ينتهي الى نفس ما انتهى اليه صاحبه ، او خصمه ،
في اثبات معنى الارادة ، واقامة البرهان على توجيهها عقلاً . وكذلك كان
 شأنه عندما جادل الفزالي في علاقة الاسباب بالسببايات .

حيران – وهل انكر الفزالي الاسباب والسببايات حق جادله
ابن رشد فيها ؟

الشيخ – ان الفزالي لم ينكِر ابداً ، ولا يعقل ان ينكِر ، علاقة السبب
والسبب ، او خواص الاشياء التي وضعها الله فيها ؛ بل اراد ان يظل
تفكير الانسان متوجهـا الى خالق الاشياء وبناليـتـه الخواص والمواضـيس ،
ليُقصـي عن العقل فكرة المادة الملحـدة ، التي تقول بـتـكوـنـةـاتـ العـالـمـ
بـالـصادـفـةـ منـ تـقـاعـلـ عـنـاصـرـ المـادـةـ بـذـاتـهاـ ، وـبـقـوـةـ هيـ منـ طـبـعـهاـ ؛ فـانـكـرـ
وـجـودـ (ضـرـورـةـ عـقـلـيـةـ) تـوجـبـ انـ تـكـوـنـ لـلـاـشـيـاءـ هـذـهـ الخـواـصـ الـتـيـ هـيـ فـيـهاـ
لـتـوـصـلـ اـلـىـ القـوـلـ بـاـنـهاـ مـفـقـرـةـ الـىـ مـنـ يـنـعـحـاـ وـجـودـهاـ ، وـيـعـطـيـهاـ خـواـصـهاـ
وـطـبـائـعـهاـ قـقـالـ : اـنـ مـاـ نـشـاهـدـهـ مـنـ التـقـارـنـ بـيـنـ السـبـبـ وـالـسـبـبـ ، لـاـ يـحـوزـ اـنـ
(نقطـعـ) بـيـكـونـهـ سـبـبـ الـظـواـهـرـ ، طـالـماـ اـنـ وـرـاءـ عـالـمـاـ اـسـرـارـ خـفـيـةـ ، قـدـ
تـكـوـنـ هـيـ السـبـبـ الـأـصـحـ فـيـ ظـهـورـ الـظـاهـرـ . وـيـضـرـبـ الفـزـالـيـ عـلـىـ ذـلـكـ
الـأـمـثـالـ بـحـجـرـ الطـلـائـقـ الـذـيـ يـحـولـ دـوـنـ الـاحـتـرـاقـ ، وـالـأـعـمـيـ الـذـيـ يـصـبـعـ
بـسـيـرـاـ ، فـيـحـسـبـ اـنـ اـزـالـةـ الـفـشاـوـةـ عـنـ عـيـنـهـ ، هـيـ السـبـبـ الـوـحـيدـ
لـلـأـبـصـارـ ؛ حـتـىـ اـذـ نـسـبـ النـهـارـ وـجـاهـ الـظـلـامـ ، اـدـرـكـ اـنـ وـرـاءـ الـعـيـنـ الـمـابـصـرـةـ
سـبـبـآـخـرـ ، بـسـبـبـ لـلـعـيـنـ بـالـأـبـصـارـ وـيـنـعـهاـ مـنـهـ ، وـهـوـ النـورـ .

اما ابن رشد ، يخرج ابداً عن هذا المنطق السليم والأدلة الكاملة
حيث يقول : واما هل المفعول الصادرة عن موجود (ضرورة الفعل) ،
او هي (انتزاعية) ، او فيما الا ان جيءـا ، فطلوبـ يستحقـ الفحصـ

عنه . فان الفعل والانفعال الواحد ، بين كل شيئين من الموجودات ، اما يقع باضافة ما من الاضافات التي لا تنتهي ؟ فقد تكون اضافة تابعة لاضافة ؟ ولذلك لا ينقطع ان النار اذا دنت من جسم حساس فعلت (ولا بد) ؛ لأنه لا يبعد ان يكون هنالك موجود ، يوجد له الى الجسم الحساس اضافة تعيق تلك الاضافة الفاعلة للنار مثلا يقال في حجر الطلق . ولكن هذا لا يوجب سلب النار صفة الاحراق ، اما دام باقيا ها اسم النار وحده . ثم يقول ، وما احكم ما يقول : (والعقل ليس هو شيئا اكثر من ادراكه الموجودات بأسبابها) ، وبه يفترق عن سائر القوى المدركة ؛ فتن رفع الأسباب فتد رفع العقل ، وصناعة المنطق تضع وضعا ان هنا اسبابا ومبربات . وان المعرفة بتلك المسببات لا تكون على الذم الا بعمرفة اسبابها . فرفع هذه الأسباب هو مبطل للعلم ، ورافع له . فأنه يلزم ان ان لا يكون هنا شيء معلوم اصلا على حقيقة ، بل ان كان فطنون ، ولا يكون هنا برهان ولا حد اصلا . ومن يقنع ، انه لا علم واحد ضروري ، يلزمه ان لا يكون قوله هذا ضروريا . واما من يسلتم ان هنا اشياء بهذه الصفة ، واشياء (ليست ضرورية) ، وتحكم النفس عليها ، حكما ظنيا ، وقوم انها ضرورية ، وهي ليست ضرورية ، فلا ينكر الفلاسفة ذلك)

ثم يتبع فيقول ، وما اعظّم ما يقول ، وما اصدقه اتفاقا في التبيّع ، مع الذى قصد إليه الغزالى ، من استدامنة التوجّه إلى خالق الأشياء ، ويعطّلها طبلتها وخواصها (فلا ينبغي ان يشك) في ان هذه الموجودات قد يفعل بعضها بعض ، وانها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفعل ، بل يفاعل من خارج ، فتعله شرط في فعلها ، بل في وجودها ، فضلا عن فعلها) .

حيزان - حقا ارت ابن رشد لا يختلف من حيث النتائج ، في شيء ، مع الغزالى ، ولا يقل عنه اعانيا ؛ فحدثني يا مولاي عن الطريقة التي اختارها في الاستدلال على وجود الله ،

الشيخ – انه يرى ، كما قلت لك ، ان طرق الاستدلال ، بدلليل الحدوث أو دليل الوجوب ، ليست طرقة يقينية ولا شرعية ؛ لأنها (مركبة) وكثيرة المقدمات . وان الطريق اليقينية الشرعية هي طريق الاستدلال بدليل (النظام) الذي ساه دليل (العناية والاختراع) . وهي الطريقة التي اعتمدتها القرآن لأنها جمعت وصفين : احدها أنها يقينية ، والثاني أنها بسيطة غير مركبة ، أي قليلة المقدمات ، فتكون نتائجها بسيطة غير مركبة .

حيران – أصحيح يا مولاي ان طرق الاستدلال الأخرى غير يقينية ؟

الشيخ – انه غير صحيح ابداً ، يا حيران . والقرآن نفسه لم يحمل طريفي الاستدلال المذكورتين ، بل اقى بها ؛ لأن الله ، سبحانه ، عالم بما سبق نزول القرآن من الجدل الفلسفي حول وجود الله ، والخلق والتكون ، والحدث والقديم ، وعالم بما سيكوت من استمرار هذا الجدل ، ما دام على الأرض هذا الإنسان المفكر ، الذي وصفه خالقه بأنه أكثر شيء بجدلاً ؛ ولكن القرآن ، مع اشارته لطرق الاستدلال النظرية المركبة هذه ، اشارات حقيقة يدركها اربابها القائلون بغيرتها كالفلسفه والمتكلمين ، قد اعتمد ، أكثر ما اعتمد ، في خطابه الكلافة ، على دليل النظام والاختراع والعناية ، الذي لا يختلف عن الأدلة المقلية النظرية المركبة الأخرى ، الا يكونه أبسط منها واسهل وآيسر في الوصول الى اليقين ، كما قال ابن رشد . ولو أكفى ، رحمة الله ، بتفضيل منه الأدلة البسيطة السهلة ، على ما سواها من الأدلة المركبة ، واكفى بوصف هذه المركبة بالصعبية ، ولم يطعن في صحتها ، لما كان على كلامه اي مأخذ ؛ فكل الأدلة ، التي اجمع عليها اعظم الفلاسفة والمتكلمين من المقدمين والمؤخرین ، موصولة الى اليقين ؛ وما مثلها في ذلك الا ممثل البراهين التي تقام ، من عدة اوسعه ، على قضية رياضية صحيحة ؛ فإنه اذا جاز للمعلم ، او حسنَ به ان يختار اسهلها واقرئها الى ذهن الطالب ، فلا يجوز له ان يطعن في صحة البراهين الأخرى ويعطلها ؛ والا عاد هذا التعطيل على نفس العقل ، بل على الأيمان الذي ليس له عداد الا العقل .

هذا هو خطأ أبي الوليد . ولكن لو استمعت إليه كيف يسوق دليل الاختراع ، ويقصده ، لرأيته ، فيه ، أقوى وأخلص وأصدق ما يمكن المؤمن الصديق ، وأفقده ما يمكنه الفقيه ، وابرع ما يمكنون العالم ، واعظم ما يمكنون الفيلسوف .

حيران - أسمعني يا مولاني بعض مما يقوله هذا الرجل في طريقة الأستدلال التي يراها أبسط وأسهل وأكثر يقيناً في الدلالة على الله .

الشيخ - انقل لك كلامه عن كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة) :
فإن قيل ، فاذا كان قد ثبت أن هذه الطرق كلها ليست واحدة منها هي الطريقة الشرعية التي دعت الشرع منها ، جميع الناس على اختلاف فطرتهم ، إلى الاقرار بوجود الباري سبحانه ، فما هي الطريقة الشرعية التي نبه الكتاب العزيز عليها واعتذرها الصحابة رضوان الله عليهم ؟ فلنا :
الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من باليها ، إذا استقررت الكتاب العزيز ، وجدت تتحقق في جنسين : أحدهما طريق الوقوف على المثابة بالأنسان ، وخلق بقىء الموجودات من أجله . ولنسمّ هذا (دليلاً على العناية) . والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات : مثل اختراع الحياة في الجماد ، والأدراكات الحسية ، والعقل ، ولنسمّ هذه (دليلاً على الاختراع) . فاما الطريقة الأولى فتبين على امثلين : أحدهما أن جميع الموجودات التي هنا موافقة لوجود الإنسان . والآخر الثاني أن هذه الموافقة هي ضرورة ، من قبل فاعل قادر لذلك ، مريد . إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق (يعني بالمصادفة) . فاما كونها موافقة لوجود الإنسان ، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة اليسيل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان ، وكذلك موافقة الازمة الاربعة له ، والمكان الذي هو فيه أيضاً وهو الأرض . وكذلك تظهر ايضاً موافقة كثير من الحيوان له ، والنبات والجماد ، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار ، وبالجملة الأرض والماء والنهار . وكذلك أيضاً تظهر العناية في اعضاء البدن ، واعضاء الحيوان ، اعني كونها موافقة لحياته

ووجوده . وبالجملة معرفة منافع الموجودات داسلة في هذا المجلس . ولذلك
وجب على من اراد ان يعرف الله تعالى المعرفة التامة ان يفهمنا
منافع الموجودات .

واما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ، وجود النبات
كله ، وجود السماوات ... وفي هذا المجلس دلائل كثيرة على عدد المخلوقات ،
ولذلك كان واجباً على من اراد معرفة الله ، حق معرفته ، ان يعرف
جواهر الاشياء ليفق على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات . لأن
من لم يعرف حقيقة الشيء ، لم يعرف حقيقة الاختراع . وإلى هذا الاشارة
يقوله تعالى (او لم يتظروا في ملکوت السموات والارض وما خلق الله
من شيء) وبعد ان يذكر ابن رشد عدداً من آيات القرآن المنطوية
على الاشارة الى دليل العناية والاختراع ، يقول : (فقد بان من هذه الادلة
على وجود الصانع أنها منحصرة في هذين الجنين (دلالة العناية ودلالة
الاختراع) ، وتبين ان هاتين الطريقين هما باعيانهما طريقة الخواص ، واعني
بالخواص العلامة ، وطريقة الجمهور ، وانما الاختلاف بين المعرفتين ، في
التفصيل : أن " الجمهور يتتصرون " من معرفة العناية والاختراع ، على ما هو
مدرك بالمعرفة الاولى المبنية على علم الحس ، واما العلماء فيزيدون على
ما يدرك من هذه الاشياء بالحس ، ما يدرك بالبرهان ...

ثم يشير في موضع آخر من كتابه الى دلالة القصد والحكمة في المخلوقات
على وجود الحالق الحكيم فيقول : (ان الانسان اذا نظر الى شيء محسوس ،
فراه قد وضع يشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، موافق في جميع
ذلك للنفعية الموجودة في ذلك الشيء المحسوس ، والغاية المطلوبة ، حتى
يعترف انه لو وجد بغير ذلك الشكل ، او بغير ذلك الوضع ، او بغير
ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك النفعية ، علیم ، على القاطع ، ان لذلك
الشيء صانعاً صنده ، ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره ذلك النفعية
وأنه ليس يمكن ان تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود النفعية
بالاتفاق (اي المصادقة) ...

ثم يعود ابن رشد الى ذكر آيات متعددة من القرآن تتطوي على دليل العناية والاشتراك ، ويوضح بعض ما وصل اليه العلم في عصره من منافعها ، وينتهي الى القول (ولو ذهبنا لتمداد هذه الآيات ، وتفصيل ما تبنته عليه من العناية التي تدل على الصانع والمصنوع ، لما وسع ذلك مجلدات كثيرة ، وليس قصدنا ذلك في هذا الكتاب ، ولعلنا إن أنتَ الله في الأجلس ، ووقع لنا فراغ ، أن نكتب كتاباً في العناية التي نبئُ لها الكتاب العزيز) . حيران – حقاً أن هذا الرجل من اعظم المؤمنين ، فهو يعلم مولاي انه وضع ذلك الكتاب الذي منّى نفسه بوضعه ؟

الشيخ – لا اعلم انه وضع كتاباً خاصاً في هذا الباب . وقد هدّيت بفضل الله ، يا حيران ، الى جمّع أكثر آيات القرآن التي تتطوي على ادلة النظام والقصد والحكمة والعناء ، وساكشـف لك عن وجوه مطابقتها لما انتهى اليه العلم الحديث من اسرار الخلق والتكون ، بقدر ما وصل اليه علي . حيران – بقى لي سؤال واحد ، وهو الذي قرأت ، ان ابن رشد انكر وجود (الشخصية الفردية الإنسانية) وقال بفناها مع الجسد ، وهذا من جملة ما حلّ اخساره على اتهامه باللحاد ، وانكاربعث . فما هو ميلني الصحة في هذه القالة الشائعة عن رجل له مثل هذا الابيان بالله وكتابه ؟

الشيخ – ان الذي اتهمه باللحاد وانكاربعث هو الفيلسوف توماس اوكويناس ، الذي يتردد هو نفسه في امر الروح . ولست اراه على حق في هذا الاتهام ، من حيث النتيجة التي يصل اليها المتأمل في اقوال ابن رشد ؛ لأنّه اذا كان قد جارى ارسطو في قوله ان النفس عبارة عن وظيفة الجسد ولا وجود لها بغيره ، وان العقل الفردي الشخصي هو استعداد الانسان وقدره على التفكير ، وانه يبقى بفناه ، فليس في هذا كله اي " معنى " يوجب اتهامه باللحاد ؛ لأن حقيقة الروح والعقل لا تزال غامضة خافية علينا ، وسوف تبقى ، فيما اظن ، سراً الى الابد ، ولا يفتح في الابيان اي " قول يقال فيها ، ما دام قائله لا ينكر أنها من امر الله . وكذلك القول بفناه

الشخصية الفردية ، فانه لا ينفي امر البعث ، الذي هو احياء جديد وخلق جديد ، بقدرة الله الذي خلق الاجساد والتفومن واحيائها اول مرة .

وبعد ، قلوا رجعت يا حيران الى رأي توماس في امر النفس لوجدت انه متعدد وغير واضح ، فبينما تراه يعترف الشخصية بانها مزيج من الجسم والنفس ، ويعتبر ، في بعض اقواله ، الجسم والنفسحقيقة واحدة موحدة ، تراه من جهة اخرى يقول ان النفسحقيقة غير جسمية وانها شيء روحى يعيش الله فيها . وبينما تراه يقول ان هذه القوة الروحية الموجدة فيما تبقى بعد موت الجسم ، تراه يقول ان النفس ليست ذات شخصية ، فهى لا تقدر ان تحس او تزيد او تفكك بل هي طيف لا قوة له ولا يستطيع ان يقوم بعمل بغير الجسم ، وانها لا تكون شخصية منفردة خالدة الا اذا عادت للاتحاد مع الجسم .

وقد يكون قوله هذا في اعتقاد النفس على الجسم وتوقيها عن الاحساس والارادة والتفكير عند الانفصال عنه ، صحيحاً او غير صحيح ، فنحن ، كما قلتُ لك ، لا نعلم من امر النفس الا انها من امر الله ، ولكننا نتساءل ، بعد ان يكون هذا رأي توماس في النفس ، لماذا اثار تلك المهمة الشعواء على ابن رشد وكيف استنتج من اقواله انه ينكر البعث ... ؟

ولو رجعت الى اقوال ابن رشد في كتبه التي بين ايدينا لرأيتها انه لم ينكر البعث ابداً بل اکن به وصدق ، ووصف الذين ينكروننه (بالزراقة) ، واما كان جداله مع الغزالى في صورة البعث وكيفيته ، فقال ان النشأة الاخرى تكون بخلق جديد للجسم . وهذا لا يخالف الدين في شيء . اما النفس فقد صرخ ابن رشد ، بعد الاخذ والرد مع الغزالى ، بعموش امرها فقال : (فالكلام في امر النفس غامض جداً واما اختصار الله فيه من الناس الراسخين في العلم) ! ولا ندرى يا حيران ان كان ابو الوليد يرى نفسه من هؤلاء الراسخين ... ولعله منهتم في كل امر الا في امر الروح والنفس وما شاكلها من المتشابهات التي بقيت وسوف تبقى من اسرار النسب التي لا يعلها الا الله .

اما الراسخون الراسخون فيهم الذين يختارون الوقف في الآية ثم يقولون
(آمنتا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب) .
حيران - لقد عرفت رأي اكوانناس في النفس ، فهل مولاي ان يذكر
لي رأيه في وجود الله وخلق العالم ؟

الشيخ - لو سمعت كلامه في وجود الله وخلق العالم ، لحسبت انك تسمع
الغزالي وابن سينا وابن رشد يتكلمون . انه يقول : (ان عقليتنا يستمد المعرفة
من المحسوس . ولكن هذا العقل ، الذي خلقه الله فينا ، هو قوة منظمة
 تستطيع تنظيم التعبارات الحسية ، وتحويها الى افكار كليلة وافكار مجردة .
ولكن معرفة العقل المباشرة مقصورة على عالم الحسن ، وليس في مقدوره
ان يعرف ، من طريق مباشر ، العالم الذي فوق المحسوس ووراء الطبيعة ،
وان كان في مقدوره ، بالمقارنة والقياس ، ان يستمد معرفة غير مباشرة
لوجود الله ، ويدركه انه الكائن الخالق لطبع الكائنات ، وانه واحد احد ،
لا يتعدد ، ولا يتحول ، ولا يحيط به زمان ؛ لأن مسر العالم المؤمن
بكشف لنا عن عقل واحد وقولون واحد . اما ما وراء ذلك ، من

امرار النسب ، فالعقل عاجز عن ادراكه ، كما انه يصعب عليه تصور
الامور غير المادية كالروح ، لأن تجارت الخارجية كلها ، مقصورة على
الأشياء المادية ، بل هو عاجز عن ادراك كثير من حقائق الحياة ، فما من
عالم قد عرف حتى اليوم حقيقة ذاتية
حيران - هذا والله عظيم .

الشيخ - واعظم منه طرق الاستدلال ، التي سلكها اكوانناس ، في
الآيات وجود الله . فانه يعتمد ، في الآيات وجود الله وخلق العالم ، على
طرق الاستدلال الثلاث التي اعتمدها الغزالي وابن سينا وابن رشد
والمتكلمون ؛ فيقول في (دليل المحدث) : انه يمكن البرهنة على وجود الله
بعل طبيعية : فالحركات كلها تنشأ من حركات سابقة ، وهذه تنشأ من
اخري قبلها ، وهذه امّا ان تنتهي الى محرك اول ، او تستمر في النشوء
من حركات اسبق ، بتسلاسل لا نهاية له ، وهذا مستحيل عقلا . كذلك

يقول في (دليل الوجوب) ان ما في هذا العالم هو من (الممكن الوجود) ، وهو ما قد يكون ولا ينحتم ان يكون ؛ وهذا (الممكن) لا بد ان يعتمد على (الضروري) الذي لا بد ان يكون وهو (الواجب الوجود) عقلاً ، وهو الله . كذلك يقول في (دليل النظام) ان في هذا العالم شاهد ، لا تمحى ، تدل على ما فيه من نظام ، حق في الجمادات التي تتحرك بطريقة منتظمة ، فكيف يمكن وجود هذا النظام والاحكام ، الا اذا كانت هناك قوة عاقلة هي التي خلقت الاشياء ؟ (ان في وسعنا انت نعرف ، بطريق الفهم الطبيعي ، ان الله موجود ، وانه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته تتلاؤ في عجائب العالم وحسن تنظيمه) .

ومع ان اكوليناس يتردد في الرأي حين يبحث في خلق الله للعالم في زمن معين ، واستشكال الفلسفه في (مدة التّرك) ، ويرى ان العقل يكمل ويعجز عن تصور ذلك ، الا انه يعود فيتلاقى مع الغزالي ، تلاقى يكاد يكون حرفياً ، حيث يقول : (ان البحث في هذا الامر لا معنى له لأن الزمن لم يكن له وجود قبل العالم . اذ الزمن لا يتصور بدون الحركة والتغيير) ، بسل انه يعارض الغزالي في قوله ان العالم خلق في اللحظة الذي خلق فيه بالارادة القدية فيقول : (ان عملية الخلق وان تكون ازلية ، الا انها تتضوی على الارادة) ، ومن الارادة تحديد الوقت الذي يريد الله فيه خلق العالم) .

حيران - هذا عظيم يا مولاي وما كنت اتوقع ان اسمه ، فقد كتبت فرأت ان توماس اكوليناس اطلع على آراء ابن سينا والغزالى وابن رشد وانتقادها ، فكيف ينتقد آراء ظهر انته يأخذ بها اخذا يكاد يكون حرفياً ؟

الشيخ - ان توماس قد ينافق الفلسفه الاسلاميين في بعض الامور ولكنه يعرف اعترافاً صريحاً بما اقتبسه من ابن سينا والغزالى وابن رشد . ونحن هنا يا حيران انا نذكر من اقوال الرجل ، كفيلسوف ، ما يتلاؤ فيه على الحق مسمى الفلسفه الثلاثة في اثبات وجود الله ووحدانيته ،

والاستدلال عليه بأدلة واحدة من طريق العقل السليم الذي كان توماس شديد التمسك به ، من غير أن ت تعرض لتفصيل وجوه هذا التمسك الذي تدركه لو قرأت شيئاً من كتابه الكبير ورأيت أن صراحته في تحديد ما ينطبق على العقل وما لا ينطبق من الأمور قد عرضته للنقد من أهل ملته . اذْ نحن في هذا الحديث معك ، انا نسير الى غاية واحدة : وهي ان زيفك ان كل العقول السليمة ، عند كل الملل تتفق ، في مجال النظر العقلي الخالص المبرأ من شوائب الهوى ، على الاعتراف بوجود الله ، وعلى الاقرار الصريح بأنه واحد لا يتعدد ولا يتحول ، وتتفق في طرق الاستدلال على هذا الحق الذي لا ريب فيه ...

اختلاف الحظوظ

حيران - لقد حدثني الشيخ عن كل من سمعت بهم من الفلاسفة المسلمين
ألا (المعرّي) ، أفلًا تزيد يا مولاي ان تحدثني عن أبي العلاء ؟

الشيخ - كيف لا احدثك عن أبي العلاء ، وبيت القصيدة عندي ،
شطره في الحديث عن أبي العلاء ... ولكنني لن احدثك عنه كفليسوف ؛
لاني لا اعرف له رأيا فلسفيا واضحا معللا ، في قضايا الفلسفة الكبرى ،
لابسطه لك . فاذا اخذنا بمعنى الكلمة اللغوي جاز لنا ان نسمى
ابا العلاء فيلسوفا ، لأن الفيلسوف ، لغة ، هو (محب الحكمة) ؛ والمعرّي
كان ، ولا ريب ، محبا للحكمة ، وإن لم يقدّم الى هذه الحببية خدمة
ترضيها كل الرضى . وأما اذا اخذنا بالمعنى الاصطلاحي الصحيح ، لم يكن
لنا ان نخسر ابا العلاء في جلة الفلامقة ؛ فاسم الفيلسوف حقاً اما ينطبق
على من توفر له : نظر عقلي خالص مؤسس على المعرفة ، وبحث في قضايا
الفلسفة الكبرى او في بعضها ، وتكون رأي فلسي قاطع معلن فيها .
فاذا استطاع محب الفلسفة ان يقول كل هذا فهو من رجالها حقا ، بقطع
النظر عن صحة آرائه او بطلانها ؛ وأما اذا لم يكن له ، من هذا كله ،
 سوى نظرات مشتتة في بعض قضايا الفلسفة ، فهو اجدر ان يُعدّ من
انصاف الفلاسفة .

والمعرّي ، في نظري ، من هؤلاء الانصاف : فان له نظراً عقلياً مؤسساً
على شيء غير يسير من المعرفة ، وله نظرات مشتتة في كثير من قضايا
الفلسفة ، القادها في ثنايا شعره ونثره ، من غير تنسيق ، ولا ترابط ، ولا
تحقيق ، ولا برهنة .

لقد كان ابو العلاء زاهداً في الدنيا ، منصرفاً ، بل مصروفاً ، عن كل

حيياتها ومباهجها ، فاورنه سوء حظه من الحياة كثيراً من الميرة والقلق والشك ، ولم يجد لكرمه تنفيساً الا بالشكوى والسخرية والتهكم . فصاغ كل خطرة من خطرات نفسه الكثيبة الناقبة شمراً ، وزين هذا الشعر بما يرضي غريزة حب الظهور من ضروب التزيين وفنون التزويق ؛ الدالة على طول باعه في اللغة والادب ، واطلاعه على شيء من الفلسفة ؛ فجاء ديوانه صورة صادقة لما في نفسه ، من ألم ونقد وسخرية وتهكم وسخرية ، وطموح يستثير بالزهد ، وزهد ينطوي على الطموح ، وایمان مشوب بالشك ، وشك مشدود الى الایمان

ولعمري انه ليس من الحق في شيء ان تخسر معن الفلاسفة كل من اطلق لسانه بشيء من الشك ، معتبراً عن خطرات نفسه ، بلسان الشعر ، الذي لا يصلح ابداً للبحث الفلسفى المنظم القائم على البرهان ؛ لأن هذه الشكوك تسرى ، في غمار الحياة وثقائها ، الى أكثر القوم ، وتعتري أكثر العقول ؛ ولكن ما كُلّ من عرض له شك ، او ألمت به نكبة ، او غرت نفسه سحابة من التشائم ، يُفضي بما في صدره ، بلغة الشعر ويجعله من غير بحث ، ولا تأمل ولا تعليل ولا برهنة ، اساساً للرأي في حقائق الكون الكبرى . وإذا وجد بين الناس من تضيق نفسه بشكوكه وآلامه ، فيلقيها للناس شمراً ، مشوباً بشيء من الشك ، وشيء من الایمان ، فهل يستحق انت نعمة مع اولئك الذين قضوا اعمارهم في النظر العقلى الخالص المجرد المنظم ، فانحرجوا للناس فلسفة واضحة صريحة متسائكة الاجزاء ، متربطة الاطراف ، متلائمة النتائج موحدة الاتجاه ، مؤسسة على البرهان ؟

انت اذا نظرت في ديوان اي العلاء ، وفي رسالة الغفران ، وفي اجوبته نداعى الدعاة .. وهذا كل ما يمكن ان تستخرج منه آراءه - لم نجد له بحثاً صريحاً منظماً منسقاً معلتاً مدللاً ، لا في مبحث المعرفة ، ولا في مبحث الوجود ، ولا في النفس ، ولا في الاخلاق ، والاجتماع ، بل نجد تشاؤماً مظلماً عنيفاً طاغياً ، يتعدد الرجل بسببه بين الشك واليقين .

ولست اطيل في بيان اسباب هذا التشاؤم الذي يغمر نفس الرجل : فانك لتعلم ، يا حيران ، انه قد يعترى كثيراً من الاصحاح المبصرين المتعين الموسرين ، لنكبة تنزل بهم ، او املٍ يخيب لهم ؛ فما قوله برجل يحمل في صدره طموح العاقرة ونفس الجبارية ، اذا وجده نفسه ، من اول حياته ، كفيف البصر ، مشوه الوجه ، محجوراً على العزلة ، محروماً من نشاط الحركة ، معرضاً لسوء الفضم ، برغمـاً على الزهد ، محجوراً عن الجد ، يائساً من الناس ، قاطعاً من رحمة الله ... ؟

لقد كان من الطبيعي ان يتبع هذا كله شكراً في نفس اي العلام ، وهو الشك الذي لا يأتينا ابداً في الحياة الا من (اختلاف الحظوظ) ولا ينجو منه ، خلا الصديقين ، احد ابداً من يفكرون في سر القدر ؛ فان كل ما في الكون يبدل على الله ؛ ولكن الشك اما يأتينا من شقاء الحياة ، واختلاف حظوظنا من المصححة والمرض ، والفقر والغنى ، والعز والذل ، وطول العمر وقصره ، وغير ذلك . فاحفظ هذا يا حيران ولا تنئه ، فاني ساعود بك اليه اذا استطعت ، ان ابرهن لك على ان كل ما في الكون يبدل على الله ...

حيران - ولكن الى اي مدى وصل الشك باي العلام ؟
الشيخ - هنا بقية السر في تحديك عن اي العلام . لقد كشفت لك عن سبب شكه ، الذي يعترى كل النقوص البائسة ، وسأكشف لك من ايمانه ، الذي يلزمه كل العقول السليمة .

ان المعربي قد شرك في كل شيء ... الا في امر واحد ، لم يتطرق الى عقله الشك فيه ابداً ، وهو وجود الله تعالى . وان قيل لك غير هذا فلا تصدقه ؛ فلقد افثار المعربي حيرتك في القضاء والقدر ، وحرية الارادة ، وحلمة الخلق ، وحقيقة الروح ، وكيفيةبعث ؛ ولكنـه بقى متصماً مانياً بوجود الله ، لأن عقله السليم دله ، بالبرهان ، على هذا اليقين الذي لا يمكن لاعقول السليم الافلات منه ، معها اعتراضها الكلال في ادراك ذاته الذات الاحدية ، او في تصور المحدث والقدم ، والخلق من العدم ،

أو في تصور الزمان والمكان ، ومها الحج عليهما الشك الذي يشيره في
قوسنا (اختلاف المظوظ) وغوض من القدر .

هذا هو الحق في الشيء الذي يسمونه (فلسفة المعرّي) ؛ وإن أردتَ
أنت تلمسه بيديك فارجع إلى ديوانه ، واجمع آفواهه ، وصنفها ، وقارنْ
بيتها ، وانعم النظر فيها ، يظهر لك هذا الحق الذي لا ريب فيه .

حيران - هذا عجيب يا مولاي ، فاني طالما سمعت ، من الذين
يشهدون عن أبي العلاء ، أو يكتبون عنه ، أو يروون شره ، ما يدل
على أنه كان ضعيف الإيمان بالله .

الشيخ - وهذا الولع من الناس بانشاد شعر أبي العلاء ، وكلّ شعر فيه
شيء من شكوى الأقدار ، والتعجب عليها ، أو التعجب منها ، أو الشك
في حكمتها ، هو أيضاً من أثر (اختلاف المظوظ) في الحياة ؛ فما من
إنسان إلا وهو عرضة لأن يصاب في ذات نفسه ، أو فيمن حوله من
أهلة وولده وأحبابه ، فيلذّ له أن يشكوا سوء حظه ، لينتفق من كربه ،
بتردد أبيات من هذا الباب ، ولكن مثل هذه الأبيات المفردة ، التي ما
قالها قائلها ، لا تتفقىء لكربيا من كرب الحياة ، لا يصح أن تكون ،
وحدها ، أساساً للحكم على رأيه في الإيمان والكفر . بل يجب أن نجمع
كل ما قاله الشاعر ، في هذا الباب ، وننعم النظر فيه ، لنصل إلى رأيه
الصحيح القاطع .

ولو شئنا ، يا حيران ، ان نعتبر أبا العلاء من الفلاسفة ، ونبعد عن
حقيقة رأيه ، في المعرفة والوجود ، بين ثنياً هذا الشعر وطياته ، لظهور لنا إن
الرجل ، على الرغم مما ساقه إليه التشاوُم ، من الحيرة والشك ، لم يستطع أبداً
أن يخرج عن ثقته بعقله ، وعن إيمانه بربّه ، من طريق هذا العقل وحده .
وهل تشك في هذا يا حيران اذا سمعته يقول ، وما أصدق ما يقول :

وليس يُظلم قلبٌ وفيه للثبات جذوةٌ

نعم يا حيران ، والله لا يُظلم قلب رجل في رأسه شعلة من العقل السليم ؛
وقد كان أبو العلاء شديد الثقة بهذا العقل ، عظيم الاعتزاد عليه ، متربداً على

كل رأي ، او سبب يتنافى مع احكامه القاطعة ، بما يظهر ذلك من قوله :

(فلا تقبلن ما يخربونك ضللة اذا لم يؤيد ما أقول به العقل)

وقوله : (وما تُرِكَ مِرائي العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر)

وقوله : (ما تبع من يدعوا الى الخير جاعدا وارحل عنه ، ما امامي سوى عقلي)

وبهذا العقل آمن هذا العقري ، المغروم الصابر ، بوجود الله ، وبأنه ،
سبحانه ، الا الله الواحد الأحد ، الاول ، الازلي ، السرمدي ، الملام ، القادر ،
المصور ، المبدى ، المعبد ، الذي ليس كمثله شيء . وهل من سبيل لنا الى
الشك ، في هذا اليمان الكامل الشامل ، اذا سمعنا ابا العلاء يقول :

(بوحدانية العلام دعا فدحني اقطع الايام وحدني)

كأنه يشير لنا الى ايمانه بالله ووحدانيته ، بلازمة في وحدته ، وعزته
ووحشته ونشاؤه .
وسمعناه يقول :

(يموت قوم وراء قوم ويثبت الاول العزيز)

(يجوز ان تبطئه المنايا والعثرة في الدهر لا يجوز)

وسمعناه يقول عن قدرة الله الذي يخرج الحي من الميت ، ويخرج
الميت من الحي ، فيبعد جوهر الحياة من عَرَض المادة الموات ، ثم اذا شاء
نزعه منها ، فعادت ، بقدرته ، مواتا كالعرض :

(جواهر القوى قدرة عجب وزايتها فصارت مثل اعراض)

حيران - ولكنني يا مولاي احفظ من كلامه قوله :

(قلنا صدقتم كما نقول)

(زعتموه بسلام مكان ولا زمان الا فقولوا)

(هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول)

أفلا يدل هذا على ضعف اليمان بالله يا مولاي ؟
الشيخ - اني لست اعجب من ان تحفظ ، يا حيران ، هذه الآيات
الثلاثة ولا تحفظ قوله :

(والله اكبر لا يدنو القيام له ولا يجوز عليه كان او صارا)

فإنك ، معاشر الناشئة ، مولعون بالشك ، وبكل ما يسوق إلى الشك ؛ ولتكنى أعجيب لك كيف لم تدرك ، وقد مر بك ما مر من الحديث الطويل العريض عن وهم العقل وكلاله عند تصور معنى الزمان والمكان ؛ إن ” هذه الآيات إنما قصد بها المعرّي أن يشير إلى كلال عقله عن تصور معنى الزمان الحادث الذي لا زمان قبله ” ، والمكان الحادث الذي لم يكن له وجود قبل خلق العالم ، كما قال الغزالي ؛ وأنت هذه الاشارة إلى كلال العقل لا تدل أبداً على انكار وجود الله الذي يدرك أبو العلاء انه (أكبر من أن يدنو القياس له أو يجوز عليه كان أو صار) ، أي لا يقاس وجوده الأزلي على وجود الأجسام المحدثة ، التي يقترب حدوثها ، ضرورة ، بالمكان والزمان ، ولو لا حدوثها ، لما كان للمكان والزمان وجود ولا معنى يمكن تصوره .

كذلك قتل يا حيران عن رأيه في البعث ؛ فأن المولعين بالشك

والتشكيك إنما يحفظون قوله :

زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك)

بعد التلاطف ، طمعنا في تلاته)

فإن الله لا يُغْنِيه جمسي

أشعر الموت نشورا فانشر)

وليس منا لدفع الشر ” امكان ”)

اتيم فهوتا ياندام الى الخسر)

يد الدهر ، او متانا ماتنا بلا تشر)

خير وارحـب فانقلبني على عـجل)

شرأ وأضيق فانـسـأـرـب فيـالأـجـل)

ولعمري أن هذا الأقبال على حفظ ما فيه الشك والظن ، والانصراف عما فيه الآيات مع البرهان ، ليس من شأن المنصف الذي يريد معرفة الحق من رأي

الرجل ؟ وانما السبيل الى الحق ان نُنتمي النظر في كل اقواله ، ونقاصل بينها بالبرهان . فان" قوله : (لا يعاد لنا سبك) وما شاكله لا يجوز ان يُصرف لانكار البعث ، بقدر ما يُصرف الى رأي العلامة الذين قالوا ان البعث اما يكون بخلق جديد . اما قوله (ومن شاء الذي صوّرنا اشْتَمِرَ الموتَ نشورا فانتشر) فإنه يحمل ، في طياته ، برهانه العقلي على اعتقاد بعث الأحياء ، بقدرة الذي خلقها وصوّرها وانشأها اول مرة ... فتأمل يا حيران .

كذلك قوله في الروح :

<u>وعييتُ بالأرواح التي تذهبُ</u>	<u>(اما الجسم فلتزاب ماها</u>
<u>هو وهي في مرض الفتاه المكدر</u>	<u>روج اذا اتصلت بجسم لم يزل</u>
<u>او كنت من نار فيها نار اخدي</u>	<u>(ان كنت من ريح فياريح اسكنني</u>
<u>للموت عني ، فاجدر ان عرى عجنا</u>	<u>و قوله : (ان يصحب الروح عقلي بعد مطعنها</u>
<u>هلاك جسمى في تربى فوا شجبا</u>	<u>(وانمضت في الهواء الرحب هالكة</u>

فانها كلها اقوال لا يقدح في ايام الرجل ابداً ، ولا يمكن ان نفهم منها سوى الاشارة الى ان الروح شيء غير الجسد ، وانها تتصل به لتقاسى ألم الحبس ، ويقاسي هو ألم الحياة ، وأن" ابا العلاء لا يدري ما هي الروح ، وهل لها وجود مستقل عن الجسد أم هي وظيفة الجسد في حياته وتفنی بيته ، ويميره حبُّ القافية ، وكره الحياة ، الى افتراض كونها ريحًا أو نارًا ، كما زعموا ، ليتمكن سكونها أو خودها ... وكل هذا ، منها قلبتَ وجهه الرأي ، لا يقدح في الإيمان ابداً ، لأننا لا نعرفحقيقة الروح ، ولم يفرض علينا ان نقول فيها شيئاً ، سوى أنها من أمر الله ...

ادا عرفت كل هذا من كلام المعربي ، ياحيران ، وانعمت النظر فيه ، وذكرت للرجل استكانته وخضوعه الى الله ، بتذلل لا يتصور الرياء فيه ، علمتَ حق العلم ، وایقنتَ ان ابا العلاء ، رحمه الله ، لم يكن ، على تشاوذه وسخطه على الحياة وتعجبه من امرار القدر ، الا مؤمناً ، بل من اصدق الناس ايماناً بالله وصبراً على بلائه ، .

تَلَاقَيْتُ الْعَبَّاقِرَةَ

١

جئت الشيخ في موعدنا بعد صلاة العشاء ، فرأيته قد نشر بين يديه ورقة كبيرة ، مقسمة إلى حقول ، وهو يشير فيها إلى فقرات متنقابلة ، ذات اليمين وذات اليسار ، يخاطط تحتها خطوطاً ؛ فتلتفت متى العين ام الفرازالي ، وابن طفيلي ، وأسماء أخرى عربية ؛ يقابلها أسماء فرنجية ؛ فأخذت محلّي أمام الشیخ صامتاً ، لا اعتذر عليه عمله ، وبسطت دفتری على الخوان الصغير .

وبعد برهة وجيزة ، رفع الشیخ الموزون رأسه ، وقال لي وهو يبتسم : اهلا بالمختران .

قلت : ماذا يريد مولاي بهذا التعريف ؟ اني لم اعد حيران بالقدر الذي كنت فيه يوم جئت إلى الشیخ ، وأن كان فکری يرتبك في بعض التصورات .

الشیخ - اعرف اعرف . هذا الارتباط لا بد منه . ولكنني وصفتك بالحیران لأنني رأيتك متخيلاً فيها افعل .

حیران - نعم تحيّرت مذ وقع نظري على هذه الخريطة ؛ فهل عاد الحديث للغزالى وابن طفيلي ؟

الشیخ - كلام ، ولكن هي مقارنة ، أهيئها لك ، بين ما قاله هؤلاء المسلمين ، وبين ما قاله عباقرة الفلسفة في الغرب بعد ٥٠٠ سنة .

حیران - ان صحّ ظني فإن مولاي سيدعثني ، اليوم ، عن نهضة الفلسفة ؛ فلقد كنت رأيت مع بعض الرفاق كتاباً بهذا الاسم عن فلاسفة المصور الأخيرة ، فاستمررته منه ، وجئت به إلى الجامعة ، فكان من اكبر اسباب النقطة عليّ . وقد اخذوه مني ومزقوه ، لأنهم قالوا ان فيه الاحاد كلّه ...

الشيخ - لا تقلْ نهضة الفلسفة ، فالفلسفة كانت ناهضة من قبل ، ولكن قل نهضة الغربيين في ميدان الفلسفة .
حيران - لم افهم الفرق بين القولين .

الشيخ - بالنسبة الى اوروبا ، والطائفة التي كانت تخسيم عليها ، يمكن ان يقال ان هنالك نهضة في الفلسفة ، بل هنالك يقظة ، بعد مجاز عريق تفتحت فيها عيون العباقرة على النور الذي اتي من المشرق ، كعاداته ...
فإن قلتَ ائمَّه تلاقوا مع المشرقيين على الحق لم يكن بعيداً ، وإن شئت ان تقول ، معي ، ائمَّه قبسوا كثيراً من ذلك النور فهو اقرب .

حieran - اذن لا يريد مولاي ان يمدثني عن فلسفة هؤلاء الغربيين .

الشيخ - كيف لا احدثك عنهم يا حieran ، واما اعلم ان الحديث عنهم هو الذي يستهويك ...

حieran - لقد رأيت مولاي يقول ائمَّه اقتبسوا افواهم من المشرقيين ، فحسبته يهود من شأنهم ، ويصغى من قدرهم ، ليصرفني عنّا في افواهم من الشك والالحاد .

الشيخ - ومن رأيتك اكتم عنك رأي الشراك والملاحدة ؟

حieran - لقد رأيت ان اكثرا من حدثني الشيخ عنهم من علماء الفلسفة كانوا من المؤمنين الموحدين .

الشيخ - وما ذنبي اذا كان الشراك والملاحدون قلة من الاصغر ، بالنسبة للكثرة من الاكابر ...؟ والآن سوف عري ان هذه النسبة لم تتبدل قط في جميع من ماحدثك عنهم .

واما قولك اني اهون من شأنهم واصغر من قدرهم ، حين ارجتع انهم قبسوا بعض افواهم من المشارقة ، فلا ادرى من اين اناك هذا الظن ؟ ان تاريخ الفلسفة عبارة عن سلسلة ، متصلة بالحلقات ، من الاقتباس ، يأخذنه اللاحق عن السابق ، ويوضع تحت التمييز ، غيررضى منه ما هداه عقله الى انه الحق ، ويلبذ منه ما سواه ، ولما كان الحق نيرا ، فإنه قليلاً ما مختلف العقول فيه . وهذا ما يفسر لنا السر في ذلك (التلاقي) على

الحق ، في وجود الله ووحدانيته ، بين اكثـر الفلـاسـفة من المـشارـقة المـسلمـين والمـغارـبة النـصـارـى .

وـسوـاـ أـكـانـ هـذـاـ التـلـاقـ منـ بـابـ الـاقـبـاسـ ، اوـ منـ بـابـ تـوارـدـ الـفـواـطـرـ عـلـيـ الـحـقـ ، فـانـ هـؤـلـاءـ ، الـذـينـ سـوـفـ اـحـدـثـكـ عـنـهـمـ ، قـدـ اـتـواـ ، فـيـ الدـافـعـ عـنـ الـعـقـلـ ، وـفـيـ اـثـيـاتـ وـجـوـدـ اللـهـ وـصـفـاتـ كـالـهـ ، عـسـاـ يـهـرـ العـقـولـ وـيـشـرـحـ الصـدـورـ .

حـيرـانـ - هـذـاـ عـجـيبـ !

الـشـيـخـ - لـيـسـ بـعـجـيبـ وـلـاـ غـرـيبـ ، وـسـوـفـ اـحـدـثـكـ عـنـ عـشـرـةـ هـمـ اـعـظـمـ الـفـلاـسـفـةـ وـاـشـهـرـهـ ، وـكـلـهـمـ مـؤـمـنـونـ بـالـلـهـ ، مـاـ فـيـهـمـ الـأـ وـاحـدـ مـتـشـكـكـ ، وـآـخـرـ حـائـزـ يـؤـمـنـ بـالـلـهـ وـلـاـ يـدـرـيـ كـيـفـ يـصـفـهـ ، وـهـكـذـاـ تـرىـ اـنـ النـسـبـةـ بـيـنـ الـمـؤـمـنـينـ وـالـشـكـاكـ لـاـ قـرـالـ وـاـحـدـةـ .

حـيرـانـ - مـنـ هـمـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ يـوـيدـ مـوـلـايـ اـنـ يـحـدـثـيـ عـنـهـمـ ?

الـشـيـخـ - قـلـ لـيـ اـنـتـ مـنـ هـمـ الـذـينـ شـفـتـكـ اـسـعـاـهـمـ حـيـباـ وـاجـلاـ؟

حـيرـانـ - اـنـتـ طـالـماـ سـعـتـ بـشـرـةـ باـكـونـ وـدـيـكارـتـ وـكـانـطـ وـسـپـينـوزـاـ وـبرـغـسـونـ وـدارـوـنـ ، وـقـرـأـتـ نـتاـجـاـهـمـ ؟

الـشـيـخـ - سـأـحـدـثـكـ باـخـتـصـارـ عـنـ كـلـ هـؤـلـاءـ : عـنـ باـكـونـ وـدـيـكارـتـ وـبـاسـكـالـ وـمـالـبرـانـشـ وـسـپـينـوزـاـ وـلـادـاـ وـلـيـبـيـزـ وـهـيـومـ وـكـانـطـ وـبرـغـسـونـ ؟ اـمـاـ دـارـوـنـ فـلـهـ حـدـيـثـ خـاصـ آـخـرـ ؛ وـسـوـفـ تـرىـ اـنـ ثـانـيـةـ مـنـ الـعـشـرـةـ تـلـاقـوـاـ ، مـعـ الـذـينـ حـدـثـكـ عـنـهـمـ ، فـلـاـسـفـةـ الـمـسـلـمـينـ ، عـلـىـ الـإـيمـانـ بـالـعـقـلـ ، وـالـإـيمـانـ بـوـجـودـ اللـهـ وـوـحـدـانـيـتـهـ ، رـعـلـىـ الـبـرـاهـينـ الـدـالـلـةـ عـلـيـهـ تـلـاقـيـاـ يـسـكـادـ يـكـونـ حـرـفيـاـ .

حـيرـانـ - اـنـتـ اـسـعـ اـنـ باـكـونـ ، رـاعـسـ الـفـلـسـفـةـ الـحـدـيـثـةـ ، قـدـ اـبـطـلـ المـنـطـقـ ، وـجـلـ عـلـىـ اـرـسـطـوـ حـلـةـ شـعـواـهـ ، فـكـيـفـ يـقـولـ مـوـلـايـ الشـيـخـ اـنـ تـلـاقـ معـ الـأـوـلـيـنـ فـيـ الدـافـعـ عـنـ الـعـقـلـ ؟

الـشـيـخـ - لـمـ يـبـطـلـ فـرـنـسـيـسـ باـكـونـ اـحـكـامـ الـمـنـطـقـ ، وـلـاـ يـسـتـطـيـعـ اـبـطـالـهـ اـلـأـنـهاـ اـحـكـامـ الـعـقـلـ السـلـمـ ، وـلـكـنـهـ ذـهـبـ اـلـىـ مـاـ ذـهـبـ اـلـىـهـ سـبـبـهـ (ـروـجـ)

باقون) من القول بأن التجربة هي البرهان الأوحد في العلوم الطبيعية ، وجاءه في الملة على منطق ارسطو .

جبران - من هو روجر باكون هذا ؟

الشيخ - ألم تسمع به ؟ هو الراهب الفرنسيسكاني الانكليزي اشهر علماء القرون الوسطى ، الذي جاء الى الدنيا قبل فرنسيس باكون بأمد طويل . ولقد تشبه هذان الرجلان في الرأي كما تشابه في الاسم والوطن ، فحمل روجر على الطريقة الفلسفية المتبعة في عصره ، واعلن ان التجربة هي البرهان الأوحد في العلوم الطبيعية ، وتظاهر برفض منطق ارسطو حتى تتفق لو اتي القدرة على احرار كتبه ، وان كان لم يستفن ابداً عن ذلك المنطق العقلي في كلامه ، وأشار الى نفس الاسباب التي قال فرنسيس باكون " أنها تجرّنا الى الخطأ " .

اما فرنسيس باكون ، الذي جاء بعد روجر باكثر من عصرين ، ليتذكر ، أو يتبع الآراء نفسها ، فقد قال بالتجربة في العلوم الطبيعية ، واحتقر منطق ارسطو ، حق وصف المعلم الاول بأنه سوفسطاني قبيح ، وان كان لم يستفن ، كسميه ، عن الأخذ بذلك المنطق ، وعدد الاسباب التي تجرّنا الى الخطأ ، وسمّاها (اصناما) ، تشبيها لها بالاواني التي تصرفنا عن عبادة الحق ، وهي تقاد تكون نفس الاسباب التي ذكرها روجر من قبل .

اما الطريقة التي اختارها فرنسيس باكون للبحث فهي مبنية على : التجربة المؤسسة على الاختبار الصارم والملاحظة الدقيقة ، واحسال الطريقة الاستقرائية التي يذهب بها العقل صدأً من الجزئيات الى الكليات (induction) محل الطريقة التي ينزل بها العقل من الكليات الى الجزئيات (déduction) . وما هذا بالشيء الجديد ، فالبرهان الصاعد والبرهان النازل ، معروفان عند القدماء ، والتجربة كذلك هي اول شيء عرفه الانسان في دروس احوال الطبيعة ؛ ولكن باكون فلسف هذه التجربة ، ونظمها ، ورسم لها خطوطاً ، وحدّد لها مراحل ، ووضع لها جداول ، فكان هذا

التنظيم لطرق البحث عاد شهرته في عالم الفلسفة .

حيران - لا ريب في أن هذه الطريقة المنظمة للاستنتاج الصاعد من المجزئيات إلى الكليات ، هي أكثر اتصالاً للحقيقة في الأمور الطبيعية والأشياء الحسية ، ولكن كيف تطبقها في معرفة الأمور التي وراء الظواهر المحسوسة ؟

الشيخ - إن باكون يرى أن أول خطوة لدراسة الفلسفة تبدأ بدراسة الطبيعة ، وبعد أن تستوفي درس ظواهر الطبيعة ، ونقف على قوانينها الخاصة ، يصبح أن ننتقل إلى دراسة القوانين العامة التي تنطوي تحتها القوانين الخاصة ، ولا نزال نترقى حتى نصل إلى القانون العام الأكبر ، الذي تنطوي تحته كل القوانين ، ونصل إلى (البديهيات) التي تكون صحيحة في أي علم ؛ وبهذه البديهيات يمكننا دراسة الأسباب العليا التي نشأ عنها الكون ، والوصول إلى ميتافيزيقيتها السادسة .

وكما ان فرنسيس باكون يتلاقى ، في هذه النظرة الشاملة إلى الفلسفة ، مع ابن رشد ، الذي يذهب إلى معرفة الله من طريق (درس المجزئيات) من آياته ، في مخلوقاته ، وفيما أقيم عليه الخلق من النظم الكلمة والتواتر الشاملة ، ويلاقى مع ابن مسكويه وابن طفیل على ما قالا به من إمكان الوصول إلى ادراك وجود الله من طريق العقل بالنظر الفلسفى الحالى فيقول كلمته الحكيمية المشهورة : (اذا كان قليل من الفلسفة يُبعد عن الله ، فالكثير منها يرده إلى الله) (Si un peu de philosophie éloigne de Dieu, beaucoup de philosophie y ramène) (روجر باكون) يتلاقى ، مع معاصره توماس أكويناس ومع القرآن ، على الإيمان بالله ، والعجز عن ادراك كنه ذاته سبحانه ، عند النظر في حقيقة ذبابة فيقول : (انه لا يوجد عالم من عالمات الطبيعة يستطيع ان يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة و خواصها ، فضلاً عن ان يعرف كنه ذات الله) ؛ فكأنه يتلو نص الآية في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضربَ مَثَلَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا

وَلَوْ أَجْمَعُوا لَهُ إِنَّ يَسْأَلُهُمْ الَّذِي أَبْشِرُهُمْ شَيْئاً لَا يَسْتَكْنِدُوهُ مِنْهُ
ضَمَفَ الطَّالِبُ وَالظَّالِبُ مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقٌّ قَدْرُهُ إِنَّ اللَّهَ
لِتَقْوِيَ عَزِيزٍ) ، فَتَأْمُلْ يَا حِيرَانَ .

حِيرَانَ - هَذَا عَظِيمٌ يَا مُولَّاي ...

الشَّيْخُ - وَسُوفَ تَرَى ، مِنْ هَذَا التَّلَاقِ عَلَى الْحَقِّ ، مَا هُوَ أَعْظَمُ
وَأَوْضَعُ عِنْدَ دِيكَارْتٍ وَغَيْرِهِ ، يَا حِيرَانَ .

حِيرَانَ - إِنَّ دِيكَارْتَ شَهِيرٌ عَظِيمٌ فِي عَالَمِ الْفَلَسْفَةِ ، فَإِنَّ أَشَدَّ شُوقِي
إِلَى مَعْرِفَةِ وَجْهِ تَلَاقِيِّي مَعَ فَلَاسْفَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَ الْقُرْآنِ .

الشَّيْخُ - إِنَّ دِيكَارْتَ اسْتَخْرَجَ الْيَقِينَ مِنَ الشَّكِّ ، وَجَعَلَ مِنْ نَفْسِ
الشَّكِّ سَبِيلًا لِلثَّابِتِ وَجُوْهِرِ الْهُدَى ، وَمَعْرِفَةِ صَفَاتِ كَالَّهِ ؛ فَإِنَّ أَشْبَهَهُ بِالْغَزَالِيِّ ،
فِي شَكَّهُ وَرِيقَتِهِ ، بَلْ فِي كُلِّ احْوَالِهِ وَاقْوَالِهِ . إِنَّهُ نَظَرَ إِلَى وَسَائِلِ
الْمَعْرِفَةِ ، فَرَأَى إِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْحَوَامِنَ "الْأَنْسُ الَّتِي تَتَلَاقَتْ بِهَا أَفْوَى الْمَحْسُوسَاتِ" ،
وَالْعُقْلُ الَّذِي نَدْرَكَ بِهِ الْمَقْوِلَاتِ ؛ وَرَأَى إِنَّ الْحَوَامِنَ كَثِيرًا مَا تَخْدِعُنَا ،
وَالْعُقْلُ كَثِيرًا مَا يَخْطُبُ ، حَتَّى لَنْ تَحْسَبَ إِنَّ مَا رَأَيْنَا فِي الْمَنَامِ حَقِيقَةً
شَاهِدَنَا فِي الْيَقِظَةِ . وَطَلَّا إِنَّ الْحَوَامِنَ تَخْدِعُ وَالْعُقْلُ يَخْطُبُ ، فَإِنَّهُ لَمْ
يَبْقَ لَنَا مِنْ وَسَائِلِ الْمَعْرِفَةِ شَيْءٌ تَنْقُ بِهِ وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ
وَالْيَقِينِ .

وَيَعْدُ هَذَا الشَّكُّ ، الَّذِي قَضَى بِهِ عَلَى وَسَائِلِ الْمَعْرِفَةِ كُلُّهَا ، عَادَ دِيكَارْتُ
إِلَى الْيَقِينِ ، كَمَا عَادَ الْغَزَالِيُّ ، مِنْ قَبْلِ ، بِاسْلَوبِ مِنَ الْبَيَانِ السَّاحِرِ وَالْمُجْبِيِّ
الْبَالِغِيِّ ، الْوَاضِحةِ الْمُبِيْسَطَةِ ، الَّتِي تَجْعَلُ الدَّرْهَمَ عَلَى الشَّكِّ بِرَهَانِ عَلَى الْيَقِينِ ،
فَقَالَ : مَهْمَّا شَكَّكْنَا فِي حَوَامِنِي وَعَلَيَّ ، وَشَكَّكْنَا فِي وَجْهِ الْعَالَمِ ،
فَإِنَّهُ سَلْبِقَنِي بِحَقِيقَةِ وَاحِدَةٍ لَا يَكُونُ الشَّكُّ فِيهَا ، لَأَنَّهَا تَرَدَّادٌ يَقِينِي كُلَّهَا
أَزْدَدَتْ شَكًّا ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ هِيَ (إِنِّي أَشَكُ) ؛ وَمَعْنَى إِنِّي أَشَكُ ،
إِنِّي أَفْكَرُ ، لَأَنَّ الشَّكُ تَفْكِيرٌ ، وَالتَّفْكِيرُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ ذَاتِ مُفْكِرَةٍ ،
وَهَذِهِ الذَّاتُ الْمُفْكِرَةُ هِيَ (أَنَا) ؛ حَقٌّ لَوْ حَاوَلْتُ إِنْ أَشَكَ فِي إِنِّي
أَفْكَرُ ، فَهَذَا الشَّكُ نَفْسِهِ دَلِيلٌ عَلَى إِنِّي أَفْكَرُ ...

ومن هنا وضع كلته المشهورة : (أنا افکر ، اذن أنا موجود .
— Je pense, donc je suis).

وعلى هذه الكلمة بنى قراعند برهانه على صحة الموسن ، وصدق العقل ، ووصل الى اثبات وجود الله ، وعرف جميع صفات حكمائه الموجبة عقلاً .

ومن هذه القاعدة انتقل ديكارت الى اثبات وجود الاوليات العقلية ، ثم برقي ، بعد ذلك ، الى الاستدلال على الله بدليل الحدوث ، ودليل الوجوب حيث يقول :

لماذا يستحيل على " ان انكر هذه الحقيقة الفائلة (أنا افکر ، اذن أنا موجود) ؟ انه يستحيل على " انكارها لأنها واضحة جداً . وهنالك قضايا لا تقبل عن هذه القضية وضوها في العقل ، مثل قولنا : ان الشيء لا يصدر من لا شيء ، وقولنا ان النتيجة لا يمكن ان تكون اكبر من المقدمة ، وان المسبّب لا يمكن ان يكون اكبر من سببه .

وبعد ان يتوصّل ديكارت الى هذا اليقين في اثبات القضايا الاولية البديهية المركوزة في عقولنا ، يقسم الافكار الى ثلاثة اقسام : افكار بالاصادفة او مباشرة (adventices) وهي التي تكون لدينا من الاشياء الخارجية مباشرة بدون اعمال الذهن ، وافكار صنعتية (Factices) وهي التي تكون فيها ثمن من افكار مختلفة ، وافكار فطرية (innées) مركوزة في عقولنا . ثم يقول ان القسمين الاولين يجب فيها الحذر ، كي لا يتسرّب اليها شيء من اغلام الدواس واوهاها ، واما الافكار الفطرية فانها ، في حالة سلامنة العقل ، تكون سالمه من الخطأ ، لأنها جزء اساسي من تكون عقولنا ، ومنها نثبت احكامنا اليقينية كلها ، ونستدل على وجود الله .

وبعد ذلك ينتقل ديكارت الى اثبات وجود الله فيقول : أنا موجود .
فمن اوجدني ومن خلقني ؟ اني لم اخلق نفسي ؛ فلا بد لي من خالق .
وهذا الخالق لا بد ان يكون (واجب الوجود) ، وغير مفتقر الى من

يوجده ، او يحفظ له وجوده ، ولا بد ان يكون متصفًا بكل صفات الكمال . وهذا الخالق هو الله بارئ كل شيء .

وبعد ان يتخد من نفسه ووجوده ، ومن العالم الموجود ، دليلاً على الله ، يسلك نفس السبيل الذي سلكه الرئيس ابن سينا ، من قبله باربعة عصور ، فيتتخذ من الله ومن صفات كماله دليلاً على صدق العقول وصححة احكامها ، ودليل على وجود نفسه ، ووجود العالم فيقول : ان من صفات الكمال المتوجبة ، عقلاً ، لله صفة الصدق ؛ وحاشا ان يكون سبحانه قد وهبنا عقولاً مضللة خادعة . فلا بد لنا ، اذن ، ان نثق بان هذه العقول ، التي فطرنا الله علينا ، هي عقول صادقة وصالحة لادراك الحق ، وكل ما تدركه هذه العقول ، ادراكاً واضحاً جلياً (كالاوليات البدوية) ، هو حرق لا ريب فيه . وعلقونا (التي فررتنا انها صادقة وتدرك الحقائق الاولية) ، هي التي تدلنا على وجود الله وصفات كماله ، وعلى انه خالق العالم ومدير امره ...

هكذا تدرج ديكارت في الاستدلال : فاستدل بنفسه وبالعالم على الله وكامله ، ثم استدل ، بوجود الله وكامله ، على صدق العقول ، وعلى وجود العالم ؛ فاتخذ الله دليلاً وشاهدأ على مخلوقاته ، بعد ان استدل على وجوده بمخلوقاته ؛ فسلك نفس الطريق التي سلكها ابن سينا ، كما رأيت ، فصدق عليه في هذا قول الله تعالى : (سترهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبيّن لهم أئمّة الحق أو لم يتكلّف ربّك أنت على كلّ شيء شهيد) . فقد اراه الله آياته ، وهذه ، (حين قال : اني لم اخلق نفسي ، فلا بد لي من خالي) ، الى الحجة البالغة في قوله تعالى : (ام خلقو من غير شيء ام هم الخالقون ؟) ، فتأمل ...

ولما هاجمه النقاد بأنه اتخذ النتيجة ، التي بلغها في الاستدلال الاول ، اساساً للقدمة التي استخرج منها نسلك النتيجة ، قال لهم ديكارت : ان العقل كان في الاستدلال الاول يعتمد على قضية بديهية تفرض نفسها

من غير تفكير فيها، فان وجود (نفسي) قضية بديهية . واما في الاستدلال الثاني فان العقل يعتمد على استنتاجه في التدليل ، عندما امكنه ان يبرهن على السبب الذي من اجله اعتذير العقل ' وسيلة ' يُرْكَنُ اليها في الادراك والحكم . فكأنّه يقول لهم رأيت ' آية الله في (نفسي) بالبداية ' ثم رأيت الله ، بصفات كماله ، شاهداً على صحة عقلي الذي عرفت به الحق ، فاكثّرتُ بالله شهيداً على كل شيء . وهذا نظم الآية . فتأمل يا حيران ...

حيران - هذا والله عظيم ، زدني يا مولاي زدني !
الشيخ - ماذا ازيدك ؟ ان الزيادة لن ترضيك ابداً ، لانها سُنْشَةٌ
في عينيك جمال الصورة التي اخذتها عن هذا العقل السامي .
حيران - كيف ؟

الشيخ - ان هذا العقل السليم يظل منطبقاً حتى يجهز على غير عرينه ، وينسى الحذر الذي اوصانا به في مسالك الافكار (المباغرة) والافكار (الصناعية) ، فكباً ، كما يكتبوا الجواب في الحزن ، عندما حاول ان يفسر كيف كان خلق العالم ، وما هي الحياة ، وكيف يتصل العقل الروحاني بالجسد المادي .

انه يزعم ان الله قسم المادة الى اجزاء ، منها الكبير ، ومنها الصغير ، ثم بدأ فيها الحركة في التحاجات مختلفة ، فجرّت وتصادمت ، ففُنِّها ما قاسك ، وتجمّع كتلاً كبيرة ، ومنها ما تحوّل الى ذرات وهباء ؛ ومن الكتل الكبيرة كان التراب ، ومن الذرات كان الهواء ، ومن الهباء كان الأثير ، ومن الأثير كانت النار والشمس والنجمون ... فما اجمله خيالاً ...
ويزعم ان الحياة اصلها هو الدم ... ويصف كيف يصل الدم الى القلب ، فيسخن بحرارته ويتبخر ، ويرتفع الى الرئتين فيبرد ، ويرجع الى القلب ... فما احلاته تعليلاً للدورة الدموية ، وان كان لا يُرضي معاشره (وليم هارفي) الذي ' ولد قبله بثمانية اعوام ، ومات بعده بسبعة ... ولعل ديكارت تشاءم مما حل' (بيشال سرفه) ، فلم يشاً ان يقول الحق

في هذه الدورة الدعوية الدائمة ، التي هي من عجائب صنع الله ، ومن اولى الدلائل على وجوده وقدرته .

اما كيف يتم الاتصال بين المقل الروحاني والجسد المادي فان ديكارت يجد لهذا الاتصال وسيطًا في (الندة الصنوبرية) ...

ولكن الرجل بعد ان يسجح في اجواء هذه الحالات يعود الى صوابه ، ويرجع الى الخذر الذي اوصانا به عند فحص الافكار المباشرة والصناعية فيقول : (اتنا لا نستطيع ان نعرف كيف يتم هذا الاتصال بين الروح والمادة ، فلم يبق لنا الا ان نعمله بانه آية من آيات الخلاق الحكيم القادر) .

ولا يقل باسكال ومايلرنش ، اشهر تلاميذ المدرسة الديكارتية ، ايماناً بالله عن استاذهم ، ولكن الثاني ذهب مع الخيال الى حد القول (بالجبر المض) بل سبق معاصره لايبيز الى القول بالتناسق (السابق التوطيد) .
حيران - ما هذا التناسق السابق التوطيد ؟

الشيخ - سياقتك خبره وبيانه ، فاسمع الان ما يقول باسكال فانه لا يقل بياناً ويرهاناً عن ديكارت :

اما في المعرفة فيقول باسكال : ان الموسams تخدع والعقل يخاطئ ، ولكن بالقلب ، وحده ، نعرف الحق ... وبالقلب نعرف المبادئ الاولى ، ومعنى الزمان ، والمكان ، والحركة ،
والعقل انا يؤمن ادراكه على هذه المعرف ، التي هي (قضايا اولية) ،
لو اردنا البرهان عليها لوجب ان نفرض وجود قضايا اخرى سابقة ، ولو
قلنا بذلك لنذهب بنا الى التسلسل ، ولتنا امكنا الوصول الى قضايا اولية ،
فبالقلب ندرك هذه الحقائق ، وبالقلب ندرك وجود الله .

حيران - ماذا يعني بالقلب ؟

الشيخ - انه يعني تلك الافكار الفطرية المركزة في عقولنا ، والتي ترها وانسحها نيرة لا تحتاج الى برهان . ولا فرق بين ان تكونت في القلب ، او في الدماغ او في الروح ... ولكن "كلمة القلب كانت تعبر في الماضي عن معنى الدماغ ، وهكذا اخذتها العرب .

حيران - اذن، يرى باسکال ان الانسان قادر بعقله او بقلبه على ادراك كل حقائق الوجود؟

الشيخ - كلا يا حيران، ان باسکال احكم من انت يقول بذلك، انه يتلاقى مع الفارابي وابن سينا فيقول : ان العقل يستطيع ، بما لديه من الافكار الفطرية الاولية ، ان يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادئ الاولى ، ويدرك منها وجود الله ، واما ما وراء ذلك من اسرار الوجود والخلق والخالق ، المحموقة عنا بمحبب الفبيب ، فيرى باسکال انت اعجز من انت تدرك كنهها وحقيقةها ، لأن حواسنا لا تدرك غaiات الاشياء : فالصوت ، اذا اف्रط في الشدة ، يضم اسماعنا ، والنور ، اذا اف्रط ، يُعشى ابصارنا ، والقرب يمنعنا من الرؤية ، اذا اف्रط ، كما يمنعنا البعد ؛ فتكاد غaiات الاشياء تكون غير موجودة بالنسبة اليها .

ثم يتحدث عن حالة الانسان ، بالنسبة الى عالمنا ، وما وراءه من عوالم ، ويشير الى عجز العقل وارتباكه عند التفكير في غaiات المكان والزمان ، ويصف الرعب الذي يعتري الانسان ، اذا قصور نفسه مهولاً بين هاوبي الالانهائية والعدم ، وصفاً ساحراً ، ينتهي منه الى القول : فلعلم اذا قدرنا فاننا بعض الشيء ولسنا كل شيء ، ومقام عقلنا في المقولات ، كقام جسمنا في الامتداد .

حيران - هذا قول كريم .

الشيخ - واصححه منه تلاقيه مع الفارابي وابن سينا حيث يقول : ان ادراكتنا لوجود الله ، هو من الادراكات الاولية ، التي لا تحتاج الى جدل البراهين المقلية (فانه كان يمكن ان لا اصحابون ، لو كانت آمني مقتنـت قبل انت اولدـتـي) ، فلما بدأ من كان واجب الوجود ، دائم لا نهائي ، ولست دائماً او (لا نهائياً) ، فلا بد من كان واجب الوجود ، دائم لا نهائي ، يعتمد عليه وجودي ، وهو الله الذي تدرك وجوده ادراكاً اولياً ، بدون ان تتوّرّط في جدل البراهين المقلية ، ولكن على الذين لم يقدر لهم هذا الاعان القليبي ان يسعوا للوصول اليه بعقولهم ...)

وفي هذا يُلقي باسکال حكمته الاجتماعية البالغة ، التي هي اشبه بكلام العارفين حيث يقول : (هناك صنفان من الناس فقط يجوز ان نسميهما عقلاً ، وهم الذين يخدمون الله جاهدين لأنهم يعرفونه ، والذين يخدون في البحث عنه لأنهم لا يعرفونه) .

حيران - حقاً انه لقول سليم ، ولكن باسکال لم يخرج في استدلاله على الله ، عن (دليل الوجوب) ، وهو دليل عقلي مركب ، يقوم على الاوليات البدائية ، ويستخرج منها .

الشيخ - هذا صحيح ، ولكن باسکال يرى دليل الوجوب هذا ، كأنه ، لسرعة قيامه في النفوس وشدة ظهوره ، من الاوليات العقلية . ثم ادرك ان هذه البداهة قد لا تيسّر لكل انسان ، فاشار بالتجوّه الى البرهنة العقلية للوصول اليها . اما الذي انكر هذه البرهنة ، واقتصر ، في الاعيان بوجود الله ، على (الالهام) ، دون سواه ، فهو (مالبراش) الذي وضع نظرية (الرؤية بالله) .

حieran - ما معنى هذا ؟ وهل يريد به ما قاله ديكارت من اتنا نرى الله شاهداً على كل شيء ، ام يريد به اتنا ائماً ندرك بالعقل الذي وهبتنا الله اليه ؟

الشيخ - لا هذا ولا ذاك .

حيران - اذن هو رجل يتظاهر بالاعيان و يريد ان يعطيك .

الشيخ - كلاً كلاً . انه من اخلص المؤمنين بوجود الله . ولكن عقل الرجل يقف كغيره عند عقدة لا يستطيع حلها الا باخري اكثر تعقيداً ، كما فعل افلاطون في (مثلثه) ، فان مالبراش نظر فيها قال ديكارت عن الاتصال بين العقل الروحاني والجسد المادي ، فعجز عقله عن ادراك امكان هذا الاتصال ، فانتهى ، من هذا ، الى القول بان الافكار الالهية هي وحدتها التي تتمتع بالوجود ؛ ونحن نرى هذه الافكار بالله ، فليس هنالك افكار فطرية مركزة في عقولنا ، ولا افكار صنعتها تكونها عقولنا ، ولا ادراكات حسية تتلقاها هذه العقول من الأشياء ، ولكن " الموجود " هو

الافكار الالهية ، ونحن لا ندرك العالم الخارجي بذاته ، بل ندركه باذهن الذي عنده علم الكلّ .

هذه نظرية الرؤية بالله . وهي نظرية تُمَكِّنُ الْمُشَكِّلَ الْأَفْلَاطُونِيَّةَ بِأَوْقَنِ صَلَةٍ ، عَلَى مَا أَرَى . وَبِعَقْبَتِهَا لَا يُرَى (ما لبرانش) لِزُومِهَا لِاقْتَامَةِ الْبَرَهَانَ عَلَى وِجْدَانِ اللَّهِ ، لِأَنَّا نَرَاهُ وَنَرَى بِهِ كُلَّ شَيْءٍ ؛ فَلَسْنَا نَعْرَفُهُ مِنْ طَرِيقِ الْأَفْكَارِ الْفَطَرِيَّةِ وَالْأُولَيَّاتِ الْبَدِيَّيَّةِ الْمُوَصلَةِ إِلَى اثِباتِ وِجْدَانِهِ بِالْبَرَهَانِ ، بَلْ نَعْرَفُهُ بِالرُّؤْيَا ، وَبِالْبَدَاهَةِ الْمُبَاشِرَةِ ، فَلَا حَاجَةَ لِإِثْبَاتِ وِجْدَانِهِ بِالْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ .

حيران - ما هو رأي مولاي في هذا الأبيان ؟

الشيخ - هذا يصح ان يكون من كلام الصوفية ، لا من كلام الفلاسفة والتكلمين ، الذين لا يعتمدون الا على النظر العقلي الخالص ، والبرهان العقلي القاطع . وليس يستحيل ان يُنْعَمَ اللَّهُ ، على بعض عباده ، بهذه (المشاهدة) ، ولكنّ هذا يكون من باب الشذوذ . فالقاعدة ان الاعيان يكونون بالعقل الذي وهبنا الله اياه ، وبالبراهين العقلية التي أعطاها ، سبحانه ، القوة والقدرة على تشكيب مقدماتها واستخراج نتائجها . ولو لا ذلك لما دلنا ، في كتبه ، ببيان رسده ، على هذه البراهين .

ولو وقف (ما لبرانش) عند هذا الاعيان الصوفي لهات الأمر ، ولكنه ذهب الى مساواة وراء ذلك فانكر الاتصال بين الروح والجسد من اصلة واساسه ، وانتهى به الكلام الى (جبرية) محضة حيث يقول : إن الفعل لله وحده ، فلا الأرواح تعامل ولا الأجسام تعمل ، ولكن هذا النظام الذي نشاهده ، ونظن انه اتصال بين الروح والجسم ، ما هو الا تناقض بين ميل الأرواح وحركات الأجسام . وكل ذلك من فعل الله وحده ، فهو يخلق الميل والرغبات في الأرواح ، وهو يحرك الأجسام وفقط ميل الأرواح ... وبكلمة واحدة أن الله هو خالقنا وخالق افعالنا . وهذا متنهي الغلو في (العجّير) الذي لا يقل " سخافة " وهذا عن (وحدة الوجود) التي يقول بها معاصره سبينوزا .

حيران - وما معنى وحدة الوجود ؟

الشيخ - القائلون بوحدة الوجود ، من الذين يتغلب خيالهم على عقلهم ، فتنان : فئة تقول ان الله روح العالم والعالم جسده ؛ فاذهب عندهم هو الكل . وفئة تقول ان كل الاشياء التي في الطبيعة ليس لها حقيقة سوى وجود الله نفسه ؛ فالكل عندهم هو الله .

حieran - كيف يؤمن سبينوزا ، وهو المفكر الشهير بهذا المذهب ، وكيف قال عنه مولاي الشيخ انه مؤمن بالله ؟

الشيخ - قلت لك انه يؤمن بالله ولا يدري كيف يصفه ، وهنالك بذلك انه غير منكر لوجود الله بالمرة ليُمده من الطبيعين القائلين بتكون العالم بالمصادفة . وهو على كل حال ، لم يبلغ به المذهب الى حد ان يقول ان العالم هو جسد الله ، ولكنها قال ان الله هو الموجود وحده ، والعالم اعراض صفاتة .

حieran - لماذا يتسبب مولاي نفسه بذكر هذا المذهب وردة ؟

الشيخ - حتى أنه مذهب سخيف لم يقل به احد من عظماء الفلاسفة الذين حدثتك او سأحدثك عنهم . ولكن ألا تذكر ، يا حieran ، قول الغزالى (إن رد المذهب ، قبل فهمه والاطلاع على كتبه ، رد في عمايه) .
حieran - بل .

الشيخ - اني ألحص لك كلام سبينوزا في وحدة الوجود كي لا أدعك في العباية عن مذهب رجل أعلم ، ان شهرته العظمى قد تستهويك ، ولا بد ، اذا لم تعلم سببها ، ان تغويك ...

حieran - ما هو سبب هذه الشهرة يا مولاي ؟

الشيخ - سببها ما لأرائه في المعرفة والأخلاق من مسو قتلاشى في جانبه سخافته الميتافيزيقية . وسايداً بذكر بعض آرائه في المعرفة ، لترى ما فيها من حق ، ولترى كيف يتناقض الرجل ، بعد ذلك ، مع نفسه عندما يبحث قضية الوجود .

ان سبينوزا لا يجعل للتجربة ذلك المقام الأول الاعظم الذي قال به

باقون ، ولا يعتمد ، كل الاعتقاد ، على البرهان الصاعد الذي يترقى فيه العقل من المجزئيات الى الكليات ؟ بل يعتمد على البرهان الذي ينزل فيه العقل ، في الاستدلال ، من العام الى الخاص ومن الكليات الى المجزئيات ؟ ويشق ، اكفر ما يشق ، بالاوليات والبدائيات . ولتكنه ينبع نهج باكون ، فيوصينا بتنمية العقل ، قبل البحث ، من اوهامه ، لتعلم ، من معارفنا ، ما هو قوي يؤدي الى (البيتين) ؛ وما هو سخيف لا يوثق به ؟ ويوصينا بالحذر ، الذي اوصانا به شيخه ديكارت . ثم يقسم هذه المعرف ، مثلاً ، الى انواع : منها نوع ضعيف يأتينا من طريق (الاشاعة) ، او من طريق (التجربة الفامضة) ، وهذا لا يجوز الاعتقاد عليه والوقوع به . ومنها نوع يأتينا من طريق (الاستدلال والاستنتاج) ، وهو اقوى من النوع الاول ، ولكنها محتمل التعديل والتبدل . اما النوع الثالث فهو ما ندركه من طريق (البداهة) كافراكتنا (أن الكل اعظم من الجزء) وهذا ارقى انواع المعرفة واسعادها وابعثها على البيتين .

حيران - هذه امس صحيحة لا ريب فيها . فكيف ينتهي الرجل عليها رأيه في وحدة الوجود ؟ وain هي البداهة التي تؤسي اليها ان الله والمالم (المتغير) شيء واحد ؟

الشيخ - ان سپينوزا ينطلق من نفس الاستدلال العقلي بدليل (الحدث) ودليل (الوجوب) فيقول : ان كل ما هو موجود ، وما يمكن ان يُذْرَك انه موجود ، ينحصر ، في حكم العقل ، بين ثلاثة اقسام . جوهر قائم بذاته (Substance) وصفات او خواص (Attributes) واعراض (Modes)

فالجوهر ، عنده ، ما هو كائن بذاته ، وقائم بذاته ، وواجب وجوده بذاته ، وهو الله الازلي الابدي "السريري" الواحد الأحد . اما الصفات او الخواص فهي مَا يدرك العقل ، انه في الجوهر كقوع لذاته . واما الاعراض فيريد بها سپينوزا اعراض ذلك الجوهر ، التي تبدو لنا بشكل اشياء لنراها ، وندركها بذلك الجوهر الواجب الوجود .

حيران - ليس في هذا التقسيم هذه ولا سخف ، بل هو الحق كله

والأيام كله . لأن الرجل يعترف بوجود الله الواجب الوجود ، ويعرف له بصفات الكمال المتوجبة له عقلاً ، ويعرف بأن الله أراد أن يتجلّى بصفات كالم من طريق هذا العالم . ومن تجلّيه بصفة (الخلق) كان هذا العالم ، ومن تجلّيه بصفة القدرة والحكمة كان ما في العالم من نظام واتقان وأحكام ، ومن أرادته أن يُدرِك هذا التجلّي خلق الإنسان ووهبه هذا العقل ليستطيع به أدرك وجوده وصفاته فيُعبُدْه حقاً عبادته . وهذا معنى الأمر المشهور (كثُرَّ كثُرَّ خَفِيَا فَخَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْرَفُونِي) .

الشيخ - كل هذا صحيح . وقد يكون سبينوزا أراد هذا المعنى بذلك في أول مراحل تفكيره السليم المتنزّن ، ولكن ، وبالطبع ، يخرج عن هذا الاتزان حين يقول : إن الله لا يخلق شيئاً ، ولكن سن طبيعته ان يتجلّى تجلّياً (ضروريًا) ، ومن تجلّيه يكون العالم الذي هو اعراض صفاتـه .

حيران - لم افهم . هل ينكر سبينوزا من صفات الله صفة (الخلق) بعد ان اعترف له بصفات الكمال .

الشيخ - ان سبينوزا يقول ان العقل يحكم ، ضرورة ، بوجود الجواهر اي الله ، ويحكم ، ضرورة ، بأن له خواصاً وصفات ، ولكننا لا نشاهد من هذه الصفات الا صفتين تجعليان لنا في (الاعراض) أي في الأشياء التي يتألف منها العالم ، وهي صفة (الفكر) (*la pensée*) وصفة (الامتداد) (*l'étendue*) ، والعالم ، بما فيه من اشياء ، هو اعراض تجلي هاتين الصفتين . والانسان ، وحده ، هو الذي يجتمع فيه عَرَضُ الامتداد الى عَرَض الفكر .

حيران - ولكن البداهة التي اعتبرها سبينوزا اسمى انواع المعرفة وابعثها على اليقين ، والتي حكمت عليه بأن يؤمن بوجود الجواهر (الله) ، وبأن له خواصاً وصفات ، هذه البداهة نفسها تقضي بأن يكون الله صفة القدرة والارادة ، وبها يكون الخلق . و اذا كنا لا نشاهد ، باعيننا ، الا عَرَضُ الامتداد في الاجسام ، وعَرَضُ الفكر في النقوس ، فاننا ، بعقولنا ، نرى ان هذين العرضين هما من ار القدرة والارادة ، كما نرى

ان النظام والاتقان من اثر الحكمة . فكيف تخلت سبينوزا عن منطقه السليم ليقول ان الله نفسه له خاصية الامتداد ، بدلاً من ان يقول ان له صفة القدرة التي يخلق بها الامتداد والتفكير ؟

الشيخ - قلت لك ، من قبل ، ان مؤلام المفكرين يقفون ، في ممالك التفكير الخطيرة ، امام عقد يربك العقل في تصورها ، ويعجز عن حلها . فمن كُتُبَتْ له الهدایة ترك العقدة والحرف عنها الى الادلة العقلية الضرورية البديهية فاحتكم اليها ، وخرج ، من هذا الاحتکام ، الى نور الحق . اما الذين لم تكتب لهم الهدایة فيقفون امام العقدة لا يحيطون عنها ، ويتصوّر لهم الوهم انها ضرورة عقلية لا سبيل الى تركها ، وهي لا تكون من الضرورات العقلية أبداً ، بل من عمل الوهم الذي اشار اليه الفرزالي من قبل وعمانوئيل كنط من بعد .

والذى اظنه ان سبينوزا وقف به الفكر بين نظريتين : احدهما تستند الى اوليات عقلية ضرورية . والثانية تتخطى على وهم عقلي : ذلك انه رأى عالم الاشياء متغيراً فحكم بأنه حادث ، وحكم بأن كل حادث لا بد له من محدث ، وحكم بأن التسلسل الى غير نهاية مستحيل عقلاً ، فلا بد ان تتفق المحدثات عند قدمي كائن بذاته ، قائم بذاته ، وهو مستند وجودها وعلة حدوثها .

ثم كَلَّ عقله عن تصور الخلق من العدم ، كما كللت عقول كثيرة ، من باب الوهم الذي يأتينا من قياس التمثيل ، فحسب ان الخلق من العدم مستحيل ، وهو ليس مستحيل (عقلاً) وان كان نزاه مستحيلاً في (العادة) ، ولم يهتم الى الانحراف عن هذه العقدة الوهمية ، كما احرف غيره من العباقرة السابقين ، واللاحقين الذين سأحدّثك عنهم ، ولم يجد سبيلاً للخروج من هذا الاشكال الاّ بأن يقول ان الموجود حقاً هو الله وحده وما العالم الا (اعراض) لتجلى صفاته بالضرورة ، فجعل الله والعالم شيئاً واحداً .

وكأنه ادرك تفاهة ما في هذا الخلط بين الجواهر (الله) الذي يصفه ، هو نفسه ، بأنه الواحد الأحد ، الواجب الوجود ، الازلي ، الالهاني ، القائم

بذاته ، وبين العالم المادي ، المتعدد ، المسكن ، المحدود ، المتغير المتبدل ،
فقال كالمفتر عن نفسه : انت الفرق بين الله والعالم يأتي من اختلاف
ووجهات النظر ...

ومكنا اراد هذا العبرى ، الذي بدأ النظر مستمسكاً بعقله ، وخذلنا
من الاوهام ، واوضح لنا كيف يجب ان نستند في الاستدلال على البديهيات
دون سواها ، ان يحرثا ، من وجة نظره العجيبة ، الى القول بوجدة
الوجود بين الله وعالم الأشياء ، والى ان نُرغم عقولنا التي تدرك ، بقوة
البداهة ، وجہ التناقض بين الاحدية والتعدد ، والازلية والمتاهي ، والوجوب
والامكان ، والقدرة والعجز ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، على ان
تعقل ان الله تعالى يجمع ، في كمال ذاته وصفاته وقام أحديته ، بين كل
هذه المتناقضات ، فيكون واحداً متعدداً ، وازلياً متناهياً ، وواجباً
مكناً ، وصغيراً كبيراً ، وعاجزاً قدريراً ، وخيراً شريراً ، وجاهلاً عليماً ،
وجانباً اثيناً ، ونبياً كريماً ، وشيطاناً رجيناً ...

نَلَاقِيْتُ الْعَبَّاسَى قَرْتَه

٢

يقول حيران بن الضعيف : قضيت ليالي ، بعد ان فارقت الشيخ ، مكتباً
قلقاً ، ولما اقترب الفجر ، اخذتني سنة من النوم ، فرأيت ابي ، في بيتنا ،
وهو يقرأ القرآن ، ولم اسمع من التلاوة الا قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ) ، ثم التفت اليه عندما اتم القراءة ، مبتسمًا وقال لي :
يا حيران . ألا تقرأ القرآن ؟ وقبل ان اجيبه فتحت عيني ، واعتراني
كرب عظيم من هذه الرؤيا ، وفهمت منها ان ابي غير راض عنى ، فقضيت
نهاري كله منقبضاً حزيناً .

ولما حان موعدنا مع الشيخ ، دخلت عليه ، فوجدهته يتلو القرآن ،
فأخذني العجب من هذا الاتفاق ، بين ما رأيته في المنام وما رأاه في
اللحظة ، ولما احسن بدخوله ، ختم التلاوة ، والتفت اليه ، فرآني منقبضاً
شارد الفكر ، فقال ما بك يا حieran ...

حيران - ليس الا الخير .

الشيخ - ولكنني اراك منقبضاً .

حيران - لقد رأيت ابي في المنام .

الشيخ - هذا خير ، فأي داع للانقضاض ؟

حيران - لقد رأيته يقرأ القرآن ، ولم اسمع من تلاوته الا قوله تعالى :
(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ...) ، ثم التفت مبتسمًا ، وقال لي :
يا حiran . ألا تقرأ القرآن ؟ وقبل ان اجيبه فتحت عيني . فاعتراني من
هذه الرؤيا كرب عظيم ، وفهمت منها ان ابي غير راض عنى ، لأنني اشتغل
بالفلسفة ، ولا اقرأ القرآن .

الشيخ - هل نفت ، ليلة امس ، وانت تفكك فيها قاله سيدرا؟

حيران - اي والله . لقد كنت قلماً مكتباً .

الشيخ - لماذا ؟ هل رأيت في كلامه عن وحدة الوجود شيئاً معقولاً ؟

حيران - لا والله ، ولكنني فارقت مولاي الشيخ ، وأنا متعجب من ان تترددى هذه المقول الكبيرة في مهابي الضلال ، ووسوس الى شيطان النفس ، ان هذا الرجل اكبر مني عقلاً ، واسم فسكيراً ، و اكثر علماً ، فكيف لا يدرك المجمع التي ذكرها الشيخ .

الشيخ - اذا ، داخلتك الريب في ان يكون شيخك الموزون مصيناً في حججه .

حيران - استغفر الله . وكيف يكون ذلك وانا كنت اشارك مولاي الشيخ في نقد كلام الرجل .

الشيخ - قد تكون مرتباتاً في صحة نظرك ، وفي صحة نظر شيخك ، امام ما يستولي على نفسك من الاجلال لهذا الفيلسوف الشهير . ولكن ما قولك اذا حدثتك عن فلاسفة آخرين معاصرين لسبينوزا ، واعظم منه شهرة ، ورأيت انهم ، جميعاً ، متفقون على الآيات بوجود الله الخالق العظيم ، من طريق البراهين المقلبة القاطعة ؟

اني اعلم يا حيران ان اجلالك ، انت وكل من في سلك من الناشئة ، لأحد هؤلاء الفلسفه المشهورين ، لا ينفع فيه وثوقك بي ، ولا وثائقك بالفلسفه من رجال الدين ، ولا وثائق بنفسك وعقلك ، وانا ينفع فيه اجلال مائل للفيلسوف آخر ، يساوي الاول في المكانة والشهرة ، لما قولهك اذا حدثتك عن ثلاثة متعاقبين ، كل واحد منهم اعظم من سبينوزا مقاماً ، وواسع شهرة ، واصدق حديثاً ، واقطع حجة ، واوضح بياناً ، وكلتهم يؤمنون بالله ، كما يؤمن شيخك هذا العبد الفقير ، وكما يؤمن الغزالي ، وغيره من الفلسفه وعلماء الكلام .

حيران - ذلك ما كنت ابني ، فلا ريب في ان مولاي الشيخ ينظر بنور الله .

الشيخ - اما رؤياك يا حيران فانها حق . ان في القرآن آيتين تبدآن

يقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي الدِّينِ بَغْيَرِ عِلْمٍ) ، احدهما في قوله تعالى في سورة لقمان (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي الدِّينِ يُفَسِّرُ عَلَيْهِ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابٌ مُّنِيرٌ) والثانية في سورة الحجّ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي الدِّينِ يُفَسِّرُ عَلَيْهِ وَيَسْعِيُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتُبَ هَلَّبَ أَتَهُ مَنْ تَوَلَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى هَذَا كِبِيرٍ) . والرؤيا التي رأيتها ، إنما تشير لك إلى أن سينوزا وأمثاله ، هم من هؤلاء الذين يجادلون في الله بغیر علم ولا هدی ولا كتاب منیر ، ويتبّعون شيطان النفس الامارة بالسوء . وما سؤال ایك لك عن قراءة القرآن ، ألا سعى على قطلب هذه الآيات ، المطوية على الحجّ الساطعة والبراعين الفاطمة الدالة على الله ، من كافة طرق الاستدلال ، التي اهتدى إليها من اراد الله لهم الهدی من الفلاسفة والشకلین .

حيران - فرج الله عنك يا مولاي كل ضيق وكرب ، كما فرجت
كربي ، ولكن لماذا لا يبسط لي الشيخ هذه الآيات الدالة على الله ؟
الشيخ - مأسطها لك اذا جاء دورها في الترتيب الذهني الذي وضعته
لنك ، فاصبر .

حيران - ومن هم الفلاسفة الثلاثة العظيماء الذين يريد الشيخ ان يحدثنی عنهم .
الشيخ - او لهم (لوک) ، والثاني (لاپینز) ، والثالث (عمانوئيل كانط)
حيران - حقاً اني طالما سمعت بهؤلاء على لسان طلاب الفلسفة .
وماذا يقول (لوک) ؟

الشيخ - في الوقت الذي كان فيه سينوزا المولاندي اليهودي غارقاً
في وحدة الوجود بيتافيزيقيته المتناقضة ، كان (لوک) ، الذي ولد
وسينوزا في سنة واحدة ، يقف على الضفة الثانية من المانش متابطاً
دراسته في الأدراك الانساني (Essai sur l'entendement humain) مستسماً
بنطقة العقل السليم ، مبتعداً عن الجبالات والأوهام ، معترفاً بوجود الله ،
مقراً بعجز العقل عن ادراك ما لم يخلق لأدراكه من اسرار الغيب .
اما في المعرفة فان (لوک) ينكر ، في باديء الرأي ، الانكار الفطرية

ويقول ان الافكار كلها على اختلاف اوعتها تأتينا من (التجربة) . ولكن بعض القضايا تبدو لنا بدائية لأن العقل لا يكاد ينظر فيها حتى يدركها ، فنحسبها افكاراً فطرية . ولو نظرنا الى المتخرين والأطفال لرأينا انهم لا يعرفون هذه البداهة . وهذا ما يدلنا على ان عقولنا خلقت خالية من كل فكرة كلوحة جرداء (Table rase) ولكننا نُكون افكارنا ومعرفتنا من التجربة في الحياة . وهذه التجربة تكون خارجية بالاحساس ثم تكون باطنية بالتفكير والتأمل : فالحواس قوصل للعقل بمجموعة من الاحاسيس ، يقوم العقل بحفظها وجمعها ومقارنتها ، وادراك العلاقات بينها . ومن هذا التأمل الباطني ينتهي العقل الى ادراك الاوليات البدائيات التي نحسبها افكاراً فطرية وما هي في الحقيقة الا افكار يكوّنها العقل من التجربة . حيران – اذا كانت لوك ينكر الافكار الفطرية ، وهي الاوليات المركزة في عقولنا ، فكيف ، اذا ، تستطيع ان تعرف الحق ، وما هو الاساس الذي نبني عليه الحكم بصحة فكرة ما ، او عدم صحتها ؟

الشيخ – هذا السؤال ، عندي ، غير جوهري . لأنه ، من حيث النتيجة ، لا فرق بين ان تكون هذه الاوليات فطرية " مركزة فينا " وبين ان تكون من صنع عقولنا ، فلهم " انتا ، ثم البشر " ، متقوون على ان في عقولنا اوليات بدائية نستخدمها اساساً للبحث والتأمل والمناقشة في صحة الفكرة او عدمها ، ومتقوون على صدق هذه الاوليات البدائية .

على ان لوك عاد واعترف ، طبعاً ، بالافكار الفطرية وسماتها (افكاراً تمثيلية) (Idées représentatives) حيث قال : ان في عقولنا نماذج لحقائق الاشياء ، وهذه النماذج هي التي تقام عليها الفكرة ، فُيعرف خطوطها من صوابها ، وبقدر ما يكون التطابق فاما واضحاً ، بين فكريتنا عن الشيء ، وبين النموذج القائم في عقولنا عن هذا الشيء ، تكون معرفتنا اقرب الى الصحة . ويخلص لوك من هذا الى قسم المعرف الى ثلاثة اقسام : معرفة (بدائية) وهي تم بادراك العقل ببداهة (اي من غير برهنة) ما بين الفكرة والنماذج من المطابقة . ومعرفة (برهانية) وهي تم بعد البرهنة

على وجود مطابقة بين الفكرة والنموذج ، ومعرفة (غامضة) لا برهان عليها وهي معرفتنا بالعالم المادي . فنحن نعرف هذه الأشياء التي تحسها ، ولكن معرفتنا ليست من النوع البديهي ، ولا من النوع البرهاني ، لأننا لا نستطيع أن نقيم البرهان على صحة معرفتنا بحقيقة هذا الشيء المادي الذي نراه ؟ وما ندركه من هذا الشيء المادي الذي له وجود حقيقي في الخارج ، ليس هو حقيقة الشيء ذاته ، بدل نحن ندرك مظاهره ، ولا نعرف كنه وحقيقة ، ولذلك كانت معرفتنا بالعالم المادي معرفة غامضة .

حيوان — أ يريد لو لك أن ينكر امكان معرفة الحقيقة كما فعل السوفسطائيون والشكاك ؟

الشيخ — اراك لا تنتبه لكل كلمة ماتا اقوله وتكلمه انت بيدهك . ان الرجل يقول : هنالك بديهيات ندركها مباشرة بلا افل برهنة ، كقولنا الكل اكبر من الجزء ، وأن طرفتي القبيض يمكن ان يكون احدها صدقاً والآخر كذباً ، وهنالك معارف ندركها من طريق البرهنة ، مثل القضايا الرياضية ، ونصل بها الى الحقيقة كل الحقيقة . اما معرفتنا بالأشياء المادية فليست بديهية ، ولا يمكن اقامه البرهان عليها ، كا نقيمه على قضية رياضية ، بل هي معرفة سطحية غامضة . فهو لا يقول ان معرفتنا بالعالم المادي وهيئه لا اior لها من الصحة ، بل يريد ان هذا النوع من المعرفة غامض لا يبلغ حد المعرفة البديهية او البرهانية ، ولكنه مررجن الصحة ، بدليل اتفاق العقول البشرية السليمة كلها على ادراك صور حسية واحدة ، ووصف الاشياء بصفات واحدة ، فلا يبقى عندنا ريب في ان الصور الذهنية تطابق الشيء في الخارج ، ولكن البرهنة على ذلك غير ممكنة ، فتكون معرفتنا لكنه الشيء المادي ، في ذاته ، غير ممكنة (باليقين) الذي نعرف به القضايا البديهية ، وما يرتكز عليها من القضايا البرهانية .

حيوان — وفكرتنا عن وجود الله وعن الأمور الغيبية من اي قسم من اقسام المعرفة يعتبرها لو لك ؟

الشيخ - هنا يتجلّى لك ، في لوك ، سمو" التفكير واتّزانه عندما يفرّق بين ادراكتنا لوجود الله ، وادراكتنا لأمور الغيب .

انه يقول : نحن من قضية وجود الله على قسم اليقين الذي نصل اليه اذا تأملنا في انفسنا ، و بما لنا من حواس وذكاء وعقل ، فادركتنا بالبداهة ان هذا الانسان لا يمكن ان ينشأ من العدم . فعرفتنا بوجود الله هي معرفة (برهانية) تقوم وترتکز على اساس المعرفة (البداهة) لأن وجودنا نحن ، الذي هو داخل في قسم المعرفة البداهة ، كما قال ديكارت ، يدل على وجود الله ؟ كا ان ما قينا وفي العالم من ابداع ونظام واقتان واحكام يفتقر الى وجود خالق ازلي قادر على حكم .

اما الامور الغيبة الاخرى ، كالبحث في كنه هذا الخالق ، وكنه الروح ، وحقائق الاشياء في ذاتها ، فان لوك يجيب عنها ، بحكمة يحدّر بك ان تحفظها مع ما تحفظ من حكم العلامة الحكما حيث يقول :

(لو بحث الناس عن قوام العقلية بمحنة جيداً ، وكشفوا عن الأفق الذي يفصل بين الأجزاء المضيئة والأجزاء المظلمة وميزوا بين ما يمكن فهمه وما لا يمكن ، لاطمئنوا الى جهلهم في الجانب المظلم ، ورضوا به ، ولا استخدمو افكارهم واجهائهم في الجانب الآخر استخداماً انفع وابت على الاطمئنان) .

حيران - مولاي الشيخ اني اعرف في بلادي حكمة هندية بثل هذا المعنى واللغظ .

الشيخ - حقاً انها تتفق مع كلام لوك لفظاً ومعنى . لقد ذكرها (البيزروني) في كتابه (تحقيق ما للهند من مقوله) وهي الحكمة القائلة : (يكتفينا معرفة الموضع الذي يصلحه الشعاع . ولا تحتاج الى ما لا يصلحه ، وان عقلتم في ذاته . فما لا يصلحه الشعاع لا يدركه الاحسان ، وما لا يحسن به فليس بعلوم) .

وهكذا تتلاقى يا حيران اشهر العقول السليمة وتتفق على الحق ، بلا خلاف ، ما دامت في نطاق ما يصلحه الشعاع ، فإذا تجاوزته تمثّرت

وكَبَّتْ كَا تُمَثِّرْ وَكَبَا سِبِّينُوزَا ...

حيران - زدني يا مولاي زدني ، وحدثني عن لايبنر و كانط .

الشيخ - سأزيدك حق ترضو ، ولكن الوقت لا يتسع الليلة للحديث عن كانط ، وأحدثتك عن لايبنر وحده .

حيران - وهل يختار ليبينز صاحبه لووك في آرائه السامية هذه ؟

الشيخ - انه يختاره في شيء ، ويعارضه في شيء ، ويسمو عليه في ناحية ، ويقصّر عنه في أخرى .

حيران - كيف هذا ؟

الشيخ - انه يختاره في ايمانه ، ويسمو عليه في عمق برهانه ، ويعارضه في (اللوحة الجرداء) ، ولكنه عندما يخالف حكته فيتجاوز حدود ما يبلغه الشاعر ، يتعثر ويكتبوا ؛ فلقد كان هذا المبقرى الالماني كثيراً في علمه ، عميقاً في تفكيره ، ولا سيما حين يبحث في فلسفة المعرفة والوجود والخلق والخلق ، ولكنه تمثّر حين حاول ان ينفذ في الوصف الى حقيقة الجانب المادي والجانب الروحاني ، ويفسر مانظمه اتصالاً بين الروح والمادة ، لقد كان لايبنر يعتقد في اول امره رأي ديكارت في الافكار الفطرية ، ويعارض لووك في قوله ان عقولنا تكون في الأصل (لوحة جرداء) ، ولا تأتيها المعرفة والأوليات العقلية الا من التجربة . ولكنه في (اختباراته الجديدة للمعلم البشري Nouveaux Essais sur l'entendement humain) يأتي برأي وسط يوفق فيه بين ديكارت ولووك تقوياً رائعاً حيث يقول : انه لا يمكننا ابداً ان نفسر المعرفة حينما نسندها الى التجربة وحدها ، فالتجربة ليست كل شيء في المعرفة كما زعم لووك ، ولكن يوجد فينا حقائق ضرورية كلية (Vérités nécessaires et universelles) انسى من التجربة ولكن تكشفها التجربة . اي ان هذه الحقائق الأولية الضرورية موجودة في عقولنا بالفطرة وبالقوة ، ولكن لا نستطيع اكتشافها إلا بواسطة التجربة ، فولا التجربة لم تكشف لنا ، ولكن التجربة ليست هي التي تكونها . وعن هذا المعنى العميق الذي اخذ به كانط بعد ذلك ،

يعبر لايتز بقوله المشهور : (ليس في العقل شيء لا يأتي من المحسوس الا ان يكون العقل نفسه Il n'y a rien dans l'intelligence qui ne vienne des Sens, si ce n'est l'intelligence elle-même)

وبعد انت اكتر لايتز وجود الافكار الفطرية اي المباديء العقلية الضرورية ، تسامي في الاستدلال ليتوصل الى حل قضية الانعام وال موجود والموجّد على اساس هذه المباديء العقلية الضرورية ، فاثبت وجود الله واتصافه سبحانه بصفات الكمال ، واثبت ان العالم من خلق الله ، واثبت امكان الخلق من العدم .

حيران - كيف توصل الى حل هذه المقدمة التي وقفت عندها عقول كثير من الفحول ؟

الشيخ - انه توصل الى حلتها بنفس الاستدلال الذي قال به الفارابي وابن سينا وديكارت ولوک ، ولكنـه كان رائعاً في بيانه ، عظيماً في ايمانه . فما يقال الاستدلال سوياً عقلياً بديعاً قوياً صارماً واضحـاً لا يجد الانسان عيبـاً عن التسلـيم به ، ما دام مستمسـكاً بعقلـه . فاسمع يا حيران ما يقول .

حيران - كلـي اذان يا مولـاي .

الشيخ - يقول لايتز : ان كلـاً حقيقة عقلـية يقرـرها العقل ، اثباتـاً او نفيـاً ، لا بدـاً له ان يعتمد ، في اثباتـها او نفيـها ، على مبدأـين عقـلـيين ضـروريـين ؛ وهـما (مبدأـ التناقض le principe de contradiction) ، ومبدأـ (العلةـ الكافية le principe de raison suffisante) . وايضاـ ذلك : ان كلـاً مـا نتصـوـرـه لا بدـاً ان يكون إمـا مـمـكـناً او مستـحـيلاً او واجـباً . وكلـاً شيءـاً يوجـب تصـوـرـه وقـوعـه تـناـقـضاً عـقـليـاً فهو (مستـحـيل) . وكلـاً شيءـاً لا يوجـب تصـوـرـه وقـوعـه تـناـقـضاً عـقـليـاً فهو (مـمـكـن) . وكلـاً شيءـاً يوجـب تصـوـرـ عدم وجودـه تـناـقـضاً عـقـليـاً فهو (واجـب) ...

كـذلك ، كلـاً واقـعـ نـشـاهـدـه ، لا بدـاً ، على اساس قـانـون العـلـةـ الـضـرـوريـ ، ان تكونـ له (عـلـةـ) سـبـبـ ، وقـوعـه ، ولا بدـاً ان تكونـ هذهـ العـلـةـ (كـافيةـ) لـوقـوعـه . والـقـولـ يـعـدـم وجودـ (عـلـةـ كـافيةـ) لـوقـوعـه ، يـوجـب تـناـقـضاً عـقـليـاً .

وعلى اساس هذين المبدأين : (مبدأ التناقض و مبدأ العلة الكافية) ،
يمكنا معرفة (الممكن) ، وبمكنا تطبيق (الواقع) . فلكي نحكم بامكان
حصول شيء ، يكفينا ان نتسائل ، (على اساس مبدأ التناقض) : هل
يستلزم تصور حصوله و وقوعه تناقضاً عقلياً ام لا . فان استلزم تصور
وقوعه تناقضاً عقلياً ، حكمنا بأنه مستحيل . وان لم يستلزم تصور
وقوعه تناضاً عقلياً حكمنا بأنه (ممكن) ، ولو كان العقل يستبعده ،
او يكلّ ويعجز عن تصوّره . كذلك لكي نحكم بتوسيع وجود شيء ،
نتساءل : هل يجب تصور عدم وجوده تناضاً عقلياً ام لا . فان
أوجب عدم تصور وجوده تناضاً عقلياً ، حكمنا بأنه (واجب الوجود) ،
والألا فلا . وبعد هذا ننتقل الى (الواقع) المشاهد قرئي ، على اساس
مبدأ العلة الكافية ، انه لا بدّ لهذا الواقع من علة لوقوعه ، ولا بدّ
ان تكون هذه العلة (كافية) لوقوعه ، فوجود (العلة الكافية) ، اذن ،
امر واجب عقلاً ، وانكار هذه (العلة الكافية) يوجب لنا تناضاً عقلياً ،
لأنها من نوع (الواجب) .

وعلى هذا الاساس العقلي المبين يتبين آرائه في الوجود ، والايجاد
من العدم ، والموحد ، فأمن بالله ، وأمن بخلق العالم من العدم ، وأمن بأن
خالق هذا العالم الكامل هو الله المتصف بكل صفات الكمال .

ذلك انه ، بعد ان برهن على ان فكرة وجود الله هي (ممكنة) ،
لأنها لا توجب اي تناقض عقلي ، وبرهن على ان الخلق من العدم (ممكن) ،
لأن تصوره لا يوجب اي تناقض عقلي ، وان كان العقل يكلّ عن تصوّره ،
انتقل الى هذا العالم (الواقع) ، فقال انه واقع مشاهد ، موجود ، وليس
هو الذي أوجد نفسه ، لأن القول بأنه أوجد نفسه يوجب (تناضاً عقلياً)
وطبعاً انه (واقع) فلا بدّ له من (علة كافية) لوجوده ، لانه بدون
علة كافية لا يكون موجوداً ، والحال انه واقع وموجود ، ولا مجال لأنكار
وجوده . وما دام موجوداً وفيه هذا النظام والاحكام ، الى حدّ الكمال ،
فلا بدّ اذن تكون (العلة الكافية) لوجوده لها منتهى القدرة والحكمة

وكل صفات الكمال . وهذه العلة الكافية هي الله ، (الواجب الوجود)
الذي يوجب انكار وجوده تنافضاً عقلياً .

حيران - هذا كلام عظيم لم اسمع بما هو أقوى منه دليلاً واقطع برهاناً .
الشيخ - الا في القرآن يا حيران . الا في القرآن الذي حضرك أبوك
على ان تقرأه .

حيران - اني لؤمن بأن كلام الله تعالى ابلغ حجة واصدق دليلاً ، ولكنني
لا ادرك اسرار هذه البلاغة في هذا الباب الذي نحن فيه ، وان كنت
اعذر بعضها في باب اللغة ، فلماذا لا يكشف لي مولاي عن هذه الاسرار ،
الشيخ - اكثر العلماء انما يبحثون عن بلاغة القرآن من ناحية اللغة ، ولكن
بلاغة القرآن العظمى ، وبيانه الساحر ، واعجازه الباهر القاهر ، هي في هذا
الباب (باب البرهان على وجود الله وصفات كماله ، وخلق العالم ، والرد
على المتكرين الملحدين) اظهره واكبره واعظمه واوفره . اما الكشف لك
عنها ، يا حيران ، فقد وعدتك به ، وسيأتيك بيانه ، اذا آن اوانه .
حيران - اذا كان هذا هو رأي لا يباز في وجود الله وكماله ، وخلقه ،
فما هو التعشر في كلامه ؟

الشيخ - انه تعثر فقط حينما اراد ان يعلل ما حارت فيه العقول من
الاتصال بين الروح والجسم ، فاختبرنا لنفسه يشبه ، الى حد بعيد ،
رأي مالبرنس في التوافق والتناسق ، ولكنه فصله تفصيلاً ، بدأ به ضمن
حدود الامكان العقلي ، وانتهى به الى (جبرية) لا تتلام مع حكمة الله
وكماله ، كما انتهي صاحبه من قبل .

فقد قال ان العالم ، بما فيه من اجسام وارواح ، يتكون من (ذرات
روحية) . وكل ذرة مستقلة عن الاخرى ، تسير بمقتضى قوانين لها ، بدون
ان تتصل بسواها . وكل ذرة فيها جانب مادي (منفعل) وجانب
روحاني (فاعل) .

حيران - ولكن كيف تتفاعل هذه الذرات اذا كانت لا تتصل ؟
الشيخ - ان " لا يباز " للجواب عن ذلك ، يخترع لنا نظرية (التناسق

السابق التوطيد) (l'harmonie préétablie) فيقول إن الندرات تسير بارادة الله ، وتعمل بقدرته ، بصورة يظهر منها أنها تتصل ببعضها ، وهي في الحقيقة لا تتصل ، ولكن قدرة الله تجعل كل ذرة تسير سيراً يوافق سير الندرات الأخرى .

وهكذا شأن العقل والجسد ؟ فالعقل نظامه الخاص ، وللجسد نظامه ؟ ولكنها ، بارادة الله ، يسيران مستقلين ، بتوافق وتناسق (موطّد سابقنا) ، بحيث يستحيل أن يتخلّف عمل أحدهما عن عمل الآخر . فكل خلجة عقلية يقابلها حركة في الجسد ، كأن بينهما علاقة " واتصالاً " ، وما في الحقيقة غير متصلين ولا متفاعلين ، ولكن هذا الذي يظهر لنا من التوافق هو أثر (التناسق السابق التوطيد) الذي وضعه الله فيها .

حيران - ليست هذه النظرية مستحيلة بل هي ممكنة على أساس المبدأ الذي وضعه لاينز " بشأن (الممكناً) ، لأنّ تصورها لا يوجد تناقضًا عقليًا ؟ ولكنني أسأل ، على أساس مبدأه نفسه ، هل من تناقض عقلي في تصور اتصال خفي بين الروح والجسد ؟ وإذا لم يكن تصور هذا الاتصال مما يوجد تناقضًا عقليًا ، وكان (ممكناً) ، وهو أقرب في الظاهر ، وأحكم نتيجة ، وأحسن مصيرًا ، فما الذي دعاه ، وهو يحاول الخروج بنا من صعوبة تجدها في تصور الاتصال بين الروح والمادة ، إلى أن يزجّنا في صعوبة أشد منها وأسوأ نتيجة ومصيرًا ؟

الشيخ - الحق ما قلت ... وإذا كنا لا ندرى ، ويمكن أن لا ندرى إلى الأبد ، كيف يتم الاتصال بين الروح والجسد ، فلا يعني ذلك أنه مستحيل ، ويكتفى أن نقول مع لاينز " أنه (ممكناً) ، لأنّ تصوره لا يوجد تناقضًا عقليًا ؟ وإذا كان ممكناً فلا مانع أن نقول : أنه يتم بقدرة الله ، بدلًا من أن تفسره ونعتله بنظرية هي أصعب تصوراً وأبعد في الظاهر ، وأقرب إلى (الجبرية) التي لا تلام مع عدل الله وحكمته .

حيران - سمعت من لاينز " يرى أن العالم في متحف الكمال ،
ما معنى ذلك ونحن نعيش شريراً من الشرور ؟

الشيخ - ان لا يبز المشور بتفاوله يستدل ، بما في هذا الكون (بمجموعه) من نظام واحكام وجمل ، على كمال الله ، اخذًا بيدأ (العلة الكافية للواقع) ، ثم يستدل بكمال الله ، الذي لا ريب فيه ، على ان العالم هو افضل عالم ممكن عقلاً ان يكون . ولكن علينا ان لا ننظر الى العالم من زاوية حادث معين ، في وقت محدود ، لتركنا ابصارنا على ما فيه من شر ونفعها عما وراءه من خير ، بل علينا ، لدرك الحكمة في الكل ، ان تنظر الى العالم نظرة عامة شاملة نرى بها ان هذه الامور التي نحسبها شرًا هي امور لا بد منها للوصول الى الخير .

ويذكرني قوله هذا في الشرور - وهو قول سبقه اليه كثير من الفلاسفة والتكلمين - بكلام الجاحظ في اعلى مراتب البلاغة والحكمة حيث يقول : (ان المصلحة ، في امر ابتداء الدنيا الى انقضاء مدتها ، امتراج الخير بالشر ، والضار بالنافع ، والمكره بالسار ، والقصوة بالرقعة ، والكثرة بالقلة . ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق ، او كان الخير محضاً سقطت الحنة ، ونقطمت اسباب الفكرة . ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة . ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز ، ولم يكن للعالم ثبات وتوقيف وتعلم . ولم يكن علم . ولا يعرف باب التدبير ، ودفع المضرة ، ولا اجتناب المفعة ، ولا صبر على مكرهه ، ولا شكر على محبوبي ، ولا تفاضل في بيان ، ولا تنافس في درجة ، وبطلت فرحة الظفر ، وعز الغلبة ، ولم يكن على ظهرها حق يجد عز الحق ، ومبطل يجد ذل الباطل ، وموفق يجد بزد التوفيق ، وشاك يجد نقص الخبرة وكرب الوجوم ، ولم تكون النفوس آمال ولم تتشعبها الاطماع ... فسبحان من جعل منافعها نعمة ومضارها بوجع الى اعظم النافع وجعل في الجميع عام المصلحة وباجتاعها تمام النعمة) .

حيران - حقاً انه كلام في اعلى مراتب البلاغة والحكمة .

الشيخ - ان الجاحظ جاء الى الدنيا وذهب منها قبل لا يبز بتسعة عصور تقريباً ... أفرأيت كيف تتلاقى عقول العابقة يا حيران ... ؟

تَلَاقِيَتُ الْمَبَارِقَةِ

٣

قال حيران بن الضعف : دخلت على الشيخ فوجده متہلاً مستبشراً ، وبين يديه كتاب ، ما لمحته عيني سقي عرفت انه باللغة الاوردية ، فاخذني العجب ، وظهرت على وجهي دلائل البشر والحنين ، فرفع الشيخ بصره اليّ ، وقال لي : مالي أراك اليوم مستبشراً على غير ما كنت في الليلة السابقة ... ؟ سأجيبك (أبا الاحوال) ... ام وقفت عينيك على كتاب بلغة بلادك ، فهزك الشوق والحنين الى الوطن .

حيران - هذا هو الواقع يا مولاي ، ولكن ما هو هذا الكتاب ؟

الشيخ - هو لشيخي الجسر رحمه الله .

حيران - أهو من علماء الهند ؟

الشيخ - كلا بل هو من علماء الديار الشامية ، ولكن الكتاب مترجم الى الوردية والتركية .

حيران - هل جاء دور الحديث عن الجسر الذي طلما سمعتكم تذكره ؟ ولكنكم لم تحدثوني بعد عن ثالث ثلاثة (عمانوئيل كانط) الذي أنا بشوق عظيم الى الحديث عنه .

الشيخ - لم يأت دور الجسر ، ولكنني أهتني لك الحديث عنه في الليلة القادمة . أما الذي أحدثكم عنه الليلة فهو (هيوم) شيخ الشراك المحدثين ، وعمانوئيل كانط شيخ الفلسفة المتأخرة المؤمنين بالعقل وبالله خالق العقل .

حيران - مالي وللحديث عن شيخ الشراك ، فقد سمعت عنهم الشيء الكثير ولم أجده في أقوالهم منطقاً سليماً ، ولا فلسفة صحيحة .

الشيخ - حقاً ان هيوم لا يُعد ، عند نقاد الفلسفة ، فيلسوفاً ، بكل معنى الكلمة ، لانه لم يضع فلسفة ايجابية محددة ، بل اولع بالشك ،

فإنكر كل شيء ، حتى إنكر عقله وربه . ولكن إذا لم أحدثك عن هن يوم لم يظهر لك فضل (كانتط) في دفاعه عن العقل وأيمانه بالله ، ولم يظهر لك فضل هن يوم ، نفسه ، على الفلسفة .

حيران - كيف ؟

الشيخ - نعم يا حيران ، فلولا شك هن يوم لم يقْضِ كانتط عمره الطويل في وضع مؤلفاته الكبرى في الدفاع عن العقل .

حieran - ولكن لا ادرى كيف انكر هن يوم عقله ونفسه .

الشيخ - ألم ينكر السوفسطائيون الأولون والشكاك الأقدمون كل شيء ؟

حieran - صحيح . ولكن السوفسطائيين كانوا يخدعون الناس ، خداعاً .

اما الشراك الأقدمون فانتهي أمرهم الى (لاادري) سلبية ؛ وقد جاءوا في عهد لم تكن الفلسفة فيه هذه الآفاق الواسعة ، ولا كان لها هذا النتاج الوافر الباهر ، الذي تخضت عنه عقول العظاء الدين حدثني عنهم ، امثال ديكارت ولوكل ، ولابنز ، المعاصرین لهذا الذي سميت شيخ الشراك . فلا ادرى كيف توصل هن يوم الى الشراك في عقله ونفسه بعد هؤلاء ؟

الشيخ - بدأ هن يوم في المعرفة فتابع ولوكل وجاراه في انكار الأفكار الفطرية ، وزعم معه ان جميع ما لدينا من ضروب المعرفة اما يتكون من الاحساس والتجربة . وان الأفكار المركبة ليست موي بمجموعة من الأفكار ، ولكننا حين لا نجد لها شيئاً في المحسوسات ، نحسبها من مبتكرات العقل .

ولو وقف هن يوم عند هذا هن الامر ، فقد تكون الأفكار الفطرية بمجموعة من الأفكار البسيطة ، وليس بمستحيل ان تكون الاوليات المقلية بما تكونونه عقولنا ؛ ولكنه يغلو في هذا غلواً سخيفاً ، حتى ينكر قانون السبيبية ، ويزعم ان علاقة العلة بالعلو هي علاقة وهمية لا اسمان لها الا اننا نرى حدوث ظاهرة ، يعقبه حدوث ظاهرة اخرى ، فنظن الثانية مسببة عن الاولى ، مع انه ليس بين الظاهرتين رابطة عقلية (ضرورية) توجب ان تكون الظاهرة الاولى علة للثانية . ولكن نحن تعودنا ان نرى

الحاديدين متنابعين باطراد ، فحسبنا ان بين الحاديين علاقة سلبية ، فرَّعْنا
ان الاولى علة الثانية ؟ وما فكرة السلبية الا فكرة ذاتية ليس لها وجود ،
الا في عقولنا ؟ وقوانين العلية ليست سوى تلخيص التجارب السابقة ،
ولا تحتمل اقل توكيده فيها يتعلق بالمستقبل .

حيران - ان قول هُمْ ، بعدم وجود رابطة (ضرورة) بين الظاهرتين ،
يشبه ما ذكرته يا مولاي عن الغزالي عند الحديث عن ابن رشد ،
الشيخ - لا يحزنني ان تكون فهمت تلخيصي لقانون السلبية عند الغزالي
فهـما سـيـنا ، فقد شارـكـ في سـوـهـ الفـهـمـ كـثـيرـ منـ العـلـمـاءـ الـذـيـنـ قـرـأـواـ
(تهافت الفلسفـةـ) ؟ لذلك ارى ان نرجع الى ما كتبناه ونبعد النظر فيه .
قال حـيـرانـ بنـ الـاضـعـفـ - وـقـلـتـ صـفـحـاتـ الدـفـقـ الذـيـ اـخـطـ فـيـهـ
حدـيـثـ الشـيـخـ ، وـاعـدـتـ عـلـيـهـ قـرـاءـةـ ماـ كـتـبـتـ عـنـ الغـزـالـيـ فـقـالـ :
ماـذـاـ رـأـيـتـ ؟

حـيـرانـ - لمـ اـرـ فـرـقاـ بـيـنـ القـوـلـيـنـ . فالـغـزـالـيـ قالـ انـ ماـ نـشـاهـدـهـ منـ
الـاقـرـانـ بـيـنـ السـبـبـ وـالـمـسـبـبـ لاـ يـحـوزـ انـ نـقـطـعـ بـكـونـهـ سـبـبـ الـظـواـهـرـ ،
وهـمـيـمـ يـقـولـ الشـيـءـ ذـاـهـ .

الـشـيـخـ - كـلاـ يـاـ حـيـرانـ ؟ فالـفـرـقـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ بـيـنـ القـوـلـيـنـ عـظـيمـ . ولاـ بدـ
لـكـ مـنـ اـيـضـاحـ جـديـدـ ، فـاصـنـعـ الـىـ مـاـ اـقـولـ :
حـيـرانـ - كـلـيـ آـذـانـ يـاـ مـوـلـايـ .

الـشـيـخـ - لاـ يـنـفـعـنـيـ فـيـ تـيـسـيرـ الـفـهـمـ لـكـ ، أـنـ أـضـرـبـ مـيـثـالـ النـارـ الذـيـ
ضـربـهـ الغـزـالـيـ ، لأنـكـ نـسـأـتـ وـأـنـتـ تـعـرـفـ ، مـعـرـفـةـ تـشـبـهـ الـيـقـيـنـ ، انـ النـارـ
مـحـرـقةـ ، فـلـاـ يـكـنـ اـنـ تـدـرـكـ معـنـىـ قولـ الغـزـالـيـ أـنـهـ لـاـ يـوـجـدـ (ضـرـورـةـ)
عـقـلـيـةـ) تـوـجـبـ اـنـ تـكـوـنـ النـارـ مـحـرـقةـ . لذلك أـتـرـكـ النـارـ جـانـبـاـ وـاتـخـذـ
لـكـ مـثـلـ آخرـ : هـذـاـ زـيـتـ ، زـيـتـ الـزـيـتونـ ، لـوـ زـأـيـتـهـ لـأـوـلـ مـرـةـ فـيـ
حـيـاقـكـ ، وـاـخـبـرـكـ اـنـ فـيـ هـارـاـ كـامـنـةـ ، تـسـطـعـ اـخـرـاجـهـ بـاـشـعالـهـ ،
فـهـلـ كـنـتـ تـصـدـقـ ؟

حـيـرانـ - كـنـتـ أـصـدـقـ لـوـ جـرـبـ ذـلـكـ اـمـامـيـ .

الشيخ - وبعد ان يُجَرِّبَ اماماً، هل تجد (ضرورة عقلية)
لتفضي بأن يكون الزيت قابلاً للاشتعال ؟

حيران - كلا يا مولاي ؟ كذا اي لا أجد ضرورة عقلية في ان اعتقد ،
ان نترات الكليسرين فيها خاصية الانفجار ، قبل ان ادرس ذلك ،
وأعرفه من طريق العلم والتجربة .

الشيخ - عظيم جداً يا حيران . ان هذا المثلث الذي جشتي به خير من
مثل الزيت . والآن اطرح عليك سؤالاً جديداً : لو جئناك بجسم من
الاجسام ، لم تعرفه في حياتك ، ولا سمعت به ، ثم سألك : هل من
ضرورة عقلية تفرض عليك ان تعتقد (اقتضاء هذا الجسم للانفجار)
فماذا تقول ؟

حieran - اقول اني ارى ضرورة عقلية تفرض عليّ ان اعتقد اقتضاء
كل جسم للانفجار .

الشيخ - لماذا ؟

حيران - لأنني اجد ذلك امراً بدليلاً .

الشيخ - ولماذا لا تجد امراً بدليلاً اقتضاء الزيت للاشتعال ، واقتضاء
نترات الكليسرين للانفجار ؟

حيران - لأنني لا أجده بدليلاً ، ولا أجد ضرورة عقلية تفرض
هذه البداهة .

الشيخ - هذا هو ما أراده الفزالي يا حيران ، فالفزالي لم ينكرو مبدأ
السببية من اصله وأساسه ، وحاشا الا ينكروه ، ولكنّه يقول ان هذه
الظاهرة ، التي نسميها (سبباً) ليس مقتضية (اقتضاء عقلياً ضرورياً)
حصول ذلك الامر الذي نسميه (مسبباً) . فالعقل لا يجد ضرورة عقلية
توجب عليه الجزم بأن النار حرقه ، ولا بدّ ، للغشّ ، ولكنّه رأى ،
بالتجربة ، ان ظاهرة الاحتراق عند من " النار للخشب " هي ظاهرة
(مطردة) ، فاعتقد ان النار سبب للاحراق . ولو لا هذا (الاطراد)
الذى يراه العقل ، لما كان مفروضاً عليه (ضرورة) ان يعتقد اقتضاء

النار للحرائق ، كا هو مفروض عليه (ضرورة) ان يعتقد اقتضاء الجسم للتحيُّز ، واما يريد المغزاً ، بهذا ، ان يتوصل الى القول : طالما ان خاصية الاحراق غير مفروض وجودها (بالضرورة عقلاً) في النار ، وكان يمكن ان تكون هذه الخاصية بعكس ما هي عليه ؟ فلا بد ان الذي اعطى النار ، وكل الأشياء ، خواصها وطبيائتها ، هو الذي خلقها ، وهو الذي يستطيع سلبها هذه الخاصية .

أما هنـيـومـ فـأـنـهـ يـنـكـرـ قـانـونـ السـبـبـيـةـ منـ أـصـلـهـ وـأـسـاسـهـ ؟ـ بلـ هوـ يـنـكـرـ نفسهـ وـعـقـلـهـ وـالـعـالـمـ كـلـهـ فـيـقـولـ :ـ اـذـاـ كـنـاـ نـعـتـقـدـ بـوـجـودـ الشـيـءـ الـذـيـ نـحـسـ بـهـ ،ـ فـهـذـاـ الـاعـتـقـادـ اـنـاـ يـكـوـنـ فـيـ الـلـعـظـةـ الـتـيـ تـنـقـلـ لـنـاـ بـهـ حـوـاسـنـاـ اـفـ ذـلـكـ الشـيـءـ ،ـ وـتـشـعـرـنـاـ بـوـجـودـهـ ؟ـ وـلـكـنـ لـيـسـ مـنـ دـلـيـلـ يـعـتـسـمـ عـلـيـنـاـ الـاعـتـقـادـ بـوـجـودـ هـذـاـ الشـيـءـ ،ـ اـذـاـ غـابـ عـنـ حـوـاسـنـاـ ؟ـ كـاـ اـنـهـ لـاـ دـلـيـلـ يـرـغـبـنـاـ عـلـىـ الـاعـتـقـادـ بـأـنـ الشـيـءـ الـذـيـ رـأـيـنـاهـ يـوـمـ ،ـ ثـمـ تـرـكـنـاهـ ،ـ وـعـدـنـاـ لـرـاهـ فـيـ يـوـمـ الـثـانـيـ ،ـ هـوـ هـوـ نـفـسـ الشـيـءـ الـذـيـ رـأـيـنـاهـ فـيـ يـوـمـ الـأـوـلـ .ـ وـكـلـ مـاـ فـيـ الـأـمـرـ أـنـتـاـ رـأـيـنـاـ شـيـئـيـنـ ،ـ فـتـوـهـنـاـ إـنـهـ شـيـءـ وـاحـدـ .ـ وـاـذـنـ ،ـ فـتـعـنـ لـاـ نـعـمـ عـنـ الـعـالـمـ الـخـارـجـيـ ،ـ أـلـاـ مـاـ فـيـ اـذـهـانـنـاـ مـنـ مـدـرـكـاتـ حـسـيـةـ (آنـيـةـ)ـ ؟ـ فـكـلـ مـاـ فـيـ الـكـوـنـ هـوـ هـذـهـ الـأـفـكـارـ الـتـيـ نـدـرـكـهـاـ ،ـ وـلـيـسـ فـيـ الـكـوـنـ سـوـاـهـاـ ؛ـ وـجـوـهـرـ الـأـشـيـاءـ سـوـاـهـ كـاـنـ مـادـيـاـ اوـ روـحـانـيـاـ لـاـ وـجـودـ لـهـ ...ـ ثـمـ يـتـرقـيـ هـنـيـومـ فـيـ الشـكـ"ـ ،ـ بـسـلـ يـتـدـقـشـ وـيـسـفـ"ـ اـسـفـاقـاـ شـيـئـاـ ،ـ حـيـنـ يـشـكـ فـيـ نـفـسـ ،ـ وـعـقـلـهـ ؟ـ فـيـقـولـ :ـ طـالـماـ أـنـ مـعـارـفـنـاـ لـاـ مـنـشـاـ لـهـ سـوـىـ الـأـفـارـحـسـيـةـ ،ـ وـنـخـنـ لـاـ بـجـدـ فـيـ الـمـحـسـوـسـاتـ شـيـئـاـ يـسـمـيـ (عـقـلاـ اوـ ذـاـنـاـ)ـ فـاـذـاـ لـاـ وـجـودـ لـلـعـقـلـ ،ـ وـلـاـ لـلـذـاتـ الـتـيـ نـدـعـيـ وـجـودـهـاـ .ـ وـكـلـ مـاـ اـفـهـمـهـ مـنـ قـوـلـيـ انـ ذـاـنـيـ مـوـجـودـهـ وـعـقـليـ مـوـجـودـهـ ،ـ هـوـ اـنـهـ يـوـجـدـ فـيـ دـاـخـلـيـ سـلـسـلـةـ اـسـسـاـتـ ،ـ وـافـكـارـ مـتـابـعـةـ ،ـ فـأـسـيـ هـذـهـ الـجـمـعـةـ (ذـاـنـاـ عـاقـلـةـ)ـ .ـ فـكـلـمـةـ الـذـاتـ وـالـعـقـلـ اوـهـامـ فـيـ اوـهـامـ .ـ

حـيـرـانـ -ـ هـذـاـ عـجـيبـ .ـ

الـشـيـخـ -ـ نـعـمـ هـكـذـاـ يـقـعـ هـذـاـ الرـجـلـ الـعـاقـلـ فـيـ تـنـاقـصـ عـقـليـ فـاضـحـ ،ـ

فيقول عن الأشياء أنها ليست سوى افكارنا ، ويقول عن افكارنا ما هي إلا آثار الاحساس بالأشياء ، فيُعرّف الأشياء بأنها عبارة عن افكار ، ويُعرّف الأفكار بأنها عبارة عن أثر الأشياء ، ثم ينكر القسمين معاً . حيران — ومن الطبيعي ، بعد أن انكر هئيّم نفسه وعقله والعالم ، أن ينكر ربُّه كما قال الشيخ .

الشيخ — نعم أن الأخلاق هو نتيجة طبيعية لهذا الانكار المطلق الشامل لكل ما في الوجود ، ولكن لو عرفت برهانه على عدم وجود الله ، لازدَدتْ يقيناً بسوءِ مزاجه .

حيران — ما هو دليله على عدم وجود الله .

الشيخ — أنه يقول إننا لا نعلم عن العلة شيئاً سوى أنها الحادثة السابقة ، التي شاهدناها قبل حدوث معلوهاً ، فسلا بد لنا من مشاهدة الحادثتين السابقة واللاحقة . فوجود الكون لا يقوم دليلاً على وجود صانعه ، إلا إذا زأينا الصانع والمصنوع جيماً .

حيران — نعود بالله من الصلال المبين .

الشيخ — إنه أكثر من ضلال . إنه عناد . ولو أراه الله ذاته ، كما يريد ، وأراه صنعة العالم ، كما يطلب ، لم يدع إلى قوله في قانون السبيبة : أن هذه ظاهرة تعقبها ظاهرة ، وليس في هذا التعاقب ضرورة عقلية توجب أن يكون الله علّة لوجود العالم وخالفـا له ...

ولم يذكر لك هذه الآراء السخيفة إلا لأضمهـا ، إمامـك ، في ميزانـ المقارنة بين آراء لايبـنـز ، الذي جاء قبل هـئـيـم ، وآراء عـمانـوـئـيلـ كـانـطـ . الذي جاء بـعـدهـ .

حـيرـانـ حـذـراـ لـاحـظـتـ أـنـ مـوـلـايـ الشـيـخـ يـكـثـرـ مـنـ ذـكـرـ عـمـانـوـئـيلـ كـانـطـ وـيـقـرـرـ أـنـهـ باـسـمـ النـزـالـيـ حـتـىـ اـصـبـحـتـ بـشـوقـ عـظـيمـ إـلـىـ قـرـاءـةـ فـلـسـفـهـ فـيـ الـوـجـودـ .

الـشـيـخـ أـخـطـرـ : يـوـءـ عـلـيـاتـ أـنـ تـقـرأـ (ـكـانـطـ) لـوـحدـكـ ، مـنـ غـيرـ شـدـ ، يـسـرـ لـكـ الـأـسـرـابـ وـالـرـادـيـبـ ، فـيـ ذـلـكـ التـطـوـدـ مـنـ الـكـلـامـ الـمـرـكـومـ

المرصوص ، الذي اعترف (كانتط) نفسه بأنه جعله 'مقتداً' ، لأنّه أباً كتبه للفحول من الفلسفية . وانخرط من ذلك أن تقرأ ما كتب 'الناس' عن (كانتط) ، لأنك ستقف حائراً بين قومٍ يدعونه من أعظم المؤمنين ، وقومٍ يدعونه من أعظم الكافرين .

حيران - والحق يا مولاي ؟

الشيخ - الحق الذي لا ريب فيه ان (كانتط) كانت من المؤمنين بوجود الله ، ومن اعظم من خدموا هذا الآيات ؟ ولكنه بعد ان اعدَ السلاح الذي يخرب به الشك والاحاد ، وبالغ في صقله ، حتى بعده مرهقاً ماضياً ، عجز هو نفسه عن استعماله ...

حieran - هذا عجيب . كيف يكون مؤمناً بالله ، ويصنع السلاح للدفاع عن هذا الآيات ؟ ثم يعجز عن استعماله ؟

الشيخ - ان عماوئيل كانتط ، في دفاعه عن العقل ، كان اشبه الناس بسقراط ، واما في ايمانه فقد كان اشبه الناس بابن رشد ؟ ذلك ان (كانتط) قد روى عنه ذلك الشك المطلق السخيف الذي قضى به (هنيوم) شيخ الشراك ، على العلم والدين والأخلاق ، كما روى ، من قبل ، سقراط ، شكَ السوفسطائيين ، فراراً من دفاع عن العقل ، كما دافع سقراط ، ليبرهن مرة اخرى ، على ان المعرفة لا تكون بالاحساس وحده ، واما تكوت بالعقل الذي له قدرة خاصة على تكوين المقولات من الاحاسيس ، واما وراء الاحاسيس من علاقات لا تحسّ . وكان في دفاعه عن العقل عظيماً ، موفقاً احسن ما يكون التوفيق ، ولكنه ، بعد ان كشف عن انس العقل ودعاته ، وبرهن على قوته وقدرته ، واوضح قوانينه الفطرية ، واولياته البديهية المرکزة فيه ، زعم ، كما زعم ابن رشد من قبل ، ان الأدلة النظرية العقلية المركبة ، تُربك العقل وتختبره ، فاختار لنفسه طريقة اخرى ، للبرهنة على وجود الله ، كما فعل ابن رشد ، ولكنه كان في هذا الاختيار أقلَ توفيقاً . وسألخص لك كلامه وابسطه ، بأسهل اسلوب كما عودتك . فكن شديد الأصفاء .

حيران - كاتي آذان يا مولاي .

الشيخ - ان (كانتط) طرح السؤال الآتي : هل في طبيعة العقل وتكوينه قدرة خاصة تمكنه من الوصول الى تكوين احكام انشائية ، من ذاته ، دون اعتقاد على ما تأتي به الموسن والتجربة ؟ وما هي حدود هذه القدرة ؟ ولكي يجيب على هذا السؤال وضع (كانتط) ؟ بعد ان نضجت فلسفته ، كتابه (نقد العقل الخالص : Critique de la raison pure) وهو اعظم كتبه في الدفاع عن العقل .

اما جوابيه الفضم الطويل العريض ، على هذا السؤال ، فلنذكر على اسس ، اخلاصها لك باديه ذي بدء ، لتضعها نصب عيليك ، ففيها يتشعب البحث ، وعنها يتفرع الكلام . انه يقول :

• ان مصادر المعرفة هي الحس والعقل . فلسنة نُسْكُونَ معارفنا من الاحساس وحده ، ولا من العقل وحده .

• ان للعقل افكاراً فطرية مرکوزة فيه ، سماها كانتط (قوانين العقل المنظمة) : (Les lois régulatrices de la raison) يستطيع بها العقل ، ادراك (العلاقات) القائمة بين الافكار الحسية التي ترد اليه ، فيكون من الاحساسات (ادراكاً حسياً) ، ثم يكون من المدركات الحسية (مدركات مقلية) . ومن اهم هذه الافكار والقوانين الفطرية (فكرة الزمان والمكان وقانون البيئة) .

• وان العقل يستطيع ، بقوه هذه (القوانين المنظمة) ، ان يكون احكاماً انشائية ، من ذاته ، لا يعتمد فيها على الاحساس والتجربة .

• ولكن قدرة العقل هذه ، هي محدودة ومرتبطة بالظواهر المحسوسة ، فإذا حاول الخروج عن ميدان الظواهر ، والدخول في كنه الأشياء بذاتها ، وقع في الخطأ . ووظيفة الميتافيزيقيا هي ان تبين موضع هذا الخطأ في حماولة العقل الدخول فيها وراء عالم الحس ، لانه عالم مجهول .

حيران - كل هذا الذي سمعته ليس بجديد . ولكني لم افهم معنى قوله ان العقل يستطيع تكوين احكام انشائية لا يعتمد فيها على الاحساس ،

وقوله ، بعد ذلك ، ان العقل لا يستطيع تخطي دائرة الأحسان .
الشيخ - حفظكم الله - انت اتفاقاً ان (كانتنط) لم يأت بهذه الأسس بشيء جديد بدليلاً ،
ولكنه ابدع في توطينها والبرهنة على صحتها . اما حصره عمل العقل في
دائرة الأحسان فهو صحيح لا غبار عليه وان كانت النتائج التي استنتجها
من هذا المضمار غير صحيحة .

غيران - لم افهم فارجو من مولاي الایضاح .

الشيخ - يقول كانتنط ان الأحسان تره الى العقل ، من منافذ الحواس ،
متعددة متراوحة ، مختلطة متشابكة ، فيتناولها العقل بالترتيب ، والتنسيق ،
والتبسيط : فيجاور بين بعضها ويفرق ، ويقدم بعضها ويؤخر ، ويعني
بعضها ويُحمل البعض الآخر ، ويُكون منها (ادراكاً حسياً) ، ثم
يكون من هذه المدركات الحسية (مدركات عقلية) ، واحكام الشائنة
جديدة ، لا يعتمد فيها على الأحسان والتجربة ، فنهاية قوة يفعل العقل ذلك ؟
ان الأحسان اما يحمل الى عقولنا صور الأشياء فقط ، اما العلاقات
القائمة بين الأشياء ، سواء في ترتيبها المكانى او ترتيبها الزمانى ، او تسبب
بعضها عن بعض ، فأنها علاقات عقلية ، لا وجود لها في صور الأشياء
الحسية ، فمن اين يأتي العقل ، اذن ، بتلك الأحكام الشائنة ، التي
يصدرها على هذه العلاقات ؟

انتا تنظر الى رقمين مختلفين ، فلستطيع ان تستخرج منها نتيجة
من طريق (الجمع) ، غير التبصيرة التي تستخرجها عن طريق (الضرب) .
فلو كان هذا الادراك [نائماً] من الأحسان وعده ، لما وجب ان تختلف
العملية الحسابية ابداً ، لأن بصرنا ينقل اليها صورة واحدة لا تتغير ،
وكذلك الحال في ادراكنا لعلاقة السبيبة القائمة بين السبب والسبب ،
والعلة والعلوّل ؟ فلتـ حواسنا اما ترينا صوراً عن ظواهر متباينة
متتابعة ، ولا ترينا ابداً علاقة السبيبة ؟ فكيف نعرف ، نحن ، هذه
العلاقة ، وكيف ندرك ، بداعها ؟ ، ان لكل معلول علة ؟
ومن هنا يتوصل كانتنط الى القول : بأن العقل فيه قوانين منتظمة

فطرية، يستطيع بها أن يدرك الأحساس، ويحوله إلى مدرّكات حسية، ثم يكون، من المدرّكات الحسية، مدرّكات عقلية كثيرة، ويصدر أحكاماً انشائية جديدة، لا يعتمد فيها على الأحسان.

ومن جهة افكار العقل وقوانينه الفطرية: فكررة الزمان وفكرة المكان، اللتان لا يستمدّها العقل، من طريق الأحساس، لأنّه لا وجود لها في الأشياء، ليتمكن الأحساس منها. ففكرة الزمان يضع الإنسان الآثار الحسية ويرتّبها في تماّقب وتتابع ترتيباً زمانياً، وبفكرة المكان، يجاور العقل بين الآثار الحسية أو يبعد بينها، فيرتّبها في الذهن ترتيباً مكانياً يستطيع به ادراكتها. ولو لا فكرتنا الزمان والمكان المركوزتان في العقل، بطبعته الفطرية، ما تمكّن العقل من ادراك شيء، وما تمكّن من استخراج العلاقات العقلية القائمة بين الأشياء، وما تمكّن من اصدار الأحكام انشائية فيها يتعلق بمكان الأشياء وزمانها.

ولما كانت جميع القضايا الرياضية، إنّما هي علاقات وتنسب تتعلّق بالمكان والزمان، لأن الهندسة تختص بالمكان، والحساب، الذي هو عدد متكرر متّماّقب، يتوقف على ادراكه الزمان، فإن المبادئ الرياضية، هي إذاً، مبادئ عقلية فطرية تابعة ومشتقة من طبيعة عقولنا، نعرفها وندركها من غير حاجة إلى تجربة. ومن هذا نعلم، يقيناً، أن المبادئ الرياضية صحيحة، وبنائية، وضرورية، ويستحبيل الشك فيها، أو اثبات خطأها، أو تصور عكسها؛ فانتنا نستطيع مثلاً أن نتصور أن لا تكون النار حرقـة (كما قال الفرزالي)، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نتصور أن الواحد ليس نصف الآرين، وإن الخط المستقيم ليس أقصر الخطوط بين نقطتين، لأن هذه المبادئ الرياضية هي ضرورية ونابعة من طبيعة عقولنا.

وكما أن العقل يستطيع تحويل الأحسانات إلى مدرّكات حسية بقوة فكري الزمان والمكان، فإنه يستطيع أيضاً، بقوة قوانينه التنظيمية الأخرى المفطورة فيه، أن يقوم بالمقارنة والتحليل والتعديل لتلك المدرّكات الحسية، ليسانتج منها ادراكات عقلية، ويصدر عليها أحكاماً انشائية

جديدة غير مستمدة من الاحساس . ومن اهم قوانين العقل المنظمة (قانون السببية) ، الذي ندرك به ، ادراكاً خالصاً ضرورياً ، ان كل تغير لا يد له من سبب وعلة ؛ وبقية هذا القانون العقلي الفطري الضوري لستطيع ان نعرف قوانين الطبيعة ونواهيسها .

حيان - هذا كله صحيح واضح . ولكن اذا كانت عقولنا تدرك ، بفطرتها ، المبادئ الرياضية ادراكاً ضرورياً ، وتدرك قوانين العلم بقوة قانون السببية العقلي الضوري ، فكيف قال كائطاً ان قوة العقل هي محدودة ومرتبطة بالظواهر الحسية .

الشيخ - لو انتظرت قليلاً لوصلتُ بك الى جواب هذا السؤال . فاني شخصت لك ، في البدء ، رأيه عن العقل في (قدرته) ، والآن جاء دور كلامه عن العقل في (عجزه) .

ان كائطاً ، بعد ان دافع عن قدرة العقل ، ضد اولئك الذين اعتبروه نوحة بجرداء لا شيء فيها قبل التجربة ، وضد اولئك الذين شكوا فيه بل انكرموا وجوده ، وبعد ان برهن ، كما ، أية ، على ان فيه قدرة فطرية على التنظيم والترتيب والتخليل والتحليل والاسلنتاج وانشاء الأحكام الصادقة ، عاد يقول ان هذه القدرة على (الادراك العقلي الخالص) ، تتحصر ضمن نطاق (الادراك الحسي) ، اي ضمن نطاق (الظواهر) التي يدركها الحس ؛ لأن العقل ، وان كان قادراً ، بقوه افكاره الفطرية ، وقوانينه المنظمة ، على تكوين الادراك الحسي ، ثم الادراك العقلي ، الا انه يحتاج لتكوين هذين الادراكيين الى (مواد) ؛ وهذه المواد هي الاحاسيس ؛ وبما ان الحس لا يتناول سوى ظواهر الاشياء ، ولا ينفذ الى بواطنها غير المحسوسة ، فان ادراكنا العقلي ، لا يمكن ان ينفذ الى كنه الشيء في ذاته ؛ فإذا حاولنا ان نعرف كنه الشيء في ذاته ، بنفس القوانين العقلية التي ندرك بها الظواهر ، وقمنا في الخطأ . ووظيفة الميتافيزيقيا هي ان تبين موضع هذا الخطأ ، في محاولة العقل تحطي دائرة الحس والظواهر المحسوسة ، والوصول الىحقيقة النهاية التي وراء الحس .

حيران - وهذا الحصر للعقل في نطاق المحسوسات هو صحيح وواضح ولا غبار عليه . فكيف تكون النتائج التي استنتجها كائنة من هذا الحصر غير صحيحة ؟ كما قال مولاي الشيخ ؟

الشيخ - هنا بيت القصيد في حديثي لك عن كائنة ، وهذا مفارق الطريق الذي افترق منه بعض الناس فعدوه غير مؤمن بالله ، وهذا التغيرة في تفكير هذا الرجل العظيم .

ذلك ان كائنة اعتبراه ذلك الكلال العقلي ، الذي وصفه الفرازلي ، في تصور البداية ، واللأنهاية ، واللأنهاية ، في الزمان والمكان ؛ واعتبراه نفس الوهم ، الذي اعترى ابن رشد ، من قبل ، حين استصعب الأدلة العقلية المركبة ، فقال ، كالفرازلي : ان العقل اذا حاول ان يحكم هل العالم محدود او لانهائي ، من حيث المكان ، وقع في تناقض واشكال ، لاننا من جهة تصور وراء كل حدٍ شئناً ابعد منه ، ومن جهة اخرى يتضمن علينا ان تتصور اللأنهاية بدايتها . وكذلك لو حاول العقل ، ان يتضمن ان العالم له بدء في الزمان ، وقع في نفس الصعوبة ، لأننا نعجز عن تصور الازلية التي ليس لها بداية ، كما نعجز عن تصور لحظة نسميتها بهذه الزمن ، لأنه لا يسمنا الا ان نخال انه قد كان قبل تلك اللحظة شيء . وكذلك حالنا في تصور العقل لسلسلة العلة والعلو ، لاننا من جهة لا نستطيع ان يتضمن سلسلة لا نهاية لها ، ومن جهة ثانية ، تكلّ عقولنا عن تصور علة اولى لا علة لها . وهذه كلها مشاكل لا يمكننا التخلص منها الا اذا ادركتنا ان فكري الزمان والمكان ، وقانون السبيبية ، وكل قوانيننا العقلية المنظمة ، اما ينحصر عملها ضمن نطاق الادراك الحسي ، اي ضمن نطاق الظواهر التي يدركها الحس ؛ فاذا حاولنا ان ندرك بها ما وراء الحس ، وقعنا في الكلال والاشكال .

حيران - ليس في هذا الحصر ، كما سبق القول ، شيء غير صحيح ، ناين هو الخطأ في الاستنتاج ؟

الشيخ - هذا الحصر للعقل في حدود المحسوسات صحيح ، ولكن كائنة

انطأ في الاستنتاج ، حين زم (اننا اذا حاولنا ان نبرهن ، بالعقل النظري ،
على وجود الله وقمنا في الاشكال نفسه) .

فتحن مع كانتط في قوله ان قوانين العقل المنظمة ، اغا تطبق في ميدان الظواهر الحسية ، ونحن معه في ان قانون السبيبة الضروري ، اغا يُطبّق في نطاق الظواهر المحسوسة ؟ ولكن أليس العالم كله ، بأجزائه وبمجموعه ، من قسم المحسosات يا حيران ؟

الإنسا ، بقوّة قانون السبيبة الضروري ، تحكم ، كما قال كانتط نفسه ،
بان كل متغير لا بد له من سبب ، وكلّ معلول لا بد له من علة ؟
الإنسا ، اذا رأينا ظاهرة من الظواهر الجزئية ، تحكم حكماً ضرورياً ،
بانه لا بد لها من علة ؟

فاما كنا تحكم ، بالضرورة ، على كل ظاهرة جزئية من هذا العالم ، أنه
لا بد لها من علة ، افلا تتطلب عقولنا ، بالضرورة ، ان يكون لهذا
العالم المحسوس المتغير ، (بمجموعه) ، علة كافية لوجوده ؟

ان كانتط قال الحق ، كل الحق ، عندما قال ان كل محاولة يبذلها العقل للوصول الى (كته) الحقيقة النهائية هي محاولة فاشلة . وقال الحق ، عندما اوضح ان العقول لا تستطيع ان تتدنى ميدان الظواهر المحسوسة لدرك كنه ما وراء عالم الحس لأنّه عالم مجهول . ولكننا ، في نطاق هذا العالم المحسوس ، نجد في نفوسنا ضرورة عقلية لأدراك ان هذا (المحسوس الأعظم) ، بمجموعه ، لا بد له من علة لوجوده . وللدين بضائرنا بعد ذلك ان يتطرق الى عقولنا ذلك الوهم الملاع الذي يتطلب لكل علة علة ، وقبل كل زمانٍ زماناً ، وبعد كل مكانٍ مكاناً . فان هذا الوهم يلازمنا ايضاً ، عند ادراك الظواهر الجزئية في حياتنا العملية والعلمية ؛ ولكننا رغم هذا الوهم ، ندرك ادراكاً ضرورياً ، ان الظاهرة الجزئية تبحث عن علة ، ولا يخطر ببالنا ان ننكر هذه العلة ، بحجة ان وها عقلياً يتطلب منها تسلسل العلل الى غير نهاية ، او بحجة عدم معرفتنا لكتبه العلة .

فإذا رأينا هذا العالم المحسوس ، ولم نتمكن من معرفة كنهه (عنته الكافية) ، التي سبب وجوده ، أي كنه ذات الله ، الذي خلقه وأوجده ، لم يكن لنا أن ننكر وجود هذا الخالق ، لغيره إننا عجزنا عن معرفة كنه ذاته وصفاته ؟ وإذا فعلنا نكون منكريين ومبطلين لقانون العلية الذي يقول كاذب ، وكل عاقل ، إنه قانون عقلي ضروري مرکوز في عقولنا . حيران - إذاً كيف يكون كاذب من المؤمنين كما وصفه مولاي الشيخ ، وبأي استدلال أخذ حق فوصل إلى إيمانه بوجود الله ؟

الشيخ - إن كاذب قد استصعب الأدلة العقلية النظرية المركبة ، كما رأيت ، مثلاً استصعبها من قبله ابن رشد ، فاختار لنفسه دليلاً آخر يشبهه ، في جملته ، دليل (الأدلة المباشرة) الذي اعتمدته يرغبون في معظم فلاسفة المؤمنين في القرن المشرقي .

حيران - ودليل (النظام) الذي أخذ به ابن رشد وماه دليل العناية والاختراع لم يأخذ به كاذب ؟

الشيخ - لا يا حيران . وهذا ثغرة الضعف عند كاذب ؟ فإنه ليس يستغرب أن يجد هذا العبراني صعوبة في الأدلة العقلية المركبة ، كما وجد ابن رشد وأبن طفيل من قبيل ، وإن يسدل عنها ليبحث عن دليل واضح سهل سواها ، ولكن المستغرب منه أنه لم يتعجب حتى (دليل النظام) فأعتبره صعباً كالأدلة النظرية المركبة وآخر دليلاً زعم أنه يتبين من الوجودان لا من العقل .

حيران - كيف هذا ؟

الشيخ - إن كاذب يقول ، مع لاينز ، إن عقولنا تبيح لنا أن نعتقد أن وراء العالم التهَا . ولكن شعورنا الأخلاقي هو الذي يحتم علينا الإيمان بوجود الله .

حيران - كيف يكون آخذاً برأي لاينز ثم ينكر الأدلة العقلية التي اعتمدتها ذلك المفكر العظيم ؟

الشيخ - أحسب يا حيران إن كاذب يمكن أن يختلف مع لاينز في

الأوليات والبدويات التي تحدث في العقل تناقضًا أو لا تحدث ؟ إن
 كانط يرى ، كا يرى لا يرى ، وكما يرى كل عاقل ، إن عقولنا تبيح لنا
 أن نعتقد أن وراء الأشياء التَّهَا ، لأن فكرة وجود الله لا تحدث تناقضًا
 عقليًّا ، بل الذي يحدث التناقض العقلي هو نفي هذه الفكرة . ولكن
 كانط بعد أن وضع فلسفته في نقد العقل الخالص ، وانتهى به البحث إلى
 حصر عمل العقل في نطاق الظواهر التي يدركها الحس ، استعرض الأدلة
 العقلية المركبة التي ذكرها فلاسفة والحكماء فرأى أن (دليل الحدوث)
 و (دليل الوجوب) يعتمدان على (قانون العلية) وعلى الحكم العقلي القاضي
 باستحالة التسلسل في عالم الصور والاحاديث والمسكنات إلى غير نهاية ،
 ورأى أن هذين الحكمين العقليين الصحيحين يرافقهما ، في التصور ، ذلك
 الوهم الذي يعتري العقول في تطلب مكان وراء كل مكان ، وزمان قبل
 كل زمان ، وعلة وراء كل علة ، فخرج من هذه الأشكالات العقلية الوهمية
 إلى القول بأن هذين الدليلين يُعرِّضان الإيمان للشك والأرباك ؛ ثم نظر
 في طريقة الاستدلال بما في العالم من دلائل القصد والتصميم والنظام والحكمة
 ففاجأ نفسه وغافل بما رأى من مظاهر الشرور الجزئية ، فاتخذها سبباً
 لاستضعاف (دليل النظام) من غير أن يقارن ويوازن بين هذه الجزئيات
 العقلية ، التي لا ندرك حكمتها ، وبين ما في سائر المخلوقات من دلائل
 القصد والحكمة والتصميم والنظام التي لا تعد ولا تحصى ، فاتتهي به الأمر
 إلى القول بمسؤولية البرهنة بالعقل ، النطري على وجود الله ، فاختبر لها
 عقلًا آخر سماه (العقل العملي La raison pratique) ويعني به الضمير ،
 واستدل بهذا العقل العملي على وجود الله .

سخيان - لم افهم .

الشيخ - يقول كانط إننا نجد في قراره نقوسًا شعورًا قوياً لا
 سبيل إلى انكاره ، يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ويؤنبنا ويعذبنا عند
 ارتكاب الذنوب والآثام ، فمن أين أتانا هذا الشعور ؟ إنه ، في زعم كانط ،
 ليس آتينا من الأحسان والتجربة لأن الحواس لا تنقل لنا إلا صور

الأشياء وليس في الأشياء شيء يسمى تأنيباً وتمديداً للضيير ، وليس آية من العقل النظري لأن العقل إنما ينحصر عمله في الادراك الطبي وتحويله إلى ادراك عقلي ؟ فمن أين ، أذن ، يأتيها هذا الشعور القوي الواضح الذي لا سبيل إلى انكاره ؟

هذا الشعور ، الذي يطلق عليه الناس اسم الضيير ، هو الذي يسميه كانتط (العقل العملي) ويقول عنه أنه قالوننا الأخلاقي الذي فطرت عليه نفوسنا كما فطرت عقولنا على قوانينها المنظمة التي سبق ذكرها ، وهو الذي يفرض علينا عكس ما تقرره الافتراضات العقلية الأخرى من الخدر واجتناب المخاطر ، فبأنفسنا بالاقدام والتهور واستهوان المخاطر والتضحيه في سبيل الخير للناس .

ومن هنا يترقى كانتط في الاستدلال : فيستدل بهذا القانون الأخلاقي على حرية الإرادة ، وبمحررية الإرادة على خلود النفوس في حياة أخرى وعلى يوم الدين ، وبيوم الدين على وجود الدين الحكم العدل فيقول : إن قالوننا الأخلاقي يستلزم أن تكون أحراراً في اختيارنا للخير والشر . ولمن نرى في هذا العالم انه من النادر أن يكافئ فاعلُ الخير على عمله بل نرى أن فعل الخير كثيراً ما يكون مجنة للشقاء والبلاء ، فلا بد إذن أن تكون لنا حياة أخرى تناول بها جزء ما فعلناه من الخير ؛ وهذه الحياة الأخرى توجب أن تكون النفوس خالدة لتناول جزاءها . ولا مجال لأنكار خلود النفوس لأنَّه يؤدي إلى انكار القانون الأخلاقي الذي قلنا انه حقيقة لا ريب فيها . لذلك يرى كانتط أن خلود النفوس هو من المبادئ العقلية الأولى للعقل العملي .

ثم يترقى في استدلاله فيقول : ما دام قد ثبت أن النفوس خالدة ، وإن العدالة في المثوبة والعقوبة واجبة ، فلا بد أن نؤمن بوجود حكم عدل قادر خالد يتولى اقرار هذه العدالة في اليوم الآخر لأنَّ الخلود والجزاء اللذين حكمنا بتوجيهها يستلزمان فرض وجود علة كافية مكافئة لها ، فلا بد أن "من" أنشأ الخلود خالد ، ولا بد أن من يقضى بالعدل عادل ، ومن

يمجازي على الخير والشر قادر . وهذا الحال قادر الحكم العدل هو الله تعالى .

هذا هو الدليل الأخلاقي الوجدي الذي اختاره كائط لآيات وجود الله ، وهو يقول عنه انه ليس برهاناً من طريق العقل النظري ، بل هو برهان مستمد من شعورنا الفطري بقانون الأخلاق الذي يجب ان يوضع فوق العقل النظري .

حيران - انه والله بليل وفطري هذا الاستدلال فما افهم من كلام الشيخ انه غير راضٍ عنه كل الرضى .

الشيخ - كل الأدلة التي ذكرها هؤلاء العباقرة ، على وجود الله صحيحة ومنها هذا الدليل الذي ذكره القرآن عند قوله تعالى (أَفَخَسِيتُمْ أَنَّمَا خَلَقْتُكُمْ عَبَّادًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) . ولكن طرق الاستدلال يا حيران منها الصعب المركب المميك ، ومنها السهل البسيط الواضح ؛ ولا بدح في ذلك فهو سبحانه (الظاهر والباطن) ، كما وصف نفسه . أما استدلال كائط (بالدليل الأخلاقي) فإنه ليس بالاستدلال القوى كما زعم ؛ فلولا ما جاء في الأديان عنبعث والجزاء ، لما توجب على العقول ان تجزم بوجود هذا اليوم الآخر جزماً ضروريًا ، لأن العقول يصعب عليها ، من نفسها ، ان تقول بالاعادة بعد القناء ، والرجعة بعد الموت ، الا اذا كانت مؤمنة بوجود الله وقدرته وحكمته وعدله ، فانها اذا بلغت هذه المرتبة من الامان ، حلتها الثقة بقدرة الله ، وحكمته ، وعدله ، على القول بالحياة الأخرى ويوم الدين . فالإيمان بالحياة الأخرى اغا يكون بعد الامان بوجود الله ، لا قبله . وهذا هو الترتيب المنطقى ، الذي اتبعه القرآن في الاستدلال علىبعث والحساب : فاقام الادلة على وجود الله وقدرته وحكمته وعدله ، ثم اقام القدرة دليلاً على امكان الاعادة بعد القناء ، واقام الحكمة والمعدل دليلاً على يوم الجزاء . وأما ان نعكس هذا الترتيب المنطقي لنتعتمد على شعورنا بخرالضمير ولذة التضييق (وهو شعور قد يكون آثيناً من خوف النساء ، الذي اصبح جزءاً من تفكيرنا)

وتتخذ من هذا الشعور دليلاً على حرية الارادة ، وخلود الارواح ، ويوم الجزاء ، ووجود الله الحكم العدل ، فأنني لا ارى يا حيران ، انه الدليل الأقوى كما زعم كائط ، بل أراه دليلاً وجداً يصبح ان يسمى (دليلاً معضداً) للأدلة العقلية الاخرى . وقد اخذ به شيخي الجسر ، رحمه الله ، فكاد يكون متتفقاً باللفظ والمعنى معنى معنى الذي ذكره كائط حيث قال : (ان صريح العقل يقضي ، ان من حكمة الحكم ان يفرق بين المحسن والمسيء . وحصول هذه التفرقة ليس في هذه الدار ، لأننا نرى كثيراً من اهل الاصابة في اعظم الراحة ، وكثيراً من اهل الاحسان بالضد من ذلك ، ولا بد ان يتتصف الحكم العدل الرحيم لعيده المظلومين ، من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصار لم يحصل في هذه الدار ، لأننا نرى المظلوم فيها قد يبقى ثهانأً في غاية الذل والقهقر ، مسلوب المآل ، مفروم العرض ، مهدور الدم . والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة ، فلا بد من دار اخر يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف .) اهـ

وإذا كنا يا حيران نرضى من السنج ، الذين لا يحسنون ، بل لا يستطيعون ، تركيب الأدلة او ادراكيها ، ان يأخذوا بهذه (الأدلة المضادة) فاننا لا نرضى من العلماء والfilosophes الذين ينتشرون آراءهم على الناس ان يُضطّعوا الأدلة العقلية القوية الاصيلة ، ويكتفوا بهذا اليقان الوجدي الذي يفتح للناس باب التصديق بالأسرار والحقائق المستحبة عقولاً ، لان هذا يصادم في الصيم دين الاسلام الذي يأبى ويفكر كل عقيدة تحدث تقاضياً في العقل .

وبعد ، فبأي شيء استخرج كائط دليلاً الوجدي هذا ، يا حيران ، ان لم يكن استخرجه بالعقل النظري الذي يقصيه هو عن نطاق الاستدلال على وجود الله ؟

وإذا كان هذا العقل النظري قد صلح انت يكون وسيلة للاستنتاج الذي سلك طريقه كائط حين استدل بالضمير على القانون الاخلاقى ، وبالقانون الاخلاقي على حرية الارادة ، وخلود والجزاء العادل والحكم العدل القادر

سبحانه ، فلماذا لا يصلح هذا العقل النظري ، الذي سلك هذه الطريقة من الاستدلال والاستنتاج ، ان يكون اداة صالحة للاستنتاج ، نفسه ، من مقدمات اخرى ؟

اكرر عليك ، ان من جملة قوى العقل وقوائمه الفطرية ، التي اثبتها (كانتط) ، قوة التعليل التي ندرك بها روابط العلة بالعلو . واول ما يليه العقل النظري الخالص ، بحكم قانون العلية هذا ، هو البحث ، عند مشاهدة الاثر ، عن المؤثر ، والمصنوع عن الصانع . ولا يقدح في هذا التعليل ، الذي تستدل به على المؤثر بالأثر ، ان الكلال يتطرق الى العقل ، في تركيب الدليل ؛ فالعقل قد يكُل ، حفظا ، كما قال (كانتط) ، وكما قال الغزالى وابن طفيل ، عند تصور شيء لا نهاية له ، وزمن لا زمن قبله ، وسلسلة لا آخر لها ، وعلة لا علة لها . ولكن كل العقل ، عن تصور هذه الامور في نهاياتها البعيدة ، لا يبطل سلسلة الاستدلال من بدايتها ؟

فسعن نرى (الاثر المعلول) فيتطلب عقلنا بالبداية (المؤثر والعلة) بقوة قانون العلية الضروري ، الذي حكم (كانتط) بان عقولنا مفطورة عليه .

وقد يكون (كانتط) ، كما سبق البيان ، على حق في قوله ان العقل النظري ينحصر عمله في نطاق عالم الحس والشهادة ، ولا يتجاوزها الى ما وراء الحس من عالم الغيب ، ولكنه نسي ، وهو يؤكد لنا وجود قانون العلية ، ان هذا القانون ، كما يتناول الظواهر الجزئية في الكون ، فيطلب لكل معلوم علة ، ولكل مسبب سببا ، يتناول ، من باب اولى ، بمجموع الكون ، كـكُل ، فيتطلب . بالبداية نفسها ، علة وسيباً لوجوده . ونحن اذا قلنا ، ان العقل النظري قادر على ممارسة قانون العلية وتطبيقه على العالم كـكُل ، لا نقول خلافا ، ولا تكون معارضين (ل كانتط) في قوله ان عمل العقل النظري محصور في عالم الحس ؛ لأن عالم الحس يشمل المحسوسات الجزئية ، والمحسوس العام الاعظم وهو العالم ، فاذا بحث العقل عن علة هذا المحسوس الاعظم ، يحملته ، لا يكون متباوزاً حدّه الذي وضعه له (كانتط) ؛ ولكن (كانتط) ، باخراجه المحسوس الاعظم ، وهو العالم ،

عن نطاق قانون العلية ؟ هو الذي قال خالقها ؟ فالعالم يحملته حسوس ، والعقل ، في نطاق قدرته ، يستطيع ، بدل هو مضطرك ، بالبداية كما قال لا يبيّنُ أنتَ يتطلب له علة ، كلام يتطلب علة لكل شيء جزئي حسوس .

حيران - هذا في غاية الوضوح . احسن الله اليك يا مولاي .

الشيخ - وعلى كل حال ، فان (كانتط) من انخلص المؤمنين بوجود الله ، وقد يبني ايمانه على دليل ، اذا لم يكن هو الدليل الاقوى كما زعم ، فانه من الدلائل التي سمعتها (الدلائل المضادة) ، لأنها تعضد الأدلة الأصلية وتساندها ، وتقوّي الإيمان في القلوب ، وتشرح الصدور .

حيران - واما برغسون كيف لا يعجب الشيخ وهو يعدد من اعظم الفلسفه المؤمنين بالله ؟

الشيخ - اني لم اقل ابداً ان ايمان برغسون لا يعجبني ، ولكنني قلت ان الاقتصر على هذا الدليل دليلاً (الادراك المباشر) وترك الأدلة العقلية الأخرى لا يعجبني . وسوف ترى انت برغسون لم يقتصر ابداً على دليل الادراك المباشر ، ولم يُقصِر العقل النظري عن نطاق الاستدلال على الله ، كما فعل كانتط ؛ بل كان في اعماق استدلاله مستندًا الى العقل النظري ومعتمداً على اقوى اقوى واعظم وأوضح برهان عقلي يثبت وجود الله ؛ لـأنه انا استخرج ذلك الادراك المباشر ، الذي قال به ، من ذلك البرهان العقلي الأعظم الأوضح ؟ فكان بهذا اصدق فلاسفة القرن العشرين في الغرب ، راقواهم ، واجرواهم على انكار المذهب المادي وابطاله .

حيران - كيف ذلك ؟

الشيخ - ان ايمان برغسون بوجود الله يعتمد في صيغة على نظرتين عقيدين الأولى في قوله : ان ادراك حقيقة الوجود انا يكون بالنظر اليه والى حركته (ككلٍ متراقب الأجزاء) والثانية في قوله : ان دلائل القصد والتصميم في الخلق تحمل فكرة التكوان بطريق المصادفة في حكم المستحيل عقولاً .

حيران - ارجو ان لا يضن علي مولاي بالايضاح .

الشيخ - لن أصنّع عليك شيء ، يا حبران ، لأريك كيف يتلاقي العباقرة
على الحق الذي ذكره القرآن في كل طرق الاستدلال على وجود الله سبحانه.

ان يرفسون يستغرق من المذهب المادي الذي يقول أن ما في العالم من (حياة وفكرة) عبارة عن اعراض لتفاعل (المادة والقوة) ، ويستغرق من قول الماديين ان العقل هو الدماغ وان لا شيء سواه ، فيقول لهم : كلا . ليس العقل هو الدماغ المادي الذي تحويه الجمجمة فحسب ، بل العقل شيء والدماغ شيء آخر : العقل قوة والدماغ مادة . و اذا كنا نرى ان الارراك العقلي يعتمد على الدماغ ويتأثر بسلامته وقوته ومرضه وضعفه ، هنا ذلك الا لأن الدماغ وعاء للعقل ، وسند له ، وآلة يسري في بعاليها ، فاذا تمطلت الآلة اخفل سير القوة واضطرب ، كلماه يجري في الساقية ويختوضع في سيره لتعاريفها ، ولكن خصوصه هذا لا يعني ان الماء هو المجرى والمبرى هو الماء .

واما ما يعتري حقولنا من الميل الى تفسير كل شيء من طريق المادة فله سببان اساسيان : الأول ان جزء من عقولنا نشأ ليارمن ادراك الأجسام المادية فاكتسب من هذا العيوب المادي كثيراً من قصوراته وقوانينه . والثاني ، وهو الأهم ، انتا لم تعرف حق اليوم حكيف نظر الى حقائق الأشياء ولم تعرف ابداً كيف تحييها لتراثها . ذلك لأننا "مجرزى" الحقيقة لستطيع ادراكتها ؛ أي ان حقولنا تتلقى الصورة الكونية مجرأة بدون ان قلاظط وتدرك الترابط الذي بينها في حركتها المستمرة (ككُل) ؛ مع ان الحقيقة لا تدرك الا بهذه النظرة الشاملة التي نستطيع فيها ان نحيي الحقيقة الكلية لتراثها .

ولا يجوز ان يقال ان الصور الحية هي اجزاء الكل واجزاء الحقيقة فادراكها ادراك للحقيقة الحية ؛ لأن ادراك الاجزاء مقطعة" شيء ، وادراكها في حركتها وتوافقها شيء آخر . وما مثلك الا مثل الشريط في الصور المتحركة ، نرى الصور فيه ، عند سكونه ، مجرأة لا حياة فيها ، فاذا تحرك دبت الحركة في الصور كلها ، وظهرت حقيقة الحياة في مجموع

الصور (ككتلٌ) ندرك منه معنى الرواية . كذلك لا يجوز أبداً أن يقال أن ادراك أجزاء الشيء يستلزم ادراك الشيء كله ، على حقيقته ، من غير ربط تلك الأجزاء . واصدق دليل على ذلك ، الخط المستقيم والخط المترافق : فانا اذا نظرنا اليها وجدنا ان كل منها يتكون من نقاط ، هي هي بذاتها لا تتغير في الخطتين ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان المستقيم والمترافق شيء واحد ، بحجة ان اجزاءهما واحدة ، وكذلك الحقيقة الحية للوجود والحياة التي فيه ، لا تستطيع ادراها بمجرد ادراك اجزائها ، بل لا بد من رؤية الترابط والتواصل بينها ، ورؤى الحركة تسرى فيها باستمرار واتصال ؟ وهذا ما تفضل عنه عقولنا ، ولكننا ندركه بالاهمام المباشر الذي يسميه برغسون (L'intuition) ويعني به البصيرة والاحساس الذين لشعر بها وفراها في فوسنا ، من غير ان نعتمد فيها على العقل النظري .

حيران - اتنى لم افهم المراد بهذا الادراك المباشر الذي ليس له علاقة بالعقل .
الشيخ - حق ذلك ان لا تفهم ، اذا ظننت ان برغسون يقول ان هذا الادراك ليس له أية علاقة بالعقل . ولكن برغسون لم يقول هذا ، واما اراد انتا نشعر بالادراك المباشر ، الذي يشبه الاحساس من غير ان تعتمد فيه على العقل النظري ، الذي يعني بتركيب الأدلة ؛ وانا لست ببلغ هذا الادراك المباشر يبني ان تتجنب التفكير في حقائق الاشياء ، من طريق الأدلة العقلية المركبة ، وان تخفي الحقيقة لزراها .
حيران - ولكن بأي شيء تخفيها لزراها ؟

الشيخ - انتا اما تخفيها بالعقل . ولكن برغسون اراد ان لا يكون هذا الاحساس من طريق تركيب الأدلة انطورية ، التي يكلل العقل في بعض عقليهسا ، بل بالنظرية الشاملة . فإنه لما رأى العقل النظري عاجزاً عن ادراك الحقيقة ، وهو ينظر اليها مجردة ، الفى عليها النظرية الشاملة ، فحصل له ، من هذا النظر الشامل الى الكل ، المترابط المتواصل المتحرك الحي ، ذلك الشعور الذي معاه ادراكاً مباشرةً أو اهاماً ، وكان في كل هذا

معتمداً ، في الحقيقة ، على العقل النظري ، وإن لم يرهقه في تركيب الأدلة .

وهذه ، لعمري يا سيران ، هي النظرة الشاملة التي ارادها ابن رشد ، وأشار إليها القرآن بقوله : (أَوْلَمْ يَنْتَظِرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ودلالة على جزئياتها بالف آية .

سieran - كيف يكون بргسون معتمداً على مثل النظرة التي نظرها
ابن رشد ، وابن رشد إنما يعتمد دليلاً النظام والعنابة والاختراع ؟

الشيخ - ان بргسون نظر نفس النظرة ، وأخذ بنفس دليلاً الفصد
والتصيم والحكمة والنظام والعنابة والاختراع ، الذي قال به ابن رشد ،
ولكنه كان في نظرته اسمى ذروة ، واسع افقاً ، فرأى الكون كله من
الدرة الى الجرة يلخص كالمجده الواحد ، بحياة واحدة ، يتجلّى فيها
ترابط الاجزاء وتواصلها وتعاونها وتساندها ، تجلّياً باهراً ، يخلق في نفوسنا
ذلك الاهام او الادراك المباشر لوجود الله الخلاق العظيم الحكيم .

سieran - ارى مولاي يجعل بргسون اكثر من اجلاله لابن رشد .

الشيخ - لست اجلاله اكثراً منه ، فكلامها من اعظم الفلسفه المؤمنين
بوجود الله وكلاما له فضل عليه في ادراك بعض اسرار القرآن ، بعد
فضل شيخي المحرر رحمه الله .

سieran - وكيف كان ذلك يا مولاي .

الشيخ - اول من امرني بفهم القرآن ، على ضوء العلم والفلسفة ، هو
شيخي المحرر رحمه الله . ثم عرفت بعض السر في هذه الهدایة ، عندما
قرأت ابن رشد ، وطريقه استدلاله على الله بدليل (العنابة والاختراع) .
ولكن ادراكي لآيات القرآن يبقى سطحياً ، يقف عند ظاهر الآيات الصريحة ،
ولم انفذ به الى براثن ما في الاشارات من اسرار . فلما قرأت بргسون ،
وقفت عند كلامه عن (نظام الزوجية) في النبات والحيوان ، فانبثق في
تفكيري فور من الفهم لاسرار القرآن لم اكن اعرفه من قبل . فأني ما
كنت افهم وجہ الحکمة في تكرار القرآن لذكر (الزوجين) ، بل كنت
اعجب لهذا التكرار ، وانا اظن ان الله انا اراد به مجرّد المن علينا ،

فلا اجد وجه المنـة في خلق الوسيلة لبقاء الحياة التي اراد الله سبحانه بقائها على الارض . فلما قرأت استدلال برغسون ، على وجسمه القصد والتصميم في الخلق ، (بنظام الزوجية) الشامل ، ادركت ان كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته ، وحكمته ، انا اراد بها ، اكثر من المنـة ، التنبية الى ما في هذه المخلوقات من دلائل القصد والتصميم والحكمة ؛ ولما تبعت فهم الآيات على هذا الاساس ، في ضوء العلم الحديث ، ادركت ما لم اكن ادرك من اسرار الاعجاز ، التي سأحدلك عنها ، اذا آن الأوان ، يا حيران .

حيران - وماذا يقول برغسون في نظام الزوجية ؟

الشيخ - ان برغسون عندما رد على اصحاب المذهب المادي الذين يقولون بتكون الحلات بطريق المصادفة والانتخاب الطبيعي ، وسخّر منهم ، وبرهن على فساد مذهبهم ، اتى على ذكر نظام الزوجية فقال ما خلاصته : كيف تستطيع عقولنا ان تصدق انه بطريق المصادفة والتطور والانتخاب الطبيعي قد تكونت حاسة الابصار عند جميع الحيوانات ؟ انه من المستحيل ان تكون العين ، بتركيبها العجيب الغريب المعقـد ، قد نشأت من المادة مباشرة ، ومن اول امرها ، على هذه الصورة الكاملة . واما اخذنا بذلك التطور ، وقلنا مع القائلين ان حاسة الابصار عند جميع الحيوانات تكونت وبلقت هذا الكمال بعد سلسلة من التطورات الحادثة بسبب ناموس الانتخاب الطبيعي ، وتأثير البيئة والظروف والاحوال التي تكتنف الحيوان ، فهل نستطيع ان نتفق عقلا سليما بأن الادوار والظروف والاحوال التي مررت بها عين الانسان ، تطابق تمام المطابقة الادوار والظروف والاحوال المؤشرات ؟ التي مررت بها عيون جميع الحيوانات ؟

ان الانتخاب الطبيعي مبني على المصادفة ، لأن القائلين به ، يزعمون ان الحي يقع تحت تأثيرات مختلفة ؛ ولكن ما يتفق لهذا الحي من المؤشرات ، لا يمكن ان يتتحقق ، بذاته ، لكل الاحياء ، بل لا بد من اختلاف في العوامل المؤثرة ، ولا بد ، في النتيجة ، من اختلاف في تكوين حاسة

الابصار . فكيف يُعقل ان يتم ، بالمصادفة ، تطور حاسة الابصار وتكونها في جميع الحيوانات على صورة واحدة ... ؟

ومن هنا ينتقل بргسون الى (نظام الزوجين) فيزيد في تهكمه على الماديين حيث يقول : اذا سلمنا جدلاً ان هذه المصادفة السحرية العجيبة جائزة الواقع في تكوين حاسة ابصار واحدة في جميع الحيوانات ، وسهلنا على انفسنا سبيل الفناء بقولنا ان الحيوانات ترجع ، على كل حال ، الى نوع واحد ، فاذا نقول في النبات ، وهو نوع آخر ، يسير في طريق مختلف كل الاختلاف عن طريق الحيوان ، اذا نحن رأيناها متفقين في طريقة واحدة من طرق الحياة ... ؟ اتنا نرى ان النبات والحيوان يتبعان طریقاً واحدة في (عملية التناسل) . فكيف اتفق ان اخترع الحيوان الذكورة والأنثى ، و « وفق النبات » الى الطريقة نفسها ، وبالمصادفة نفسها ... ؟

كلا انه يستحيل ان يكون هذا الاسم الواهي ، الذي يسمونه الانتخاب الطبيعي ، اساساً لهذا الاتفاق . ولا بد ان يكون في جميع اجزاء الوجود ، مهما تنوّعت ازاعاته ، واختلفت اجناسه ، قوة متشابهة هي (الحياة) . وهذه الحياة هي التي تبدع وتغيّر وتبدل . والتطور يتم بقوة هذه الحياة ، لا بقوة المؤثرات المخارجية . وخالف هذه الحياة هو الله تعالى .

حيران - حقاً ان برسون من اعظم الفلاسفة المؤمنين بالله . وحقاً انه ، كما قال مولاي ، يتخد من عقله ، وحده ، وسيلة للتفكير ، ويصل به الى ذلك الشعور الوجданى ، الذي سماه الادراك المباشر ، وما هو مباشر بل هو نتيجة تفكير عقلي باطن عميق ، شعر به كائط نفسه ، وسماه الدليل الاخلاقي . وكلنا نشعر بهذا اليمان الوجданى ، نفس الشعور ، ولا ندرى سببه .

الشيخ - واما اشعر به نفس الشعور ، ولتكن سميته دليلاً مضداً ، لأنه ليس بالدليل الاقوى ، الذي يحوز ان نبني عليه الایمان ، لأنه قد يرجع بك ، وبامثالك من الناشئة ، عند المناقشة ، الى نكسة في الایمان . اما الادلة العقلية القاطعة فلا سهل الى دحضها وابطالها او استبعافها ،

مها اعتراضاً ، عند تركيبها ، من التكالب ، ولا سيما دليل الفقصد والتصميم
والنظام الذي ذكره غير غسون آنفًا .

حيران - وما هي الدلائل المضادة الأخرى يا مولاي ؟

الشيخ - هي كثيرة ، واعظمها معجزات الرسل ،

حيران - أيرى مولاي ان المعجزات من الادلة المضادة ولا يراها من
الادلة القاطعة ؟

الشيخ - المعجزات التي فيها خرق للنوميس ، ادلة قوية ، ولكنها
ليست اقوى من ادلة النظر العقلي الحالص التي تنتهي الى الحكم الفروري
القاطع بوجود الله . ولكن البشر كانوا يعمونهم ، في عهود الانسانية
القديمة ، عاجزين عن الاستدلال بالنظر العقلي الحالص ، فاقنعت الحكمة ،
عند دعوتهم للإيذان بالله ، ان يخاطبوا بدليل المعجزة ، وهي شرق الناموس ،
على يد الرسول الانسان ، خرقاً يدل على الله ، لأنه في العادة فوق قدرة
البشر . ولكن لما ترققت الانسانية في مدارج التفكير العقلي ، واصبحت
متيبة للاستدلال بالنظر العقلي الحالص ، وتقدّم العلم ، حتى نفذ لكثير
من اسرار النوميس الطبيعية ، وصار بالامكان ان يختلط ، عند بعض
الناس ، أمر المعجزة الحضة ، بما يشبهها في الظاهر ، من التصرف العلمي
في المادة على وجه يحسبه غير العالم الثابت خرقاً للناموس ، قضت حكمة
الله بتفضيل الاستدلال بالأدلة العقلية القاطعة ، على الاستدلال بالمعجزة ؛ وهذا
ما سلكه الوحي في القرآن واعتمده اكثر من المعجزات ، كما سيأتيك بيانه
اذا آن اوانيه .

بین داروں وَ الْجِنْ

دخلت على الشيخ في موعدنا ، فرأيت في يده كتاباً ، وفي عينيه اثر
الدموع . ولما سأله عن سبب بكائه ، قال :
لا شيء يا حيران ، كنت اطالع في كتاب شيخي المister رحمه الله
فاستيقظت في الذكريات .

حيران - وما علاقة كتاب الجسر بالذكريات ؟

الشيخ - إنها ذكريات قديمة من أيام الشباب يا حيران .

حيران - أدنـى . سيعذرني مولاي الليلة عن الجسر . إنـى والله بشوق
عظيم إلى الحديث عن هذا الرجل الذي يُكـثـر مولاي من ذكره .
الشيخ - لن أحـدـثـكـ الأنـ عنـ الجـسـرـ ، ولـكـنـ سـأـحـدـثـكـ عنـ رـجـلـ
آخـرـ أـنـتـ بـشـوـقـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ عـنـهـ أـكـثـرـ مـنـ شـوـقـكـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ عـنـ الجـسـرـ .

حيران - ومن هو هذا الرجل يا مولاي ؟

الشيخ - إنه دارـونـ صـاحـبـ نـظـرـيـةـ النـشـوـ وـالـارـتقـاءـ .

حيران - ما هو الداعي لتقديم الحديث عنه ، أفراء يأتي في الترتيب
التاريخي قبل الجسر ؟

الشيخ - كـلاـ بـلـ هـوـ مـعـاصـرـ لـجـسـرـ ، وـلـكـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ الجـسـرـ ، إـنـهـ
يـحـلـوـ وـيـجـدـيـ ، إـذـاـ مـبـقـهـ الـحـدـيـثـ عـنـ دـارـونـ .

حيران - إنـيـ عـظـيمـ الشـوـقـ إـلـىـ سـاعـ الـحـدـيـثـ عـنـ هـذـاـ الـفـيـلـيـسـوـفـ الـكـبـيرـ
الـذـيـ طـلـلـاـ شـغـلـتـ فـلـسـفـةـ عـقـولـنـاـ نـعـنـ النـاشـةـ وـأـوـقـضـتـنـاـ عـلـىـ شـفـرـ الـأـطـادـ .

الشيخ - إنـ دـارـونـ لـيـسـ بـفـيـلـيـسـوـفـ ، وـلـاـ لـهـ فـلـسـفـةـ كـاـ تـظـنـ ، بـلـ هـوـ
عـالـمـ طـبـيـعـيـ كـبـيرـ ، دـفـعـ (ـمـذـهـبـ التـحـوـلـ)ـ دـفـعـ جـريـئـةـ قـوـيـةـ إـلـىـ الـأـمـامـ ،

عندما نشر في سنة ١٨٥٩ كتابه (اصل الانواع بطريق الانتخاب الطبيعي) ، فاصبح صاحب مذهب خاص ، في التحول والنشوء والارتفاع ، أطلق عليه مذهب (الداروينية) . امسا الفيلسوف ، الذي اخذه من مذهب التحول والنشوء والارتفاع اساساً لوضع فلسفة شاملة ، فهو هربرت سبنسر صاحب مذهب (التطور) .

واما قوله ان آراء دارون وغيره شغلت بالكم ، انت الناشئة ، واقتنتم على غير الالحاد ، فانا اعرف به وبسره . ان هواة الفلسفة من شباب هذا الجيل ، الذين تفتحت عيونهم على العلم ، لم تشغل بالهم فلسفة بقدر ما شغلتهم الآراء الجديدة في اصل الانواع والنشوء والارتفاع ، التي قامت عليها الدنيا وقعدت ، بغير حق ، من قبل العلماء ورجال الاهوت جميعاً في اوروبا واميركا . وسوف ترى ان تلك الحلة القاسية ، اتنا نشأت من عدم معرفة حقيقة آراء دارون ، او من قومهم تعارضها مع اليمان بوجود الله ، تعارض اساسياً قاطعاً . وسوف تعلم انه ، لا آراء دارون في اصل الانواع وقوانين النشوء والارتفاع ، ولا فلسفة التطور التي وضعها سبنسر ، تقني وجود الله ، خالق المادة بعناصرها ، وقوانينها في تحولها وتطورها . لذلك ساحاول بقدر ما يمكن من التلخيص ان اوضح للك مذهب دارون على حقيقته .

حيران - كلي آذان يا مولاي .

الشيخ - ان الآثار المليونية المتحجرة ، التي عثر عليها في طبقات الارض ، قد اكذب ان الانسان (حدث) على الارض بعد أن لم يكن ، واكذب وجود حيوانات ونباتات منقرضة . وقد عمل العلماء هذا الانقراض ، بالنكبات التي اصابت الارض من الزلزال والطوفان ، وقالوا انه على اثر انقراض الاحياء في كل نكبة ، كانت تخلق حياة جديدة ، ثم تصيب الدور الجديد نكبة اخرى يعقبها خلق جديد . وهذا ما يسمى مذهب (تعاقب الخلق) الذي ايده كثيرون ، منهم العالم الافرنسي (كوفقيه) والعالم السويسري (اغاسين) .

ولكن بعض علماء الجيولوجيا لم يقتنعوا بان انقراض الـ"دُور" كان يتم بتأثير التكبات ، لأنها لم تكون عامة شاملة ، بل كانت في بعض جوانب الارض ، ففسروا هذا الاختلاف الموجوه بين آثار الاحياء المتحجرة بنظرية (النشوء البطيء) ، وقالوا ان هذا النشوء يحدث على كـ"الدُور" او اعاً جديدة .

وهكذا افتقى العلماء فتنين في تقدير خلق الاحياء : فـ"ثة" تقول بان الخالق العظيم خلق في الماضي ، ويخلق بعد كل انقراض ، احياء جديدة وانواعاً مستقلة ، وـ"ثة" تقول ان ظهور الاحياء تم بفعل الطبيعة قدربيها على طريق النشوء البطيء وتحول الانواع وظهور انواع جديدة . وكان من اشهر الفائلين بهذا الرأي الاخير العالم الافرنسي (لامارك) ، الذي زعم ان انواع الاحياء ليست اصيلة في الخلق والتكون ، بل يشتق بعضها من بعض ، بطريق التحول والارتقاء التدريجي الذي يحصل بعدة اسباب : منها استعمال الاعضاء او اهمالها ، ونوع المعيشة ، وحكم الوراثة ، وضرورات الحياة : فالاقاعي مثلاً لم تصبح ملساء عديمة اليدين الا لأنها تسرّب في المسالك والجحور الضيقة ، والطيور المائية لم تكتسب شكل ارجلها الا لاحتياجها للسباحة ، والثقلة ما اصبح اعنة الا لاحتياجه لأخذ طعامه من الاعماق ، والزرافة ما صارت عنقاء الا لكتلة تناولها القوت من "قم الاشجار" .

ولكن هذا المذهب ظلّ "ضعيفاً" لا يقوى على الوقوف امام مذهب (تعاقب الخلق) ، الى ان جاء (دارون) فدفع مذهب التحول هذا دفعة قوية الى الامام ، عندما وضع في سنة ١٨٥٩ كتابه الشهير في اصل الانواع بطريق الانتخاب الطبيعي ، ثم اصدر من بعده في سنة ١٨٧١ كتابه في (تسلسل الانسان) .

حيوان - وما هو مذهب دارون .

الشيخ - ان خلاصة مذهب دارون في النشوء والارتقاء : أن الاحياء خاضعة لأربعة نواميس : ناموس (تنافر البقاء) ، وناموس (المقابلات بين

الافراد) ، وناموس (التباعيات بالأثر) ، وناموس (الانتخاب الطبيعي) للفرد الحي" الذي تتحقق فيه الأفضلية على سواه بحكم التواميس الثلاثة الاولى .

اما (تنازع البقاء) فمعناه : ان الاحياء في تنازع دائم مع الطبيعة ، ومع بعضها . وفي هذا التنازع اما يتم الفوز للفرد الذي تؤهل صفاتة للغلبة والبقاء . وهذه الصفات كثيرة ، و مختلفة بالنسبة للحيوانات والنباتات . فقد تكون الصفة المؤهلة للفوز والغلبة صفة القوة او الشجاعة او سُبُر الجثة او صفرها او السرعة او الجمال او الذكاء ، او الحيلة في دفع الشر وتدبير القوت ، او الصبر على الجوع والعطش ، او الجحائد على تحمل المؤثرات ، او غير ذلك . فاذما تم الفوز للافراد الذين لهم شيء من هذه الصفات ، وانخذل الافراد الذين ليس لهم ما يؤهلهم للغلبة ، كُتب البقاء للصالحين للحياة ، وحق "الفناء على غير الصالحين" . وهذا هو معنى (تنازع البقاء) . واما ناموس التباينات بين الافراد ، فمعناه ان الاجسام الحية ميالة للتباين ، ببعض صفاتها ، عن الاصل الذي نشأت منه . ولذلك لا يتم التشابه كل التشابه بين الاباء والابناء ، ولا بين الاصول والفروع ، حتى النباتات ، التي يُخَيلُ البَنَا ان اجزاءها تامة التشابه هي ، في الحقيقة ، متباعدة ، فلا تجد ورقة تشبه اختها تمام الشبه . ولما كان هذا التباين جزئيا ، ولا يتناول الامور الجوهرية ، فانه يختفي على غير المحققين ، ولكن "برور الدهور الطويلة يظهر التباين" ، ويستكون النوع الجديد .

اما ناموس الوراثة فهو المتمم لناموس التباينات ، لأن التباينات التي سبق ذكرها تنتقل بالوراثة من الاصول الى الفروع ، وتكون في اول الامر جزئية وعرضية ، ثم تصبح ، بعد مرور الازمنة الطويلة ، جوهرية وناظمة في الانواع .

اما ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يرتکز عليه المذهب كله في النتيجة ، فخلصته : ان ناموس الوراثة ، كما ينقل البيانات ، ينقل ايضاً جميع الصفات التي يحملها الاصل الى الفرع ، مادية " كانت او معتبرة ،

اصلية او مكتسبة ، وهذه الصفات منها النافع كالقرة والصحة والذكاء ، ومنها الضار كالامراض والاعاهات والشدة . اما هذه الضارة فتنتهي الى احد امرین : امّا ان تلائى ، بتنقلب النافعة عليها ، واما ان تتغلب ، فتؤدي الى ملاشاة صاحبها بذاته او ينسله . واما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً وفازاً في معركة تنازع البقاء ،

ثم توارث الفروع هذه الصفات النافعة ، جيلاً بعد جيل . وبعد مرور الوقت من الاجيال ، يصلح الاستیاز حدّاً يحمل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً . وهسنا هو قاموس الانواع الطبيعي الذي يراه دارون سبباً لتكوين الانواع الحية الموجودة اليوم على سطح الارض .

حيوان — وماذا قال خصوم دارون في الرد عليه ؟

الشيخ — خصوم دارون كثيرون ، منهم العلماء الذين لم يناقشوا آراء دارون على الصعيد الديني ابداً ، بل ناقشوها ونقدوها على الصعيد العلمي الحض ، و منهم رجال الدين الذين شنوا عليه حملة شعواء باسم الدين . اما الردود العلمية فهي كثيرة ، اشهرها : ان الحيوانات البحريه الدينيه هي باقية ، حتى اليوم ، على الحالة كانت عليها في ابتداء العالم ، ولم تجد انها تأثرت بناموس الارتقاء . وان حلوائف الاحياء الكبوري ، الدنيا منها والعليا ، وجدت منها آثار ، افضل طبقات الارض ؟ فلو كان ناموس الارتقاء اكيداً لوجب ان يكون الاعلى منها ، كذوات الفقرات ، في اعلى الطبقات . وانا نجد كثيراً من الاجناس والطوائف قد كانت في العصور القديمة الاولى اكلل منها الارض ، وتجدد في الطبقات بعض حيوانات دينية فوق حيوانات عاليه جداً .

حيوان — اذن يريد دارون ان يقول ان جميع الاحياء نشأت من اصل واحد ، تكون بخلق الطبيعة ، وبالتوالد الذائي ، لا بخلق الله .

الشيخ — هذا من جهة ما اشيع عن دارون جهلاً او بهتان ، والحقيقة ، التي لا ريب فيها ، ان دارون مؤمن بوجود الله . اما اصل الانواع فانه يبدو متربداً في تحديده ، لأنه ، مع ميله الى رد الانواع الحية كلها الى

اصل واحد ، يصرّح بانها ترجع الى اربعة اصول او خمسة مخلوقات خلقها من زمان طویل ، كل زوج منها اصل ، ولا يتردد دارون ابداً في الاعتراف بان الله هو الخالق لاصل الانواع ، سواء اكانت اصولاً عديدة او اصلاً واحداً ، لأن عقله لم يتسع لتصديق رأي القائلين بان اصل الانواع تولد (توليداً ذاتياً) بنفسه وبفعل الطبيعة .

حیران - كيف اذاً سمعنا هذا الرأي عنه وعن اشیاعه ؟

الشيخ - نعم ان هنالك اشیاعاً آخرين ملحدين من اصحاب المذهب المادي ، لم يرضاوا بقول دارون ان الحياة تفخت في الاصل بقدرة الخالق العظيم ، فاتهموه بأنه ياليه رجال الدين ، ويترضاهم ، وأخذوا يخترعون تفسيراً لنشأة الحياة الاولى من المادة الميتة ، فزعم بعضهم ان اصل الحياة كرية بسيطة ذات خلية واحدة ، وزعم آخرون ان الحياة عبارة عن كتل زلالية حية صغيرة هي ادنى من ذات الخلية الواحدة وببساطه لذلك سموها (متوفراً Monere) اي الوحدة البسيطة في اليونانية ، وزعموا انها تتكون من الجماد (بالتوليد الذاتي) . ومن اشهر القائلين بذلك العالم البيولوجي الالماني (ارنست هيكيل) .

حیران - وماذا يقول هيكيل ؟

الشيخ - يقول هيكيل ان الكون مولف من المادة ، والمادة مؤلفة من النرات . ومن هذه المادة ظهر كل ما في الكون من احياء وغير احياء . وحركة العالم هي حركة تطور دائم ، يبتدئ من ابسط النرات ، وينتهي الى ارقى الكائنات . فهذه الكائنات كلها ، حيّتها وجادها ، تختلف من عناصر واحدة ، لا فرق في ذلك بين حيٍّ وغير حيٍّ ، لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في الماء غير العضوية . وان بالامكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية .

وعلى هذا الاساس يقول هيكيل ان ابسط انواع الحيوان نشأت من مادة (غير حية) بطريق (التوليد الذاتي) .

حیران - كيف تنشأ الحياة من الجماد ؟

الشيخ - يقدر هيكل ، تقديرًا ، ان اصل الحياة نشأ من توازن نسي بين مقادير خاصة من العناصر المادية . ولكن هذا التوازن دقيق جداً ، الى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد ، او زيادة جزء واحد من احد العناصر ، سبباً في نشوء الحياة ، او تمثيل نشوئها . هذا ما يقدرها هيكل تقديرًا . ولكنه يقف هو وغيره من الماديين ، عاجزاً عن معرفة من هذه النشأة للحياة الاولى من الجماد . حتى ان احدهم (يختن) ، الذي هو من اشد المؤيدين لذهب النشوء ، ومن اكثر الماديين غلوّاً ، ومن الدين اتهموا داروين بانه كان مصافحاً لرجال الدين ، قصد وقف ، امام خلق الحياة من الجماد ، حازراً حيث يقول ، بانصف العلماء وتجرمهم : (ان البَتْ في امر التولُد الذاتي للكربيَة الاولى التي نشأ عنها الاصل الاول امرٌ غير متيسر ، لأن الاحوال المناسبة لتولُد الكربريات الاولى ، تولَد ذاتياً غير معروفة . والكربيَة ذاتها ، على بساطتها ، ذات بناء وبرهان ينتفع به صدورها من الجماد مباشرة . بل ان ظهورها من الجماد ليُعدّ ، في نظر العلم ، معجزة ليست اقل بعدها عن العقل من ظهور الاحياء العليا من الجماد رأساً) .

حيوان - هذا عظيم ولكن سمعت فيها سمعت ان داروين يقول ان اصل الانسان قرد ارتقى فصار انساناً ، فكيف يتلامم هذا مع ما اتهم به من المصانعة لرجال الدين ؟

الشيخ - وهذا ايضاً لم يقله داروين وان كان مذهبه في اصل الانواع يحتمل هذا القول . ولكن بعض غالبية الماديين اخذوا من مذهب داروين وكلامه عن الاعضاء الافريقية وسيلة لنفي الغاية والحكمة في الخلق فانكروا (الخلق الدفعي المباشر) الذي ذكرته الكتب المنزلة ، وزعموا ان الانسان اصله من القرود ، واستدلوا بالشبه العظيم بين القرد والانسان ، في اكبر الاعضاء ، وبعض الطبائع كالجحش ، وقالوا ان لكثير من الحيوانات كل احساسات الروح كالفرح والحزن والحنق والوحدة ، ولها شيء من قوة التفكير والمقارنة ، واستنتجوا من ذلك ان لها عقولاً وعواطف كالانسان ،

مع الفارق في درجات الرقيّ . ولكن هؤلاء القائلين بنشوه الانساني من الفرد تغيروا في كيفية انتقال الفرد من الحيوانية الى الانسانية ، ”نفاثته الاخيرة“ ، فقال بعضهم انها حصلت فجأة ، وقال آخرون انها حصلت بالتدريج ، لأن النقلة الفجائية بعيدة جداً ما بين الفرد والانسان ، في العقل ، من الفرق العظيم ، وبعشو عن الحلقة المانعة في طبقات الارض فلم يجدوا لها ارضاً ، ولم يتمكنوا حتى اليوم ، من البث في تلك النقلة برأي قاطع او راجح ، فظللت النشأة الاصلية موضع شك عظيم :

حيوان - وما هي فلسفة التطور التي وضعها سبنسر ، وما الفرق بين التحول والتتطور ؟

الشيخ - ان الفرق بين التحول والتتطور ، في اصطلاح العلم والفلسفة ، يكاد يكون ضئيلاً مثلاً هو ضئيل في اللغة . فذهب التحول Transformisme هو المذهب البيولوجي القائل بأن الانواع الحيوانية والنباتية تحول قاتلة انواعاً جديدة . ومذهب التطور L'évolutionisme هو المذهب البيولوجي - الذي يقول ، ايضاً ، بحصول التحول الارتقائي في الانواع الحية . فالمذهب الدارويني هو في الحقيقة مذهب (تحويل ، تطوري ارتقائي) . ولكن داروين قال بالتطور كمذهب بيولوجي ، ولم يجعل منه فلسفة شاملة للوجود ؛ اما سبنسر فقد جعل من التطور فلسفة شاملة للوجود ، بكل ما فيه من ماديات ومعنىيات فعدّ واضعاً (للفلسفة التطورية) .

وخلاصة هذه الفلسفة ، (التي هي في الحقيقة وصف جيد لبعض الواقع المشاهد من صور الوجود ، اكثر ما هي تعليل لنشأة هذا الواقع الموجود) : ان ” كل ما في الكون“ ، من الاشياء المادية والعضوية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية ، ناتج من تجمع الاجزاء المجانسة تجتمعاً يحدّ من حركتها ، ويقيدها ويشتت قوتها ، فيؤدي بها الى التباين في الصور والتنوع ، ثم الى التنافر والانحلال والموت ، ثم الى التجمع كرة اخرى وهكذا ... فـ ” تجتمع“ الذرات المادية تكون المبارة والجبال ، ومن تجمع قطرات الماء تكون البحار ، ومن تجمع الافراد تكون الامم ، ومن الأسر تنشأ

القبائل ، ومن القبائل ، تكون الدولة ؛ ومن العادات تكون الاخلاق والنظم والاديان ، ومن تعدد الآلهة نشأ التوحيد ، ومن تجمع الاحاسيس تكون الافكار والمعارف الجزئية ، ومن المعارف الجزئية يتكون العلم ، ومن تجمع العلوم تكون الفلسفة

اما تطور الاحياء فانه يسير ، كما قال دارون ، وسواه ، على اساس التوفيق والملائحة بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها ، والضرورات التي تكتنفها ، وال الحاجات التي تساعد على الحياة والبقاء . وبمحض هذه الضرورات وال حاجيات تكونت اعضاء الحيوانات وحواسها ، حق العقل وما فيه من الافكار التي نسبتها قظرية ، قد نشأت من هذا التطور . فاصل الغرائز انعكاسات متراءكة ، وعادات مستحکمة . ومن الغرائز تكون العقل . وما صور الفكر الفطرية كفاظون العلية ، وصيغ الزمان والمكان ، الا طرائق غريبة لتفكير ، كسبتها الجنس ، فاصبحت على كـ" الزمان راسخة فيه رسوخ الفطرة .

حيران - اذكر لي قرأت مقالاً عن فيلسوف الماني يدعى شوبنهاور يقول بمثل هذا عن تكون الأعضاء بسبب حاجة الحيوان الى الحياة والبقاء والذراء والبقاء .

الشيخ - نعم انت شوبنهاور عزيز عن هذه الحاجات والضرورات (بالارادة) ، وتوسع في معنى هذه الارادة حتى جعلها الحقيقة النهاية لكل شيء ، فزعزع ان العالم يأسره ليس الا عبارة عن مجموعة ارادات في حالة فاعلية مستمرة ، وان هذه الارادة هي قوة حيوة تشكل كل شيء ، وتكونه وتوجهه وتسيطره بقتضى احتياجاتها ، ونحن لا نرى من الاشياء الجزئية الا ظواهر هذه الارادة المتجسدة .

حيران - هل يعني شوبنهاور بالارادة ما فطر الله عليه الاحياء من فطر وغرايز ، وما في الكون الطبيعي كله من قوانين ونظم ، أم يعني بالارادة المتجسدة ان ارادة الله جسدت هذا الكون وجعلت فيه ارادات تستيره وتطوره ؟ والا فما معنى هذه الارادة ومن الذي اوجدها ...؟

الشيخ - انتي افهم من كلام شوينهور ، على خموده ، انه يريد ان ينفي المادة الاليمة ، ويقول وجود قوة فعالة وراء المادة ، هي (الحياة) . ولكن رأى هذه القوة تفعل في غير الاحياء ايضاً ، تغير عنها (بالارادة) ... او على كل حال ، يا حيران ، ليس في مذهب التحول والتطور من طريق النواميس ، سواء سببناها (حياة) أو (ارادة) ما ينافي الاعتقاد بوجود الله .

حيران - كيف ذلك ؟

الشيخ - ستجد هذا مبسطاً في كلام الجسر .

حيران - كل هذا الذي ذكره سبنسر عن فلسفة التطور ، لم يكشف لنا عن سر هذا النظام الذي يسير عليه التطور ، ولا ذكر لنا العلة الاولى لوجود هذا الكون بذراته واجزائه وعناصره وخواصه وقوانينه ، المؤدية الى ذلك التجمع والتفرق .

الشيخ - ان سبنسر جعل فلسفته قاصرة على وصف هذا التطور في صور الحياة ، وحاول ان يجعله شاملاً لصور الوجود كلها . واما ما وراء ذلك منحقيقة الكون وعلته فإن سبنسر يرى ان العقل عاجز عن الخوض فيه ، لأنه أعيد للهم ظواهر الاشياء ، واكتسب وجوده من ممارسة هذه الظواهر . وكل بحث نظري عقلي ، فيها وراء هذه الظواهر ، لا بد للعقل ان يتعمد فيه ويرتتك ويمتنع لأن القول بأن هذا العالم وبعد بذاته وم ينشأ عن علة ، وليس له بداية ، هو قول لا يقبله العقل الذي يتطلب لكل معلوم علة . ولكن هذا العقل كما يتطلب ان يكون لهذا العالم علة اولى كانت سبباً لوجوده ، فإنه يكمل ويعجز عن تصوير علة اولى لا علة لها .

حيران - هذا نفس ما قاله هماوثيل كانط في عصر المقل ، ولكن هل جازاه ايضاً في ايهانه ؟

الشيخ - نعم ان سبنسر جازى (كانط) في كلامه عن عجز العقل وارتباكه وتعمده ، وآمن مثله ، في النتيجة ، اياناً وجداياناً فقال : ان هناك حقائق تشعر نفوسنا ، شعوراً باطنينا قوية ، بوجودها ، ولا تستطيع

ادراكيها بعقولنا ، ومن اهم هذه الحقائق الاعياد بوجود الله ...

حيران - لقد فهمت من الشيخ ان دارون كان مؤمناً بوجود الله ، لما هي اسباب الحلة الشعواء التي قال مولاي لها اثيوت عليه ، ولم لم تنشر على سبنسر وهو الذي قال بذهب التطور ، نفس الشيء ، الذي قال به دارون ؟

الشيخ - لم تقم الحلة على سبنسر لانه لم يأت بجديد ، في نظرية خلق الانواع ، غير الذي ذكره دارون ، وكانت الحلة ضد دارون ، قد استندت قوتها ، يوم تنشر سبنسر فلسفة التطور ، فكان من الطبيعي ان لا تثير آراءه ضجة جديدة في هذا الموضوع ، كما اثارت آراء دارون في الحقيقة التدربيجي التطوري ، الذي رأى وجال الدين فيه سطراً على الاعياد ، وتكتديباً لما ذكرته الكتب المنزلة عن خلق الانسان الاول .

ولقد كانت الحلة على دارون قاسية وهو جاء الى الحدّ الذي خرج به اعظم رجال اللاهوت في العالم ، وكثير من رجال العلم والسياسة والصحافة ، عن ادب النقاش العلمي الى السب والشتم والتهم والاذى والتكفير . ويفكفيك ان تعلم من اخبار هذه الحلة الهوجاء ، التي استمرت في ضراوتها الى نهاية القرن التاسع عشر ، مثلاً : ان استف او كسفوره ، وهو من اكبر العلماء ، اعلن ، في خطبة القاتها امام بجمع تقدم العلوم البريطاني ، (ان دارون ارتكب اشنع جريمة حينما حاول ان يحدد عبده الله في فعل الخلق) . وان الكاردينال (مانشنج) قال (ان مذهب دارون هو فلسفة وحشية تؤدي عقلاً الى انكار الآلهة) . وان الدكتور (بهري) صاحب اساقفة ملبورن وضع كتاباً حمل فيه على دارون واتهمه بأنه يزرع في نفوس الناس بذرة الكفر وانكار الكتب السماوية . وان المؤنسيلور (سه غور) في فرنسا قال عن مذهب دارون (انه من المذاهب المرذولة التي لا يؤيدها الا احاط النزعات واسل المشاعر ، فابوها الكفر وامها القذارة ...) ؛ وفي المانيا اعلن بعض العلماء ان مذهب دارون ينافق كل فكرة موجودة في الكتب المقدسة . واعلن (لوثاردت) استاذ اللاهوت في لايبزيغ (ان

فكرة التشوه تناقض الحكمة الالهية مناقضة تامة ، وان فكرة الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعي وان كل الميكل الاعلى للدين ، اما يقوم على مذهب الخلق) . ودعا أحد علماء اللاهوت في سويسرا الى القيام بحرب صلبيّة ضد هذا المذهب الخاطئ المسد ... ، وقالت مجلة جامعة ديلن (ان دارون يبحث كيف يخلع الله عن عرشه) ، ووصف العلامة الدكتور قسطنطين جس في كتابه (الداروينزم او الانسان الفردي) ، الذي نشر في باريس سنة ١٨٧٧ ، مذهب دارون بأنه (اسطورة واصحوبة) ، وتهكم الوزير غلاستون نفسه على المذهب في احدى خطبه . وقال الدكتور هدج من جامعة برنسون (انه يجب منع نشر امثال هذه المذاهب التي تناهى الكتب المقدسة) ، وقال الدكتور دوليد من الجامعة نفسها : (ان التوفيق بين مذهب التشوه وبين التزيل غير محكّن ، وان من يؤمن به ، ولو ثبت عليه ، يكون كافراً بالله) . وقال الدكتور (لي) (انه لا يمكن باي اسلوب من اسلوب التفسير ان تؤول لغة الكتاب المقدس بتوسيع يتحمل القول بهذا المذهب) ، ونعت دارون واتباعه بأنهم مبشر والبلائيم القدرة ...) ، وفي الكلية الاميركية في بيروت طرد الاساتذة الذين ظهر لهم يقولون بذهب دارون .

يقول حيران بن الاضعف : وهنا سكت الشيخ الموزون ، واطرق طويلاً وانا صامت انظر اليه وانتظر تتمة كلامه ، ثم رفع رأسه وهو يتسم بابتسامة فيها كل معاني الفخر والاعتزاز ، وعاد يقول :

الشيخ - وفي صميم هذه المعركة الثالثة ، يا حيران ، 'وجدة' ، في العالم كله عالم ديني واحد ، تجاسر على ان يؤلف كتاباً يقول فيه ان مذهب دارون ، عند ثبوته ، لا يتعارض مع احكام القرآن ولا مع الامان بوجود الله الخالق العظيم .

حيران - ومن هو هذا العالم يا مولاي ؟

الشيخ - هو الشيخ حسين الجسر مؤلف (الرسالة الحميدية) الذي سأحدثك عنه في ليلة اخرى ، فان الحديث عنه يطول ؛ انه شيخي وبه

هُدِيَتْ إِلَى الْحَقِّ ، فَلَا أَكْتَفِي ، مِنَ الْكَلَامِ عَنْهُ ، بِالْقَلِيلِ .
حِيرَانٌ - إِنَّا لَا نَرَى يَا مَوْلَايِ في أَوَّلِ اللَّيْلِ ، فَارْجُوكَ أَنْ لَا تَقْطُعَ
عَنِّي سَلْسَلَةُ الْحَدِيثِ .

الشِّيخُ - أَنْتَ إِنَّا الْمُعْجَزُ لَا إِبْلِي ، يَا حِيرَانَ ، بِالسَّهْرِ ، وَلَا أَكَادُ أَنَّمَّ مِنَ
اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَكِنِي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ ...

حِيرَانٌ - أَنْ شُوقِي إِلَى الْحَدِيثِ يَعْلَمُنِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْلَايِ صَبْرًا لِعَلِيِّ
السَّهْرِ ...

الشِّيخُ - أَنَّ الْجِسْرَ يَا بْنِي أَشْبَهُ الْعَلَمَاءَ بِالْأَمَامِ الْغَزَالِيِّ ، وَأَوْجُوهُ الشَّبَابَ يَبْنُهُمَا
كَثِيرَةٌ ، أَهْمَّهَا : أَنَّ الْجِسْرَ كَانَ ، كَالْغَزَالِيِّ ، عَالَمًا مُتَكَلِّمًا مِنْ أَكْبَرِ عَلَمَاءِ
الدِّينِ فِي حَصْرِهِ ، وَكَانَ مُثْلَهُ وَاسِعُ الاطِّلاعِ عَلَى حِفَاظَتِ الْعِلُومِ الْكُونِيَّةِ ،
عَظِيمُ التَّبَحُّرِ فِي الْفَلَسْفَةِ الْمِيَاتَنِيَّيَّةِ . وَكَانَ غَرَضُ كُلِّ مِنْهُمَا ، مِنَ الْخَوْضِ
فِي مِبَاحِثِ الْفَلَسْفَةِ ، إِثْبَاتُ وَجْدَ اللَّهِ . وَكَانَ الْغَزَالِيُّ كَانَ يُؤْمِنُ بِحِفَاظَتِ
الْعِلْمِ الَّتِي تَقْوِيْمُ عَلَيْهَا الْبَرَاهِينُ الصَّبِيْعِيَّةُ ، وَيَسْتَكِرُ الْقَوْلُ بِعِنَافَاتِهِ لِلَّدِينِ ،
وَيَتَسْعَى بِأَشَدِ الْلَّامَةِ عَلَى مَنْ يَنْكِرُهَا وَهُمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ بِهَا يَنْصُرُونَ
الَّدِينَ ، وَيَقُولُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ أَضَرُّ عَلَى الدِّينِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، فَإِنَّ الْجِسْرَ ، أَيْضًا ،
يَشَدَّدُ النَّكِيرُ عَلَى عَلَمَاءِ الدِّينِ الَّذِينَ يَنْكِرُونَ حِفَاظَتِ الْعِلْمِ الْقَاطِعَةِ ، وَيَقُولُ
عَنْهُمْ أَنَّهُمْ عَقْبَةٌ فِي سَبِيلِ الْإِيمَانِ ، بِجَهَلِهِمْ بِقَوَاعِدِ الدِّينِ وَاصْوَلِهِ ، وَبِطْرَقِ
الْتَّوْفِيقِ بَيْنِ نَصْوَصِهِ الْحَكِيمَةِ وَالْأَدَلَّةِ الْعُقْلِيَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَأَنَّهُمْ بِهَا أَضَرُّ
عَلَى الدِّينِ مِنْ أَعْدَائِهِ .

وَقَدْ اتَّقَاهَا فِي أَنْ كَلَّا مِنْهَا وَضَعَ كِتَابًا خَاصًا لِلرَّدِّ عَلَى الْفَلَسْفَةِ ،
فِي النَّوْاعِيِّ الَّتِي وَجَدَ أَنَّهَا تَخَالِفُ الدِّينَ حَقًّا . فَالْغَزَالِيُّ وَضَعَ كِتَابًا
(تَهَافُتُ الْفَلَسْفَةِ) ، الَّذِي حَدَّثَكَ عَنْهُ ، وَالْجِسْرُ وَضَعَ كِتَابًا (الرِّسَالَةُ
الْمُحِيدِيَّةُ) . وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الرِّجَلَيْنِ هُوَ فِي امْرِينِ : الْأَوْلُ أَنَّ الْغَزَالِيَّ
قَصَرَ كَلَامَهُ فِي (تَهَافُتِ الْفَلَسْفَةِ) عَلَى رَدِّ بَعْضِ اقْوَالِ الْفَلَسْفَةِ الْأَلْتَهِيَّنِ ، كَمَا
عَلِمْتَ ، وَلَمْ يَتَنَاهُ رَأْيُ الْمَادِيِّينِ الْطَّبَيْعِيِّينِ الْمُنْكِرِينَ لِوَجْدِ اللَّهِ . أَمَا
الْجِسْرُ فَإِنَّهُ وَجَدَ ، أَنَّ الْمَذْهَبَ الْمَادِيَ قَدْ أَخْذَ ، بَعْدَ خُودِهِ وَخُولِهِ

يتعش على ايدي بعض الماديين من علماء القرن التاسع عشر ، فاختار ان يجعل اکثر كلامه مع هؤلاء الماديين . والامر الثاني : ان الجسر تعرّض لآراء جديدة ، ظهرت في عصره ، وامها مذهب النشوء والارتفاع ، الذي جرّ الآخذ به ، بعض العلماء الطبيعيين ، الى انكار الخالق ، والقول بان الحياة اما نشأت من ايجاد بالتوارد الذاتي ، وهذه آراء مادية لم تكن موجودة ، بمثل هذا التوجيه والتفصيل ، في عهد الفزالي ، ولا كان لها اشباع واتباع بقدر ما اصبح لها اليوم ، فرأى الجسر ان يتولى مناقشة هذه الآراء ، على ضوء الدين الحق ، والعلم الصحيح .

وقد بدأ الجسر كلامه مع الماديين في اثبات حدوث العالم واثبات وجود الله وصفاته التوجية له عقلاً ، ثم تناول شبهات الماديين ، التي تحول دون اعتقادهم بوجود الله ، وخلق العالم من العدم ، وبوجود نظام وحكمة في الخلق ، ففندتها وابطلاها ، ثم تناول فلسفة النشوء والارتفاع ، فتكلم عنها بكلام مسهب ، زينه بالكثير من آيات السمو والانصاف . وكان في كل آرائه شديد الاعتصام بالدين ، حريصاً على التوفيق بين المقول والمعقول ، عليماً بطرق هذا التوفيق ، بعيداً عن الجمود والتعصب الاعمى ، صادقاً اليقين بان دين الاسلام لا يمكن ابداً ان يتنافي ، او يتعارض مع احكام العقل السليم .

حياناً - هل يختلف كلام الجسر في قضية حدوث العالم وقدمه عن كلام الفزالي وغيره ؟

الشيخ - انه في الجوهر لا يختلف ، ولكن لما كان الجسر يرد على الطبيعيين الدهريين المنكرين لوجود الله اصلاً (خلافاً للفزالي الذي كان رده على الالهيين القائلين بقدم العالم دون انكار وجود الله) ، فان كلام الجسر يختلف عن كلام الفزالي في بعض التوسيع ، من جهة الاسلوب في مناقشة ادلة الماديين .

وتحتاج الجسر بسبع نقاطه ، فيقرر اولاً مذهب الفلسفة الماديين على لسانهم ويشرحه ، ثم يبدأ في الرد عليهم ، فيقول ما سلاصته :

(ان الذي قرّ عليه الامر، الآن عندكم ، أن اصل العالم امران : المادة وقوتها اي حركتها ، وانّها قديتان متلازمتان من الازل ، وليس لهذه الحركة سبب الا نفسيها ، وان المخلوقات كلها تكونت من المادة بواسطه حركتها ، وحدثت ، بعد ان لم تكن ، حدوث المعلول عن علته ، بقتضي الفرورة ، وليس للادة وحركتها اراده وقدر في تكون شيء منها . ونقولون انه ثبت لديكم حدوث الحيوانات والنباتات ، بعد ان لم تكن ، باكتشاف طبقات الارض التي ظهر لكم منها ان آخر طبقة وصلت اليها خالية من الاحياء وآثارها ، وانه من على الارض زمن كانت فيه خالية من الاجسام الحية ، وانه بتجمع اجزاء المادة ، بواسطه حركتها ، تكونت العناصر الاصلية ، وبناءجها ، على نسب مخصوصة ، تكونت الاجسام الحية . وان اول شيء تكون من الاجسام الحية ، مادة زلالية لها قوة التغذی والانقسام والتولد وهي (البروتوبلاسما) ، ومن تولدها حدثت ابسط النباتات والحيوانات ، وان هذه الاحياء اخذت في التكاثر والتنوع بتأثير النواميس الاربعة التي ذكرنوها في مذهب النشوء والارتقاء ، حق وصلت ، بعد كثر الملايين من السنين ، الى ما وصلت اليه اليوم ، وان الانسان ليس الا حيوانا من جملة هذه الحيوانات ، ترقى بيقة ناموس (الانتخاب الطبيعي) ، وانه قد يكون مشتقا من القرد ، وان عقله لا يختلف عن عقول بقية الحيوانات ، الا يكونه اعلى منها في سلم الرقي والتطور .

وبعد ان يلخص الجسر المذهب المادي الطبيعي ، يأخذ في الرد على الماديين الطبيعيين فيقول لهم :

(انتي ، بعد التأمل الصادق في مذهبكم هذا ، وجدت ان اساسه ، هو اعتقادكم بقدم المادة ؟ فلما اعتقدتم قدمها لم تؤمنوا بوجود الله احدثها . ولما وجدتم تنويعات المادة ، وثبتت عندكم ان هذه التنويعات حادثة ، ولم تسلم عقولكم بحدوثها عن نفس المادة فقط ، احتجتم الى ايات حركة اجزائها الفردة ، وبنيتم على المادة والحركة تكون التنويعات . ولو انكم اعتقدتم بحدوث المادة لاجلكم الامر الى الاعتقاد بوجوده الله احدثها ،

واحدة فيها من التنوعات ، ولم تجشموا القول بان تلك التنوعات نشأت عن المادة وحركتها ، بوجهه الضرورة ، بدون قصد ولا ادراك ولا قديم .

فالذى اراه ان اول ما يجب على ، هو ان اقيم لكم البرهان على ابطال قيام المادة وعلى اثبات حدوثها :

والمتأمل الحقق في مذهبكم يرى فيه ثلاثة قضايا ، لا يمكن اجتماع ثبوتها معاً ،
لان القول بثبوت بعضها يؤدي ، سنتما ، الى نفي ثبوت البعض الآخر .
فالقضية الاولى : انكم تقولون بقدم المادة وقدم حركتها ، وانها متلازمان
من الازل لا تتفاوت عن بعضها . والقضية الثانية : انكم فلتم (بمحض)
الاروع الحية بعد ان انكشف لكم من علم طبقات الارض ان الواقع
الحيوانات والنباتات قد حدثت في الارض بعد ان لم تكن ، وان "الانسان
احدثها عيناً" . والقضية الثالثة : انكم فلتم ان جميع التنوعات حدثت
بواسطة حركة اجزاء المادة ، تلك الحركة الملازمة لها من الازل على وجه
الضرورة ، ولم يكن للمادة ولا لحركتها اختيار في ذلك ولا ارادة .
ومعنى ذلك عندكم ان التنوعات حدثت عن المادة وحركتها حدوث
المعلول عن علته . هذه هي القضايا الثلاث التي ثبتوها ، وانا اقول لكم
في جواب ذلك :

ان كل عقل سليم يحكم حكماً قاطعاً ، لا ريب فيه ، بأن الشيء لا
يتختلف عن علته المستلزم له البنية . فان كانت علته حادثة ، كان هو
حادثاً عقبها بدون تأخير ، وان كانت قديمة كان هو قديماً ، والألزم
وجود العلة بدون المعلول ، وهو الحال عقلاً . فقولكم بقدم المادة وقدم حركتها ،
اللتين هما علة التنوعات الكونية ، يلزم منه قدم هذه التنوعات . وانتم
لا تقولون بقدمها .

فاثق في هذا ، اذن ، بين ثلاثة امور : اما ان قلتم بقدم تلك
التنوعات المعلولة ، بينما لفسدم علتها ، خلافاً لما ثبت لكم باكتشافاتكم ،
واما ان قلتم ان المادة وحركتها فاعلتان (بالاختيار والأرادة) فخصمتا

زماناً معيناً حدوث التنوعات ، وهذا ما تتعكر منه أشد الانكار ،
واماً ان تقولوا (بحدوث) المادة وحركتها ، وهو المطلوب ...

ثم يوجه الجسر الرد توجيهآ آخر فيقول : لا يخفى ان المادة لا يعقل
ان تخلو من صورة تقوم بها ، ولذلك قلت انها لم تكن قط بلا صورة ،
لأن المادة وحركتها ، اللتين عنها تنشأ الصورة ، قد يتأثر متلازمان .
ولكن العقل السليم يقطع بان كل صورة تقوم في المادة هي حادثة لأنها
تزول وتتغير ، ولو كانت ابسط صورة ، بدليل ان تلك الصورة البسيطة
قد تغيرت وانعدمت ، وخلفتها صور تنوعات الحياة التي اثبتت ان وجودها
في طبقات الارض حادث .

ولا يخفى ، عقلاً ، ان كل ما يطرأ عليه العدم يستحيل عليه القيدم .
فاذاعت الصورة (اللازمة) ل المادة حادثة ، فلا يمكن ان تكون المادة
قدية ، لأننا اذا رجعنا لابسط صورة كانت للمادة ، نجد ان هذه الصورة
حادثة ايضاً ، بدليل قبوها العدم . فقبل حدوثها ماذا كان حال المادة ؟
إماً ان يقال انها كانت بدون صورة ، وهذا ما نفيته لأنه مجال
عقلاً ، فالمادة لم تكن ابداً بدون صورة ، كما قررتكم والذين قبلكم من
الفلاسفة ؟ وإماً ان تقولوا ان المادة حدثت مع الصورة ، فتكون حادثة
لا قدية . وبعبارة اخرى نقول : ان المادة ، بحسب قولكم وبحكم العقل السليم ،
ملزومة للصورة ، والصورة لازمة المادة لا تتفق عنها ، فلو كانت المادة
(الملزم) قدية ، وكانت الصورة (اللازمة) قدية ، لعدم جواز افتكاك اللازم
عن الملزم عقلاً ، لكن هذه الصورة ليست بقدية ، بدليل قبوها العدم ،
فالمادة اذن ليست بقدية .

وبعد ان يرهن الجسر ، على حدوث العالم بعادته وصوره ، بهذه البراهين ،
التي ليس للعقل محيس عنها ، والتي اعترضها اكبر العلماء وال فلاسفة ؟ يقول
للمعادين :

ان الحادث لا بد له من امر يحده ، ويترجح به وجوده على عدمه ؟
والأ لزم الترجح بلا موجب ، وهو من الحالات البديهة . واذا ثبت ان

المادة حادثة ، فلا بسد من شيء حدثت عنه ، وترجح به وجودها على عدتها ؛ وهذا الشيء لا بد أن يكون (موجوداً) ، لأن المدوم لا يوجد عنه شيء ، وهذا الموجود هو الله تعالى .

ولا بد عقلاً أن يكون هذا الموجود (قديماً) ، لأنه لو كان حادثاً ، لاحتاج إلى محدث ، فيلزم إما الدور وأعما التسلسل ، وكل من الدور والتسلسل حال عقلاً .

ثم إن ذلك الموجود القديم ، الذي أحدث المادة ، إما أن يكون حادثتها عنه بطريق العلية والضرورة ، بدون ارادة واختيار ، وإما أن يكون حادثتها عنه بالإرادة وال اختيار . وغير جائز ، عقلاً ، أن يكون حادثها بطريق العلية والضرورة ، لأنه لو كان كذلك ، (وهو قديم) ، للزعم أن تكون المادة وتتنوعها قديمة ، وقد ثبت حادثتها وحدوث تنويعاتها ، فلم يبق إلا أنها حادثة بإرادته و اختياره ، وتحصيصه لها الوقت الذي وُجِدَتْ فيه ، فثبت بهذا أن ذلك الموجود القديم مريد ختار .

ثم إن الارادة تصلح لترجح الوجود على عدم وتحصيص زمانه . وأما نفس الوجود فلاملا يبالإرادة وحدها ، بل لا بد له من القدرة والعلم . ولا ريب في أن هذا الآلة العظيم الذي أوجد تلك المادة ، وجعلها قابلة للتطور والتحول من صورة إلى صورة ، هو قادر على القدرة ، عالم أنت العلم ، سواء أكان هو الذي نوع تنويعات المادة وطورها ، أو ألقه أوجد المادة الصالحة ، لتلك التنويعات والتطورات ، بموجب التواميس التي وضعها فيها ، وبحركة أجزائها ، كما يقول الماديون . فكلا الأمرين يدل دلالة قاطعة على كمال قدرته وعلمه ؛ لأن الذي يوجد شيئاً بسيطاً ، ثم يطلب إلى أنواع لا تُعدُّ ولا تحصى ، أو الذي يوجد شيئاً بسيطاً قابلاً ، بمقتضى تواميس أقامها فيه ، أن يقول بالقليل إلى أنواع تفوق الخضر والحمد ، وتدشن العقل اتقاناً وأحكاماً ، لا يتشك عاقل بوجوب علمه وقدرته ، فثبت بهذا أن ذلك الآلة الموجود القديم المريد الختار ، قادر على .

وبعد ان يستوفي الجسر بسط الاadle والبراهين على صفات الكمال
له تعالى ، يلتفت الى اولئك الذين لا يؤمنون الا بما يقع عليه الحس
والمشاهدة ، ولا يقيمون وزنا للاستدلال من طريق النظر العقلي الحالص ،
فيفقول لهم :

انكم لما لم تهتدوا الى العلم بوجود الله الذي اوجده المادة ، اعتقادتم
قدماها ، ثم رأيتم تروعاتها ، فاحتجمتم الى موجب نسأله عن هذه التنوعات ،
لان الفقل لا يقنع بكونها حدثت عن المادة بغيرها بدون سبب صالح
لادانتها ، فقلتم : ان اجزاء المادة الفردة المختلفة الاشكال هي متحركة
حركة ازليه ، وبسبب تلك الحركة اخذت تجتمع ، على كيفيات واوضاع
شتي ، فانتجت تلك التنوعات ؛ مع انكم باعترافكم ، لم تعلموا حتى اليوم
حقيقة المادة . وما قولكم ؟ في التجمع على سبيل المصادفة ، الا من باب
التخيين والتقدير والاستدلال ؟ وهكذا عدلتم عن قاعدتكم التي طلما شتكم
بها ، وهي انكم لا تستلمون الا بالذي يؤديكم اليه الاحساس والمشاهدة ،
والتراجتم الى الاستدلال بادليل النظر ، العقلي ، بدون احساس ولا مشاهدة .
وما دمتم رجعتم الى الاستدلال من طريق النظر العقلي الحالص ، اسألهم :
هل الاهون على العقل السليم ان يُصدّق ان كل ما في العالم من نظام
وابداع واحكام هو اثر من آثار جماع المادة العمياء ، ام الاهون على
العقل والاقرب اليه ان يكون ذلك قد تم بخلق الله قادر مرید علم
حکیم ... ؟

ومن هنا يتوجه الجسر الى الاستدلال بدليل النظام والابداع والاحكام ،
بعد ان يشير الى ما في الاشياء من خواص وطبعات ، جعلت فيها بتخصيص
 قادر على حکیم ، لولاه ما كان لها ان تختص بها نفسها بنفسها ، لانه لا
ضرورة عقلية تتقتضي ان يكون للشيء تلك الخاصية التي فيه دون سواها
او عكسها (وهو التخصيص الذي ذكره الغزالی واوضحته لى عند
الكلام عن هنیم شیخ الشکّاک) فيلتفت الجسر الانظار الى كثير مما في
هذا العالم من آيات الابداع والاحكام . ثم يلتفت الى الانسان فيرى في خلفه

وتكوينه من آيات الاحكام والاتقان اموراً لا تُعْد ولا تُحصى ، فيختار منها (حاسة البصر) فيقول : (اذا نظرنا الى الحواس الحس وخصوصاً حاسة البصر) وجدنا اموراً تدهش السقول وتحير الالباب : فقد وضعت العين في جويف . وهي مؤلفة من ثلاثة طبقات ، وثلاث رطوبات ، مع ما يلزم لها من الرباطات والاوردة والشرايين والاغشية والمصلات . فالطبقات اولاها (الصلبة) وهي غشاء لدن متين ظليل ، لا ينفذ منه النور ، ولا يُرى ما وراءه ، يحيط بباقي الطبقات وجميع الرطوبات لرؤيتها وحفظها ؛ الا ان في مقدمته قطعة " شفافة " محدبة من الخارج مقعرة من الداخل ، تسمى (القرنية) ، وثانية الطبقات هي (المتشبّبة) وهي ناعمة سوداء اللون متوسطة بين الصلبة والشبكية . وثالثها هي (الشبكية) وهي مكونة من انساط العصبة البصرية ، التي تنشأ من الدماغ وتدخل العين من مؤخرها . اما الرطوبات فأولاها (المائية) وهي سائل صاف شفاف موضوع في غرفة وراء القرنية ؛ ويحدد هذه الغرفة من ورائها حجاب مثقوب الوسط يسمى (القزحية) لونها اسود او ازرق او اشهل او غير ذلك ، ويسمى الثقب الذي في وسطها (البؤر) . وثانية الرطوبات هي (البلورية) وهي جسم لدن املس شفاف كالعدس المحدبة من وجهاها ، وهي اكتف في الوسط منها في الجوانب ، وموضوعة وراء (القزحية) . وثالثة الرطوبات هي (الزجاجية) وهي جسم شفاف لزج كبياض البيض ، يشغل ما بقي من الخلاء وراء البلورية حتى تصل الى الشبكية .

ولما كان العامل برسم صور المرئيات في العين هو النور الواقع على المرئيات والمنعكس عنها ، وكان للنور نواميس وقوانين خاصة معلومة ، في انعكاسه وامتصاصه ونفوذه وتجمّعه وانتشاره ، يتعدّر معها الایصار ما لم تؤلّف العين وتجهز على وجه يتلائم مع تلك النواميس ، فقد قضت حكمـة الـخلقـ العـلـيمـ ، اـنـ تـؤـلـفـ العـيـنـ منـ تـلـكـ الطـبـقـاتـ وـالـرـطـوبـاتـ الـمـخـلـفـةـ . واـيـضـاـحـ ذـلـكـ : انه اذا وقع النور على المرئيات انعكس عنها ،

ودخلت خطوطه العين ، ورست على الشبكة صور المرئيات ، وهي تؤديها إلى الدماغ ؛ ولكن النور ينعكس عن المرئي تكون خطوطه مستقيمة ، ولو بقيت سائرة بدون تجمع لوصلت إلى الشبكة منتشرة متباعدة ، فترسم الصورة غير واضحة ، فدبرت الحكمة الالهية أنه في أول ما يدخل النور العين ، يلقي الفرقة ، وينفذ منها ؛ وهي ، تتحدب وجهها ، وتقرئ وجهها الداخل ، تجتمع خطوطه بعض البعض . ثم يتقدّم النور من الرطوبة المائية ، وهي لكتافتها تزيد في جمع خطوطه . ولكن لما كانت الشبكة التي ترسم عليها الصورة " مقمرة " ، فلو وصلت إليها جميع الخطوط التي تمر في المائية على هذا المقدار من التجمع لرست الصورة على وسطها وجانبيها ، فتكون حينئذ مشوّشة ، ولا سيما إذا كان النور قوياً ، فدبر الخالق الحكيم ذلك ، ووضع غشاء الفرجية خلف الرطوبة المائية ، وجعله متقوياً من وسطه ، وجعل قوسه وتصفيته تحت ارادة الناظر ، ليُدخل ما يحتاج إليه من النور ، فيوسعه إذا كان النور قليلاً ، ويضيقه إذا كان قوياً . ثم صبغ أطراف الفرجية بلون يمنع نفوذ النور ، ويفصله بالامتصاص ، حتى لا تتفقد الخطوط الواقعة على أطراف الفرجية حول البؤبؤ وتصل إلى أطراف الشبكة فتشوش الصورة . ثم بعد ذلك تتفقد خطوط النور الرطوبة البلورية ، التي هي محبة الوجهين ، فيزداد تجمعها ، ولا سيما في الوسط ، لأن وسط البلورية أكثـر من أطرافها . وجعل الحكيم الخير تلك البلورية تحت ارادة الناظر أيضاً يزيد في تحديـها أو ينقصـها ، لأن خطوط النور يزداد تجمعها كلما زاد تحدب الجسم النافذـة منه ، ويُنقصـها كلـما قـلل تحديـه . ثم تتفقد الخطوط في الرطوبة الزجاجية فزداد تجمعاً ، حتى يكون التجمع كافياً لرسم الصورة رسمـاً واضحاً . هذا في داخل العين وأما في خارجها فانـ الخالق جعل العين داخل الحاجـاج محفوظة ، من كل جانب ، الا الجهة التي يدخلـها النور ، وجعل الطبقة الأولى منها ، وهي الصلبة ، مع الفرقة ، لذـنة حتى تقوى على المصـادة بعضـ القوة ، وسـكتـها بالإـجـفـان لـوقـايـتها ، وـأثـبتـ علىـ أـطـرافـ الإـجـفـانـ شـعـراً مـلـونـاً ثـعـيناً لـذـناً مـنـصـباً ، معـ مـيلـ الأـعـلـىـ مـنـهـ إـلـىـ فـوقـ وـالـأـسـفـلـ إـلـىـ

تحت . أما تأمين الشر فليشرّب بعض النور الوارد على العين . وأما تخنه واتصايه فللقاوسة الأجسام الصغيرة الواردة على العين كالتراب والغبار ، وأما ميّله فليسهل افتراق المدىين عند قمع الاجفان ، فلو كانوا متوازيين أو متقابلين لتشابكاً وتلاصقاً بروبة العين ، ولو لوقفاً في طريق النور ، وانتقلت صورتها إلى الشبكية فشوشت صور المرئيات . ثم لما كان الغبار لا يندفع كله عن العين ، لا بالحجاج ولا بالاجفان والاهداب ، وهو مضر بالقرنية معطل لشفافيتها ، جعل الخالق الحكيم افراز الدمع دوامة بلاله ، وجعل الاجفان دائمة الحركة بالانطباق والانفتاح ، حتى لا يتقطع الابصار ويتشوش ، فينسل الدمع الغبار الذي يقع على المقلة . والاجفان ، بحر كثتها ، تصقلها وتزكي الدمع المخلوط بالغبار عنها ، وهذا الدمع الذي صار بالغبار قدرًا لا بد من خروجه عن المقلة ، فلم يتركه الخالق الحكيم يجري من الاجفان على المدىين ، بل دبر أمر جريانه إلى (المُوقِّ) ، ثم جعل هنالك ثقباً صغيراً نقيضاً فاذدوا إلى داخل الأنف ، يسمى القناة الدمعية ... فهل يعقل أن يكون كلُّ هذا الإبداع والاتقان والحكام في العين أثراً من آثار حركة أجزاء المادة العجيبة ؟

وبعد أن ينتهي الجسر من الكلام عن العين ويشير إلى غرائب الحركة والاتقان في بقية الحواس والأعضاء ، يقول : إن العلماء ، الذين يتعلمون على تفاصيل هذه المباحث وتنظرون لهم أسرارها و دقائقها وحكمها ، هم المجديون بان يكونوا من أقوى الناس إيماناً بوجوه الآلة الخالق الحكيم المدبر العليم ؛ بل لو قبل انهم مجديون بذلك أكثر من بعض علماء الكلام ، الذين يقيمون الأدلة الاجالية ، لكان حقاً .

حيران - لقد ذكر مولاي الشيخ أن الجسر رد على شبه الماديين ، فما هي هذه الشبه ، وما هو ردّه عليها ؟

الشيخ - يقول الجسر للماديين : أفي رأيت لكم شبّهات ثلاثة تحول دون اعتقادكم بوجود الله تعالى ، وبأنه خالق الكون من العدم . الأولى : عجز العقول عن تصور كُنته هذا الالله العظيم الذي ليس كمثله شيء . والثانية :

قولكم : ان عقولنا لا يمكن ان تتصور حصول شيء من لا شيء ، اي خلق المادة من العدم . والثالثة : قولكم : انه لو كان نظام الكائنات يقصد وحشكة وكانت علامات القصد والحكمة تامة في كل شيء ، ونحن نرى في العالم اشياء لا تتطبق على القصد والحكمة ببل تكون اشد انطباطاً على الضرورة .

اما الشبهة الاولى فالجواب عليها : انكم اذا نظرتم الى مخلوقكم في العلم وجدتم انكم ، وانتم اعاظم العلماء ، لا تراون على شاطئه بحر عظيم لا تُعرف نهايته ولا يُسرغوره . وطالما اعترف اكبركم بالعجز والتقصير في معرفة كثيرة من اسرار الكون وحقيقة المادة التي بين ايديكم ، تروناها باعينكم ، وتذوقونها باللسانكم ولتشمونها بالوفكم ، وتصرّفونها في طرق الحياة والعيش ، وانتم حق اليوم لم تعرفوا حقيقتها وكثتها . كما انكم لا تراون عاجزين ومقرئين بالعجز عن معرفة (حقيقة الحياة) وحقيقة العقل والادراك وغاية ما اوصلكم اليه التفكير انكم قلتم انها ظاهرة من ظواهر تفاعل اجزاء المادة . فاذا كان هذا شأنكم ، وانتم العلماء ، في معرفة اقرب الاشياء اليكم والصقها وامستها بكم ، فهل تطمعون ان تصلوا بقولكم الى معرفة حقيقة الله تعالى ...؟ وهل يرجو الانسان الذي لا يعرف المادة التي يلمسها ويأكلها ويشربها ويشتمها ، ان يعرف كنه ذات الله تعالى ...؟ وهل يرجو الانسان الذي لا يعرف كيف يعرف ، ولا يدرك كيف يدرك ، ولا يعقل كيف يعقل ، ان يدرك حقيقة الله تعالى ...؟ انكم لا تراون حق اليوم عاجزين عن معرفة الطريقة التي يتم بها الادراك ، والوسيلة التي يتم بها الاتصال بين المادة والمقل ، والكيفية التي يتلقى بها العقل الروحاني الاحساس بالشيء المادي فيدركه ، فهل تطمعون ان تعرفوا مكنه ذات الله تعالى ...؟ ويجملونكم على اشكاله قصور العقول عن قصوره على الصورة التي تعودتم ادراك الابسام المادية بها ...؟

ثم يقول الجسر للماديين ، نفس ما قال الفيلسوف الالماني لایبنتز :

(وإذا كانت عقولكم لا تتمكن من تصوّر هذا الإله ، فلا يلزم من ذلك عدم وجوده ، إذ إنّ كثيراً من الحقائق لم تتمكنوا من تصوّرها حق التصور ، وتكون في الحقيقة موجودة ، ويقوم الدليل العقلي على وجودها . والجزم منك بأنه لا يمكن وجود شيء منصف بتلك الصفات بريء من الجسمية والمادية قد نشأ معك من (قياس التمثيل) بما اطلعت عليه من الأشياء ، وهذا القياس ليس دليلاً قاطعاً ، بل هو دليل خادع يخدع العقول حق يجعلها تحكم على الشيء بأحكام غيره ، مع الفارق بينه وبين ذلك القبر . فعدم اقتداركم على تصوّر حقيقة الله ، لا يقييد استحالة وجوده ؛ وقياسكم إيه على ما شاهدتوه في العالم المادي ، هو قياس مخلوط لوجود فارق بينها . ويكتفي العقول أن تستدل على وجود الله وصفاته بأثره ، وكل ما في العالم من وجود ونظام واتزان وأحكام دلائل قاطعة على وجوده وعلى عالمه وقدرته وحكمته .)

واما الشبيه الثانية : وهي كلال العقول عن تصوّر خلق العالم من العدم ، فيقول الجسر في جوابها : ان عدم تصوّر حقيقة الامر لا يكون دليلاً على عدمه في نفسه ، وما ملئا هذا العجز عن تصوّر ايجاد شيء من لا شيء الا (قياس التمثيل) ؛ لأنكم لم تشاهدوا شيئاً خلق من لا شيء . ولكن عدم مشاهدة حدوث شيء من لا شيء ، لا يلزم منك ذلك محال . وقياس التمثيل ليس قطعياً الدلالة ، بل كثيراً ما يوقع في الغلط . ولا تُناس قدرة الله تعالى على قدرة البشر ، لأن الفرق بين القدرتين عظيم ، ونحن نقر بالعجز عن ادراك كيفية خلق سبعاخنه للعالم من لا شيء ، ولكن العجز عن تصوّر حقيقة الشيء الذي قام الدليل العقلي على وجوده لا ينافي الاعتقاد بوجوده .

واما الشبيه الثالثة : وهي قولكم انكم ترون في الكوت اشياء لا تطبق على القصد والملائكة ، بل هي اشد انطباقاً على الضرورة ، فالجواب عليها : اتنا نشاهد من امرار الله في مصنوعاته الحكم الباهرة ، ولم تزل تظهر لنا يوماً بعد يوم حكمة " بعد اخرى " بما كان شافياً علينا فهو رأ

طويلة ؛ فإذا شاهدنا شيئاً لم تظهر لنا فيه حكمة ، لم نعتقد أنه يوجد
 شيئاً ؛ بل نقول إن الآلة حكيم ، والدليل على كونه حكيمًا ما
 شاهدناه من آثار حكمته ، وما لا نزال نطلع عليه ، يوماً بعد يوم ، من
 دلائل هذه الحكمة التي بقي بعضها خافياً عنا أزماناً طويلة ثم ظهر لنا
 فلا بد إذاً أن يكون هذا الشيء ، الذي لم تظهر لنا حكمته ، مبيناً على
 حكمة خفيت عنا ، وقد تظهر لنا في يوم من الأيام ، كما ظهر سواها .
 وإذا تأملتم في قصور العقل البشري وعجزه عن ادراك كثير من الأمور
 المادية المشاهدة لنا ، وقارنتم بين هذا العجز وبين قدرة الله العظيم
 وحكمته ، لم تستقرروا اختفاء حكمة بعض الأشياء عن عقولنا ، ورأيتم أن
 الأولى قياس القليل النادر ، بما لم تظهر حكمته ، على الكثير المستفيض
 الذي لا يُعد ولا يُحصى من شواهد حِكْمَةِ الله الظاهرة في عشوائاته ، لا
 ان تخذلوا من هذا القليل النادر ، الذي خفيت حكمته ، دليلاً على انكار
 وجود الله الخالق .

ويضرب الجسر لذلك مثلاً رائعاً يقول : واتم اذا نظرتم الى الحيوانات
الصغيرة وجدتم انت لها من الادراك ما يكفيها لتأمين معيشتها ؛ ولكن
هل تنتظرون منها ان تدرك حقيقة الانسان ، وتصور تفاصيل اعضائه
وظائفها ، وكيفية سمعه وابصاره وشمّه وذوقه ولمسه وتقديره وعمل الدورة
الدموية في جسده ، وكيفية تفكيره ، واسرار اعماله ومصنوعاته وتأليله
وختراعاته ومتذكرةاته ، او ان تعلم كيف اخترعها وأوجدها ولماذا صنعها ...؟

والانسان اقل من تلك الحيوانات الصغيرة علماً وقدرة بالنسبة الى علم
الله وقدرته وحكمته ، بل ان الفرق بين العلمين والقدرتين والحكمتين
اعظم بكثير ؛ فعلى ما ذكرناه فهمنا وطلبتنا معرفة حقيقة
ذلك الآلة العظيم وكنه ذاته المقدسة ، ومعرفة كيفية خلق العالم ، ولماذا
خلقه ، وما الحكمة في كل شيء شاهدناه ، ان نعترف بعجز عقولنا
البشرية . ويكفيها معرفته ، والاقرار بوجوده وقدرته وحكمته ، ما دلتنا
عليه آثاره ، وما شاهدناه من انوار الحكمة في اكثر تلك الآثار ، لا ان

تتخذ من خفاء حكمه القليل التادر سبباً مبرراً لإنكار وجوده ونسبة ما لا يُعد ولا يُحصى من آثار الحكمة ولاتهان إلى عمل الضرورة العمياء .

حيران - إن رد الجسر على الشبه الثلاث ينطبق قام الانطباق على ما قاله لا يُبيّن عن إمكان الخلق من العدم ، وتطبّع العقل للعلة الكافية ، وعن آثار الحكمة في العالم ؛ فحدثني بالله يا مولاي عن رأي الجسر في مذهب النشوء والارتقاء .

الشيخ - إنني أعلم إنك بشوق عظي إلى سماع رأي الجسر في هذا المذهب ، ولا سيما بعد أن حدثتك عن تلك الحلة الشعواء التي اثيرت على مذهب داروين . نعم يا حيران ، في خالق تلك الحلة ، وفي صيم تلك المعركة وُجد في العالم كله عالم ديني واحد ، تجاهر أن يؤلف كتاباً يقول فيه : (إن مذهب داروين ، عند ثبوته لا يتناقض مع فكرة وجود الله الخالق الحق لكل شيء) . وإذا قيل إن أنه وجد في أوروبا ، في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، من ، جال اللاهوت ، من ، تجاهز على محاولة التقرير بين مذهب دارون والكتب المقدسة ، فاعلم أنه ، عند المقارنة التاريخية الصحيحة ، يظهر لك أن الجسر ، الذي وضع كتابه ولشره سنة ١٨٨٨ ، كان السابق لهم جميعاً في هذا الباب .

حيران - وكيف يمكنه التوفيق بين مذهب داروين ونصوص القرآن ؟

الشيخ - إن الجسر لا يرى أن مذهب النشوء والارتقاء ، وما جاء فيه عن أصل انواع الإنسان والحياة والعقل ، ينطوي على أمور بعيدة عن الحقيقة ، أو متعارضة مع أحكام الدين تعارضها قطعاً كما يحسب البعض . لأن الجسر يرى أن الأمر المهم المضروبي هو أن نعتقد بأن الله تعالى هو الخالق للعالم ، ولما فيه من انواع ؛ ويدرك هذا الاعتقاد لا فرق بين القول (بمذهب الخلق) أو القول (بمذهب النشوء والارتقاء) من مادة أصلية خلقتها الله تعالى ، ثم كون منها الانواع وفرعها بطريق النشوء والارتقاء ، وفق لراميس وضمها الله في هذا الكون .

ولكن الجسر يرى أن مذهب النشوء والارتقاء هذا ، لا يزال مذهباً

مختلفاً في صحته ، ولم تقم عليه الدلائل القاطعة ، التي من شأنها أن تحملنا على تأويل ظاهر النصوص المزلة ، وانه متى قامت الدلائل القاطعة على صحة هذا المذهب جاز القول به ، ووجب تأويل النصوص والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع .

ويهد الجسر لهذا الرأي السامي ، بقدمتين هامتين ، يبسط فيها رأيه في حُكْم التعارض بين النصوص الدينية ، وقضايا العلم اليقينية ، ووجه التوفيق بينها . وبعد التمهيد بهاتين المقدمتين ، يتناول مذهب التشوه والارقاء فيبسط رأيه فيه بكلام مسهب ، سألهذه لك لترى إن الدين الحق ، لا يضيق عن قبول حقائق العلم ، ولا يتعارض معها ، ولا يحتمد امامها ، كما يظن الجامدون والجاهلون .

فهي المقدمة الأولى يقول الجسر : إن النصوص التي يعتمد عليها في الاعتقاد والأعمال والاحكام ، في الشريعة الإسلامية ، تقسم إلى قسمين : (متواتر ومشهور) ؟ فالمتواتر ما ثبت قطعاً وروده ، لِمَا توفر فيه من الأسباب الموجبة للعلم اليقيني . والمشهور ما ثبت وروده ثبوتاً قريباً من القطعي ؛ لِمَا توفر فيه من الأسباب الموجبة لطمأنينة القلب ، وهي فوق الظن ودون اليقين . ثم إن كلاً من المتواتر والمشهور إما أن يدل على معنى لا يحتمل الدلالة على سواء ، فلا يقبل الصرف والتأويل إلى معنى آخر ، وهو ما نسميه (معين المعنى) وهذا القسم لا يوجد منه في الشريعة الحمدية ما ينافي الدليل العقلي القاطع مطلقاً . وإما أن يدل كلّ من المتواتر والمشهور على معنى ظاهر متبادر منه ، ويكون محتمل الدلالة على معنى آخر ، وإن كان بعيداً ، وهو ما نسميه (ظاهر المعنى) . وهذا القسم قد يوجد منه في الشريعة الحمدية ، ما ينافي معناه الظاهر الدليل العقلي القاطع . ثم إن حُكْم النص (المعين المعنى) أنه إن كان متواتراً أو مشهوراً يجب التصديق بمعناه المعين ، ولا يجوز تأويله وصرفه إلى معنى آخر ؛ إذ هو لا يحتمل التأويل ولا ينافي شيء منه الدليل العقلي القاطع حتى يتتاج لتأويله . وأما حكم النص (الظاهر المعنى) فهو أنه ، إن

كان متوازراً أو مشهوراً، يجب التصديق بمعناه المبادر، ولا يجوز تأويله إلا إذا قام دليل عقلي قاطع يدل على ما ينافي معناه المبادر منه، فحيثند يلُوْل ويُصرِف إلى معنى غير معناه المبادر، بحيث يصح التوفيق بينه وبين ما دل عليه الدليل العقلي القاطع. وأما جاز حيَّلْت تأويل النص (ظاهر المعنى) لأن الجمود على اعتقاد المعنى المبادر منه، ورفض ما يدل عليه الدليل العقلي القاطع، يقتضي هدم الأصل وهو (المقل) الذي ثبتت به رسالة الرسول المتكلم بتلك النصوص الشرعية، إذ لو لا القل، لما وصلنا إلى الاستدلال على صدق معناه الرسالة، فإذا هدم الأصل، هُرِمَ الفرع لا بحالٍ. فرفض الدلائل العقلية رجوعاً على الدلائل النقلية بالنقض. وهكذا الحكم في كل نص (ظاهر المعنى) تأويلاً الدليل العقلي القاطع.

واما اذا كان الدليل الذي قام على ما ينافي ظاهر المعنى دليلاً (غير قطعي) فـلا يسُوغ تأويل النص وصرفه إلى معنى آخر. ومن المعلوم ان الدليل القاطع هو الذي يدل على مدلوله دلالة يقينية لا تحتمل النقض. وأما الدليل العقلي الظني غير القاطع، فهو الذي يدل على مدلوله دلالة راجحة تحتمل النقض، ولو أحياناً بعيداً؛ ففي هذا الاحتمال ينزل عن درجة اليقين، ولا يجوز عنده تأويل المعنى الظاهر البُشّة.

هذه هي المقدمة الأولى، أما المقدمة الثانية فيقول المسير فيها: ان الشريعة الحمدية، بل وسائر الشرائع المزالة، إنما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى، واعتقاد وجوده، واتصافه بصفات الكمال، والتي كافية عبادته، وإلى الأحكام التي توصل العباد إلى انتظام المعاش وحسن المعاد. وأما تعريفهم بباحث العلوم الكونية، من كيفية خلق العالم، والتواميس القائمة فيه، وغير ذلك، فإنه ليس من مقاصد الشرائع؛ بل تلك معارف يتوصلون إليها بعقولهم؛ والشرع لا تلتقيت إليها، أولاً وبالذات، ولا تعني بتفاصيلها، وتكتفي بذكر شيء مجتمل من أمرها، على قدر ما يكون له دخل في مقاصدتها الأصلية؛ فتذكر مثلًا خلق

السموات والارض وابرازها من العدم ، وخلق الواقع المخلوقات ، وكيفية تدبیر الاکوان ، وما فيها من النظام ، على سبيل الاجمال ، ليكون ذكر ذلك دليلاً عقلياً للناس على وجود الله خالق قادر علم حكيم .
ويعد هاتين المقدمتين يشرع الجسر في بيان رأيه في مذهب النشوء والارقاء فيقول :

ان الذي ورد في الشريعة الحمدية من النصوص المتواترة او المشهورة بشأن خلق الاکوان ، وتتنوع الانواع ، اثما هي نصوص لم يلمسن فيها تفاصيل الخلق وكيفياته ؟ فقد ورد ان الله تعالى خلق السموات والارض وما بينها في ستة ايام . وورد انه تعالى استوى الى السماء وهي (دخان) فسواهن سبع سماوات . وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الايام الستة فاكثرهم قال انها حكايانا ، وقال بعضهم انها ايام الآخرة التي ورد عنها ان يومها كالف سنة من سنتنا . وقال بعضهم اليوم من تلك الايام الستة يطلق على خمسين الف سنة . وورد ايضاً في النصوص ان السموات والارض كانتا رئقاً فتقعها الله تعالى ؟ ففسر بعض المفسرين ذلك بان السموات والارض كانتا شيئاً واحداً ، ملتفقاً احداهما بالاخري ، ففصل الله تعالى بينها ، وفسره بعضهم بتفسير آخر . وقد فهم البعض من نصوص الشريعة ان الارض خلقت قبل السموات ولكنها غير مدحورة اي مبسوطة صالحة للسكنى . ثم استوى الله تعالى الى السماء ، وهي (دخان) ، خلقه الله تعالى قبل ذلك ، قسواها سبع سماوات ، ثم دحا الارض ؟ ومن قال بهذا تأوّل النص الذي ظاهره يخالفه . وفهم بعضهم ان السموات خلقت قبل الارض وتأوّل ما ظاهره يخالفه . اما تفصيل خلق السموات والارض وكيفيات تكوينها او تكون الشخص والكواكب والارض ، من السديم كما يقول الماديون ، او على طريقة اخرى ، فلم تنص الشريعة الحمدية على شيء منه ، ولم يرد في تصوّرها ما يثبته او ينفيه .

وإذا نظرنا الى التفاصيل التي تذكر وتها ، ايتها الماديون ، في خلق السموات والارض ، بعين الانصاف ، ظهر انها فروض وتخمينات ؟ فيجوز ان يكون

الله تعالى كونها على تلك الطريقة التي تقولون بها ، ويجوز ان يكون الحال بخلاف ذلك ؛ ولكن اذا ثبتت تلك الفروض ، بالدلائل القاطعة التي لا تحتمل التقيض ولا مجال للعقل في رفضها ، فإن المسلمين يقولون بها ، مع اعتقادهم ان الله تعالى هو الذي أوجد الشمس وكوئنها ، وفصل منها الكواكب والارض على الكيفية التي تذكرونها . والتوميس التي قلت بها تكونت عندهم اسبابا عادلة لا تأثير لها في نفسها ، المؤثر الحقيقي هو الله تعالى .

ومن الواضح ان لا شيء من النصوص المتقدمة ينافي القول بهذا التكون الذي تقولون به ؛ ويع يكن هذه ثبوت ما ذكرتم بالادلة العقلية القاطعة ان يقال : ان الله تعالى خلق اولاً مادة العالم شيئاً واحداً وقد سماه (دخان) ، وهو السديم المنشر في الاحماء ، ثم فتق السموات والارض ، اي ميز مادة السماء عن المادة التي يريد ان يكون منها الشمس والكواكب والارض ، ثم كون الشمس وفصل عنها الكواكب والارض ؛ لكن الارض كانت بعد فصلها غير مسحورة ؛ ثم قصد سبحانه الى السماء وهي دخان ، وهو السديم ، فسواماها سبع سموات ، ثم دحا الارض بعد ذلك ؛ وكل ذلك اجراء الله تعالى على نواميس مخصوصة ، وهي اسباب عادلة ، وفي ازمنة طويلة ، هي التي جعلها ستة ايام ... وفي هذا التقرير يكون ما ذكره الماديون في تكوين الشمس والكواكب والارض منطبقاً على ما ورد في نصوص الشريعة الحمدية ، ولكننا لا نلتزم القول بهذا الرأي ما لم تؤمّن عيننا الادلة القاطعة عليه . وما دامت الادلة ظنية لم نكن مضطرين الى الاخذ بها ، واكتفيتنا بالقول انه رأي محتمل الصحة . وما دام المدار في اعتقاد المسلمين في شأن عوالم الاكوان ان يعلموا ، علماً جازماً ، انها حادثة ، فلا بد لها من مصدر هو الله تعالى الذي اوجدها من العدم وتوّعها الى ازواجاها التي نشاهدها ، فلا فرق عندهم بين ان يعتقدوا ان الله تعالى اوجد اجزاء هذه العالم بطريق (الخلق) اي انه اوجد كل نوع منها ابتداء ، مستقلاً عن غيره ، ليس مشتقاً من سواه (سواء اوجبته دفعة واحدة

او يتكون متمثلاً) ، وبين ان يعتقدوا ان الله تعالى اوجد الواقع منه العوالم بطريق (النشوء) ، اي انه اوجد المادة البسيطة ثم رقتها الى هناصر ، ثم الى معادن ، ثم الى ابسط جسم هي ” (البروتوبلاسما) ” ، ثم الى ادنى النبات او الحيوان ، ثم فرع من ذلك بقية الانواع ، واشتق بعضها من بعض ، واختار ابقاء البعض وبادة البعض ، واجرى جميع ذلك على نواميس ، وضعها في المادة ، يتسبب عنها ذلك الارتكاء والتنوع ، الى ان بلغت تلك العوالم انواعها التي هي عليها الان . فكل من هذين الاعتقادين ، اي اعتقاد طريق (الخلق) واعتقاد طريق (النشوء) لا ينافي الاعتقاد بوجود الله تعالى وانه الخالق لهذه العوالم في كل حال .

ثم يقول الجسر : وخلاصة النصوص المقتدة في الاعتقاد التي وردت في الشريعة الحمديّة في شأن خلق عوالم الارض هي : ان الله تعالى جعل من الماء كل شيء حيٌّ ، وانه خلق كل دابة من ماء ، وانه خلق من الانعام ازواجاً ، وانه خلق الزوجات كلها ، وانه خلق الزوجين الذكر والاثني ، وانه جعل في الارض من كل الثمرات زوجين اثنين . فهذه النصوص يحتمل ان تفسر بحسب ذاتها على (مذهب الخلق) او (مذهب النشوء) ، والنستان الاولان منها يوافقان قول الماديين الحديث بان المادة الحية من الماء .

واما بقية النصوص فالمعنى الظاهر منها يدل على (طريق الخلق) . ولكن مع ذلك كله لم يره تصر يفيد ان كل نوع او جنسه الله تعالى قد اوجده دفعة واحدة او بتمثيل ، الا ما ورد في بعض النصوص الاحادية في حديث الامام مسلم (ان الله تعالى خلق الشجر في يوم كذا من الايام الستة ، ثم خلق الحيوانات) ؛ ولكن هذا النص لا يفيد الا ان الحيوان تأخر عن الشجر في الخلق ، وهو لا يفيد ان كل نوع منها كان ايجاده (دفميًّا) او بتمثيل .

فبناءً على ما تقدم من تلك النصوص ، وبحسب القاعدة المقدمة من ان الواجب في الشريعة الحمديّة ان يعتقد اتباعها المعاني المتعينة او المعانى الظاهرة من نصوصها المتواترة او المشهورة ، ما لم يعارض (المعانى الظاهرة)

دليلٌ عقليٌ قاطعٌ ، نعتقدُ ان الله خلق كل نوع مستقلاً ابتداءً ، ولم يخلقها بطريق (النشوء) ، وإن كان الله قادرًا على كلتا الصورتين . وأما إنَّ كلَّ نوع خلَقَه دفعةً واحدةً ، أو بتمهيلٍ وترقيٍّ ، بسببِ نواميس وضعها الله ، فهذا سببه عندنا (التوقف) ، إذ لم يأت في الشريعة ما يقيد القطع بأحد الأمرين . ولا يسوغ لنا أن تعمد عن اعتقاد الظاهر إلى خلافه من غير النشوء ، وانشقاق بعض الأنواع من بعض ، ما دام لم يتم دليل قاطع يضطررنا إلى تأويل تلك النصوص . وهي قامت الأدلة العقلية القاطعة على صحة مذهب النشوء وأصل الأنواع ، كان علينا أن نتوسل ظاهر تلك النصوص وتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع .

حيران - الحمد لله ثم الحمد لله . والله لقد اثجت صدري يا مولاي بهذه البيانات الرقيقة ، التي تدل على أن حكم الدين ، لا يمكن أن تصادم حقائق العلم التي يقوم عليها الدليل القاطع ، فارجو أن تم فضلك بذكر رأي الجسر في خلق الإنسان ، فهل يرى الجسر أن مَا قاله أصحاب النشوء عن تكوين الإنسان ، يمكن التوفيق مع ما ورد من النصوص في القرآن ؟

الشيخ - يقول الجسر للقاتلين بأن الإنسان حيوان من جنة الحيوانات ، حادث بطريق النشوء والارتفاع ، وللقاتلين ، بعدهم ، بأن الإنسان والقردة من أصل واحد :

لقد ورد في نصوص الشريعة الحمدية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق الإنسان : إن الله بدأ خلقه من طين ، ومن حمأٍ مستون ، ومن صلصال كالدخار ، وورد أنه خلقه من ماء . وقد قال بعض المفسرين أن التراب والماء أصلان للإنسان ؟ أي أنه خلق منها ، فتارة تذكر التصوص هذا ، وتارة تذكر ذلك . وورد أن الله خلق الإنسان بيديه ، وورد أنه خلق البشر من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء . وهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله خلق الإنسان نوعاً مستقلاً ، لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر ، وإن كان كلاً الأمرين من الجائز العقلي

الداخل تحت قدرة الله . نعم ليس في تلك النصوص صراحة " إن الله خلق
الانسان الاول من تراب (دفعة واحدة) او بتكوين متمثل على انفراده "
فسبيل هذا عندنا التوقف وعدم الجزم باحد الامرين ، وان كان قد يظهر من
بعض النصوص الاحادية ان تكون الانسان الاول وهو (آدم) كان متمثلاً ،
ومرت عليه مدة من الزمان ؛ ولكن ظواهر النصوص التي علبتها مدار
الاعتقاد تدل على الخلق المستقل . ولا يجوز تأويل هذه النصوص ، وصرفها
عن معناها الظاهر ، الا اذا قام الدليل العقلي القاطع على مذهب التشوه ؛
ووندما تقوم الدلائل المقلبة القاطعة على وجود الانسان بطريق التشوه ،
يمكن تأويل هذه النصوص ، والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل
القاطع ، ولا ينافي ذلك اعتقاد المسلمين في شيء ، ما دام الاصل عندهم ان
الله تعالى هو خالق الانسان في كل حال .

هكذا يبرهن الجسر على ان دين الاسلام لا يتصادم ، ولا يمكن ان
يتصادم مع العلم ، اذا تأيد هذا العلم بالدليل العقلي القاطع . ويصرح
بأنه لا فرق ، في نظر الدين ، بين انت يكون ايجاد الله للعالم بطريق
(الخلق الدفعي) او (الخلق المتمثّل) . او بطريق التشوه والارتفاع ؛
فالخلق ، على كل حال ، تم بارادة الله وقدرته وحكمته ، وليس احد
المذهبين بادل " على الله من الآخر .

هذا ما يقوله الجسر باحيران في مذهب التشوه والارتفاع ، وانت
ترى انه لم ينكّره ولم يقل باستحالته ، ولم يسد على العلم الباب ، باسم
الدين ، بل تركه مفتوحاً ، عندما اكّد القول مراراً ان مذهب التشوه
والارتفاع ، عند ثبوته ثبوتاً قطعياً ، لا ينافق الدين في شيء ، وبعiken
الأخذ به ، وتأويل النصوص الدالة بظواهرها على مذهب الخلق .

والي هذا السمو في التفكير اشار المستشرق (تشارلس آدمز) في كتابه
(الاسلام والتجدد) بقوله : (بينما كان المؤلف السنّي فيها محن من الزمان
لا يعبأ بالآراء العلمية ، وكان يرى ان يقاومها بجد السيف ، فان الشيخ حسين الجسر
لم ير هذا الرأي . واما ذهب الى انه قد انقضى الوقت الذي يستطيع

فيه المسلمون ان يُخفلوا ما يوجّه الى عقidiتهم ، فاخذ يدلّل على ان الانسانية المفهوم ، والخلق القويم ، والعقل السليم تجعلني ، بأسمى مظاهرها ، في عقائد الاسلام واحكامه ، وانبرى للرّاه على ما اثاره علماء الغرب من شبّهات كثيرة تقوم على اساس فلسفى او مادّي ؟ بل انه ليتعرّض لمذهب داروّن . ويرى ان هذا المذهب ، على تقدير صحته ، ليس من شأنه ان يتعارض مع القرآن)

حيوان - من هم علماء السنة الذين كانوا يرون ان قيام الازاء العلمية بحد السيف ؟

الشيخ - أنا لا اعرف احداً من علماء السنة كان يرى مقاومة الازاء العلمية بحد السيف ، ولكن الذي اعرفه ان الغزالي ، مثلاً ، الذي جاء قبل (برونو وغاليليو وكپلار) بسبعين سنة يقول في كتابه ثافت الفلسفة ، عندهما حمل على علماء الدين المنكرين للحقائق العلمية ، كالكسوف والخسوف وغيرها ، ما نصه بالحرف الواحد : (ومَنْ ظنَ أَنَّ الْمُنَاظِرَةَ ، فِي أَبْطَالِ هَذَا مِنَ الدِّينِ ، فَقَدْ جَنَّى عَلَى الدِّينِ وَضَعَفَ أَمْرَهُ ؛ فَإِنْ هَذِهِ الْأَمْرُوْرُ تَقْوِيمٌ عَلَيْهَا بِرَاهِينٍ هِنْدِسِيَّةٍ وَحَسَابِيَّةٍ لَا تَبْقَى مَعَهَا رِبْيَةٌ ؛ فَمَنْ يَطْلَعُ عَلَيْهَا وَيَتَحَلَّقُ إِذْلِتَهَا ، إِذَا قِيلَ لَهُ أَنَّ هَذَا عَلَى خَلَافِ الشَّرْعِ لَمْ يَسْتَرِبْ فِيهِ ؛ وَإِنَّمَا يَسْتَرِبُ فِي الشَّرْعِ . وَضَرَرُ الشَّرْعِ مَنْ يَنْصُرَهُ لَا بَطْرِيقَهُ ، أَكْثَرُ مِنْ ضَرَرِهِ مَنْ يَطْعَنُ فِيهِ ؛ وَهُوَ كَمَا قِيلَ « عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ »)

هذا ما قاله الغزالي ، ولم يلاق من اجله مقاومة بحد السيف ولا بغيره الناز ، بل كان موضع التعظيم والتقديس كما تعلم حق القبّوه بمحجة الاسلام .
حيوان - رحم الله الجسر فقد كان ، والله ، عظيماً في علمه ، وعقده ، وایاته ، وفهمه جوهر الدين ، وسو نظره في التوفيق بين العلم والایمان ، ولكن ما دام الجسر يرى ان مذهب النشوء والارتقاء ، عند ثبوته بالادلة القاطعة ، لا يتعارض مع القرآن ، وانه عند هذا الثبوت القاطع لا يقدح في الایمان ان نعتقد بان الله اوجد المادة البسيطة ، ثم رقتها وطورها وفق نواميس وضعها فيها ، حتى نشأت منها الحياة في الخليقة الاولى ، فائشي

اسأل مولاي الشيخ لماذا اذن وصف بالاخداد او لئك الذين قالوا بنشأة
الخلية الحية الاولى من الجماد ؟

الشيخ - انتبه يا حيران ، وراجع ما قلناه عنهم ، تجد انك نسيت
كلمة واحدة شوشت عليك فهيك لكلام الجسر ولكلامي ، اتفي لم اصفهم
بالاخداد لانهم قدروا وظنوا ان الخلية الحية الاولى نشأت من الجماد ؟ فهذا
امر يمكن وغير مستحيل ، ولكنني وصفتهم بالاخداد لانهم زعموا ان الخلية
الاولى نشأت من الجماد (بالتوليد الذاتي) .

حيران - وما الفرق بين القولين ؟

الشيخ - الفرق عظيم يا حيران . فانهم يريدون (بالتوليد الذاتي) ان
الخلية الحية الاولى نشأت من الجماد صادفة عند حصول توازن نسبي بين
مقادير مخصوصة من العناصر المادية ، لا بقدرة الله . والجسر يقول ان
نشأة الحياة من الجماد امر ممكن ، وقد تكون الحياة ظاهرة من ظواهر
المادة حدثت من الحركة ومن توازن نسبي بين مقادير مخصوصة من العناصر ،
ولكن كل ذلك حصل بخلق اله لا بالمصادفة المصادفة ؟ فتأمل الفرق بين
القولين . اي ان الجسر يقول ان الله هو خالق مادة الكون الاصلية من
العدم ، وهو خالق عناصرها المختلفة ، وهو وامب العناصر طبائعها ، وهو
معطي التراثات حركتها ، وهو العليم بـ " التوازن النسبي " الذي يمكن ان
قنشأ به الحياة ، وهو الذي كون ذلك التناسب ، وسبّب عنده الحياة ، كعادته
سبحانه ، في انتاج المسببات عن الامباب . اما الماديون الملمدون فينكرون
وجود الخالق اصلا ، وينكرون وجود الارادة في الخلق ، ويزعمون ان
العناصر تآلفت وغازجت على طريقة المصادفة فاحدثت الحياة ؟ فاعرف
هذا الفرق يا حيران واجعله نصب عينيك ، فإنه يكفيك ان تنكر
(الخلق بالمصادفة) لتتجدد نفسك في احضان الابان مها فرضت بعد
ذلك من الفروض في الخلق والتكون .

حيران - كيف ذلك يا مولاي ، زدني ايساحا .

الشيخ - سأعود الى البحث في بطارن الخلق بالمصادفة وابسطه لك

بسطًا واقتصرًا إذا آتى الأوائل .

حيران — وماذا يقول الجسر عن العقل والروح ؟

الشيخ — أما العقل فيقول الجسر فيه أنه من المغيبات التي لا سبيل إلى إيضاح حقيقتها ، وأن الشرع لم يأت بإيضاح لها . وعلى كل حال فلا يبعد أن يكون صحيحاً قول الماديين أن العقل ظاهرة من ظواهر تفاعل أجزاء المادة ؛ ولكننا نقول أنه تفاعل حصل بخلق الله تعالى ، لا بمحض حرارة المادة العبياء لذاتها . وكذلك قولهم أن عقل الإنسان لا يخالف عقول الحيوانات إلا بالكم . ولا يخالفها في الذات والحقيقة ، فإنه لا يصادم نصوص الشريعة الحمدية في الاعتقاد ، إذ لم يرد فيها ما ينافي ذلك أو يؤيده ، بل غاية ما ورد أن الإنسان " شخص " بالعقل عن سائر الحيوانات ، وبه كُلُّتُب بالشرع دونها ، وأما كونه مغایرًا لأدراكيها أم لا ، فلم يرد فيه نص ؛ فلا مانع أن يكون أدراك الحيوانات ، وعقل الإنسان ، هما من مقوله واحدة ، ولكنه قد زاد حتى بلغ في الإنسان درجة ممتازة عن سائر عقول الحيوانات .

أما الروح فيقول الجسر أنها موجودة ، ولكنه يعترف بعجز العقل عن أدراك حقيقتها .

وهذا التوقف من الجسر عن الخوض في حقائق الحياة والروح والعقل ، التي عجز عن أدراكيها كل الفلاسفة ، " برهان " على سمو تفكيره ، كما أن عدم الانكسار على القائلين أن الحياة ظاهرة من ظواهر تفاعل المادة بقدرة خالقها ، دليل على رسمة عقله ، وبعده عن الجمود وسمو نظره في فهم حقيقة الدين .

حيران — فهمت من كلام الجسر أنه يعتقد بتأثير الأسباب الطبيعية ، فما هو رأيه في قانون السبيبية الذي تكلم عنه الفلسفه ؟

الشيخ — لا يخرج رأي الجسر في الأسباب والسببيات عما ذكره الغزالى وعما أوضحته لك عند الكلام عن هيموم شيخ الشكتاك ، وفي ذلك يقول ، إن الله تعالى وإن يكن ربط السبيبات بالأسباب ، فهو الحال لألئتين :

فاقتنا لو نظرنا الى تلك الاشياء التي تنشأ عنها الآثار، وتأملنا في حقيقتها، لوجدنا انها ليست (مقتضية) لتلك الآثار، اذ لا شيء فيها يلزم العقلَ بأنها (مقتضية) لها . فالحرارة مثلاً تذيب الثلج والبرودة تجفف الماء ؟ ولكن اذا نظرنا الى حقيقتها لم يظهر للعقل وجده (افتضاء) هذين الاقريرين كا يظهر وجده (افتضاء) الجسم (لتحتاج) ؟ ووجده افتضاه عدم حلول الجسمين في حيز واحد ؟ هنا امران يرى العقل ضرورة تفصي الاعتقاد بها ، واما كون الحرارة تذيب الثلج والبرودة تجفف الماء ، فلا يجد العقل ضرورة تفصي بأن يكون اثر الحرارة الاذابة او اثر البرودة التجفيف ؟ اذ يقال ، عقلاً ، لمْ يكن الحال بالعكس ؟ فان قبيل ان الحرارة سبب الاذابة لأنها تضعف قوة الملائقة بين ذرات الجسم ، فلنا ولمْ يكن الامر بالعكس ؟ فلا بد اخيراً من القول ، ان اختصاص كل من الحرارة والبرودة بما خص به كان متخصص مخصوص اراد ان يكون الامر كذلك ؟ وهذا المخصوص ، الذي جعل في كل شيء متخصصة وطبعاً ، هو الله الفاعل المختار ،

حيران – هذا يكاد يكون نفس ما قاله ابن رشد .

الشيخ – نعم ، وانت ترى انت الجسر لا ينكر الاسباب والسببات ، والخواص والطبعات والتواتيس ، كما لم ينه . فربما احمد من علماء المسلمين وفلاسفهم . وكيف السبيل الى انكارها ، يا حيراً ؟ والاشيء ما كانت متباينة الا بخواصها وطبعاتها ، فاذا عدم الشيء خواصه وصفاته المميزة لم يعد هو هو ، بل عاد شيئاً آخر . وما دام العقل لا يرى ضرورة عقلية تفصي ان يكون الشيء خاصيته بهذه من ذاته ، فلا مجال لهذا العقل ان يرتاب في ان الله ، خالق الاشياء ، هو الذي منحها خواصها وطبعاتها ، وانه قادر على ملبيها . ولو كانت الشرائع الساوية تنكر الاسباب والسببات ببطل التكليف ، ولقدع الانسان عن السعي ، ولفتحت للناس باب العذر في ترك الاوامر واجتناب التواهي ؟ وهذا ابطال للشرع ، بل افساد العقل ، وتعطيل للإيمان الذي لا يكون الا بالعقل ؟ فمن ظن ان دين الاسلام يقول بذلك

فقد دلّ على جهله وقلة عقله ...

حيران - على ذكر النواميس وخرقها بالمعجزات أسأل مولاي الشيخ هل يمكن تفسير المعجزة على أساس النواميس الطبيعية كما يقول بعض العلماء؟

الشيخ - إن الأمور الغيبية التي ذكرها القرآن ، وذكرها الكتب السماوية نوعان : منها أمور نظتها خارقة للنواميس لأن سرّها غائب عننا خفيّ علينا ، وقد يصل العلم يوماً لكشف النواميس التي وقعت تلك الأمور على أساسها ، ومنها أمور خارقة للنواميس حقاً ، وقد اجرأها الله سبحانه ، وذكرها في الكتب المزورة ، ليتبين لنا قدرته على خرق النواميس التي أوجدها في الكون ؛ وهذه الطوارق هي التي يصح أن تسمى (معجزات) ، ويجب على المؤمن أن يصدق بها ، ويعتقد بأنها أمور خارقة للنواميس ، وأنه ليس بالأمكان أن يتوصل العلم يوماً إلى كشف ناموس طبيعي يفسر وقوعها . بل أرى أنه لا ينبغي لنا أن نحاول تفسيرها على أساس النواميس الطبيعية ، لأنها لو لم تكون خرقاً للناموس لم تسمَّ معجزة ؟ وإذا قلنا أنها حصلت على أساس ناموس طبيعي إبطلنا الحكمة من ذكرها . فالله تعالى ، إنما اجرى تلك المعجزة ، ليدللنا على أنه هو وحده الحالق للناموس - قادر على خرقه ؛ فإذا كان بإمكانه الإنسان أن يأتي بشغل تلك المعجزة ، بقوة ناموس طبيعي يكلشه ، لا تكون معجزة ، ولا يكون لذكر الله لها في باب المعجزات حكمة " ولا معنى .

لذلك أقول إن علماء الدين ، الذين حاولوا تفسير المعجزات الواردة في الكتب السماوية ، على أساس نواميس طبيعية علية ، كانوا على خطأ . ولا يتفهم قولهم : إننا نريد تقرير المعجزات من العقول ، كي نفوز بإيمان رجال العلم ؛ لأن هذا التقرير ، فضلاً عن كونه يستحيل علمياً في بعض المعجزات ، فإنه ، بذاته ، مستخرج لمعنى المعجزة ، وعكس حكتها ، وحكة ذكرها كما علمت .

وهذا يا حيران خطأ وقع فيه ، بخلاص ، كثيرون من علمائنا وعلماء النصارى ، ولا أزال أذكر أن بعض علمائنا حاول أن يفسر ما ورد في

سورة الفيل ، عن الطير التي قرمي اصحاب الفيل بمحاجة من سجّيل ،
 بأنما ميكروبات الجدرى ، اصابت اصحاب الفيل فايدتهم ، وحاول ان
 يفسر (الاسراء) ، وفلى البحر لموسى ، وخلق عيسى ، على اساس التواميس
 الطبيعية . ونحن وان كنا لا نستبعد ان يكون المقصود بالطير الابايل
 جرائم الجدرى ، لأن سورة الفيل لم يقصد بها ذكر معجزة خارقة
 للناموس ، بل هي وصف لما اصاب الأحباش من الهلاك بأمر الله ، فأنتا
 لا تجيز تفسير كل الآيات التي فيها ذكر المعجزات ، تفسيراً طبيعياً علمياً ،
 لأننا **تفهيم المعجزة** بهذه التفسير معناها ، وسرّها ، وقيمتها كما سبق القول ،
 ونقف بالشخص ، الذي يريد ان **ترضي عقله** ، عند معجزات يستحيل
 تفسيرها من طريق العلم ، فتجعله في ريب ، وترجع به القهري ، الى
 الانكار والشك ، من حيث لا ندري : فإذا استطعنا مثلاً تفسير الطير الابايل
 بيكروب الجدرى ، فهذا تفسير عصا موسى التي انقلب حية تسمى ؟ وان
 فسّرناها بالتنويم والاستهواه ، فهذا تفسير افلاق البحر لموسى بضررية عصاه ؟
 وان فسّرناه بالمدّ والجزر ، كما زعم بعضهم ، فهذا تفسير خلق عيسى من
 غير أب ؟ وان اخذنا بتفسير بعض السخفاء لهذا الحتمل بأنه من طريق
 (التلقيح الذاتي) الذي يمكن حصوله ، على زعمهم ، عند بعض الختائق ، فهذا
 تفسير تكلّم عيسى في المهد ?

احسبك ، يا حيران ، قد ادركت معنى قولي ان محاولة تفسير المعجزات
 على اساس التواميس الطبيعية ، هي محاولة فاشلة بذاتها وغايتها ، وفسدة
 لمعنى المعجزة ، ومؤدية لزيادة تشكيك الناس . فالاصل هو الاعان بالله خالق
 الكون ، وخلق الطيائع والتواتيس ، وبأنه سبحانه ، وهو خالقها ، قادر
 على خرقها ؛ وفي هذا سرّ المعجزة . ومن رسم ايمانه بالله هان عليه ان
 يؤمن بكل معجزة . اما اولئك الذين يزعمون ان المعجزة فوق العقل ،
 فانهم لا يفترقوت بين المستحيل (عادة) والمستحيل (عقل) . وخرق
 التواتيس ليس من المستحيلات العقلية ؟ وما دمنا نؤمن ان الله هو خالق
 الناموس ، فآهون شيء علينا ، ان نؤمن بأنه قادر على خرقه .

يقول حيران بن الأصف : وهذا موقف الشيخ عن الكلام بفترة وهو يتم : فاقتنا الصلاة ، لحسب ان الشّس قد طلعت او كادت . فنهضنا ، وبعد الصلاة ودعت الشيخ ، فعاد الى غرفته واغلق بابها وهو يقول لي : الى اللقاء في الليلة القادمة يا حيران فانها ليلة الامتحان ...

لَيْلَةُ الْمِنَافِعِ

يقول حيران بن الأصف : ودعت الشيخ الموزون ليلة أمس عجلاً
فلم أسأله عن معنى قوله (ليلة الامتحان) ، ثم أويت إلى فراشي ، وإنما
مشرح الصدر بما سمعته من كلام المسن رحمه الله ، ثم استسلمت إلى نوم
عميق ، لم أنهض منه إلا قبيل الظهر ؛ ففدت وإنما افتك في معنى (ليلة
الامتحان) ؛ فقلبت المعنى على وجوه مختلفة ، وخطرت على بالي أمور
كثيرة ، وترجح عندي أن الشيخ إنما يشير إلى شيء ورد ذكره في غضون
الليالي السابقة ، فأخذت أراجع ما أملأه على ، لعلني أجده كلمة تشير
إلى شيء يسمى (ليلة الامتحان) ؛ وأخير ما خطر ببالي أن الشيخ ربما
كان مراده أن يمتحنني في كل ما ألقاه إلى ، فبادرت إلى دفتر الأمالى ،
أراجع فيه ما كتبته من كلام الشيخ ، ولسيت أكلي وشربي ، فلم أررك
المطالعة حتى سمعت أذان المغرب ؛ ولما قضيت الصلاة الأخيرة ، ودخلت
على الشيخ ، نظر إلى طويلاً وقال وهو يضحك :

الشيخ - مالى أراك خاير القوى ، أخائف افت من الامتحان ؟

حيران - ومن الذي لا يخاف من الامتحان يا مولاي ؟ ولكن "ما بي ليس من الخوف وحده ، بل هو من الخوف والتعب والجوع .

الشيخ - الجلوع ...؟

حيران - نعم انه الجوع يا مولاي ، فاني حق المساعة لم اذق طعاماً.

الشيخ - كيف ذلك؟ أليس عندك ما تأكل، أم انت مريض؟

بحيران - لا هذا ولا ذاك ، ولكن سمعتك تقول : غداً ليلة الامتحان ،

فخطر بيالي انك تريد امتحاني في كل ماقيته الي" ، فتملكني الرجل من ساعة الرجل ، فمسكت على المراجعة ولم اجد متسما للأكل ، فاجتمع على" الخوف والتعب والجوع .

الشيخ - لقد حزرت ، و كنت حذراً . اني حقاً اريد ان امتحنك ، ولكن اتسببي سامتحنك كما يتحن جهال العلمين طلاب العلم ؟ ان هذه المباحث العليا ليست من نوع المفوظات ليسأل الطالب عنها كما يسأل عن قصيدة ، بل هي حوار عقلي خالص ، يجب للامتحان فيه ، ان يعطى الطالب كتابه ، ويسمح له براجعته ، عند الجواب على كل سؤال ، ومناقشة كل موضوع ، ومن هدا الحوار والمناقشة يستطيع الاستاذ اين بتلمس سير التفكير في ذهن الطالب ، والتنتيجة التي استقر عليها رأيه ، فضع دفترك بين يديك يا حيران ، ولا تخف . ولكن قبل ان نبدأ خذ قليلا من اللبن ولا تكل ، فان الذهن يتبدل من فرط الموجع ، كما يتبدل من فرط الشبع .

يقول حيران بن الاعضف : فقمت الى مأواي وشربت قليلا من اللبن ، وعدت الى حضرة الشيخ ، واحتدت دفتر الامالي وقلت للشيخ : اني بين يديك يا مولاي .

الشيخ - يا حieran ! تقول انى راجعت جميع الامالي ، التي امليتها عليك ؟ حيران - نعم يا مولاي لقد راجعتها ، ولكن مراجعة العجلان الوجل .

الشيخ - لا يأس لا يأس ، اهنا الان بين يديك . فما غاب عن بالك عذر اليه ، واقرأه على مهل .

حيران - شكرأ يا مولاي شكرأ .

الشيخ - سؤال واحد يا حيران . هل ادركت ما هو الغرض الذي سكنت ارمي اليه ، في كل ما قررته لك ، وما هي الغاية العظمى التي اريد ان اصل بك اليها ؟

حيران - نعم ادركت يا مولاي ان الغرض الذي سكنت ترمي اليه ، هو ان تثبت لي ، ان نتاج الفلسفة الصحيح ، الذي اتهى اليه اصحاب الفلسفة ، وتلاقوا عليه ، لا يتنافي ابداً مع الدين الحق ، في اثبات وجود الله ، بل يؤيد هذا الاثبات بالنظر العقلي الخالص ، الذي تلاقى فيه عقول الاكابر ، من رجال الدين ، مع عقول الاكابر من الفلاسفة ، على

ادلة واحدة ؛ لتخذل من فرط اجلاله لؤلام الفلسفه ، وسيلة لأيصالى الى اليمان بالله من طريق الادلة والبراهين ، التي اعتمدوها بالنظر المقللي الحالص ، بعيد عن كل ميل مع الدين ، بعد ان رأيت انني منصرف عن هذه الادلة والبراهين نفسها اذا سمعتها من افواه رجال الدين ؟ وللقرني ان الدين الحق لا يتصادم ولا يتنافي مع حقائق العلم ، التي قام على صحتها البرهان العقلي القاطع ، لأن الدين الحق ، يجعل للعقل الكلمة الفاصلة العليا ، في معرفة الحق ؟ وهذه هي الغاية العظمى التي اردت ان تصلب بي اليها .

الشيخ - وهل بلغت بك هذه الغاية يا حيران ؟

حيران - نعم يا مولاي .

الشيخ - بكلام اي "الفلسفه كنت اشد [اعجابا] ، وباي " طرق الاستدلال كنت اشد اقتناعا ؟

حيران - بكلام الجميع يا مولاي : فقد استهانى ما في كلام الكثرة الاكابر ، من صفاء التفكير ، وصدق الحجة ، ونشرى ما في كلام القلة الاصاغر ، من غموض ، وضعف ، وركاكة ؛ سواء في ذلك الذين أسفوا في المسفسطة ، او علوا في التشكيك ؛ ولدي تلاقي عقول الفحول ، من كل الملل والتعلل ، على ان الحق واحد ، وان تعدد طرق الدليل عليه ؟ ووقفتني المقارنة والموازنة ، بين اقوال الفريقين ، عند مشارف الفرقان ، واوصلنى هديك الكريم ، يا مولاي ، والحمد لله ، الى اعتاب اليمان .

الشيخ - أهو ايمان الایحاء ، لم ايمان الدليل ؟

حيران - أ يريد مولاي ايمان بما أوحى الي الرسل ؟ اني والله لم اكن يوما غير مؤمن بالله وكتبه ورسله .

الشيخ - اعرف اعنف . هذا ايمان الوجдан ، وایمان الفطرة ، وایمان الارث عن البيت الذي تحدرت منه ، بل ارث الاجيال ؟ وما اصدقاء ايمانا ومسا احلاه ؟ اذا لم يعكره التفاسيف الابتئر ، ولم تُسرّره المظوظ العوار .

حيران - اذا ، ماذا يريد الشيخ بایمان الایحاء ؟

الشيخ - اسئلتك هل ايمانك الذي وصلت اليه اليوم ، بعد سماع كلام الفلسفة ، هو ايمان الایحاء النفسي المتبثث من ذلك الأجلال ، الذي كنت تُشكّته لمعظمه الفلسفة ، من قبيل ان تستبطن اقوالهم ، وتعرف ايمانهم ، او هو ايمان الدليل والبرهان الذي اصبحت تدرسه وتتعلمه بنفسك ... ؟

حيوان - انه ايمان الثقة والاجلال ، وایمان الدليل والبرهان معاً . فقد اتيت لي ، بما رأيته من التلاقي على الحق ، في امر الایمان بوجود الله ، بين اكابر الفلسفه ، واكابر علماء الدين ، فيما عرقته في كلام الجسر ، من وجوب تحكيم العقل ، في التوفيق بين العلم والمدين ، والمعقول والمنقول ، عند قيام الدليل العقلي القاطع ، ان ارجع الى علماء الدين ، بتلك الثقة التي كان ينادي عليها فرط لجلالي للفلسفة والعلم ، ويصرفي عنها ، احياناً ، جهود بعض العلامة ، الذين وصفتهم الفرزالي والجسر بأنهم اضروا على الدين من اعدائهم . واقتيح لي ان اقتبّع طرق الاستدلال على وجود الله كلها ، فرأيتها ، على اختلافها في الصعوبة والسهولة ، مؤدية الى الایمان بالله .

الشيخ - اريد ان اسمع تقرير الدليل من فنك ، لارى اين تقع هذه الصعوبة عندك ؟ فاجعلني التلميذ الحيران ، وكن انت الشيخ الموزون .

حيوان - في (دليل الحدوث) الذي اخذ به اكابر الفلسفه والعلماء ، ارى تفكيري يسير في الاستدلال سيراً مطرداً ، في طريق واضح المحجة ، تتداءم به الادلة وتساند ، ويأخذ بعضها برقباب بعض ، وقد هب صدماً في سراح البداهة العقلية . فيقول لي عقلي :

العالم مركب بمجموعه واجزائه ، وكل مركب حادث " بداهة " . والعالم ، بما فيه ، متغير ثغيراً مستمراً من صورة الى صورة ؛ وكل متغير من صورة الى صورة ، لا يمكن ان تكون له صورة اصلية ازلية قديمة ، لأنها لو كانت كذلك ، لما بجاز ان يطرأ عليها التغيير .

والقول بتسلسل الصور الى غير نهاية ، غير صحيح ، لأن التسلسل مستحيل عقلاً .

فلا بدّ، اذاً، ان نقف عند حدّي، ونقول ان هذا المفترس لم تكن له في اول امره صورة.

وإذا لم تكن له صورة، لا يكون له وجود، لأن الصورة تشمل الشكل والحجم والوزن واللون والطعم والرائحة، وهي فقدان الشيء هذه الصور كلها، فقدان وجوده.

فالعالم المتغير ، اذا ، لم يكن موجوداً ، ثم وجد .

فالعالم، اذا، حادث.

والعقل ، بقوة قانون العلية البدعي ، يحكم بداعمة بأن كل حادث لا بد له من سبب يحتمله .

وهذا السبب المحدث ، لا يجوز ان يكون حادثا ، لانه يفتقر الى سبب محدث .

ولا يجوز القول بتسلسل الأسباب إلى غير نهاية ، لأن التسلسل ممتنع عقلاً .

فلا بد أن يكون المحدث الصانع للعالم قدّيماً، وهو الله تعالى، الذي خلق العالم وأحدثه بعد المدّ المطلق.

الشغف - محرر، ماحزان، محب

حیران — وفي دليل الوجوب الذي قال به الفارابي و ابن سينا و ديكارت
ولوك ولایتنز وغيرهم اقول :

المعلم يحكم ، بدهاهة ، بان معنى الوجود ، يتعدد بين ثلاثة احوال :
 (الامكان ، والاستحالة ، والوجوب) ؛ فكل شيء اما ان يكون ممكنا
 الوجود ، واما ان يكون مستحيلاً الوجود ، واما ان يكون واجباً الوجود .

والعقل يحكم ، بان هذا العالم من نوع (المسكن) .
والمكان لا بد له من مرجع ، يرجح وجوده على عدمه ، ويخرجه
من الامكان الى الوجود الفعل :

وهذا الموجّد، لا يجوز ان يكون ممكناً الوجود، لانه يصبح مفتقرًا الى موجّد، ويؤدي الامر الى التسلسل، وهو مستحيل عقلاً.
فلا بدّ، اذًا، ان يكون هذا الموجّد (واحد الوجود).

وهذا الموجيـد الواجبُ الـوـجـود لا يجوز ان يكون من ذات المـكـن ، لـانـه لو كان من ذاته لا يـصـبـح المـكـن واجـب الـوـجـود ، وـهـذـا تـنـاقـض مـسـتـحـيل عـقـلا ، لـانـه يـجـمـع بـيـن طـرـفـي التـقـيـض وـهـما (الـامـكـان وـالـوـجـوب) ، وـلـانـه ايـضا يـؤـدي إـلـى الدـور ، فـيـجـعـل السـبـب عـلـة لـلـسـبـب ، وـيـجـعـل السـبـب عـلـة لـلـسـبـب ، وـالـدـور مـسـتـحـيل عـقـلا . فـهـذـا العـالـم المـكـن ، اذـن ، مـفـقـرـا إـلـى مـوـجيـد قـائـم بـذـاتـه ، وـاجـب الـوـجـود بـذـاتـه ؛ وـهـذـا المـوجـد الـوـاجـب الـوـجـود هو الله تعالى .

وـعـلـى تـعـبـير دـيكـارـتـ القرـيبـ التـنـاـول : اـنـي مـوـجـود فـي اوـجـدـي وـمـن خـلـقـي ؟ اـنـي لـم اـخـلـق نـفـسي ؟ فـلـا بـدـيـ من خـالـق ؟ وـهـذـا الخـالـق لـا بـدـ ان يـكـون وـاجـب الـوـجـود وـهـو الله بـأـرـيـه كلـشيـء .

وـعـلـى تـعـبـير باـسـكـالـ : اـنـه كـانـ يـكـنـ ان لـا اـكـون لـوـ كـانـ اـتـيـ ماـقـتـ قبلـ ان اـولـدـ حـيـاءـ ، فـلـستـ اـذـنـ كـائـنـ وـاجـب الـوـجـود ، فـلـا بـدـ من كـانـ وـاجـب الـوـجـود يـعـتمـد عـلـيـه وجودـي وـهـو الله .

الـشـيـخـ وـعـلـى تـعـبـيرـ الـقـرـآنـ : (اـم خـلـقـوا مـنْ غـيـرـ شـيـء اـم هـمـ الـخـالـقـونـ ؟) .

حـيـرانـ وـفـي دـلـيلـ (العـلـةـ الـكـافـيـةـ) عـلـى اـسـاسـ (مـيـداـ التـنـاقـضـ) ، الـذـي اـنـتـبهـ اليـهـ لـاـيـبـرـ :

الـعـقـلـ يـحـكـمـ انـ كـلـ ماـ تـنـصـورـهـ لـاـ بـدـ انـ يـكـونـ : اـمـاـ مـكـنـاـ ، وـاماـ مـسـتـحـيلـاـ ، وـاماـ وـاجـباـ . وـهـذـا العـالـمـ الـوـاقـعـ منـ نوعـ (المـكـنـ) .

وـكـلـ وـاقـعـ منـ نوعـ المـكـنـ ، لـاـ بـدـ لهـ منـ (عـلـةـ كـافـيـةـ) لـوقـوعـهـ وـوـجـودـهـ .

وـهـذـا العـالـمـ الـمـوـجـودـ لـيـسـ هوـ الـذـيـ اوـجـدـ نـفـسـهـ ، لـانـ القـوـلـ بـاـنـهـ اوـجـدـ نـفـسـهـ يـوـجـبـ تـنـاقـضاـ عـقـليـاـ كـاـ سـبـقـ القـوـلـ .

فـلـاـ بـدـ هـذـا العـالـمـ الـوـاقـعـ المـكـنـ ، اـذـاـ ، مـنـ عـلـةـ كـافـيـةـ لـوـجـودـهـ ، لـانـهـ بـدـونـ عـلـةـ كـافـيـةـ لـاـ يـكـونـ مـوـجـودـاـ ، وـالـحـالـ اـنـهـ وـاقـعـ وـمـوـجـودـ .

وـلـاـ بـدـ انـ تـكـونـ (العـلـةـ الـكـافـيـةـ) لـوـجـودـهـ ، لـهـ مـنـتهـيـ الـعـلـمـ وـالـقـدرـةـ وـالـحـكـمةـ وـكـلـ صـفـاتـ الـكـمالـ ، لـانـهاـ لـوـ لمـ تـكـنـ كـامـلـةـ الصـفـاتـ لـمـ تـكـنـ

(كافية) . وهذه العلة الكافية هي الله .

هذه كلها يا مولاي بديهيات عقلية يأخذ بعضها برقباب بعض . ولأنَّ هذه البدئيات يزاحها في الذهن ، عند آخر مراحل التفكير ، ارتباكاً وكلاًً عند تصور النهاية التي ليس وراءها اي شيء ، واللأنها التي لا تقف عند حدٍ ، والازلية التي ليس لها بداية ، والزمن الذي ليس قبله زمان ، والمكان الذي ليس وراءه اي شيء ، والعدم المطلق . ولكن كل هذا الكلال لا يزعجني ولا يؤذيني ، بقدر ما يزعجني ويؤذيني كلاماً عقلياً وعجزه عن تصور الخلق من العدم .

الشيخ - انك معنور ، يا حيران ، فيما تشعر به من كلام العقل عن تصور هذه الامور كلها ، فانك لست اعظم عقلاً من الفزالي وابن طفيلي وابن رشد وكانتط وسبنسر ، الذين اعترفوا بوقوع العقل ، احياناً ، في هذا الكلال . ولكنك لست معنوراً ابداً في ان تقف امام هذا الكلال في تصور الخلق من العدم ، جاماً مشدوماً ، عاجزاً عن ان تبرهن لنفسك ، بالادلة العقلية القاطعة ، على ان هذا الكلال وهم من الاوهام ... أليست كثيرة هي الاوهام التي تعمري عقولنا ، ثم ندحضها ونكذبها بالبرهان العقلي القاطع ؟ أصنف إلَيْكَ يا حيران .

حيران - كلامي آذان يا مولاي .

الشيخ - هذا العالم الواقع المشاهد ، هل هو من قسم (الممكن) أم من قسم (الواجب) ؟

حيران - لا ريب في انه من قسم الممكن ، لاننا نستطيع تصور عدم وجود العالم .

الشيخ - أهو الذي اوجد نفسه ؟

حيران - كلام لأن هذا التصور يوجب تناقضًا عقلياً ، لأنَّه يصبح (واجب الوجود) والحال انه (ممكن) .

الشيخ - لا بد له اذاً من (علة كافية) لوقوعه ووجوده .

حيران - هذا بديهي .

الشيخ - العالم ، اذا ، قبل ان تحدثه العلة الكافية ، لم يكن موجوداً .

حيران - لا ريب في ذلك .

الشيخ - لا بد ، اذا ، من تصور العدم سابقًا لحدوث العالم .

حيران - لا ريب في ذلك .

الشيخ - هل تصور ايجاده بعد العدم ، يوجب تناقضًا عقليًا ؟ فأمل يا حيران .

حيران - كلا . بل ان التناقض العقلي ، انا يكون اذا تصورنا عدم

سبق العدم لوجود الماء .

الشيخ - الاجماد من العدم ، اذا ، غير مستحيل عقلاً وان كان مجده
مستحيلًا عادةً ولستبعده ونعجز عن تصوره ، كما قال لابن تizer .

حيران - حقاً انه غير مستحيل عقلاً ... ولكنني ، يا مولاي ، لا ازال
اعجز عن تصوره ، على الرغم من اني ، من طريق البرهان العقلي القاطع ،
اصبحت ، والله ، على يقين ، من انه غير مستحيل عقلاً . بل المستحيل
عدم سبق العدم لوجود هذا العالم (الممكن) . فكيف اصنع بهذا العجز ؟
الشيخ - وما قيمة هذا العجز امام البرهان القاطع ؟ وانا مثلك يكمل
عقلی عن تصور الخلق من العدم ، ولكنني على يقين بأن هذا الكلام هو
وهم سخيف مضحك ، يدلّ الجود امامه على خبل في العقل .

حيران - كيف ؟

الشيخ - ألا تؤمن بالحقائق الرياضية وتجد اليقين في فتايجها الصحيحة ؟

حيران - كيف لا ؟

الشيخ - ألسنت تعرف كثيراً من الحقائق الرياضية ، التي تستند الى
اواليات بديهية عقلية ، تكون في اول الامر خافية عليك ، ولا تظهر لك
الا بالتأمل والاستنتاج والبرهنة ؟

حيران - هذا صحيح ، ولكنني بعد التأمل والبرهنة استطيع تصورها .

الشيخ - ما قولك اذا ذكرت لك قضايا حسابية بسيطة جداً ،
يقوم عليها البرهان العقلي القاطع ، ومع ذلك يكمل عقلك عن تصورها ،
حق بعد الحساب ؟

حيران - مثلاً؟

الشيخ - انتبه يا حيران . ان عقولنا ، في مجال الاعداد الكبيرة ، تكمل عن تصور حفائط واضحة ، لا تحتاج الا لتأمل قليل ، وحساب بسيط من نوع الجمجم ، ويكون كلما غرباً جداً ، حتى تارى في النتيجة ، ولو اخبرها بها اصدق الناس واعلمهم ، وتبقى عاجزة عن (تصوّر) النتيجة ، ولو توصلت اليها بنفسها . ألا تعرف (أنجذبة الورقة المقطعة) ؟
حيران - كلا يا مولاي .

الشيخ - لو اعطيت ورقة رقيقة بالفة الوفة ، سكّها جزء من $\frac{1}{100}$ جزء من الميليمتر ، وطلب منك ان تقطعها نصفين ، ثم تقطع النصفين ثانية ليصبحا اربعين ، ثم تقطع الاربعة ليصبح ثانية ، وهكذا الى ان تكرر القطع والتضييف (٤٨) مرة . ثم سُلّت ، قبل ان تبدأ في القطع وقبل ان تخسب ، كم تتوقع ان تصبح حماكة هذه الاوراق الرقيقة بعد قطعها (٤٨) مرة ؟ لم تقل ، منها بانفت في التقدير ، ان سكّها يزيد على متراً واحد او مترين او ثلاثة . فاذا قيل لك انك اذا كررت القطع الى المرة الثامنة والاربعين ، ثم جعلت الاوراق المقطعة ركاماً مرصوصاً صاعداً في السماء فانه يمس ، او يَنْدَدْ يلمس ، الفعر ، الذي يبعد عن الارض ٣٨٤ الف كيلو متراً ، نقرة ، وحسبت القائل يسخر منك ... وبعد ان تتحقق ذلك بالحساب الدقيق ، لو اردت تصوّره ، تجد هكذا كليلاً عاجزاً عن تصوّره ... خذ ملئك يا حieran واحسب .

يقول حيران بن الاضعف : وانخدت قلي وبدأت في الحساب والجمع . وقضيت فيه اكثر من ساعة ، والشيخ يضحك ... ، ولما انتهيت تتحقق عندي ، بالحساب البسيط ، ان الاوراق المقطعة ، اذا رُكت تکاد ، فعلاً ، ان تصل الى الفعر ، فقللت للشيخ :

حيران - حقاً يا مولاي ان سكّها يقرب من $\frac{1}{384}$ الف كيلو متراً ...
وحقاً انها تکاد تلامس الفعر ... والله ان هذا لغريب عجيب ...

الشيخ - والآن اسئلتك : هل تستطيع (تصوّر) هذه النتيجة ، بعد ان صنعتها بيديك ، ام لا تزال تشعر بـكلاـل عقلي عن تصورها ؟

حيران - والله اني لا ازال اشعر بـكلاـل عقلي عن تصورها ...

الشيخ - هل ادركتَ وصدقتَ الان يا حيران ، ان عقولنا نكلَّ احياناً عن تصور حقائق كثيرة ، يقوم البرهان العقلي على صحتها .

حieran - نعم صدقتُ ، ولكن كيف ذلك ؟

الشيخ - ذلك لأن عقولنا خلقت عاجزة عن تصور كثير من الاشياء ، ولكتها تستطيع ان تحكم بوجودها من طريق (البرهان العقلي القاطع) . (فالتصوّر) يا حيران غير (التعقل) . فقد تستطيع تعقل شيء ولا تستطيع ان تصوّره . لأن التعقل يعتمد على بديهيّات اولية يأخذ العقل في ترتيبها وتركيبها ، واستنباط بعضها من بعض ، وبناء بعضها على بعض ، فيصلُ الى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع تصوره . هل فهمتَ الان ؟

حيران - نعم فهمت .

الشيخ - والعلم الحديث ، اليوم ، يكفرُ هذه الحقيقة ، التي ذكرتها لك عن الفرق بين امكان تصور الشيء وامكان تعقله . فلا يبالي بعجز العقل عن التصور ، ويعتمد على التعقل وحده ، لأن الحقائق العلمية أصبحت ، في مجالاتها ، وكيفياتها ، واعدادها ، فسوق (التصور) . ولكنهم يحسبونها ويعرفونها ويحكمون عليها من طريق التعقل .

خذ لك مثلاً امواج النور . أتحسب ان العلماء ، الذين حسّبوا ان الامواج التي تحدث اللون البنفسجي تكون بسرعة / ٦٠ / الف موجة في البوصة ، يستطيعون تصور هذه السرعة لو اغمضوا عيونهم وارهقوا خيالهم ؟ كلا ، لأن هذا العدد الهائل ، في هذه المساحة الضئيلة ، يعجز العقل عن (تصوره) ، ولكن لا يعجز عن (تعلقه) اي عن الحكم بصحته من طريق العقل .

وقد تصل الاعداد ، في الابحاث الذرية الحديثة ، الى مرتبة هائلة يكون عجز العقل عن تصورها اظهر لك ، يا حيران . خذ مثلاً : ان

العلماء يحسبون لك ان سرعة ذبذبات الصوت قد تصل الى (نصف مليون) ذبذبة في الثانية . وهذا ثابت عندم تبوقاً عقلياً فاطماً لا ريب فيه . ولكن ابراهيم يستطيعون تصور حصول هذا العدد الهائل من الذبذبات ضمن ثانية ..؟ ، جرب انت . هل تستطيع ان تتصور ، منها اجهدت خيالك ، حصول الف ذبذبة في الثانية ، فضلاً عن مئة الف ، فضلاً عن نصف مليون ذبذبة في الثانية ؟ ولكن هذا الشيء الذي تعجز انت والعلماء عن (تصوره) هو امر واقع لا ريب فيه . فبأي شيء عرفوه ؟ أنهم عرفوه ، من طريق التعلق ، بالحساب .

هل فهست الان يا حيران كيف ان التصور غير التعلق ، وان العبرة للقدرة العقل على التعلق ولا عبرة لعجزه عن التصور ؟

حيران - نعم فهمت ، وفهمت يجاهه ووضوح .

الشيخ - هل فهست الان معنى قول العلماء وال فلاسفة ان الخلق من العدم ممكن تعلقه ، ولو كان العقل يستبعد او يكل " او يعجز عن تصوره ؟ حيران - حقاً (ان الفلسفة مجرد خلاف البحور ، يهدى راكبه المطر والزيف في سواحله وشطائه ، والأمان والأيان في مجده واعاقه) ، كما يقول مولاي . وحقاً انها ، كما يقول (باكون) : القليل منها يبعد عن الله اما الكثير منها فيرة الى الله .

الشيخ - والآن جاء دور القرآن يا حيران . تأولني هذا المصحف من الخزانة . وادهب الى فراشك . فان لدى " علا آخر ، اقدمه الى ربتي ، يغير الفلسفة ...

ڪلماڻ ربیع

يقول حيران بن الضعف : خرجت من غرفة الشيخ ، بعد ان ناولته المصحف ، واوتدت الى فراشي ، فلم اجد الى النوم سبيلاً ، لأنني ما تعودت ان انام في هذه الساعة . ولم اجد الى المطالعة سبيلاً لأن المصباح لا يزال عند الشيخ . فاختلت انتقام . وبعد لاي اغفيت أغفامه خفيفة صحوات منها على صوت سعال الشيخ ... فرأيت انه لا يزال ساهراً ... ثم استغرقت في النوم الى ان صحوات على الحارم العجوز يقرع الباب ، ولما نهضت من فراشي ، لأفتح له ، وجدت المصباح في غرفة الشيخ لا يزال منيراً ... ولما أذن المؤذن بصلوة الصبح ، وخرج الشيخ الى وضوئه ساله عن سهره فقال : اني لم انته من التلاوة الا الساعة ...

قلت : ان السهر يا مولاي يضديك .

قال : كل هذا من اجلك يا حيران .

قلت : من اجلي اذا ؟

فتبسم ومر الى وضوئه ثم صلينا الصبح ، وانطلق بعد الصلة الى غرفته وهو يقول : لن اخرج اليوم الى الغياض .. اني بحاجة الى النوم ... وقضيت نهاري كله بين الغياض اراجع ما املأه على "الشيخ ليلة امس ..." واعيد الجع والحساب في (اخجية الورقة المقطعة) ... فوجئتها يقينية . فآمنت بأن عقولنا تكل ، احياناً ، عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها .. وعرفت انه لا يجوز لنا ان نخمند امام هذا الكلام العقلي ، بل علينا ان نأخذ بالبرهان القاطع الذي قام لدينا ، ونؤمن بان ذلك الكلام وهم ، والوهم لا يقاوم البرهان . وتذكرت ما قاله الفرازى في هذا الباب ، فراجعته وادركت ، الان ، معنى قوله : (انه لم يجد لنفسه

علاجاً من الشك وآهامه إلا (بالدليل) . والدليل لا يكون إلا من تركيب الأوليات والضروريات التي لا يصل العقل إلى اليقين إلا بها .) .

ثم قلت ، ياويل نفسي . كيف كنت ادرك كل هذا ، وكيف كنت أتعلم اطراح الوهم عند قيام البرهان القاطع ، لو لم يُقيِّض الله لي هذا الرجل المرشد الصبور ؟

ثم قلت ياويل الناس من هذه الشكوك ، التي لا يخلص منها أحد ، كما قال الشيخ ، أتiram يستطيعون أن يتوقفوا على مثل هذه الدراسة الطويلة ... ؟ إن الله لا يُكلّف نفساً إلا وسعها ... فكيف يدفعون هذه الشكوك عن إيمانهم ... ؟

ولما كان المساء دخلت على الشيخ ، فرأيته يكتب ، في دفتر كبير ، بعض آيات القرآن . قالني السلام وآدويت على يديه أقبلها ، فتبسم وقال : الشيخ - مالك تقبل يدي بلا دليل ... أأراك تُودعني ... ؟ أتحسب إنك انتهيت من الدرس ، فاردت ان ورجع إلى بلدك ؟ كلا يا حيران فشوطلك ، في الدرس ، لا يزال بعيد المدى .

حيران - لم يخطر بيالي ان افارقك ، يا مولاي . ولو ذهبت لزيارة ابي لمعدت البشك ؟ فقد انقطعت عن العلم في جامعة (بشاور) ، ولا أجد والله خيراً منك لوصل ما انقطع . وما قبلت يديك لأنني أحبك ان اناجييك بنجوى ثقيلة ، فاردت ان اقام بين يديك نجواي صدقة ...

الشيخ - قل ما تريده ، فلا اجد منك شيئاً ثقيلاً .

حيران - لقد فكرت ملياناً فيما عُحشقته لي ليلة أمس من الحق ، فكيف يا مولاي كنت ادرك كل هذا ، وكيف كنت أتعلم اطراح الوهم عند قيام البرهان العقلي القاطع ، لو لم يُقيِّض الله لي هادياً مرشدًا مخلصاً ، صبوراً ، واسع الصدر مثلك يا مولاي الكريم ؟

الشيخ - الهداء المرشدون كثيرون يا حيران ، وعنهما أخذنا . وليس على طالب المدى إلا ان يُسْعَم النظر ، ويطيل التأمل ، ويسأل أهل الذكر ... حيران - وهل يباح لكل الناس ، ان يتركوا مشاغل الحياة ، واسباب

الرزوقي ، ليتفرغوا للنظر العميق ، والبحث الطويل ، والاستدلال المرهق العسير ، وهل يكفي الله نفساً إلا نوسعها ؟

الشيخ - هذا حق يا حيران ، وهذا الذي كنت أريد أن أصل به إليه ، وادركه عليه ، وانصحك به ، بعد أن بلقت ما أردته من ارشادك إلى صحة البراهين النظرية المركبة وصدقها ؛ بل انصح به كل إنسان من الذين لا يُتاح لهم أن يتفرغوا للنظر والبحث والتأمل ... ألم ترأسي قضيت الليل كله أقرأ القرآن من أجلك .

حيران - بماذا تصاحني يا مولاي .

الشيخ - أني انصحك ، وانصح نفسى ، بل كل إنسان بما نصائح به ابن رشد : وهو أن تلحدأ ، في ثبات وجود الله ، إلى البراهين البدوية ، السهلة ، البسيطة ، الواضحة ، التي يدركها العقل ، بدون أن يحتاج إلى الغوص في بحث الاستدلال والجدل ، ومن غير أن يغريه ارتباك ، أو كلام ، أو عجز ، أو وهم ؛ وهي البراهين التي أكثر من ذكرها القرآن ، واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى ؛ لأنها يستوي في ادراكها الباحث الساذج والعالم الفيلسوف . أمّا الساذج ، فيدركها بحالاً لبساطتها ووضوحها وبساطتها ، وأما العالم فيدركها تفصيلاً ، ويعلم أن هذه البداهة في أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف ، بمجموعها حكماً عقلياً يكون انكاره بمنابع الانكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران - هذا والله عجيب وعظيم . فقد سبق لمولاي الشيخ أن نوه بما في القرآن من اعجاز ، في باب التدليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لي أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنني لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكماً عقلياً ، يعدّ انكاره بمنابع الانكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ - كم مرة رأت القرآن يا حيران ؟

حيران - أظن أنني قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ - ألا تذكر قول أبيك لك في الرؤيا «ألا تقرأ القرآن ؟» .

حیران — اذکره ولا انساه.

الشيخ - هل خطر على الملك أن تُشم النظر في قوله تعالى
(إِنَّمَا يَخْتَصُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) ، لدركه أنه سبعاً ،
حضر المثلية في العلماء ، وأنه أراد بهم العلمين باسرار الوجود واسرار
الخلق ، كما قال ابن رشد والجبيسي ؟

سيران - لقد سألت عن هذا فقيل لي أن المقصود بالآية (علماء الدين) .

حيران - لا ريب في انت المراد بالآية هم العلماء المطلعون على اسرار
الخلق وقوانينه .

الشيخ - فالفهم الكامل ، لما جاء في القرآن من البراهين الدالة على
وجود الله وقدرته وحكمته ، يقتضي الى ثلاثة امور : جمع هذه الآيات
كلها في صعيد واحد ، حق تكون في متناول البصر وال بصيرة عند
المقارنة ، فلا يتشتت الفكر للبحث عنها في خضم القرآن . ورغبة صادقة
في درء هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لامتنابط ما فيها من
البراهين ، وما فيها من الردود على المتكرين . وانطلاق من قبود الت椿ب
الأعمى لأي رأي ديني او فلسفى .

حيران - اني سمعت من بعض العلماء ، ان القرآن لم يترك شيئاً من
العلوم الا وأشار اليه .

الشيخ - كلا يا حيران كلا ، وهو لاء الدين يقولون ذلك ليسوا يعلمه
ولا عقلا ولا ذكرا ؛ فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية . ولا من
مقاصده ارشاد الناس ، الى العلوم الكونية ، من باب التعليم . ولكن ما
ورد فيه من الآيات ، التي تشير الى حقائق كونية كشفها العلم ، اثنا ورد
بقصد التلبية الى ما في خلق العالم من آثار الارادة ، والقدرة ، والعلم ،
والحكمة ، والاتزان ، الدالة على وجود الله ، النافية للتكون
بالصادقة ؛ ولم يقصد به تغير العلوم الكونية ؛ لأن القرآن خطاب للبشر
بلغة البشر ؛ والله أحكم من ان يخاطب الناس بأمور لا يعرفون اسمها ،
فضلا عن اسرارها ؛ ولكنه اشار الى دلائل وجوده ، وقدرته «وارادته» ،
وعلمه ، وحكمته ، بيان عجيب يفهمه ، على ظاهره ، البدوي الساجف في
القرن السابع ، ويفهم اسراره وجل العلم في القرن العشرين . وفي هذا
يتجلّى اعجاز القرآن ، لا في بلاغته وحدها ، كما سبق القول . فاعجاز
البلاغة والفصاحة اما يدركه العرب ؟ والقرآن خطاب للناس كافته . والى
هذا الضرب من الاعجاز اشار العلم الحكيم يقوله : (ستُرِّيهِمْ آياتِنَا في
الآفاقِ وَيَرَوْنَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) . وقد ار لهم ،

سبحانه ، بعد عصور وعصور ، آياته في آفاق السموات والأرض ، وفي أنفسهم ، كما وعدَّم ، فتبين لهم أنه الحق ، وألْهوا في ذلك المظللات ، في بلاد الغرب . ولكتنا ، من المسلمين ، الذين كان لنا السبق والفضل في كشف كثير من تلك الآيات ، من طريق العلم ، فصرنا في ارثة أولئك العلما ، أن هذا القرآن قدّم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته ، منذ الفي واربعمائة سنة ...

وخلاصة القول ، يا حيران ، إن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين :

دعوه إلى الله ، وارشاده إلى دلائل وجوده ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، ورادته ، وعنباته ، ورحمته ، وجميع صفات كماله — ووعده ووعيده للتغيب في طاعته والتحذير من معصيته — وتوكيده ل يوم البعث والدين — وأحكام في العبادات والمعاملات — وحكمه عليه في الحياة — وحضوره على مكارم الأخلاق — وفُضْلَت يَمْتَأْتِبُ إلى هذه الأقسام الستة ، ولكن "أم" هذه الأقسام ، وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ؛ لأن الأيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه . ولذلك ترى ، وانت تتصلح القرآن ، ان الآيات الدالة على الله ، لا تكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها ، أحياناً ، في السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضمف : وهذا نارني الشيخ الدفتر الذي كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ - هذا هو الدفتر الذي جمعت لك به ، على ترتيب النزول ، أكثر آيات القرآن التي أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، الباريء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها سبحانه من الأشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والأحكام والافتتاح والتقدير والائزان ، في خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجموم ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار ، والآفنة ، وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين

ولواميس . فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق . حيران - لماذا اختصار مولاي إبراد الآيات على ورثيـب التزول ، ولم يوردها على ورثيـب السور ؟

الشيخ - لاتي اردت لك لدت تصور نفسك من اهل المعر المذى
نزل به القرآن ، لنرى كيف قوالي الوحي ، وكتاب المهدى ، في خطاب
الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فان ذلك يجعل نلاوة هذه الآيات
ابلغ اوراً في نفسك ، وايسر في تفهم اسلوب المهدى الكريم ، الذي
اتفع القرآن .

يقول حيران : ثم دفع اليه الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعني .
فقرأت الآيات الآتية :

﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إِقْرَأْ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمَ . الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنْ . عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . ﴾
«سورة العنكبوت»

*سبع أسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدي . والذي أخرج المرغنى . فجعله غناه أحوالى . «سورة الأعلى»

٤٣ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ . (سورة الإخلاص) «

﴿ قُلَّ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدْرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرْهُ . ﴾ سورة عَبْسٍ «

﴿ فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا لَمَاءَ صَبَبَأْ . ثُمَّ شَقَقْنَا أَرْضَ شَقَّاً . فَأَنْبَثْنَا فِيهَا حَبَّاً . وَعَنْبَأْ وَقْصَبَأْ . وَزَيْشُونَ وَمَخْلَدَةَ وَحَدَائِقَ غُلْبَأْ . وَفَاكِهَةَ وَأَبَأْ . » (سورة عبس)

﴿ وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا . وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّهَاءَ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . » (سورة الشمس)

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . » (سورة التين)

﴿ أَيْخُوبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُنْزَلَكَ سُدَّيْ . أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنْيٍ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّيَ . فَجَعَلَ مِنْهُ زَوْجَيْنِ الْذُكْرَ وَالْأُنْثَى . » (سورة القيامة)

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفَاً . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفَاً . وَالنَّاثِرَاتِ نَثْرَاً . فَالْفَارِقاتِ فَرْقَاً . فَالْمُلْقَيْتَاتِ ذِكْرَاً . عُذْرَاً أَوْ نُذْرَاً . » (سورة المرسلات)

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاكُمْ فِي قَرَارٍ مَكْيَنٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَيَعْمَلُ الْقَادِرُونَ . وَيُنْلِيْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَافًا . أَحْيَاهُ وَأَمْوَاتًا . وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَابِيْسَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتَاً . وَيُنْلِيْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . » (سورة المرسلات)

* أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا هُنَّ
مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدَنَاهَا وَالْقِبَّةَ فِيهَا رَوَابِيٌّ وَأَنْبَتَنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ تَهْيَّجٍ . تَبصِّرَةً وَذُكْرَى لِكُلِّ عَنْدِهِ مُنِيبٌ .
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَا مَبَاوِكَا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْخَصْبِ .
وَالشَّجَلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَصِيدُ . رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَهْبَطْنَا بِهِ بَلْدَةً
مَيْتَانًا كَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ . «سورة ق»

* أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَّتَيْنِ . وَهَدَيْتَاهُ التَّجَدَّدَيْنِ . «سورة الْبَدْر»

* إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ . «سورة الْقَمر»

* إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي الظَّلَلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ وَالشَّمْسَ
وَالقَمَرَ وَالنَّجْوَمَ مُسْتَحْرِاتٍ بِإِمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمَيْنَ . «سورة الْأَعْرَاف»

* وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الْوِلَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ
سَحَابًا تَفَالًا سُقْنَاهُ لِلْأَيْمَمَيْتِ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . «سورة الْأَعْرَاف»

* أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
مِنْ شَيْءٍ . «سورة الْأَعْرَاف»

• هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِتُسْكُنَ إِلَيْهَا . «سورة الاعراف»

• أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . «سورة الاعراف»

• وَإِلَهُهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَآخْرَجْنَا مِنْهَا حَيَاةً فِيهَا
يَا كُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَانٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنْ
الْعَيْنَينِ . يَا كُلُوا مِنْ قَرْبِهِ وَمَا عَمِلْنَا أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا إِنَّمَا تُنْبَتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَإِنَّمَا لَا يَعْلَمُونَ . وَإِلَهُهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظَاهِرُونَ .
وَالشَّمْسُ تَغْرِي يُلْسِتَرُ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالقَمَرُ
قَدْرَنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا
أَنْ تُذْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَاقِي النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكِ يَسْتَخُونَ .
«سورة بِسْ»

• أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ إِنَّمَا عَيْلَتْ أَيْدِينَا انْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَا لِكُونَ . وَذَلِكُنَا لَهُمْ فِيهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَا كُلُونَ . وَلَهُمْ
فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . «سورة بِسْ»

• أَوْ لَمْ يَرَ إِلَهَانْسَانٌ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .
وَضَرَبَ لَهَا مَثَلًا وَتَبَيَّنَ خَلْقُهُ قَالَ مَنْ يُحْكِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَسِيمٌ .
قُلْ يُحْكِيَهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ فَارَا إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ . أَوْ لَكُنْسَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِيرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ تَلَى وَهُوَ
الْخَلَقُ الْعَلِيمُ . « سورة يس »

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقُدْرَةٍ تَهْدِيرًا . « سورة الفرقان »

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَ الظُّلُمَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ
جَعَلَنَا الشَّمْسَ عَلَيْنَا دَلِيلًا . ثُمَّ قَبضَنَا إِلَيْنَا تَبْصِرًا . وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الظَّلَلَ لِيَابَاسًا وَالنُّومَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ شُسُورًا .
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ أَكْرِيَاحَ بُشَرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَنِي وَأَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً طَهُورًا . لِتُخْيِي بِهِ بَلْدَةَ مَيَّتَةَ وَسُقِيَ بِمَا خَلَقْنَا آنَعَامًا وَأَنَاسِي
كَثِيرًا . وَلَقَدْ صَرَفْنَا يَتَّهِمُ لِيَدُكُّرُوا فَأَنِّي أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا . « سورة الفرقان »

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَّجَ الْبَغْرَتِينِ هَذَا عَذْبُ فُراتٍ وَهَذَا مَلْحُ أَجَاجٍ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحَجَرًا مَحْجُورًا . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ
بَشَرًا فَجَعَلَهُ كَسِبًا وَصَهْرًا وَكَانَ رَبِّكَ قَدِيرًا . « سورة الفرقان »

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَاجًا وَفَرَا
مُنِيَّا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الظَّلَلَ وَالنَّهَارَ يَخْلُقَهُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ
أَوْ أَرَادَ شُكُورًا . « سورة الفرقان »

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ
اللَّهِ يَوْزُفُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّيُّ تُوْفِكُونَ .
﴾ (سورة فاطر)

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّبَابَ فَتَشَبَّهُ سَحَابًا فَسَقَنَاهُ إِلَى بَلْدَيْ مَيْتَوْ
فَأَخْبَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْأَنْشُورُ . «سورة فاطر»

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضْعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنَقْصُ
مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . وَمَا يَسْتَوِي
الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَاعِنْ شَرَابٌ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ
نَّاسٍ كُونَ لَهُمَا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلْكَ فِيهِ
مَوَاحِدَ رِتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يُولَجُ اللَّيلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولَجُ النَّهَارَ فِي الظَّلَلِ وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَخْرِي لِأَجْلِ
مُسَئِّي ذِلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا
يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) . «سورة فاطر»

﴿ أَلمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ فَرَاتٌ مُخْتَلِفًا
أَوْ أَنَّهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ يَضْعُ وَخْرٌ مُخْتَلِفٌ أَوْ أَنَّهَا وَغَرَّا يَدْبُ سُودٌ .
وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابَّ وَالآنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَوْ أَنَّهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى
اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . «سورة فاطر»

* إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِنْ تَرْوَلَا وَلَئِنْ رَأَتَا إِنْ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيقًا غَفُورًا . «سورة فاطر»

* أَوْلَا يَذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَاهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا .
«سورة مرثيم»

* قَالَ قَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ فَتَا بَالُ الْأَرْوَاحُ الْأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي
فِي كِتَابٍ لَا يَضْلِلُ رَبِّي وَلَا يَتَسْوِي . الَّذِي سَجَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ تَهْدَى
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاهِ فَأَخْرَجْتَنَا بِهِ ازْواجًا
مِنْ نَبَاتٍ شَقِيقًا . كُلُّوا وَأَرْعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِي
النُّفُقِ . «سورة طه»

* تَنْحَنُ خَلَقْتَاهُمْ فَلَوْلَا تُحَصِّدُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُنْهَنُونَ . إِنَّمَا
تَخْلُقُونَهُ أَمْ تَنْحَنُ الْحَالِقُونَ . «سورة الراقيمة»

* أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرِبُونَ . إِنَّمَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْمَرْأَةِ أَمْ
تَنْحَنُ الْمَنْزِلُونَ . لَوْلَا شَاءَ تَجْعَلُتَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . إِنَّمَا أَنْشَأْنَا شَجَرَتَهَا أَمْ تَنْحَنُ الْمُنْهَيُونَ . تَنْحَنُ
جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْرِبِينَ . فَسَبِّحْ بِإِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .
* فَلَا أَقِيمُ بِهِ مَوَاقِعَ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسْمٌ لَوْلَا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ .
«سورة الراقيمة»

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كُمْ أَنْبَثْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذُوْجٍ كَيْمِيرٌ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .﴾ «سورة الشراة»

﴿ أَمْ نَخْلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ
فَأَنْبَثْنَا بِهِ حَدَارِقَ ذَاتَ يَنْجِحَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِثُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ
مَعَ اللَّهِ إِلَّا هُمْ قَوْمٌ يَعْدُلُونَ . أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَادًا وَجَعَلَ
بَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَابِيَّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَعْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَهٌ
مَعَ اللَّهِ إِلَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .﴾ «سورة النمل»

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَكَيْتَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .﴾ «سورة النمل»

﴿ وَرَأَيْتَ الْجِنَانَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَغْرِي مِنَ السَّخَابِ صُنْعَ اللَّهِ
الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .﴾ «سورة النمل»

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ «سورة العنكبوت»

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيُكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيُكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ . «سورة الفصل»

* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَخَوْنَا آيَةَ الْلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
النَّهَارِ مُبَصِّرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَسْنَينَ
وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَنَاهُ تَفْضِيلًا . «سورة الاسراء»

* رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْزِحِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
كَانَ إِلَيْكُمْ رَحِيمًا . «سورة الاسراء»

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ
الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقَنَا تَفْضِيلًا . «سورة الاسراء»

* وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ الرُّوحُ مِنْ أُمْرِ رَبِّي وَمَا أُوْفِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . «سورة الاسراء»

* هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدْرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَسْنَينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي أَخْتِلَافِ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَعْلَمُ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ . «سورة يونس»

* قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنٌ يَنْلِكُ أَسْفَلَعَ

* والأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيَّ
وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ أَكْلَنِ أَفَلَا شَفَوْنَ . فَذَلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَإِذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الْعَذَابُ فَإِنَّى نُضَرُّوْنَ . «سورة يوں»

* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ يَنْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ
يَنْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنِّي تُوَفِّكُمْ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ
يَهُدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهُدِي إِلَى الْحَقِّ أَفَنْ يَهُدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ
يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهُدِي إِلَّا أَنْ يَهُدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . وَمَا
يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا يَفْعَلُونَ . «سورة يوں»

* هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبَشِّرًا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . «سورة يوں»

* قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَأَنْذِرُوا عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . «سورة يوں»

* وَلَئِنْ أَذْنَانَا إِلَيْنَا رَحْمَةٌ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَوْمٌ
كَفُورٌ . «سورة هود»

* وَكَانُوا مِنْ آتِيَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ . «سورة يوں»

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيًّا وَأَنْبَثْنَا فِيهَا مِنْ كُلٌّ
شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايشَ وَمَنْ لَسْمَ لَهُ بِرَازِقَنَ .
وَاتَّمْنَتْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا يَهْدِرُ مَعْلُومٍ .
وَأَرْسَلْنَا الْرِّيحَ لَوَاقِعَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُلُّهُ وَمَا أَنْتُمْ
لَهُ بِخَازِنِينَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمْتِي وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ » سورة الْجِنْزِ »

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَّا مَسْنُونٍ . » سورة الْجِنْزِ »

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَتَّهِمُ إِلَّا بِالْحَقِّ » سورة الْجِنْزِ »

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ
قَضَى أَجَلًا وَأَجْلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْرُدُونَ . » سورة الْأَنْعَامِ »

﴿ وَمَا يَنْدَعُ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطْرِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أَمْمُ
أَمْثَالُكُمْ » سورة الْأَنْعَامِ »

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ
مِنَ الْمُوْقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا
أَفَلَ قَالَ لَا أَبْرِئُ الْأَفْلَئِنَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي
فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُونَ مِنَ الْقَوْمِ الصَّالِيْنَ . فَلَمَّا

رَأَى الشَّمْسَ بِإِذْنِهِ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّهِ الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ خَلِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . «سورة الانعام»

* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْمَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي تُوَفِّكُونَ . فَالِقُ الْإِصْبَارِ وَجَعَلَ
الدِّلْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُبْسَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ قَدْ
فَصَّلَّى الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
فَسَقَرَ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلَّى الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَنْهَا فَأَخْرَجَنَا بِهِ بَنَاتٍ كُلُّ شَيْءٍ فَأَخْرَجَنَا مِثْنَةً
خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ تَجْبًا مُتَرَاكِيًّا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالْزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشَتَّبِهَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهَ أَنْظَرُوا
إِلَيْنَا إِذَا أَمْرَرْ وَيَنْعِي إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .
«سورة الانعام»

* ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَارَ وَهُوَ أَلْطَيفُ الْخَيْرِ . «سورة الانعام»

* وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ

وَالْزَرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالْأَذْيَشُونَ وَالرِّمَانَ مُتَشَايِهًَا وَغَيْرَ مُتَشَايِهٍ كُلُوا
مِنْ مُتَرِّدٍ إِذَا أَنْتُمْ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حِصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ . وَمِنَ الْأَنْعَامِ تَحْوِلَةً وَفَرْنَشًا كُلُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ اللَّهُ وَلَا
تَشْيِعُوا نُخُلُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . « سورة الانعام »

* فَإِنْ سَفَرْتُمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ
لَازِبٍ . « سورة الصافات »

* خَالَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوُهُنَا وَالْأَنْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَابِيَ
أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَائِيَةٍ وَأَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَا
فَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرْوَيْنِي مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . « سورة لقمان »

* أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبِإِطْهَرَةٍ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَاهِدُ فِي
اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ . « سورة لقمان »

* وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمِدُهُ مِنْ بَعْدِهِ
سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدتُّ كَلِمَاتٍ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . « سورة لقمان »

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الظَّلَلِ

وَسُخْرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي إِلَى أَجْلٍ مُسْمَى وَإِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ تَحْبِبُ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُوَيْهِ
الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي
الْبَحْرِ بِنَعْمَةِ اللَّهِ لَيْرَيْكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ . « سُورَةُ لَقَابَانَ »

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْوِلَ إِلَيْكَ مِنْ دِبْكٍ هُوَ الْحَقُّ
وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْغَيْرِ الْمُجِيدِ . » سُورَةُ سَبَا ﴾

﴿ تَحْلِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى الظَّلَلِ وَسُخْرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي إِلَى أَجْلٍ مُسْمَى إِلَّا
هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ . تَحْلِقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَنَانِيَةً أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلَاثٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
لَهُ الْحُكْمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي نُصْرَفُونَ . » سُورَةُ الرَّحْمَنَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ بِتَابِعَ فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ
حَطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِي الْأَلْبَابِ . » سُورَةُ الرَّحْمَنَ ﴾

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدٌ

السماءاتِ والأرضِ والذينَ كفروا بآياتِ اللهِ أولئك هُمُ الظاهرونَ
قُلْ أَفَعَيْرَ اللَّهُ تَأْمُرُنِي أَعْبُدُ أَيْمَانًا الْجَاهِلُونَ . «سورة الزمر»

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَهُمْ
يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ . » سورة المؤمن أو غافر ﴾

﴿ أَللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ
اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .
ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلٍّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّمَا تُوْفَكُونَ .
كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَأْتِيَاتِ اللَّهِ بِيَحْمَدُونَ . اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَقَبَارِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . » سورة المؤمن ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَدَكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ
يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذِي
يُحْيِي وَمُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . » سورة المؤمن ﴾

﴿ أَللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَعْمَامَ لِتَرْكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكِلُونَ .
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَاجِمٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفَلْكِ تَحْمَلُونَ . وَمِنْكُمْ أَيُّهُمْ فَأَيُّهُمْ كَيْمَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ . » سورة المؤمن ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوهُ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ .
﴾ «سورة فصلت»

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوْ أَنَّمَا يَكْفُرُ بِرُبِّكُمْ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . » «سورة فصلت»

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ
الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَثِيرٌ مَّا هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ . » «سورة الشورى»

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَاءٍ ...
﴾ «سورة الشورى»

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجِنُّوَارُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ يَشَاءُ يُسْكِنُ
الرِّيحَ فَيَظْلِلُنَّ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهِيرَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَارٍ
شَكُورٍ . » «سورة الشورى»

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ . وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ بِقَدْرِ فَانْشَرَ فَانْ
بِهِ بَلْدَةٌ مَيْتَانًا كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ . وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . » «سورة الزخرف»

* إنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا
يَبْثُثُ مِنْ دَاءِهِ آيَاتٍ يَقُولُونَ يُوْقِنُونَ . وَاحْتِلَافُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَهْبَطَ إِلَيْهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْهِبَتِهِ وَتَصْرِيفِهِ
الرِّياحُ آيَاتٍ يَقُولُونَ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَشَوَّهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
فَإِنَّمَا يُحَدِّثُهُمْ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . «سورة الجاثية»

* أَللَّهُ أَلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلَتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ يَقُولُونَ يَتَفَكَّرُونَ .
«سورة الجاثية»

* مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَاجْلِ
مُسْمَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُوْنِي مَاذَا حَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شُرُكٌ فِي
السَّمَاوَاتِ إِيمَانُكُمْ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ أَنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ . «سورة الاسراء»

* وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٍ لِلْأُوْقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا يُبَصِّرُونَ .
«سورة الذاريات»

* وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشَّنَاها فَنِعْمَ
أَمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .
«سورة الذاريات»

* أَفَلَا يُنْظِرُونَ إِلَى الْأَيَّلِ كَيْفَ خُلِقْتُ . وَإِلَى السَّهَّاءِ كَيْفَ رُفِعْتُ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِيبْتُ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحْتُ . فَذَكَرْ إِنَّا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . «سورة الناثنة»

* قَالَ لَهُ صَاحِبَهُ وَهُوَ يُخَالِرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . «سورة الكهف»

* قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنْفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ بَحْثَتَا عِثْلَيْهِ مَدَادًا . «سورة الكهف»

* خَلَقَ السَّهَّاَتِ وَالْأَرْضَ بِالْحُقْقِ تَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ إِنَّا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينُ . وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دُفُّ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا بَعْثَارٌ حِينَ تُرِيَحُونَ وَحِينَ تُسَرِّحُونَ . وَتَحْمِلُ أَنْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدِهِ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْرِ إِلَّا يُشِيقُ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبَيْانَ وَالْحَمْرَ لِتَرْكِبُوهَا وَزِينَةٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . «سورة النحل»

* هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّهَّاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الْأَزْرَعَ وَالرَّيْشُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْةً لِقَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ . وَسَخَرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنَّجْوُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
أَوْ أَنَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ
إِذَا كَلَوْا مِنْهُ لَهُمَا طَرِيْبًا وَتَسْخِرُجُوا بِشَهْرٍ جِلْيَةً تَلْبِسُوهَا وَتَرَى
الْفَلَكَ مَوَارِخَ فِيهِ وَتَتَبَغُّو مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلْكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلَّفَ
فِي الْأَرْضِ رَوَابِيًّا أَنْ تَبَيِّنَدْ بِكُمْ وَأَهْلَارًا وَسُبُّلًا لَعِلْكُمْ تَهْتَدُونَ .
وَعَلَامَاتٍ وَبِالْتَّجَمِيرِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أَفَنْ يَخْلُقُ كُنْدَنْ لَا يَخْلُقُ أَفْلَانْ
تَذَكَّرُونَ . وَإِنْ تَعْذُّرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ لَا تُخْصُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِمُونَ . وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَا يَخْلُقُونَ شَبَّانَا وَهُمْ يَخْلُقُونَ . «سورة النحل»

* إِنَّمَا قَوْلُنَا لِرَبِّنَا إِذَا أَرَدَنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . «سورة النحل»
* وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِعِزَّةً نُسْقِّيْكُمْ
إِنَّمَا فِي بُطُونِهِ مِنْ يَئِنْ فَرْثٍ وَدَمٍ كَبَّانَا خَارِصًا سَائِغاً لِلشَّارِيْنَ .
وَمِنْ ثَمَرَاتِ التَّحْمِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَسْجِدُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَأَوْسَحِيَ رَبِّكَ إِلَى التَّحْلِلِ أَنْ
أَتَخْيُذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَإِنَّمَا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلُّهُ مِنْ
كُلِّ الشَّمَرَاتِ فَاسْلَكِي سُبُّلَ رَبِّكَ ذُلْلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .
«سورة النحل»

* وَأَنَّهُ أَخْرَجُكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعِلْكُمْ تَشْكُرُونَ . أَلَمْ يَرُوا إِلَى الطَّيْرِ
مُسْحَرَاتٍ فِي سَمَاءِ السَّمَاوَاتِ مَا يُسِكِّنُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ
لِّقَوْمٍ لَّوْمَنُونَ . وَأَنَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بَيْوَتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَغْفِرُوهَا لَعْنَمْ ظَعْنَمْ وَتَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ
أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ . وَأَنَّهُ جَعَلَ
لَكُمْ إِعْمَالَ خَلْقِ ظَلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ
سَرَابِيلَ تَقِيمَكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيمَكُمْ بِاسْكُمْ ... «سورة النحل»

* وَقَدْ خَلَقْتُمْ أَطْوَاراً . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
بِطَبَاقاً . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ يَرَاجِأً . وَأَنَّهُ
أَنْبَثَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ بَيَانًا . لَمْ يَعْنِدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرُجُكُمْ إِلَيْهَا .
وَأَنَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا فِيهَا سُبُّلَادَ فِي جَاجِأً .
«سورة نوح»

* أَفِي أَنَّهُ شَكٌ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... «سورة إبراهيم»

* أَلَمْ تَرَ كَيْفَ حَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمةَ حَلِيبَةَ كَشْجَرَةَ طَبِيبَةَ أَصْلَهَا
ثَابَتْ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ . ثُوَّقَ أَكْلَهَا كُلُّ حِينٍ يَا ذِنْ رَبِّهَا وَيَصْرِيبُ
اللَّهُ الْأَمْنَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَمُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمةَ حَيْنَيَةَ كَشْجَرَةَ
حَيْنَيَةَ أَجْثَثَتْ مِنْ قَوْقِ الْأَرْضِ مَا هَاهَا مِنْ قَرَارٍ . «سورة إبراهيم»

﴿ أَللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ بِخَرْجٍ
يَوْمٌ مِّنَ الشَّمْرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِرَيْنِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ . « سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ »

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَفِيقًا
فَفَتَّا هُمْ بِهَا وَجَعَلُنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ نَبْتٍ حَسِيْرًا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي
الْأَرْضِ رَوَاسِيًّا أَنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِي جَاجًا سُبُّلًا لَعَلَّهُمْ
يَسْتَدِعُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُغْرِضُونَ . وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلَّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ .
« سُورَةُ الْأَنْيَاءِ »

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانَ مِنْ سَلَادَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
فِي قَرَارٍ مَسْكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا الْمُطَهَّرَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْعَةَ عِظَامًا فَكَسَوْتَا الْعِظَامَ ثُمَّ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَقَبَارَةً
أَنَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَتُّونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ
تَوْمِمُونَ الْقِيَامَةَ تُبَعْثُونَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا
عَنِ الْخُلُقِ غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَا يُقْدِرُ فَأَنْشَأْنَا فِي
الْأَرْضِ مَا لَمْ يَرَى ذَهَابٌ بِهِ لَقَادِرُونَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ
مِنْ تَحْيِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةٌ

تَخْرُجٌ مِنْ طُورِ سَيِّئَاتِهِ تَثْبُتُ بِالْمَدْهَنِ وَصَبْغٌ لِلْأَكْلَاتِ . وَإِنْ كُنْتُمْ
فِي الْأَنْعَامِ لَعِزَّةٌ نُسْقِيْكُمْ مِمَّا فِي يَطْوِنَتِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . «سورة المؤمنون»

* وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْنِيدَةَ قَلِيلًا مَا
تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَ أَكْمَمِ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ
الَّذِي يَخْبِي وَيُبَيِّنُ وَلَهُ آخْتِلَافُ الْمَيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ .
«سورة المؤمنون»

* الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَا خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ صَلْبٍ .
ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ
رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْنِيدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ .
«سورة السجدة»

* أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجَرَرِ فَتَخْرُجُ بِهِ
زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبَصِّرُونَ . «سورة السجدة»

* أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا الشَّهَادَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوْقِنُونَ . «سورة الطهارة»

* تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ
الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَنْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

الَّذِي خَاقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بِطَابَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ إِنْ تَهَوُتْ
فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتِينَ
يَنْقِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ . «سورة الملك»

* هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلِيلًا ... «سورة الملك»

* أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّاهِرِ فَوْهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُتَسْكُنُونَ إِلَّا
الْرَّحْمَنُ ... «سورة الملك»

* قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْيَادَةَ
قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ . «سورة الملك»

* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَا ذَكَرْتُمْ غَوْرًا فَنَّ يَأْتِيَنَّكُمْ بِمَا وَعَيْنُ .
«سورة الملك»

* فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبَصِّرُونَ . وَمَا لَا تُبَصِّرُونَ . «سورة الحاقة»

* فَلَا أُقِيمُ بِرَبِّ الْمَسَارِيقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . «سورة الموارج»

* أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَانَ أَوْتَادًا . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا .
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ شَبَانًا . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا . وَجَعَلْنَا يَرَاجًا وَهَاجًا
وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُغَصَّراتِ مَاءً ثَجَاجًا . لِتُخْرُجَ بِهِ حَبَّا وَنَبَانًا .
وَجَنَّاتُ الْفَفَافَا . «سورة النَّبَا»

* أَنْتَ أَشَدُ خَلْقًا أَمِ الْمَهَاجَهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا .
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحَافَهَا . وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا .
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَأَجْبَالَ أَرْسَاهَا . « سورة النازعات »

* يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رِبُّكَ الْكَرِيمُ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَّكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبُّكَ . « سورة الانقطار »

* أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا يَنْتَهُ إِلَّا بِالْحُقُوقِ وَأَجْلُ مُسْتَقْدِمٍ ... « سورة الرحمن »

* فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّنَا تَمْسُونَ وَرَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَرَحِينَ تُظَهِّرُونَ . يَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ
الْمَيْتِ وَيَخْرُجُ الْمَيْتُ مِنَ الْحَيِّ وَيُنْجِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَكَذَلِكَ تُخْرِجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلْقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ
تَشْرُكُتُمْ تُنَثَرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلْقَكُمْ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتُسْكِنُو إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ
الْإِنْسَكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ
مَنَامَكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَبْتَغَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَظَمَاءً وَيَنْزَلُ

مِنَ الشَّاءِ مَا هُنَّ فَيُخْرِجُونَهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . « سورة الروم »

* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرِسِّلَ الْرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذْكِرَنَّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَلِتَغْرِيَ النَّفَّالَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .
« سورة الروم »

* أَللَّهُ الَّذِي يُرِسِّلُ الْرِّياحَ فَتَشْرِقُ سَحَابًا فَيَسْطُطُهُ فِي الشَّاءِ كَيْفَ
يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَاهُ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ
مِنْ رِيشَاهُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ بَسْتَبْشِرُونَ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يُلْبِسْنَ . فَأَنْظُرْ إِلَى آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ
يَخْرُجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَحْيَ الْمُوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ . « سورة الروم »

* وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ سَعَى فِتْنَةً
النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ... « سورة العنكبوت »

* قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ أَللَّهُ يَشْيَى
النَّشَأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . « سورة العنكبوت »

* مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ كَمَثَلُ الْعَنْكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بَيْتَهَا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبَيْوتِ لَيَسْتُ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُوَيْهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
وَرَبُّكَ الْأَمْثَالُ نَصِيرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ . «سورة العنكبوت»

* وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَلَمَّا تَوَفَّكُونَ . «سورة العنكبوت»

* وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاوَاتِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .
«سورة العنكبوت»

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعْلَكُمْ تَتَّقَوْنَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
آنَدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . «سورة البقرة»

* كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمَوَّاتٍ فَأَخْيَاكُمْ ثُمَّ نُمْبَتُكُمْ ثُمَّ
يَحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ أَتَسْوِي إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُنَّ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلَيْهِمْ . «سورة البقرة»

* بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أُمَّةً فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَكَوُنْ . «سورة البقرة»

﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ
الَّتِي تَبَعِّرُ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
مَا وَفَّاقَهَا إِلَّا أَرْضًا بَعْدَ مَوْتِهَا وَمِثْلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَائِفٍ
وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمَسْعُورِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . «سورة البقرة» .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلُ الَّذِي يَنْعِقُ إِنَّمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً
وَرَنَادِأَ صُمُّ بُكْمُ عُنْيُ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . «سورة البقرة» .

﴿ يَسْأَلُوكُنَّكُمْ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هُنَّ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْمُحْجُ ... «سورة البقرة» .

﴿ هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْتَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ
مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخِرُ مُتَشَاهِدَاتٌ فَإِنَّمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
رَيْغُ فَيَشَيِّعُونَ مَا تَشَاهِدُهُ مِنْهُ أَبْتِغَاهُ الْفِتْنَةُ وَأَبْتِغَاهُ تَأْوِيلُهُ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ أَمْنًا إِلَّا كُلُّ مَنْ عَنِدُ
رَبِّنَا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَبْيَابِ . «سورة آل عمران» .

﴿ شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَاتِلُهَا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . «سورة آل عمران» .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَقَرْعَ الْمُلْكَ
يَمْنَ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِلِكَ الْحَسِيرُ إِنَّكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَتُخْرِجُ الْحَسِيرَ مِنَ الْمَبْيَنِ وَتُخْرِجُ الْمَبْيَنَ مِنَ الْحَسِيرِ وَتَرْزُقُ مَنْ
تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . «سورة آل عمران»

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَذَكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى
جُنُوبِهِمْ وَيَتَكَبَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْنَا
هَذَا بِإِطْلَاقٍ مُبْحَاثًا ... «سورة آل عمران»

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ... «سورة النساء»

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... «سورة الحديد»

﴿ إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَبْيَأُ لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . «سورة الحديد»

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوُهُنَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمّى يُدْبِرُ الْأَمْرَ

يُفْصِلُ الْآيَاتِ لَعْلَكُمْ يَلْقَاهُ رَبُّكُمْ تُوْقَنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ
الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَابِيَّاً وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ النَّمَراتِ جَعَلَ فِيهَا
رَوْجَيْنَ أَثْنَيْنِ يُغْشِيَ الْلَّيلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطْعَةٌ مُّتَجَلِّوْرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ
وَزَرْعٌ وَخَيْلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَقُضِلَّ
بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ .
»سورة الرعد«

* هُوَ الَّذِي يُرِيدُكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِي السَّحَابَ الظَّانَ ...
»سورة الرعد«

* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا يَخْذُلُمِينَ
هُوَ يَهُوَ أَوْ لِيَاهُ لَا يَمِيلُكُونَ لَا يَنْسِيْهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الْأَعْنَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالشَّوَّرُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . »سورة الرعد«

* الْرَّحْمَنُ . عَلَمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَمَهُ الْبَيَانَ . الشَّفِيعُ
وَالْقَمَرُ يُحْسِبُهُانِ . »سورة الرحمن«

* هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينُ مِنَ الظَّهَرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا .
»سورة الإنسان«

* قدْ جَعَلَ اللَّهُ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرًا . «سورة الطلاق»

* ألم ترَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيجُ سَحَابًا ثُمَّ يُوَلِّهُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رَكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ بَخْلَاهُ وَيَغْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَةً يَرْفَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقْلِبُ اللَّهُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِعْنَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَارِ . وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ ذَاعِيَةٍ مِنْ مَا وَفِينَهُمْ مِنْ يَكْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . «سورة النور»

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثَرِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَتُقْرَأَ فِي الْأَرْتَامِ مَا كَفَاهُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ ثُمَّ نُخْرُجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ يَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمَنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّ فِي وَمَنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْبَطَتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَثَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ تَهْبَطُ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . «سورة المجد»

* وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَنْطَانَ

بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِيرًا الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ
ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ . « سورة الحج »

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ . « سورة الحج »

* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ
وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُوَيْهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ فَضِيلٌ الْأَرْضُ نَخْصَرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنَى
مُحْسِدٌ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَفْلَكَ تَبَرِّي
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُسِيكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقْعُدَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَأْذِنُهُ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَوْلَامٌ رَحِيمٌ . وَهُوَ الَّذِي أَنْجَاهُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ
يُخْبِيَكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ . « سورة الحج »

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَئِنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُوهُ الْذَّبَابُ
شَيْئًا لَا يَسْتَقْدِمُهُ يَنْهَا ضَعْفُ الظَّالِمِ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهُ
عَلَيْهِ قَدْرُهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . « سورة الحج »

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحُكْمِ وَصَوَرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ . «سورة النازعات»

يقول حيران بن الأضعف : وما انتهيت من قراءة هذه الآيات قلت
للشيخ الموزون : جراك الله عني خيراً يا مولاي . فقصد ، والله ، قرأت
الساعة آيات لا أذكر أنها مررت على في كل ما اتيح لي ، في عمري ،
من التلاوات ؛ وما اظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، في التلاوة
المعندة للتبرك .

الشيخ - لا يكفي ان تقرأ هذه الآيات مرة او مرتين ، ولكن يجب
ان تصنفها اصنافاً ليجتمع امام عينيك ، في كل شيء من خلق الله ،
الآيات المشيرة اليه . وقد يكون بعضها شاملاً لعدة اشياء ، فلا بأس من
تكرار ذكرها .

﴿فَمَنْ أَنْزَلَهُنَّا إِلَى دُفَّرِ الْأَمْمَالِ، وَعَدْنَا إِلَيْهِ غَدًا، لَا تَمْ لَكَ الْكَلَامُ﴾

قبل ألف سنة

من القرن السابع عشر

يقول حيران بن الأضعف : قضيت الليل كله في نقل آيات القرآن إلى دفتر الأمالي . وقبل الفجر غلبني النوم فلم أصحّ إلا على صوت المؤذن العجوز وهو يقول لي : صار العصر يا بني . ما هذا النوم الطويل ... فنهضت من فراشي مشدوعاً ، مشلت الفكر ، وسألته : كيف ؟ من فتح لك الباب ، ولماذا لم توقظني لصلاة الفجر ؟

قال : فتح لي مولاً الشيخ . وهو الذي أمرني بتركك ناماً . وبعد أن صلينا الفجر أرسلني إلى سرقة ، لأحضر له هذه الكتب كلها . وهناك عند باائع الكتب رأيت شيخاً مسكيناً يسأل عن مولانا الشيخ الموزون ، فارشدَه باائعُ الكتب إلى ، فأسألني عن الشيخ ، وزعم أنه رفيق له وصديق حيم ، وعيثَا حاولت صرفه ، وأفهمته أن الشيخ في عزلة عن الناس ، فإنه ما زال يلحُ ويُلْعِف حق احزاني وأضجعني ، فاتَّت به ودَّلَّتْه على محل الشيخ في البستان ، ورجعت بالكتب لاسلمك أياماً .

قلت لصديقي العجوز يا أبو محمد ، ولكن هذه الكتب أفرنجية ، وأنا لا أحسن اللغات الأفرنجية .

وفوجئت من الباب بصوت الشيخ الموزون يقول لي : أراك سوف تُحيثُها . انه لنقص عظيم ، وعجز قبيح ، فيك ، وانت من رجال الدين ، الذين يلقى على عاتقهم عباء الأرشاد ، ان تكون جاهلاً لغة العلم في هذا العصر ...

حيران - اني اعرف لغتي ، واعرف التركية واعرف العربية . أليس في هذه اللغات كتب علم .

الشيخ - أتعرف في لغاتك هذه سلسلة كهذه ؟ ثم ما هذه المكابرة

يا حيران . أنت تعلم أن ما في لفاظنا هذه من كتب العلم ، على قلته ، مغرب عن اللغات الأجنبية ؟ أليس الأولى أن تكون لنا القدرة علىتناول العلم الحديث من منابعه الأصلية ، لتابع سيره الماطف ؟ ألا ترى أن ما يعرّيه عصاؤنا ، من كتب العلم ، ليس من الوفرة ، ولا من السرعة ، بحيث يحاري سير العلم في بلاد الناس ؟ وهذه السلسل من الكتب الصغيرة التي أريد بها تبسيط العلم ، وتسهيله للناس كافة ، هل عرفت عالماً من علمائنا استطاع أن يضع مثلها ؟ ذلك لأنّه ما من عالم يستطيع ذلك وحده . أما في الغرب ، فيتعاون العلماء عليها ، كلّ في ما يحسنه ويتقنه ، وتنفق دور النشر الكبرى ، على هذا المهمود أموالاً طائلة للعلاء والطبع ، ولكنها تجني من بيعها للناس أموالاً طائلة . ذلك لأن نسبة القراء عندهم عظيمة ... أما عن هنا في الشرق ، ولا سيما الشرق المسلم ... فالكتاب العلمي لا يأتي بمؤلفه بنفقة طبعه .

حيران - لماذا يا مولاي .

الشيخ - لقلة عدد القراء المتشرين ، وهذا أصبح الواجب ملقنٌ على الحكومات ، فهي وحدتها التي تستطيع أن تقوم بطبع ونشر هذه السلسل العلمية المساعدة ، وتسهيلها للناس بأرخص الأثمان ، لتعين على رفع مستوى الثقافة ... وعلى كل حال فإن هذا لا يغنى الأمة عن تعلم اللغات الغربية . وأما أنت يا رجل الدين ، فانك تعلم أحدى لغات الغرب الكبرى فرض في عنقك ، إن كنت تزيد أن تكون مرشدًا وداعيًا إلى الله .

حيران - سأتعلّمها باذن الله يا مولاي .

الشيخ - والآن هيئا إلى عملنا . هل نقلت الآيات إلى دفتر الأمالي ؟ لقد رأيتك تكتب الليل كله .

حيران - نعم يا مولاي . ما زلت ساهراً حتى أتمّمتها .

الشيخ - إنك يا حieran ، إذا قدرت هذه الآيات ، وانعمت النظر فيها ، على ضوء العلوم الطبيعية ، التي يجب أن تكون واسع الاطلاع عليها ، وعلى ضوء الفلسفة ، رأيت يجلاء ، إن القرآن قد قاتل فيها كل طرق الاستدلال ،

التي سلّكها علماء الدين وال فلاسفة ، وقلقاوا فيها على الحق :

فذكر الأدلة النظرية المركبة كدليل (الحدوث) ، ودليل (الوجوب) ، ودليل (العلة الكافية) التي تقوم على بدأه (قانون العلية) ، ثم اعتمد أكثر ما اعتمد على دليل (النظام) الذي يرتكز على ذكر ما في خلق الله من ابداع ، واحتراز ، وتصسيم ، وتنظيم ، واحكام ، واتفاق ، وتقدير ، وتحديد ، وترتيب ، وازان ، فاكتنز من ذكر شواهد وكرها ، واكتدها في مواطن كثيرة . لانه الدليل الذي يدركه العقل ، ويرضاه بيسرا وسهولة ، بدون ان يحتاج الى غوص في بحث الاستدلال ، ومن غير ان يعتريه وهم او عجز او كلام ؛ ويستوي في ادراكه ، مبدئياً ، البدوي الساذج ، والعالم الفيلسوف ؛ لأن علام الغيوب سبحانه ، علم ان الذين يطيقون الإنكباب على التعمق في الأدلة العقلية الفلسفية المركبة العربية ، التي مرت بك ، هم القلة من العلماء ؛ فقضت حكته بأن يخاطب الناس كافة بالدليل الآيسر ، الأسهل ، الأوضح ، الذي يزداد ، على مر الأيام ، وضوحاً كلما تقدم العلم وانكشفت للعلماء أسرار النوميس الدالة على النظام ؛ ليصدق وعده تعالى : (سُرِّيْمَ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْشِسِنَمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ، وقد صدق وعده الحق ، فاراهم بعد عصور وعصور من آياته في (الافق) ، وفي تكوين (الأنسان) ما أتفوا فيه المطلولات ، حق تحقق قيم قوله سبحانه (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ) .

حيران - هل يتذكر مولاي الشيخ بدلالي الى الآيات التي يرهن بها الله على وجوده بالأدلة المقلية المركبة كدليل الحدوث والوجوب والعلة الكافية ، فاني لم أتبينها اثناء التلاوة .

الشيخ - انك لم تتبينها لأنها أقيمت باوجز عبارة وألطاف اشاره ، كي لا يدركها إلا اربابها ، كما قلت لك في حديثي عن ابن رشد . فأصل يا حيران في الآيات الآتية :

- أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ؟

- أَوْلَمْ يَنْتَظِرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ؟

- أَفَلَا يَذَكُرُ الْإِنْسَانُ إِذَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِهِ أَوْلَمْ يَكُنْ شَيْئاً؟

- هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً؟

- وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْثُ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ.

- وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

- أَفَنَّ يَخْلُقُ كُنْدَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟

- وَرَبُّكُمْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

- مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقْقَ وَأَجْلٍ مُسْمَىٰ.

- إِنَّمَا الَّذِينَ قَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَكُنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ.

- وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَاهِدُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ عِلْمٌ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابٌ يُنْهِي.

- مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَيَاءَ كَمَثَلِ الْمُنْكَبُوتِ اتَّخَذُوهُنَّ بَيْتَنَا وَاللَّهُ أَوْهَنَ الْبَيُوتِ لَتَبَيَّنَ الْمُنْكَبُوتُ كَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ فَتَيَّهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الْأُمَالُ تَضَرِّبُهَا النَّاسُ وَمَا يَعْتَمِلُهَا إِلَّا النَّعَمَالُونَ .

تأمل في هذه الآيات يا حيران ، وطبقها على ما منْ معك من الأقوال التي ذكرها الحكماء وال فلاسفة مثل : ديكارت ، وباسكار ، ولينز ، (فضلًا عن ابن سينا والغزالى وغيرهم من علماء الكلام) عن :

دليل المحدث

و دليل الوجوب

وبداهة قانون العلية

و دليل (الملة الكافية)

واثبات صفة الارادة ، ونفي الخلق بالضرورة
ويدها كون العالم الحادث قد خلائق في زمان معين واجل مسمى .
فإنك إذا فعلت ، وراجعت ما قالوه ، ادركت سر الاعجاز في هذا
القرآن ، الذي نزل على الرجل الآتي ، في البيئة الاممية ، قبل اربعة
عشر قرناً ، من اليوم الذي نحن فيه ، وقبل ألف سنة من عصر ديكارت
واباسكان ولبنان ؟ وعرفت ان الفهم الكامل لكل ما تطوي عليه هذه
الآيات والأمثال ، لا يتيسر الا للالميين .

انه يقول ، كما قال الفلسفه والذاكرون من يغدو : (العالم حادث) .
ولكنه يغدو عن اسلوبهم في اثبات الحدوث بدليل تغير الصور ؟

لأن العلم الحكيم قد علم ان سير الذهن ، في تصور سلسلة (الصور)
المتحيرة ، عبر الادهار الطويلة البعيدة ، يبدو عسيراً ، فيما يتعلق بال المادة
الصماء التي لا نعرف ماذا كانت في اوّلها ، ولكنها يبدو سهلًا ، يدل
سيكون مشاهداً ، فيما يتعلق بتكون (الحياة) على الأرض ، ولا سيما في
جنس (الحيوان) عامة ، وفي نوع (الانسان) بوجه اخص . وها انه
قد ظهر وثبت ، لدى العلامة ان دهاراً طويلاً مرّ قبل ظهور الحيوان
والانسان على الأرض .

لذلك يذكر القرآن من ذكر الدواب والانسان ، ليذكر هذا
الانسان ، المقصود بالهدایة ، بأنه (انت علىئنه حين) من الدهر لم يكن
فيه شيئاً مذكوراً) ، ويستنتج من هذا ، استنتاجاً بدليلاً سهلاً ، انه
(حادث) ، ليخرج من هذه البدعة الاولى الى نتيجة بدائية ثانية : وهي
ان المادة التي حدث منها هذا (الانسان) لا بد ان تكون حادثة ،
لانها قبّلت (التغيير) ، والقديم لا يتغير ...

وبعد انت يقرر القرآن امر حدوث الانسان ، والمادة ، والعالم ، على
هذا الوجه السهل الواضح ، يسير في طريق الاستدلال العقلي ، على اساس
(قانون العلية) الذي تمثله بدها العقول ؟ فيتسائل عن علة هذا
العالم الحادث ، وسببيه .

ويُعرّض ، باسلوب رائج من البيان الموجز الجذل ، كلَّ الفروض المستحبة التي يذكرها المحددون المحددون ، المجادلون في الله بغير علم ولا هدْيَ ، حين يقولون :

- انَّ الْعَالَمَ حَدَثَ عَنْ غَيْرِ عُلْمٍ .
- او اَنَّ حَدَثَ مِنْ نَفْسِهِ .
- او اَنَّ اللَّهَ وَالْعَالَمُ شَيْءٌ وَاحِدٌ .
- او اَنَّ مَادَةَ الْعَالَمِ قَدِيمَةٌ كَلِيلَدَمِ اللَّهِ .
- او اَنَّ الْخَلْقَ حَصَلَ بِالْفَرْوَرَةِ مِنْ غَيْرِ ارَادَةٍ .

فيقول لهم :

- (فَلَمْ يَكُنْ أَنْتُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ كُمْ يَكُنُّ شَيْئًا مَذْكُورًا...؟)

- (اَوْ لَا يَذْكُرُ اَلْإِنْسَانُ اَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ يَكُونُ شَيْئًا ؟).
- (اَمْ خَلَقُوكُمْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ اَمْ هُمْ الْخَالقُونَ ؟).
- (أَفَنْ يَخْلُقُ كُمْ لَا يَخْلُقُ أَفْلَى تَذَكَّرُونَ ؟).
- (وَرَبُّكُمْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ).
- (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ اَلَا بِالْحَقِّ وَاجْلِيْرَ مَسْتَشِيْ).

فانظرُ كيف يتباهي ، بهذا البيان الرائع ، عقولَ الناس الى استحالاته تلك الفروض التي يزعمها المحددون ، استحالاته بدائية .

وانظر كيف يدفع العقول ، الى تططلب العلة الكافية ، والبحث عنها ، والحكم بتوسيع وجودها ، وتوجب اتسافها بالصفات الكامنة (الكافية) لأحداث هذا العالم وخلقه .

وانظر كيف يتباهي للتفريق والتمييز ، بين الله والعالم (المعلول) ، بالماهية والذات والصفات ، لاستحالاته ان يكون (المعلول) هو نفس (العلة) ، او جزء منها .

ثم انظر كيف يشير ، في الآيات الأخرى ، الى بطلان القول بخلق الله للعالم (بالضرورة) لتوسيع انصافه سبحانه (بالارادة) ، التي يها

ووحدها اختار تحديد (الأجل ، الذي أراد احداث العالم فيه ... ولاتخلق بالضرورة يؤدي الى القول بقدام العالم والانسان .

(هل اقى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟) هي .

وهذا ما اثبته العلم بشأن الانسان والحيوان خاصة ، والحياة عامة .

اذن ، هو حادث ، وخلوق ، يمكن الوجود ، لا واجب الوجود .

وكل شيء في ملائكة السموات والأرض هو حادث ، لأنه (شيء) ولأنه مركب ولأنه (متغير) ، وأنه (ممكن الوجود) ، وأنه ليس (واجب الوجود) ... ، فهل خلق من غير شيء ؟ وحدث من غير (علة كافية) ؟ هذا مستحيل ، كما يقول ليبنز وغيره من الحكماء ، وقد سبقهم القرآن بألف سنة فقال : (ام سخّلوا من غير شيء ؟)

أهو خلق نفسه ... ؟ وهذا مستحيل أيضاً ، كما يقول ديكارت وباسكار وغيرهم ، ولقد سبقهم القرآن فقال : (ام هم الحالون ؟) .

هل الخلوق والخالق شيء واحد ... ؟ وهذا مستحيل أيضاً ، لأنه يؤلف تناقضًا عقليًا ، كما يقول ليبنز وغیره ، لاستحالة ان يكون المخلو
هو نفس العلة ، (ألمَنْ يَخْلُقَ كُنْ لَا يَخْلُقَ ؟) .

هل خلق الله العالم بالضرورة من غير ارادة ... ؟ وهذا مستحيل ايضاً ... لأنه يبطل صفة الكمال المتوجبة للعقل ، فالذي لا يريده ولا يختار لا يكون إلهاً . ولأن القول بالخلق بالضرورة بلا ارادة ، يجعل الانسان قدّيماً . وقد ثبتت انه (حادث) ... (وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَخْتَارٌ) .

هل العالم ازيي مثل حالته كما زعم البعض ... ؟ وهذا مستحيل ايضاً .

لأنه لم يخلق بالضرورة بل بالإرادة الازلية التي حددت وسمّت وقت خلقه . ولو كان خلقه بالضرورة لكان قدّيماً ؛ وهو (حادث) ... (مَا سَخَلْقَنَا السموات والأرضَ إلَّا بالحقَّ وأَجَلٍ مُنْصَرٍ ..) .

هذا هو القول الحق الذي لا ريب فيه ، وكل ما سواه ، هو قول واهن مثل (بيت المنكبوت) الذي هو في الظاهر منسق ، مرتب ، مزودق ، تنسجه المنكبوت من جوفها ، لتصطاد به صغار الحشرات ، كما

ينسج المجادلون في الله بغير علم ولا هدى ، ظنونهم الواهية ، من بطونهم ،
ليصطادوا بها ضعاف العقول ...

وهكذا ، يا حيران ، يتناول القرآن الذي نزل على الإنسان الآتي ،
في الجزيرة الأممية ، جميع المجمع العقلية البالغة ، والبراهين الساطعة
الدائمة ، التي قضى العلماء والحكماء أعمارهم حتى توصلوا إليها وتقلاقوا عليها ،
(يهدي القرآن ، أو يهدي الله الذي أثار عقولهم) ، فيقررها بالبلغ عبارة ،
وأوجز إشارة ، والطف تنبئه ، واصدق تشبيه ، تقريراً معجزاً ، يُبرِّز
فيه ، من تلك المجمع والبراهين ، ما يمليح لأدراك الجماهيل ، ويُخفِّي منها
تحت الأعاق ، للأجيال ، ما لا يستطيع الفوسّ عليه إلا العالمون ...
حيران - إلا العالمون ... إلا العالمو ... (ولذلك الأمثال نصرها للناس
وما يتعلها إلا العالمون) .

الشيخ - الحمد لله يا حieran . فقد جزت الامتحان ، وبذلت تدرك
كيف يتفق المقل والعلم والقرآن ...

حفظ المصادر

يقول حدران بن الأضعف : سـ . يومي كله في مراجعة آيات القرآن ، ومقارنتها بما دره ابن سينا والغزالى في القرن الثاني والثالث ، وبما ذكره (ديكارت) و (باسكار) و (لينز) في القرن السابع عشر ، فأخذته هزة من الفرح والعجب من تلاقي هذه العقول مع القرآن ، على طريقة واحدة في الاستدلال . ولما حلّ وقت الدرس دخلت على الشيخ ، فوجدت أمامه (أبراً) يشتغل في تلوينها بخطوط ، ولما أتيت السلام تبسم وقال : الشيخ - مالك يا حيران . أحسبت شيخك قد انقلب من استاذ إلى خياط أو مشعوذ ؟

حيران - معاذ الله يا مولاي .

الشيخ - نعم هذه إبرة : أحيط بها البرهان ، وافقاً بها مثل الأوهام ، وأخربها التافل الوسان . واردة بها سحر المشعوذين ... ولي فيها مأرب أخرى ، سوف تعرفها يا حيران ...

حيران - وهل يخاطب البرهان يا مولاي .

الشيخ - نعم إن البرهان يفضل تفصيلاً ، على قياس عقل المخاطب ، كما يفضل الخياط التوب على قياس الجسد ، ثم يخاطب بالأولياء والبدويات لتقاسلك أجزاءه . أما أيمانتنا بأن مخاطب الناس على قدر عقولهم ؟

حيران - هذا اسلوب جديد في البرهنة .

الشيخ - ما هو بالاسلوب الجديد ، فقد ذكره بعض العلماء لي們روا على استبعاد (فكرة المصادفة) ، ولكن صفتة تلك بشكل احتجية جديدة .

حيران - وما هي الاحتجية الجديدة يا مولاي ؟

الشيخ - أنها احتجية تنتهي إلى دليل رياضي ينفي فكرة (المصادفة) ،

التي قال بها الماديون عن خلق العالم وما فيه من تنوعات .
حيران - اعجوبة تنتهي الى دليل رياضي ؟

الشيخ - ألا تزال تستخف بالاعاجيب المقلالية ... ألا تذڪر اعجوبة الورقة المقطمة ... أما كشفت لك عن الفرق بين التصور والتعقل ؟ بعد نبدأ . اكتب في دفترك هذا السؤال :

اذا سألك سائل عن هذه الاشياء المشاهدة في هذا العالم ، كيف تكونت وتركتبت وصُنعت ، فما هي الفروض التي يمكن ان تتصورها وفترضها ؟

حيران - لم افهم المراد بهذا السؤال ، بعد ذلك الامتحان الذي جزفاه .
انها خلقت بقدرة الله .

الشيخ - دع ايمانك جانبها ، وافرض انك رجمت الى الشك الذي كان يحولك في صدرك يوم جتنى اول مرة .

حيران - أيريد الشيخ ان يكرر الامتحان في البات حدوث العالم وتفى قدمه ؟

الشيخ - لا لا . انني لا اسألك عن هذا . دع عنك المادة الاصيلية الميولانية كيف خلقت . ودع البحث فيها اذا كانت حادثة او قديمة ، فاني انا اسألك الان ، كما سأل القرآن ، عما في ملکوت السموات والأرض من اشياء (مرکبة ومتوعة) ، وكيف يُفَرِّه ان تكون خلقت وتكونت بهذه التنوع ؟

هذه الصور والأشكال من التنوعات المرکبة ، ولا سيما الحية منها كالنباتات والحيوانات والانسان خاصة ، لا العقل يقول انها قديمة ، لانه يستعمل ، وهي مرکبة ومتغيرة ، ان تكون قديمة ، ولا العلم يقول انها قديمة ، لأنها اكتشفت في طبقات الأرض انها حادثة . ومنعنى كونها حادثة انها مرکبة ومصنوعة بعد ان لم تكون ، فكيف يُفَرِّه ان تكون صُنعت وتكونت ؟

هذا ذلك ثلاثة فروض لا رابع لها ابداً :

الاول - ان تكون من صنع الله .

الثاني - ان تكون من صنع نرات المادة واجزائها وعناصرها عن ارادة وقصد وغاية ، اي ان عناصر المادة الأصلية فكترت ودُبّرت واتفقت على صنع تنويعات هذا العالم بهذه الاشكال والصور التي نراها .

الثالث - ان تكون هذه التنويعات قد تكونت (بطرق المصادفة) اي ان النرات تلقت وجمعت على نسب واواعض مخصوصة بطريق المصادفة ف تكونت العناصر الأصلية ، ثم تلقت (العناصر) وجمعت وقازلت (بالمصادفة) على نسب ملائمة (بالمصادفة) وفي مدد كافية (بالمصادفة) واجوه ملائمة (بالمصادفة) ف تكونت هذه التنويعات وخلقت الحياة من هذه المصادفات .

حيران - حقاً انه لا يوجد فرض رابع يمكن تصوره .

الشيخ - اما الفرض الأول فيقول به المؤمنون بالله ، سواء كان ايجانهم من هداية دينية او من هداية عقلية .

واما الفرض الثالث فيقول به بعض الماديين .

اما الفرض الثاني فلا يقول به احد مطلقاً ، لا المؤمنون ولا الماديون ، بدل ان هؤلاء الماديين انكرون انكاراً قاطعاً ان يكون لعناصر المادة ارادة وقصد وغاية .

اذا ، قد اصبحنا امام فرضين لا ثالث لها : فاما ان تكون تنويعات العالم من خلق الله وصنه ، واما ان تكون نتيجة (للمصادفة) .

ما لي ارى في عينيك ، يا حيران ، ظلال افكار تروح وتندو في كهف عقلتك ... هل في هذا الذي اقوله ، الان ، منفذ لأقل شك او ريبة ؟

حيران - كلا يا مولاي . كلا والله . فكل الذي قلته واضح ، ولكن هل المصادفة امر مستحيل عقلاً ام هي امر في حدود الامكان ؟

الشيخ - تستطيع ان تجرب بالنفي وبالايحاب في آن واحد . فالمصادفة تكون احياناً ممكنة ، وتكون احياناً في حكم المستحيلة عقلاً . فعليك ، اذا ، ان تبدل صيغة السؤال ، وتقول ما هي قيمة المصادفة في ميزان العقل السلم ؟

حيران - ما هي قيمة المصادفة في ميزان العقل السليم ؟

الشيخ - الآن جاء دور الإبر . خذ هذا اللوح ، واغرز فيه إبرة ، وضع في ثقبها إبرة ثانية أخرى وقل لي يا حيران ، اذا رأى انسان عاقل هاتين الإبرتين ، وسأل كيف أدخلت الثانية في ثقب الأولى ، فانخبره انسان ، معروف بالصدق ، ان الذي ادخلها رجل ماهر قدف بها ، من بعد عشرة أمغار ، فاستطاع ان يدخلها في ثقب الإبرة الأولى . ثم اخبره انسان آخر ، معروف بالصدق ايضاً ، ان الذي قاها حبيـ صغير ولد من بطن امه اعمى ، فووـقـت في الشق (بطريق المصادفة) فـايـ الحـيـرين يـصـدقـيـ ؟

حـيـران - انه ولا ريب يـمـيلـ الىـ تـصـديـقـ الحـبـرـ الـأـوـلـ ، ولـكـنـهـ اـمـامـ صـدـقـ الحـيـرينـ يـرـىـ اـنـ المـصـادـفـةـ مـكـنـةـ ، فلا يـجـزـمـ بـتـرجـيمـ اـحـدـ الحـيـرينـ عـلـىـ الـأـخـرـ .

الـشـيـخـ - ولـكـنـ اـذاـ رـأـىـ هـذـاـ الرـجـلـ إـبـرـةـ ثـالـثـةـ مـفـرـوـزـةـ فـيـ شـقـ الثـانـيـةـ ايـضاـ ، فـهـلـ يـبـقـىـ عـدـمـ التـرجـيمـ عـلـىـ حـالـهـ ؟

حـيـران - كـلاـ بلـ يـتـقوـيـ تـرجـيمـ (القـصـدـ) عـلـىـ (المـصـادـفـةـ) ، ولـكـنـ علىـ كـلـ حـالـ يـبـقـىـ تـرجـيمـ ضـعـيفـاـ .

الـشـيـخـ - ولـكـنـ اـذاـ رـأـىـ الرـجـلـ اـنـ هـنـالـكـ عـشـرـ اـبـرـ ، كـلـ وـاحـدةـ منهاـ مـفـرـوـزـةـ فـيـ ثـقـبـ الأـخـرـيـ الـتـيـ تـلـيـهـاـ ، فـهـلـ يـبـقـىـ تـرجـيمـ فـكـرـةـ القـصـدـ عـلـىـ ضـعـفـهـ ؟

حـيـران - كـلاـ . بلـ يـتـقوـيـ عـنـدـهـ تـرجـيمـ (القـصـدـ) حـقـ تـكـادـ فـكـرـةـ المـصـادـفـةـ اـنـ تـلـاشـيـ .

الـشـيـخـ - ولـكـنـ لوـ جـاءـ اـنـسـانـ ، منـ اوـلـئـكـ يـصـدقـ فـيـهمـ قولـ القرآنـ (وـكـانـ اـنـسـانـ اـكـثـرـ شـيـءـ جـدـلـاـ) ، وـاخـذـ يـجـاهـلهـ فـيـ معـنـىـ الـاسـتـحـالـةـ الـعـقـلـيـةـ وـالـاسـتـحـالـةـ الـعـادـيـةـ ، وـيـرـهـنـ لـهـ عـلـىـ اـنـ المـصـادـفـةـ لـيـسـتـ مـسـتـحـيـلةـ ، لـاـ عـقـلـاـ وـلـاـ عـادـةـ ، وـلـكـنـهاـ تـكـونـ اـحـيـاناـ مـسـتـبـعـدـةـ ، فـانـ صـاحـبـناـ العـاقـلـ لـاـ بـدـ لـهـ اـنـ يـذـعنـ .

حـيـران - اـنـ عـقـلـ يـذـعنـ ، وـلـكـنـ القـلـبـ يـمـيلـ الىـ تـرجـيمـ (القـصـدـ) .

الشيخ - ولكن اذا ترقينا في تعقيد الاصحية ، وقلنا ان الابر العشر
مرتبة بخطوط لكل واحدة منها رقم ، من الواحد الى العشرة ، وقيل لنا ،
في الخبر ، ان الصي " الاعمى اغطى كيساً فيه هذه الابر العشر مخلوطة
مشوشة ، وانه كان يضع يده في الكيس ويستخرج الابر تباعاً على ترتيب
ارقامها (بطريق المصادفة) ، ويلقيها فتفتح الاولى في شق المفروزة في
اللوح ، وتفتح الثانية في الاولى ، والثالثة في الثانية ، والرابعة في الثالثة ،
وهكذا حتى اتم ادخال الابر العشر بعضها في بعض ، على ترتيب ارقامها ،
وان ذلك قد حصل بطريق المصادفة . وجاء ذلك الانسان المجادل يحاول
ان يبرهن على ان امكان المصادفة لم يزل موجوداً وغير مستحيل عقلاً ،
فماذا يكون موقف صاحبنا العاقل ، مع هذا المجادل ؟

حيران - لا ريب في انه لا يصدقه ، لأن المصادفة بهذا التتابع
والتعاقب بعيدة جداً جداً وان لم تكن مستحيلة .

الشيخ - بل انها ، في مجال الاعداد الكبيرة ، تصير مستحيلة بداعه
يا حيران .

حيران - اعتقد ان هذه البداهة تأثيرنا ما جربناه في الحياة من نمرة
تكرر المصادفات وتعاقبها .

الشيخ - كلا ، ولكن هذه البداهة تعمد في اعماق العقل الباطن على
قانون عقلي رياضي لا يمكن الخروج عنه .

حيران - ما هو هذا القانون يا مولاي ؟

الشيخ - انه قانون المصادفة الذي يقول : (ان حظ المصادفة ، من
الاعتبار ، يزداد وينقص ، بنسبة معكوسه مع عدد الامكانيات المكافئة
المترادفة) .

فكلياً قل " عدد الاشياء المترادفة " ، ازداد حظ المصادفة من النجاح ،
وكلياً كلما زاد عددتها قل " حظ المصادفة " . فاذا كان التزاحم بين شيئاً الدين
متكافئين ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين) ، واذا كان
التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة) ، لأن

كل واحد له فرصة للتبعاج مائة لفرصة الآخر ، بدون اقل تفاضل طبعاً .
والى هنا يكون الحظ في التبعاج قريباً من المزاحين ، حتى لو كانوا
مئة او ألفاً ؛ ولكن مع تضيخت النسبة العددية تضيئاً هائلاً ، يصبح
حظ المصادفة في حكم العدم ، بل المستحيل . ذلك لأنه اذا اتفق الصي
الاعي ان سحب اول مرة الرقم (١) ، قلنا ان حظ المصادفة للرقم (١)
تقترب على الاعداد الأخرى المزاجة منه بنسبة (واحد ضد عشرة) ،
واما اذا اتفق له انه سحب العدددين (١ و ٢) بالتتابع ، قلنا ان حظ
المصادفة العدد الثاني هو بنسبة (واحد ضد مئة) ، لأن كلاماً من العشرة
يزاحم (للرتبة الثانية) ضد عشرة ، فيصبح التزاحم بين مئة . واذا اتفق
ان سحب الصي الاعي الابر الثلاث (١ و ٢ و ٣) على التوالي ، قلنا ان
حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد الف) لأن كلاماً من العشرة يزاحم ضد
مئة ، وهكذا . فإذا افترضنا ان الصي سحب الابر العشر على ترتيب
ارقامها ، فإن حظ المصادفة يصبح بنسبة (واحد ضد عشرة مليارات) .

حيران - واحد ضد عشرة مليارات !

الشيخ - هذه احتجية حسابية بسيطة ، مثل احتجية الورقة الرقيقة
التي تقطع (٤٨) مرة فيصل سمكتها الى القمر . جربها واضرب كل مرة
حاصل الضرب بعشرة .

يقول حيران بن الاعصف : واخذت في الحساب ، فتبين لي في النهاية
صدق كلام الشيخ ، فقلت له :

حيران - حقاً يا مولاي ان حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد
عشرة مليارات ولكنني ، على وجود هذه النسبة البعيدة التفاوت ، لا ازال
اتصور ان المصادفة في سحب هذه الابر العشر ، على ترتيب ارقامها ،
ممكنة وغير مستحيلة .

الشيخ - سأقلبك الى ترتيب آخر في شكل آخر واعدادي اكثر : لو
فرض انك تلك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها ،
فجاءت هزة ارضية قوية قلت صناديق المزدوج على بعضها وبعثرتها

وخلطتها . ثم سألاك منضد المروف يخبرك أنه قد تألف من اختلاط المروف بالصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني ، فهل كنت تصدق ؟

حيران - نعم أصدق .

الشيخ - ولكن لو قال لك أن الكلمات العشر تولف جهة كاملة مفيدة ، فهل كنت تصدق ؟

حيران - استبعد ذلك جداً كما استبعدته في مثال الابر العشر ، ولكن لا أراه مستحيلاً .

الشيخ - ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكلملها كوتنت ، عند اختلاطها ، بالصادفة ، كتاباً كاملاً من (٥٠٠) صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تتألف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متناغمة منسجمة بالفاظها وأوزانها وقوافيه ومعانيها ومفازيمها ، فهل كنت تصدق ذلك يا حيران ؟

حيران - أبداً لا أصدقه يا مولاي .

الشيخ - ولماذا لا تصدقه يا حiran ؟

حيران - لأنني هنا أجد الاستحاللة بدبيبة حقاً .

الشيخ - ولماذا يا حiran ؟

حiran - لا أدرى يا مولاي ، ولكنني عندما اتصور أن الابر العشر أقيمت على ترتيب ارقامها بالصادفة ، لا أجد وجه الاستحاللة واضعما ربديها كما أجدتها في مثال الكتاب .

الشيخ - أتدرى ما هو السبب في ذلك يا حiran ؟

حiran - كلا يا مولاي .

الشيخ - السبب يرتكز على قانون الصادفة نفسه : فالتزاحم بين الابر المرقمة يجري بين ابر على عشرة ترتيبات ، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد إلى عشرة مليارات . وهذه النسبة ، على تفاوتها الكبير ، ليست من المليم حيث تحدث لك في عقلك تلك البدامة في ادرك الاستحاللة . ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين (٥٠٠) الف حرف على تكون (١٢٥) الف كلمة تقريباً ، باشكال وترتيبات لا تعد

ولا تمحى أبداً . وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جداً جداً لو قلت عنه انه مiliار¹ مiliار مiliار لكان قليلاً ... ويكتفيك ، لكي تدرك ضخامة العدد ، ان قulum ان الابر لو كانت (١٢) ابرة لتصبح حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد الف مiliار) ، ولو كانت (٢١) ابرة ، لتصبح حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد الف الف مiliار مiliار) . فتصور يا حيران ماذا تكون النسبة اذا كان التزامن يجري بين (٥٠٠) الف كلة باشكال وترتيبات لا تعد ولا تمحى ... ?

يقول حيران بن الأصف : وهنا سكت الشيخ الموزون وأغمض عينيه واستسلم الى سكون عيني ، كأنه يشع لي ان الغمض يعني " لأفکر ..." وبعد فترة من الصمت قال :

الشيخ - هذا في كتاب المطبعة وكلماته المحدودة يا حيران ، فما قوله في كتاب الله الأعظم وكلماته التي يقول عنها جلت قدرته (قلْ نَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لِكَلَمَاتِ رَبِّي لَتَفَقَّدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَقَدَ كَلَمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِهِ مَدَاداً) ، ويقول (ولو ان ما في الأرض من شجرة اقلام والبحر يده من بعده سبعة ابجر ما تفتقذت كلامات الله) ... ؟

حيران - هل يعني مولاي بكتاب الله القرآن وما فيه من كلامات ؟

الشيخ - ارجو ان يكون فهمك للقرآن اسبي من هذا واعمق يا حيران . فكلمات القرآن التي بين دفتي المصحف محدودة محدودة ، فلا يعقل ان تحتاج مكتابتها الى مداد ينفذ به ماء البحر ، ولا الى اقلام تندى بها اشجار الأرض .

حيران - هذا والله ، ما كنت اقوله في نفسي .

الشيخ - كلا يا حيران . واما عندي بكتاب الله ، هنا ، العالم كله ، وعنيت بكلمات الله ، كما اراد الله ، كل ما في ملكوت السموات والأرض (من شيء) محسوس من عالم الخلق ، او معقول من عالم الأمر

وكيف تنفذ كلمات ربى يا حيران وكل ذرة من مياه البحر واشجار الأرض هي من كلمات ربى ؟ بل كل ما في الكون من فرات وعناصر ،

ونظم وقوانين ونوميس ، ونِسَبٌ وروابط وعلاقة ، واقتدار واجماع واوزان ، ومُدَدَّ وآوقات وازمان ، وصور واشكال وألوان ، وحركات وسكنات وأوضاع ، واجناس واسناف وأنواع ، كلها من كلمات ربى ...

حيران - صدق الله العظيم .

الشيخ - والآن وصلنا إلى صميم الموضوع ... فتمال تصور وتخمن عدد ما في عالم الخلق (من شيء) في ملكوت السموات والأرض ، من الذرة إلى الجرة ، وعدد ما يربط بينها ، في عالم الأمر ، من روابط وعلاقة على اختلاف النوميس ، والاقتدار ، والمدد ، والأشكال ، والحركات ، والأوضاع ... ثم تعال ندرس على ضوء (العلم والقرآن) بعض ما في هذا العالم من تقدير ، وألوان ، وتنظيم ، وترتيب ، وأحكام ، واقفان ، لنعرف ما هو حظ المصادفة في تكوينه ... ?

من جملة الآيات التي مررت معي ، قوله تعالى :

- (اتاكُلْ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِأَنْدَارٍ)
 - (وَخَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْرَهُ قَدِيرٌ)
 - (وَكُلُّ شَيْءٍ عَنْدَهُ بَقْدَارٌ)
 - (وَالْأَرْضَ مَدَدَنَا وَالْقِنَا فِيهَا رَوَامِي وَابْنَتَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ)
 - (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُنَّا فِيهِ خَائِثُهُ وَمَا نَذَّلَهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ)
 - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَا مَاءَ بِقَدْرٍ)
 - (صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)
 - (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ بِلَكَهُ)
 - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأَنْسَانَ فِي حَسْنِ تَقْوِيمٍ)
 - (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُتٍ)
 - (قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)
 - (وَكَائِنٌ مِنْ آئِةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَرُؤُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مَعْرُضُونَ)
 - (سَتَرُوهُمْ كَيْلَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...)
- هذا يا حيران بعض كلام الله الذي نزل على عبده ورسوله محمد النبي

الأمي ، سليل القبيلة الأمية ، وربيب البيئة الأمية ، منذ أربعة عشر قرناً ؛
تعالى نظر ، كما أشرنا الله ، بعض ما في السموات والأرض ، على ضوء العلم ،
لترى هل في خلقه ذلك التقدير والازان والاقناع والاحسان والتقويم
التي ذكرها الله في القرآن ، ليبرهن على المخلق المقصود ضد المصادفة .

ولتري كم هو عدد الأشياء المزاجة (من فرات ، وعنابر ، واسكال ،
ومقاييس ، وأوزان ، وخواص ، وطبائع ، وقوانين ، وأوضاع ، وظروف ،
ومدد ، وازمان ، واجواء) لتكوين هذا العالم ، ثم تتسائل :
هل يعقل أن يكون قد كتب الفوز لهذا الترتيب الشامل ، الكامل ،
الدقيق ، القدر ، المزن ، المتن ، الجليل ، مجرد المصادفة ، ضد عدد
هائل من المكتنات الأخرى المزاجة ؟

ماذا يقول العلم عما في هذا العالم من تقدير وتقريب وازان واقناع
واحسان ، وعما فيه من قوانين وقوانين ؟

إذا لا استطيع ، يا حيران ، أن أقول لك كلّ ما يقوله العلم ، لأنني لا
أعرف كل ما يقوله العلم . ولكن ، أنت تعرف شيئاً ، وأنا أعرف شيئاً ،
وسنكتفي وأياك بذكر ما نعرفه أو بعض ما نعرفه ، في نطاق ما أشار إليه القرآن
من آيات صنع الله الباهرة . قال الغد يا حيران .

في الآفاق

سُرُّهُمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَكْثَرُهُ

(سورة نصيلت)

المطويات بيمنته

١

الشيخ - والآن يا حيران بأي آيات الله في خلقاته نبدأ ؟

حيران - اختيار لك يا مولاي ، لمخلوقات الله في السماء والأرض أكثر من أن تمحض ، فهل إلى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ - ليس اختيار لي ولكنني سأتابع نهج القرآن الكريم ، وختار ما اختاره فيه العلم الحكيم . فالقرآن يحصن على النظرة الشاملة الشاملة حين يقول (أوَ لَمْ ينظروا في ملائكة السموات والأرض وما خلق الله من شيء) ويقسم هذه النظرة الشاملة الشاملة حين يقول (سنتهم آياته في الآفاق وفي أنفسنا ، أشياء يخفيها بالذكر) ويتختار من آياته ، في الآفاق وفي أنفسنا ، أشياء يخفيها بالذكر ؛ فمن الغير لنا أن نتبع نفس التسلسل والتسلسل ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلت يا حيران ، لتفصيل الكلام عن كل شيء من آيات الله ، فلا بد أن نحصر الكلام في نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لتتخد منه ، كما أراد لنا العلم الحكيم ، منطقة النظرة الشاملة الشاملة .

حيران - إذاً نبدأ بأيات الله في الآفاق .

الشيخ - نعم في الآفاق .

حيران - ونبدأ بالسماء .

الشيخ - نعم نبدأ بالسماء يا حiran لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ما هو حظ المصادفة في هذا الخلق العظيم .

يقول الخلاق العظيم في كتابه الكريم :

- (والسماء بنيناها بأيدينا وانتا لم تسعون) .

- (أوَ لَمْ ينظروا في ملائكة السموات والأرض وما خلق الله من شيء)

- (ألم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيتها وما لها من فروج) .
- (الله الذي رفع السموات بغير سُرُورٍ وَرَوْنَاهَا) .
- (وَجَعَلَنَا السَّمَاءَ سَقَفاً عَفْوَطًا وَهُوَ عَنِ آيَاتِهَا مَعْرُضُونَ) .
- (الذي خلق سبع سموات طبقاً ما ترى في خلق الرحمن من تقاؤت فارجع البصر هل ترى من فطور) .
- (أَنْتُمْ أَشَدُّ كَخْلَقًا إِمَّا السَّمَاءُ بِنَيَّاهَا رَفِعَ سَمْكَهَا فَسُوَّاهَا) .
- (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إِنْ تَرَوْلَا) .
- (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقراماً نيراً) .
- (والشمسُ تجري لستقرُّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمرُ قدرناه منازل حق عاد كالمرجون اقدم ، لا الشمس يلبثي لها انت تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكـ في ذلك يسبعون) .
- (فلا أقيسُ بـ الواقع النجوم وإنه لقسمٌ لو تعلدون عظيم) .

فتعال يا حيران نظر ، كما امرنا الله ، وعلى ضوء العلم ، إلى ما في هذه السماء من شيء مخلوق بلا تقاؤت ، وبنيان مشيد بلا سُرُورٍ ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا تروج ، وإلى ما هي عليه هذه السماء من سعة تستحق ان يقول عندها خالقها بكل جبروت الالوهية : (والسماء بنيناها بأيدٍ وإيتاً لم يمصور) ، وإلى ما في بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما هذه النجوم من (م الواقع) تستحق ان تكون معاً للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم .

بماذا احدثك عن سعة السماء يا حيران ...؟ إن السعة التي عرفها العلم اليوم عن السماء لم تكن تختصر على قلب بشر في مصر الذي نزل به القرآن .

انت تعلم أن الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ الف ميل (أو ٣٠٠ الف كيلومتر) أي انه يقطع في الدقيقة (١١ مليون و ٦٠ الف ميل) ، وفي السنة الواحدة من سلينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة الف مليار ميل تقريباً) . وهذه المسافة هي التي اصطلحوا على تسميتها

(السنة الضوئية) ليعبروا بها عن ابعاد السماء المثلثة ؟ فلت قيل لنا ان ثجماً يبعد عنا سنة ضوئية فيما انه يبعد هنا ستة ملايين مليون ميل . فالقمر ، يا حيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية الى الأرض ، يصل ثوره اليها في اقل من ثنتين لأن يبعد عن الأرض ٢٤٠ الف ميل تقريباً . اما الشمس فيصل ثورها اليها في نحو ٨ دقائق لأن يبعدها عن الأرض ٩٣ مليون ميل تقريباً . فهل تدري يا حيران كم يبعد عنا اقرب نجم اليها بعد الشمس ؟

حيران - اذكر اني تعلمت في المدرسة ان ثور الشمس يصل اليها في ٨ دقائق ولا اذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ - ان اقرب نجم الى الأرض يبعد عنها اربع سنوات ضوئية تقريباً ، ومني ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريباً .

حieran - هذا شيء هائل .

الشيخ - هذا شيء ثاقب يا حieran ، فوراء ذلك (النسر الطائر) الذي يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، و (النسر الواقع) الذي يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و (السمك الرامح) الذي يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية اي (٢٩٤ مليون مليون ميل) تقريباً .

حيران - حقاً ان ذلك شيء ثاقب ، فهذا هو المائل .

الشيخ - وهذا ايضاً ثاقب يا حيران ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا الف سنة ضوئية ، ووراء مجرتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه من السدم ما هو ابعد في تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا يا حيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذي عبر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله (والسماء بيتنها بأيندرو إلما لوسعون) .

حيران - سبحان الله العظيم ... سبحانة .

الشيخ - هذا ، سعة السماء ، اما عدد النجوم فهذا احدثك عنه ... ؟ انهم في المائة كلوا يعدون النجوم بالآلاف ، ثم صاروا يعدونها باللليفين ،

ثم وصلوا الى ملليارين . اما اليوم فانهم يقدّرون عدد النجوم في المجرة التي نحن من عالمها بثلاثين ملياراً .

حيران - ثلاثة مليارات في مجرتنا وحدها ؟

الشيخ - نعم ثلاثة مليارات في مجرتنا هذه التي تسمى عندها (درب التبان) وتسمى عند الافرنج (الدرب اللاتينية) . وهذه المجرة ، التي يقع نظامنا الشمسي كلها في طرقها ، يوجد ورائها عالم السدم ومن جملته سدم المرأة المسلسلة ، بل عوالم السدم التي رأوا منها حق اليوم بالآلات التصوير (٥٠٠) الف سدم ثم قالوا لو تقدمت هذه الآلات وازدادت اقهاناً لرأينا أكثر من مليون سدم .

حيران - يا للهول ، سبعان الخلق العظيم .

الشيخ - وعن موقع النجوم بماذا احدثك يا حيران ... ؟ لقد رأى العلامة ان لهذه النجوم موقع لا تتبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها (الثوابت) ، ومنها شمسنا . وما هي بثوابت ، كما حرق العلامة في هذا العصر ، بل كلها تدور وتحجري ، مستقرّ لها ، في مجرتين مختلفتين ، متداخلة احدهما في الآخر ، كأنها فوجان من النحل مختلطان . ولكن هذا الجري يتم ويستمر في مواقعه ومداراته لا تتبدل ولا تتغير بنسبة بعضها الى بعض على كثر الدهور بذلك النظام العجيب الذي كان محل القسم العظيم .

حيران - والشمس تجري معها ايضاً ؟

الشيخ - كيف لا والشمس تجمّم من جملة نجوم هذه المجرة . إنها تحجري مثلها ومعها ايضاً ساجبة ورائها موكبها من السيارات ومن جملتها الارض .

حيران - فرج الله عنك يا مولاي كما فرجت عنّي . فقد كان العلم يؤكّد ان النجوم ثوابت ، وإن الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشائخني في معنى قوله تعالى (والشمس تجري مستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم) وقوله تعالى (وكلُّ في فلكِ يسبحون) .

الشيخ - ألم تتعلم يا حيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتحجري

والشمس معها تدور وتحجري ، انهم عرفوا ، من قبل ، أنها تدور على محورها مرة في مدة ٢٦ يوماً ، ولكنهم كانوا يحسبونها ثابتة لا تتنقل ولا تحجري ؛ أما اليوم فقد ثبت لهم ثبوتاً لا ريب فيه ، أنها تحجري ، وإن النظام الشعسي كله يجري في السماء كما يجري كل النجوم في مجرتنا وفيها ورائها جرياناً عجيناً مستقراً لها كما قال القرآن .

ومن موقع النجوم عرف العلم أن لها أقداراً ثابتة مقدرة بحسب نورها وعددتها : عدّوا منها في الماضي البعيد ستة أقدار ووقفوا ؟ ثم ما زال العلم يكتشف الجديد حتى وصلوا إلى القدر العشرين ، ثم إلى القدر الحادي والعشرين . والعجب في هذه الأقدار أنها تسير متربقة أو متدانة بحسب عدد النجوم ثانية ، وبحسب قوة نورها أخرى ، في نسب مدهشة تطرّد في عدد النجوم فتزداد تباعاً من قدر إلى قدر ، فيكون عددهنّجوم القدر الأول ١٤ نجماً ثم لا يزال يزداد حتى يصل إلى القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ في القدر الحادي والعشرين ملياراً نجماً . أما في قوة النور فالعجب أن قوة النور في تلك الأقدار تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عددهنّجوم القدر زادت قوة نور نجومه ؛ وأما بعد القدر العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل .

وترى مثل هذا التناقض بين الأبعاد في عالم الشمس . فانت تعلم أن في المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فأورانوس فنيبتون فرسوت فالمشتري ، ثم بلوتو الذي كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ في صغر حجمه وفي بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سبيلاً قاطعاً لابطال النسبة العجيبة التي سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس) .

هذا في ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتي على ترتيب آخر : فاقررها عطارد الذي يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهرة ومتوسط بعدها ٦٧ مليوناً ، فالأرض ومتوسط

بعدها ٩٣ مليوناً ، فالمريخ وبعده ١٤٢ مليوناً ، فالمشتري وبعده ٤٨٤ مليوناً ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليوناً فاوراوس وبعده ١٧٨٢ مليوناً ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٢٩٢ مليوناً من الأميال .

وما ذكرتُ لك هذه الاحجام والابعاد لأعرفك بشيء انت تعرفه ، او تستطيع ان تتعارف عليه في ابسط كتب الفلك ، واما ذكرتها لأعرفك بما تهظوي عليه هذه الابعاد من نسب مقدرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان ابعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : او لها (الصفر) ثم تليه ثانية اعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تدرج متضاعفة هكذا : (٣-٦-١٢-٢٤-٤٨-٩٦-١٩٢-٣٨٤) . فإذا أضيف الى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التي في منزلة العدد ، عن الشمس . اي انه بإضافة (٤) الى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤-٧-١٠-١٣-١٦-٢٨-٥٢-١٠٠-٣٨٨-١٩٦-١٠٠) . فإذا أخذنا اعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس (٣٦) مليون ميل كما سبق القول . ويتا ان منزلته في البعد هي الاولى فيكون رقها (٤) . فإذا ضربنا 4×9 ملايين يكون حاصل الضرب (٣٦) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الابعاد تسعة منازل في حين ان الكواكب المعروفة ثانية . فقد وجدوا ان منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب ، بل يأتي ، بعد المريخ صاحب العدد (١٦) ، كوكب المشتري الذي هو صاحب العدد (٥٢) . فما هو السر في هذا الفراغ ؟ امّا ان تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة ، واما ان يكون هنالك كوكب غير منظور في مرتبة العدد (٢٨) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، اي بين المريخ والمشتري .

ومن صفات النظام الباهر انهم وجدوا اخيراً في هذا الفراغ الشيء
الذي قدرروا انه لا بد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً بل
وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين
المريخ والمشتري ، اي في نفس المزلة التي حسوماً من قبل فارغة .

فهل هذا التناقض في موقع النجوم واقدارها ، ومواقع الكواكب
وابعادها ، كلها او من آثار المصادفة العياء يا حيران ؟

حieran - زدني يا مولاي من هذه العجائب زدني .

الشيخ - ماذا ازيدك ، خذ لك كتاباً من كتب الفلك واقرأه بودد
امانًا وخشوعاً يا حيران . بماذا احدثك ؟ أحدثك عن احجام النجوم
والشموس التي تبهر العقول ؟ أحدثك عن الاشواه التي تبهر الابصار ...
وما قولي تبهر الابصار كاني احدثك عن شمسنا .

حieran - اذا هنالك نجوم ابهى نوراً من شمسنا واكبر .

الشيخ - وما هي شمسنا هذه يا حieran في نورها وحجمها بالنسبة
لنجوم الكبيرة ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون
مليون مليون مليون شمعة) ! ولكن ما قولك اذا عرفت ان نور النجم
المسمى (الشعري للجانية) اقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة ... وان هنالك ،
في النجوم البعيدة ، شماساً نورها اقوى من نور شمسنا بعشرة مرات ...

حieran - يا للهول !

الشيخ - وما قولك اذا عرفت ان العلم اكتشفاليوم ان هنالك
نجوماً نورها اقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ الف مرة ... ؟

حieran - يا للهول الهايل !

الشيخ - الهول الهايل في احجام النجوم الكبيرة واوزانها يا حieran .
فحجم ارضنا هو اكبر من مليون مليون كيلومتر مكعب . والشمس
في حجمها اكبر من ارضنا (بمليون و ٣٠٠ الف مرة) . لأن متوسط قطر
الأرض هو (١٢٧٥٦) كيلومتراً في حين ان متوسط قطر الشمس هو
(مليون و ٣٩٠ الف) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض الى قطر

الشمس كنسبة (واحد الى ١٠٩) . ومن المعلوم ان اجسام الكواكب
تناسب وكوب اقطارها . فيكون حجم الشمس (١٠٩ مكعب) اي
(مليون و ٣٠٠ الف مرة) اكبر من حجم الارض .

وارضنا هذه وزتها (خمسة آلاف مليون مليون مليون) طن . اما
الشمس فلا استطيع ان اقول لكم كم وزتها ، ولكن اقول لكم ان كتلة
الشمس (masse) اي وزتها اكبر من كتلة الارض بقدر (٣٣٢ الف) مرة .
فاضرب وزن الارض بـ (٣٣٢ الف مرة) وانظر هل تستطيع ان تقرأ
حاصل الضرب ؟

والآن بعد ان عرفت حجم الشمس وقطرها وزتها بالنسبة الى
الارض فاني خبرك ان قطر النجم المسمى (منكب الجوزاء) هو اطول
بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه اذا اعظم من حجم الشمس
(بـ ٣٣٢ مليون مرة) تقريباً .

حيران - يا للهول الما قبل ا

الشيخ - وهذا ايضاً ضئيل وفاقد بالنسبة الى حجم (سديم المرأة المسلسلة)
الذي يضرب العلماء مثلاً ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمه وحجم
الشمس ، فيقولون لكم : (هذه الاهبة من القبار التي ورثها في شعاع الشمس
النازل من الكواكب الى ارض غرفتك كم هو حجمها وزتها تلك الاهبة) ،
بالقياس الى حجم الارض . مكذا حجم شمسنا وزتها بالقياس الى سديم
المرأة المسلسلة . وحق لهم ان يضربوا هذا المثل ، فإن كتلة سديم المرأة
المسلسلة اي وزنه يفوق قدر كتلة الشمس بنحو (الف مليون مرة) . اما
حجمه ، يا حيران ، فاعظم بكثير ... فلكي تعرف ما هو حجم سديم
المرأة المسلسلة بالنسبة الى حجم الشمس يجب ان تعرف مقدار قطره
بالنسبة لقطر الشمس الذي سبق معلمك ان طوله مليون و ٣٩٠ الف كيلومتر . فهل
تدري كم هو طول قطر سديم المرأة المسلسلة ؟ انه يبلغ نحو ٣٠ الف سنة
نورية ... اي ان حجم هذا السديم يبلغ قدر حجم الشمس (مليون
مليون مليون مليون مرة (او الف مليار مليار مليار مرة .)

سحيان - يا للهول الهايئ ... سبحان الله العظيم ... صحيط تتف هذه
الاسحاج والاذان المائنة في اللفظاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ - يحييك القرآن عن هذا فيقول لك (الله الذي رفع السموات
بغير كثيدي ترورها) ويقول لك (إن الله يُنْسِك السموات والأرضَ أَنْ تزولا) .
اما العلم فيقول ان هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التي شاهد العلامة
آثارها ، واحصوا اطوارها ، ومستوا سطوحها ولم يسبروا اغوارها ،
وعرفوا قوانينها ونوميسها ولم يعرفوا ، بعد ، اسرارها ...
ولعمري انه الحق ما قالوا ، فالجاذبية حق ، وقوانينها الحسوبة المترنة
المتناسبة المحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق الحكم
أمرا من آثار المصادقة العمياء يا سحيان ... ؟

(وما أَقْدَرُوا اللَّهَ حَقًّا فَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ) يحييه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

أَمْنَا الْجَنَّوَاء

٢

الشيخ - والآت ، دعنا ننزل الى الأرض يا حيران ، لزى على ضوء القرآن والعلم ما في خلقها وتكوينها من آيات النظام والاحكام والاتزان والاقنان والحكمة والنعم ، ثم نتساءل عن حظ المصادقة العباء الموجاه في تكوين هذا الخلق العجيب العظيم .

يقول الله تعالى :

- (الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماء فاخترج به

من الثمرات رزقا لكم)

- (الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبل لعلكم تهتدون)

- (الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبل واتول من السماء
ماء فاخريجنا به ازواجاً من نبات شئ)

- (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً)

- (والأرض مددناها والقينا فيم رواسي وابتتنا فيها من كل شيء موزون)

- (والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وابتتنا فيها من كل زوج هيج)

- (والارض فرشناها فنضم الماء دون ومن كل شيء خلقنا زوجين
لعلكم تذكرون)

- (ألم يجعل الأرض كفانا ، أسياء وامواتا ، وجعلنا فيها رواسي
شاغلات واسقيناكم ماء فراثاً)

- (أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلاها انهاراً وجعل لها رواسي

وجعل بين البحرين حاجزاً . أللهم مع الله بل أكثرهم لا يعلون)

- (او لم يروا ان السموات والارض كانتا رقما فتقنها وجعلنا من
الماء كل شيء حي أفلأ يؤمدون)

- (ورى الجبال حسبها جامدة وهي تمر من السحاب)

- (ان في السموات والأرض آيات للؤمنين)

إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها خلق الأرض وجعلها صالحة للحياة .

فتعال نظر ، كلام الله ، وعلى خوه العسل ، كيف ولماذا كانت الأرض هي السيارة الوحيدة التي أتيحت لها أن تكون صالحة للحياة ، بما خصها الله به من كثافة ، وجاذبية ، وسرعة ، وهواء ، وماء ، وغير ذلك من أسباب الحياة ، وهل كان ذلك أثراً من آثار المصادفة أم هو ألو من آثار القصد والعناية والتخطيم والحكام ؟

نحن أمام سبع سيارات كبيرة أخرى ، منها ما هو أقرب إلى الشمس من أرضنا ومنها ما هو أبعد ، ومنها ما هو أكبر من أرضنا ومنها ما هو أصغر ، ومنها ما هو أسرع من أرضنا دورانًا حول الشمس وحول محوره ومنها ما هو أبطأ ، وكلتها ، بحسب تقدير العلم الذي ارتجح أن يكون صحيحاً ، منتفقة عن الماء ، كما يقول القرآن ، أو منفصلة عن الشمس ، كما يقول العلم ، والمعنى واحد . فلماذا كانت أرضنا وحدها صالحة للحياة دون السيارات الأخرى ؟

فمطارد يدور ، كالارض ، حول نفسه وحول الشمس ، ولكنمه يتم دورة حول نفسه في مدة ٨٨ يوماً وهي المدة التي يدور بها حول الشمس . أي أنه كالقمر مع الأرض ، أحد وجهيه موجه دائمًا نحو الشمس ، فنصفه شمس ونصفه زهرير ... وكثافته تقارب نصف كثافة الأرض فالجاذبية فيه قليلة . وليس فيه هواء ، فهو بهذه الأسباب لا يصلح للحياة .

والزهرة التي قيل أن مدة دورانها على نفسها هي مدة دورانها حول الشمس وهي ٤٢٥ يوماً تتجه بأحد وجهيها نحو الشمس دائمًا مثل القمر ، ووجهها المتجه للشمس حرارته ٩٠ درجة والوجه الثاني ٢٠ درجة تحت الصفر ، وليس فيها هواء ولا ماء بل فيها بخار مسيك ، فمن البديهي أنها لا تصلح للحياة .

والمرىخ الذي قرر بعض الباحثين أن فيه أحياء ، يدور حول نفسه

كل ٢٤ ساعة مرة مثل الأرض ، ولكن دورة حول الشمس تتم في مدة ٦٨٧ يوماً - وبعده عن الشمس ١٤٢ مليون ميل - وحرارته في النهار بعض درجات فوق الصفر ولكنها في الليل تنزل إلى ٧٠ درجة تحت الصفر ، وسطحه بـ " لا يحرقه " ، ولا ماء فيه على الرأي الأرجح ، وهوأوه مؤلف من غاز الثقل من الاوكسجين ، وسماحته ثلث جاذبية الأرض فلا تكفي لحفظ الاوكسجين في هوائه ، فهو بهذه الأسباب لا يصلح للحياة أبداً وهذا هو رأي المحققين من العلماء .

والش nisi يتم دورته حول الشمس في ١٢ سنة ، ويدور على محوره مرة في كل عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل ، ودرجة الحرارة فيه ١٣٠ درجة تحت الصفر ... وكافته ربع كثافة الأرض ، ويرجعون أنه كرة من الغاز والمواد الذائبة ، فن البديهي أنه لا يصلح للحياة .
وزحل يتم دورته حول الشمس في ٢٩ سنة ونصف سنة تقريباً ، ودورته على محوره في عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل ، فيصل إليه من حرارة الشمس جزء من ٩٠ جزء مما يصل إلى الأرض ، وكثافته أقل من ربع كثافة الأرض ، ويظهر للعلماء أن مادة سطحه مائعة متحركة ، فن البديهي أنه لا يصلح للحياة ،

اما اورانوس ونبتون وبلوتو ، فمقدم صلاحيتها للحياة اظاهر لأسباب كثيرة ولا سيما ان الاول يتم دورته حول الشمس في ٤٨ سنة و٧ ايام ، ويدور على محوره في عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ١٧٨٢ مليون ميل .
والثاني يتم دورته حول الشمس في ١٦٩ سنة تقريباً ، ويدور على محوره في عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليون ميل . وبلوتو يتم دورته حول الشمس في ٢٤٧ سنة وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل ... فما رأيك يا حيران في الحياة على سيار الشتاء فيه ٤٢ او ٨٤ او ١٢٣ سنة ، والصيف فيه كذلك ، ونهاره خمس ساعات وليله خمس ساعات ... ؟

فارضنا التي من " علينا الله في آيات كثيرة بخلافها " ، وذكرنا بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام ، هي السيار الوحيدة الذي جعله الله صالحـاً للحياة :

نفريها من الشمس معتدلة . والحرارة التي تصل إليها معتدلة . وكثافتها تتفق كثافة كل السbarات ، حق الشمس . وجاذبيتها معتدلة . ودورتها اليومية معتدلة وكافية لأحداث نهار وليل معتدلين صالحين للسمعي والراحة ، ودورتها السنوية معلولة وكافية لأحداث فصول معتدلة صالحة لارواه الزروع وانضاجها . وهي تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة

فهل كان اجتماع كل هذه الأسباب المساعدة للحياة أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران - سبعان الخلاق العظيم ... لكن مولاي الشيخ اشار الى سبع مزايا جعلت الأرض صالحة للحياة . ولقرآن اقتصر على ذكر الحكمة في خلق الأرض وصلاحها للحياة اجمالاً ، لم يذكر القرب والحرارة والكتافة والجاذبية والدورتين .

الشيخ - ان المزايا التي ذكرتني بها يا حيران انما هي المزايا الرئيسية ، وسوف اذكر بما ينطوي تحتها من مزايا وخصوصيات . اما المزايا السبع فقد ذكرها القرآن بكلام يفهم العالم بواسطته ، ويفهم الجاهل ظواهره . فالقرب المعتدل والحرارة المعتدلة مشار إليها ، ضئلاً ، بما هي عليه الأرض من صلاح للحياة والزرع .

والكتافة والجاذبية مشار إليها ، بوضوح ، يقوله تعالى (الله الذي جعل لكم الأرض) قراراً ، فلولا الجاذبية ما كان لنا ولا شيء على الأرض قرار أبداً . والدورة اليومية مشار إليها بوضوح بذكر الليل والنهار ، ويدرك (مرور الجبال من السحاب) ، ويدرك الظلل وقبضه بغيباب الشمس . والدورة السنوية مشار إليها بوضوح بذكر الامطار . فهل تزيد من العلم الحكم اربن يفضل طموس .الكتافة والجاذبية ، ويشرح الدورة السنوية ، وشكل المدار ، وميل الأرض ، في عصر لم يكن للإنسانية به علم بهذه الأمور ، وفي خطاب قوم لم يسمعوا بها فضلاً عن أن يدركون معاناتها ؟

وهذه الاشارات الى ذكر الدورة اليومية ، وحصول الليل والنهار

بسببها ، كثيرة في القرآن ، ولا سيما الآيات الآتية :

(ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات أولى الألباب) .

(انت في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم يتقون) .

(ألم عز أن الله يوجع الليل في النهار ويولج النهار في الليل) .

(يكوت الليل على النهار ويكتور النهار على الليل) .
(يُغشى الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً) .

(قوله اختلاف الليل والنهار أفلأ تعقولون ؟)

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) .

(وعرى الجبال تحسبها جامدة وهي قرآن من السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء)

(ألم عز إلى ربك كيف مدة الظل ولو شاء يجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً . ثم فبضناه علينا قبضاً يسيراً . وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) .

(والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهار اذا بلالها . والليل اذا يغشاها) .

(ألم يروا انا جعلنا الليل لسكننا فيه والنهار مبصراً ان في ذلك آيات لقوم يؤمنون) .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

(وهو الذي جعل الليل والنهار خلقةً لمن اراد ان يذكّر او اراد شكره) .

(هو الذي جعل لكم الليل للسكننا فيه والنهار مبصراً ان في ذلك آيات لقوم يسمعون) .

إلى غير ذلك من الآيات التي من " الله بها على عباده بذكر الليل والنهار واختلافها ، فتعال ننظر كا امرنا الله ، وعلى ضوء العلم ، ما في خلق الليل والنهار من نظام وحكمة ، وما هو حظ المصادفة في هذا الخلق والتنظيم ؟

انت تعلم يا حيران ان حجم الأرض اصغر من الشمس بليون و ٣٠٠ الف مرة . وان كتلتها اي وزنها اقل من الشمس بـ (٣٣٢) الف مرة تقريباً . وانها اكثف السيارات جميعاً بل اكثف من الشمس لأن كثافة الشمس هي ربع كثافة الأرض . فالائل النوعي لكل جسم في الشمس اخف من القليل النوعي للجسم نفسه وهو على الأرض . وان بعدها عن الشمس (٩٣) مليون ميل . وان دورتها اليومية تتم في ٢٤ ساعة . وان دورتها السنوية ، حول الشمس ، تتم في مدة ٣٦٥ يوماً ونحو ربع يوم . وان شكل مدارها حول الشمس اهليجي . وان سرعة دورانها حول نفسها (١٠٠٠) ميل في الساعة . وان سرعة دورانها حول الشمس بمعدل (١٨) ميل في الثانية اي نحو ٦٥ الف ميل في الساعة . وان وضعها على مدارها مائل بزاوية قدرها ٧٣ درجة .

ويقول العلم لو كان حجم الأرض أكبر مما هو او اصغر ، او كان تقلها وكثافتها اقل او اكبر لاختل امور الحياة او تغير او تشه ، لأن حجمها متناسب مع سرعتها ، ومع دورتها ، وتقلها متناسب مع قوة جذبها ، فلو زاد الحجم او نقص لتغيرت السرعة والمدة ، ولو قلل جذبها لأقتلت الأوكسجين منها . ولو لا الدورة اليومية لما كان لنا ليل ونهار دائمان .

ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن الف ميل في الساعة او قلت ، كما هو الحال في بقية السيارات فكانت مثلاً (١٠٠) ميل في الساعة ، لأصبح طول النهار (١٢٠) ساعة ، واحتارت زرعونا في طيب النار وذوت في ذهري الليل ، ولاختل ميزان العمل في النهار والراسة والنوم في الليل .

ولتكن هذه السرعة ثابتة لم يطرأ عليها تبدل في ثانية واحدة منذ ملايين السنين .

ولولا الجاذبية التي تربطنا بالارض ، لطرنا عن ظهرها ، واتتمنا انتشاراً ،
خمن وبيوتنا .

ولولا التمادل العجيب بين الجاذبية ، التي تلتصقنا بالارض ، وقوة (البعد
عن المركز) (Force centrifuge) التي تطردنا عن سطحها ، لطرنا وطارت
بيوتنا ، وزحلت بمحارنا من وسط الأرض الى القطبين ...

فهل يكون هذا الصنع العظيم ، والاتقان العجيب ، والازان الدقيق
أثراً من آثار المصادفة ؟

سيران - سبحان الله العظيم .

الشيخ - ولو ثأملت ، يا سيران ، في الآيات التي ورد فيها ذكر
(التكوير وايلاج الليل في النهار والنهر في الليل) ، وطلب كل منها للأخر
حيثما ، ومرور الجبال من السحاب) ، لرأيت فيها البيان الصريح ، منذ
أربعة عشر قرناً ، لكتروية الأرض وحركتها اليومية المتنية يتم بها اختلاف
الليل والنهر .

فإن التكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض وحركتها اليومية .
إذ لا يكون معنى التكوير واضحًا ، لو نحن تصورنا الأرض مبسوطة
تطلع الشمس عليها وتعجب عنها ، كما كان رأي القدمين . لأن قوله تعالى
(يَكُوْرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوْرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ، وقوله تعالى (يَنْشِي اللَّيْلَ
النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ) ، يتجلّى فيها كلها معنى اللاحقة ، وإن تكوير كل
منها على الآخر يجري في آن واحد ، فكلما لف "الليل على النهار في جزء
من الأرض ، لف" منه النهار على الليل في الجزء الذي يليه ، ولا يتصور
هذا المعنى مع تصوّر الأرض مبسوطة ساكنة ، لأن الشمس اذا طلعت
عليها افارتها ، من اولها الى آخرها ، دفعه واحدة ، وإذا غابت عنها
اظلمت دفعه واحدة .

اما (مرور الجبال من السحاب) فإنه نص صريح في دورة الأرض
اليومية على محورها ، فتأمل يا سيران .

حيران - زدني يا مولاي ، زدني ،

الشيخ - أما الدورة السنوية المجنحة وما يلشا عنها من اختلاف الفصول الاربعة فشار إليها ، عند الذين يعلمون ويعلقون ، بتكرار ذكر المطر في آيات كثيرة سياطيك ذكرها ، فلولا هذه الدورة السنوية ما كانت الفصول ولا الامطار ولا الحياة .

فتعال نظر يا حيران ، على ضوء العلم ، ما وراء ازوال الامطار من نظام وترقيب ، فيما يتعلق بشكل الارض ودورتها ووضعها ، لترى ما هو خط المصادفة في خلق هذا النظام وتكونه ؟

يقول العلم ان سرعة الارض في دورتها حول الشمس ، وهي ١٨ ميلاً في الثانية ، لو زادت او نقصت ثانية واحدة في كل سنة بل في كل مئة سنة ، لاختل هذا النظام ، لأن الدورة ، بمرور الملايين من السنين ، ستطول كثيراً او تصرع كثيراً ، فيختل نظام الفصول الاربعة على الارض باختلال مدتها الحكمة ، ويختل نظام المطر العجيب .

ولو كان الفلنك ، الذي تدور به الارض حول الشمس ، اطول مما هو او اقصر ، كما هو الحال في بقية السيارات ، لوقوع الاختلال في مدة الفصول وزرول الامطار .

ولو ان شكل الفلنك ، الذي تدور فيه الارض حول الشمس ، لم يكن اهليجياً ، لاختل نظام الفصول الاربعة .

ولو ان الارض لم تكن (حنوا) ، اي لو ان وضع الارض على مدارها غير مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة ، لاختل نظام الفصول الاربعة المتصلة على الارض ، ولاصبح وسط الارض صحراء محترق في صيف دائم ، واصبح شبابها وجنبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو ان درجة هذا الميل زادت عما هي عليه ، لأصبحت المطافئان المعدلتان ، كالقطبين ، اما في ليل طويل وشنه طويل ، او في نهار طويل وصيف طويل . فهذه الدرجة من الميل هي الدرجة الحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب .

وباجتاع هذه الاسباب كلها ، من السرعة ، الى المسافة ، الى المدة ،
الى شكل الارض ، وشكل المدار ، الى الميل ، الى غير ذلك مما سبق ذكره
تحصل الفصول الاربعة ، ويتم الاعتدالان ، ويحصل التبخر في مياه الارض ،
وتحمل الرياح الباردة على متن الغبار الذي تثيره ، وتسوقها الى الاجواء
الباردة ليتم تكاليفها ، وت تكون حبات المطر ، ويحمل جل الرعد ، ويومض
البرق ، وتسقط الامطار التي تحيي الارض بعد موتها ...

افكل هذا النظام والترتيب والاسمام اور من آثار المصادقة يا حيران .

حيران - سبحان الله العظيم ... حقاً ان امنا الارض حذباء حنواه ...

فسبحان من (حناها) لنا لتعذب علينا ، وسبحان من (أحذبها) لتعذب
عليها وعلى كل حي .

أَخْوَنَا الصَّفَيْر

٣

الشيخ - وهذا القمر ، اخوة الصغير ، الحلو الظريف الفرير ، الذي ما
زنا نقاربه ، حق كدنا نناكبه ، ثم اخذنا نقلبه ، وبالصواريف فرشقه ...
هذا القمر يا حيران ماذا عرف الانسان ذو النفس الطئنة من اسراره ،
واختلاف اطواره ، في منازله واقداره ، وظلماته وانواره؟
يقول القرآن عن القمر :

- (ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طيباتا ، وجعل القمر فيهن
نوراً وجعل الشمس سراجا) .
- (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقراً منيرا) .
- (ومن آياته الليل والنهر والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس
ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) .
- (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) .
- (وسخر لكم الشمس والقمر داهبين) .
- (والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهر اذا جلها ،
والليل اذا ينشها) .
- (فالليل الا صباح وجعل الليل مكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك
تقدير العزيز العليم) .
- (والشمس والقمر بحسبان) .
- (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالمرجون القديم) .
- (وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا
عَدَّةَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يَفْصِلُ
الآيات لِلْعَوْمِ يَعْلَمُونَ) .

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر ، وقد جاءه أولئك الذين يعلمون ، فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار فعرفوا : أن هذا القمر جرم غير منير بذاته ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المصيبة بذاتها ، ليعكسه بدوره إلى الأرض كأ صرح القرآن ، وعرفوا أنه قابع للأرض ، يسابرها ويدور معها ومثلها من الغرب إلى الشرق ، وإن له دورتين ، دورة حول نفسه ودورة حول الأرض ، ولكن حركة الله سبحانه قضت أن يتم الدورتين في وقت واحد ، وإن يبقى متوجهاً بأحد وجهيه إلى الأرض فلا زرى وجهه الثاني أبداً ، ذلك أن الأرض تم دورتها حول نفسها في يوم كامل وتم دورتها حول الشمس في سنة كاملة تدور فيها على نفسها ٣٦٥ دورة . أما القمر فيتم دورته حول نفسه وحول الأرض مما في مدة شهر قمري واحد أي أنه في المدة التي يدور بها حول الأرض لا يدور على نفسه إلا مرة واحدة يتوجه بها دائمًا بوجه واحد نحو أحد الأرض لا يوليها ظهره أبداً .

وعرفوا من بدائع صنع الخالق الحكيم ، أن القمر في دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ، ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشفاً متدرجاً يبدأ به هلالاً ثم بسراً ثم يرجع كالمرجون القدم حق يختفي ويطلع بعد ٢٩ يوماً و ٨ ساعات هلالاً جديداً نعرف به عدد السنين والحساب .

وعرفوا أيضاً أن القمر أقرب أجرام السماء إلى الأرض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريباً ، وإن كتلته هي جزء من ٨٠ جزء من كتلة الأرض .

وعرفوا أن الكواكب الأخرى أفاراً منها الصغير الصغير الذي لا يزيد قطره على بضعة أميال ، ومنها الكبير الكبير الذي يبلغ قطره ٣٤٠٠ ميل ، ومنها السريع السريع الذي يتم دورته حول كوكبه في ست ساعات ، ومنها البطيء البطيء الذي لا يتم دورته إلا في ستين . وعرفوا أنه ما من قمر يتم دورته في شهر واحد إلا قر هذه الأرض التي يجعل

الله سنتها بقصوها الاربعة اثني عشر شهرأ ...
عرفوا كل هذه الاسرار التي اشار اليها القرآن وادركتوا ما في هذا
النظام والاحكام من حكمة ونعمة فذالوا :

لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الارض في آن واحد ، ولو
لم يكن يقطع في دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر نحو ٤٩ دقيقة لما كان
يتنقل في منازله المختلفة لترى وجره المتغيرة ، ولما كان يتم الدورة في
شهر واحد ليستأنف شهرأً جديداً ندرف به عدد الشهور والسنين والحساب .

ولو كانت المسافة بين القمر والارض اقل مما هي او اكبر ، او كان
حجمه اكبر مما هو او اصغر ، او كانت دورته اطول او اقصر لاختل
هذا النظام كله ، بل ربما زال القمر كله ، لانه لو قرب من الارض لزاد
جذبه فاصبح المد على الارض طاغياً يغمر اليابسة كلها ، وان تزايد هذا
القرب جذبته الارض فوقع عليها . ولو بعد عن الارض لتعطل عمل المد
والجزر بقلة الجذب ، وان زاد بعد جذب القمر كوكب آخر اليه وحرمنا
من نعيمه . ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبه ، ولو صغر لقللت . ولو
كانت دورته مثل دورة بقية التواضع الا قمر قصيرة قصيرة في ساعات ،
او طويلة طويلة في مئين لاحتل هذا النظام الذي جعل الله لنا به القمر
حسباناً ، وعاد شهراً القمري اسبوعاً او ستين ...

فهل كل هذا النظام والاحكام الذي خص الله به القمر في حركاته
الحسوبية ودوراته المكتوبة ، ومنازله المقدمة واقداره المسخرة ، وانواره
المكتسبة واطواره المرتفعة ، افر ، آثار المصادفة العجيبة يا حيران ... ؟
حيران - سبحان الخالق العظيم . والله ان هذا كله لا يحتمل بالمصادفة .
ولكنني فهمت من كلام الشيخ انه يوشك ان يكون كالساخر من عمل
العلماء الساعين للوصول الى القمر .

الشيخ - كيف فهمت هذا ؟ وكيف تظنني انني اصغر من العلم والعلماء
وانا ادل لك على الله بما قاله العلم والعلماء ؟ ولكنني اذا كنت ساخراً فانما
انا ساخر من اولئك الذين تأخذهم كبرياتهم العلم ، من غير العلماء ، فيظنون

ان ارسال صاروخ الى القمر او انسان الى الفلك ضربٌ من مشاركة الله
في كبرياته وتجيرونه ، والتصرف في ملائكته وهم لو عقلوا لادر كانوا
ان الكبار ياء لذلك الذي خلق الانسان فسواء ، وينور المقل هداء ،
وخلق هذا القمر الذي يشدّون اليه الرحال ، ويعقدون على بلوغه الامان ،
ومق شاه سبعائه شفته ونثره ، ومع النجوم يمثّله ، وطمس أفراء .
يؤمن بهم يعلم هذا الانسان قدره وقدرته .

الانتبیق الأعظم سر

٤

الشيخ - وهذا الإنبيق الأعظم ، يا حيران ، الذي نصبه واضعه ورقصه راقمه بين السماء والأرض ، فسطوح بخاره ، وأوقد ناره ، وطير بخاره ، وائل سحابه ، وأسال قطاره ، وجعل الجبال قراره ، وفتق منها انهاره ، فجدى بها مداره ، من الذي أحكم أسراره ...؟

لقد حدثتك عند ذكر دورة الأرض السنوية ، عن الأمطار ، وذكرت لك بعض أسرارها . فاسمع الآن ماذا يقول القرآن عن عملية المطر التي تكون بهذا الإنبيق العظيم :

- (أَفَرَأَيْتَ مَاذَا الَّذِي تَشْرُبُونَ . أَلَّا تَرَكُمُوا مِنَ الْمَرْءَنِ إِمْ مَنْ مِنَ الْمَنْزُولِنَ) .

- (إِنَّمَا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْأَرْضَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُنَّ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) .

- (إِنَّمَا الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَثْبِرُ سَحَابًا فَيُبَسِّطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَا يَشَاءُ وَيَحْمِلُهُ كَيْفَا فَتَرِي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) .

- (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثْبِرُ سَحَابًا فَسَقَاهُ إِلَى بَلْدَ مِيتٍ فَاحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) .

- (هُوَ الَّذِي أَرْلَى مِنَ السَّمَاءِ مَا هُنَّ فَأَحْيَنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْقَوْمِ يَسْمَعُونَ) .

- (وَهُوَ الَّذِي أَرْلَى مِنَ السَّمَاءِ مَا هُنَّ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلَّ شَيْءٍ) .

- (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدِيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْتَثَ سَحَابًا ثُفَالًا سَقَاهُ لَبْدَ مِيتٍ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءُ ...) .

- (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدِيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ

ماه ظهوراً . لشغفي بـه بلدة ميـتا وتشـقـيـه ما خـلـقـنـا انـعـاماً
وأـنـامـيـ كـثـيرـاً . ولـقد صـرـفـناـهـ بـيـتـهـمـ لـيـذـكـرـوـاـ فـأـبـىـ اـكـثـرـ
الـنـاسـ إـلـاـ كـفـورـاـ) .

— (وزـلـنـاـ مـنـ السـاءـ مـاهـ مـبارـكاـ) .

— (وـازـلـنـاـ مـنـ السـاءـ مـاهـ بـقـدـرـ) .

— (وـازـلـنـاـ مـنـ الـمـعـصـرـاتـ مـاهـ تـجـاجـاـ) . لـخـرـجـ بـهـ حـبـاـ وـنبـاـ .
وـجـنـاتـ الـفـانـاـ) .

— (أـلـمـ قـرـىـنـ أـنـ اللهـ اـنـزـلـ مـنـ السـاءـ مـاهـ فـأـخـرـجـنـاـ بـهـ غـرـاتـ مـخـلـفـاـ أـلـوـانـهـ) .

— (أـلـمـ قـرـىـنـ أـنـ اللهـ اـنـزـلـ مـنـ السـاءـ مـاهـ فـسـلـكـهـ يـنـابـيعـ فـيـ الـأـرـضـ) .

— (أـلـمـ قـرـىـنـ أـنـ اللهـ يـنـجـيـ سـحـابـاـ ثـمـ يـؤـلـفـ بـيـنـهـ ثـمـ يـجـعـلـهـ زـكـاماـ
فـتـرـىـ الـوـادـقـ يـخـرـجـ مـنـ يـخـلـلـهـ) .

— (أـوـ لـمـ يـرـوـاـ إـنـاـ نـسـقـ المـاءـ إـلـىـ الـأـرـضـ بـالـبـرـزـرـ فـتـخـرـجـ بـهـ زـرـعاـ
قـاـكـلـ مـنـهـ انـعـامـهـ وـأـنـفـسـهـ أـفـلاـ يـصـرـوـنـ) .

تأمل يا حيران في هذه الآيات وفي التي مررت قبلها ، وأثئم النظر
على صوب العلم في عملية المطر ، التي اعتدنا أن زراها عادية بسيطة ، نهر
بها معرضين بما فيها من نظام عجيب واحكام غريب ؟

أليست مدهشة يا حيران هذه (القططارة الإنبيق) السماوية التي خلقها
الله ، ورتبها وجعلها ، بفضل ذلك التنظيم ، الذي ذكرناه ، وبسرّ توأميس
الحرارة ، والتباخر ، والتنافر ، والتمييع ، تسير سيراً دورياً مطروداً ، في
حلقة من التحول المتواصل المتتجدد ، الذي يستوي به بعضه ببعض ، ويستعيض
بعضه عن بعض ، ويعود كرتمه في كل عام ، قيـرـدـ العـارـيـةـ وـيـؤـدـيـ الـآـمـانـةـ ،
بـلـ تـأـخـيرـ فـيـ مـدـةـ وـلـاـ تـخـلـفـ عـنـ وـعـدـةـ ، وـلـاـ تـأـنـصـ فـيـ قـطـرـةـ ، وـلـاـ زـيـادةـ
فـيـ ذـرـةـ ؟

ومـاـ كـانـتـ هـذـهـ الـأـعـجـوـبـةـ الـكـبـرـىـ ، اـعـجـوـبـةـ الـمـطـرـ ، تـمـ اـبـداـ بـهـذاـ
الـتـنـاءـ الـدـوـرـيـ لـوـلاـ اـجـتـاعـ كـلـ هـذـهـ الـأـسـبـابـ مـنـ الـمـرـكـةـ وـالـمـدـارـ وـالـوـضـعـ
وـالـنـارـ ، وـالـسـاعـ سـطـوـحـ الـبـحـارـ ، وـحـرـارـةـ الشـمـسـ وـالتـبـخـرـ وـالـتـكـاثـفـ وـالـتـمـيـعـ

والتجمع والتعجب والثاقل والريح والبرق . فهل يعقل ، يا حيران ، ان مجتمع كل هذه الاسباب والتواتر والقوانين دفعة واحدة بطريق المصادفة العجيبة ؟

حيران - اعوذ بالله ... ويل للمكابرین .

الشيخ - وهذا البحر العجيب ، يا حieran ، الذي يؤلف بعض اجزاء الانبياء ، بماذا احدثك عن اسراره ، التي من الله علينا بذكرها في كثير من الآيات تنبئنا لنا الى عظيم قدره ؟
يقول القرآن :

- (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتفوا من فضله ولعلمكم تشکرون) .

- (ربكم الذي يُزجي لكم الفلك في البحر لتبتفوا من فضله انه كان بكم رحيمًا) .

- (ألم ير ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله) .

- (وآية لهم أتا تحملنا ذريتهم في الفلك المشحون) .

- (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام) .

- (والفلک التي تجري في البحر بما ينفع الناس ...) .

- (وما يستوي البحران هذا عذب سائغ شرابه وهذا ملتح أحاج ومن كثلي تأكلون مما طرياً وتستخرجون حلبة تلبسوتها وترى الفلك مواخير فيه لتبتفوا من فضله ولعلمكم تشکرون) .

هذه الآيات ، يا حيران ، فيها اكثر من نعمة واكثر من حكمة : فيها حكمة خلق البحر بذاته وعلى الوضع الذي هو فيه . وحكمة كونه مالحا ، مع ان غيره من مياه البحيرات والأنهار جمل عذباً . ونعمة امتلاكه بالاسماك ، التي هي من اعظم الاغذية للانسان ، بل من اعظم مخازن الطعام واغاثها ، وابقائها على الدهر ، وحكمة كونه يحمل الفلك ، ونعمة سير الناس فوقه لابتغاء فضل الله من طريق التجارة .

حيران - لقد فهمت نعمة خلق الاعمال ، ونعمة سير الناس في البحر للتجارة ، ولكنني لم افهم حكمة ختن البحر بذاته ، ولا نعمة كثorna
يحمل الفلك .

الشيخ - نعم ان خلق البحر بذاته ، على الوضع الذي هو فيه ، ينطوي على اكبر نعمة واعظم حكمة .

قولا هذا السطح العظيم من الماء الذي يغمر ثلثي الكرة ، مفرقًا بين القارات ، لما تمت عملية التبخر ، ولما تمت عملية المطر الدورية ، التي هي قوام الحياة على الارض ، ولو جعل موجة عذبة لدب اليه الفساد ، بما فيه من الحيوانات ، وبما يصب فيه من سوقط اليابسة . ولو جعل في ناحية منعزلة من الكرة ، غير مفرق بين القارات ، لتعطلت دورة الماء العجيبة في صعوده من البحر ، بالتبعير ، وعوشه الى البحر من طريق الانهار ، وعادت اليابسة مستنقعاً لمياه الانهار ، فتأمل يا حيران ...

اما ذكر الفلك وجريانها في البحر ، بنعمة الله ، فاما اراد به القرآن الاشارة الخفية الحكيمية الى سر هذا الناموس العجيب المعروف (بقانون ارشميد) ، الذي تُبنى على اساسه الفنك ، وتسبح الاعمال . فهل كان هذا الناموس ، الحكم الملازم للدقيق ، الذي يجعل كل جسم غاطس في الماء يتلقى ، من الاسفل الى الاعلى ، دفعاً عمودياً قائمًا مساوياً لوزن الماء المعادل لحجمه ، فاذا فاق وزن الجسم وزن الماء عرق ، وان نقص عنده طفلاً ... هذا الناموس الذي بسره تسحب الاعمال ، ويستطيع الانسان ، ان يبني سفناً كالاعلام ضخامة واسعها وشهوتها ووزنها ، ويحملها ، لو شاء ، من حديد ، ويحملها ، في جوفها ، ما شاء من الاقفال ، ويَصْمِن ، بالحساب الدقيق ، ان يلقاها في البحر فلا تغرق ... هذا الناموس هل كان أثراً من آثار المصادفة يا حيران ...

حيران - حقاً لقد كنا في خفة حما وراء ذكر الفلك وحملها في البحر من اشارة الى هذا الناموس .

الشيخ - وهكذا ترى ، يا حيران ، ان الله ، سبحانه ، خلق المخلائق ،

والنومين ، وجعلها بقدرته وسكته تتلاقى وينتفي بعضها الى بعض ،
ويؤازر بعضها بعضاً في تسير آلة هذا الكون العظيم : فجعل الماء أصل
لحياة النبات والحيوان . وجعل المطر الدوري وسيلة لسفر الارض في وقت
حاجتها . وجعل البحر معيناً دافعاً للنهر . وجعل التبخر والتكافف وسائل
لتكونيه ورفعه وازلاله . وجعل هذا البحر نفسه غذاناً للطعام ، وطريقاً
للتجارة ، وعاملأً للذلك ، التي تجري بما ينفع الناس ، على اساس قانون
يتحكم في الماء والهواء ، على السواء ، ليرفع السفن العظام الثقيلة ، كما
يرفع الابغية الحقيقة . فهل يعقل ان يكون اجتماع كل هذه الاسباب
والنومين وترابطها أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران - هذا والله مستحيل يا مولاي .

الشيخ - وهذه الجبال يا حieran ، التي اتي القرآن على ذكرها في عدة
آيات ، ما هو حظ المصادفة في تكوينها وارسالها ورفع سماكتها وشق
مخاورها ؟

يقول القرآن :

- (واله جعل لكم ما خلق ظللاً وجعل لكم من الجبال اكتنانا) .
- (وهو الذي مدَّ الارض وجعل فيها رواسيًّا وانهاراً) .
- (ألم تجعل الارض كفاناً . أخينة وأمواقاً . وجعلنا فيها رواسيًّا واسقيناك ماة فُراتاً) .
- (والقى في الارض رواسيًّا ان تميد بهم وانهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون) .
- (والارض مددناها والقينا فيها رواسيًّا وانبتنا فيها من كل شيء موزون) .

هذا بعض ما قاله القرآن عن الجبال ، وفيه الصراحة ، وفيه الاشارة : أنها أوئاد تمسك الماء ، وأنها اكتنان ، وأنها سواجرز الرياح ، ومعاقد الشلوج في اعاليها ، ومرانش للبياه في اواسطها ، ومخازن في اكتنانها ومخاورها وكهوفها ، ومنفذ النابيع والانهار في اسفلها . اما العلم فيقول ايضاً

لولا الجبال ما كانت ينابيع الدافئة ، والأنهار الدائبة ، التي تسقي اراضينا ، طيلة أيام السنة ، ثم تصب في البحر ، لتؤدي اليه العاربة . فلو كانت الأرض كلها (مهاداً) منخفضة ، او ميسوطة ، لسقط المطر والثلج والبرد عليها ، وتفرق فيها مبدداً مشتتاً ، او تجمع في المطمئن من الأرض ، لا سبيل له الى ان يجري فيها ينابيع وانهاراً ، تصب في البحر ؛ فيختل بهذا الركود سقي الأرض ، بل ربما اختلت عليه المطر من اساسها لو لا هذه الجبال ... حيران - والله ما كان يخطر ببال اى تكون للجبال كل هذه الفوائد .

الشيخ - وانا والله كنت اعجب من امتنان الله سبحانه على عباده بذكر الجبال . ثم كشف لي ان القرآن لا يكاد يذكر الجبال الا ويدرك معها الماء او الانهار او النبات ، فادركت انه لولا خلق هذه الجبال العالية ، التي جعلت مسافع للامطار ، ومعاقد ومراشح للثلاج التي تذوب بالتدريج ، ومخازن عالية مرتفعة للمياه ، ومنافذ للأنهار تتدفق منها الى السهول ، لتعطلت ، كما يقول العلم ، عملية سقي الأرض ، ورداً مياه الامطار الى البحر ، بل تعطلت عليه المطر من اساسها ، فهل كان كل هذا التنظيم أبداً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران - سبحان الخالق العظيم .

الشيخ - ودع عنك هنـك هـذا التـرقـيب العـجـيب الـذـي يـتم بـه تـيسـير الـطـرـ ، واسـئـل نـفـسـك يا حـيرـان ، عـن هـذا المـاء الـذـي قـالـ القرآن فـيـه (وـجـعـلـنـا مـنـ المـاء كـلـ شـيءـ حـيـ) ، وـقـالـ العلم اـنـه اـصـلـ الـحـيـة لـكـلـ حـيـ عـلـى الـأـرـضـ ، مـا هـوـ حـظـ الـمـصادـفـةـ فـيـ تـرـكـيـبـهـ مـنـ عـنـصـرـيـهـ وـجـعـلهـ اـصـلـ الـحـيـةـ ؟

هـذا المـاء الـذـي هو اـصـلـ الـحـيـةـ مـؤـلـفـ ، كـما تـعـلمـ ، مـنـ (الاـوكـسـيـجنـ وـالمـيـدـروـجـيـنـ) ، وـلـكـنـ الـأـوـلـ لا يـتـحـدـ بـالـثـانـيـ فـيـ درـجـةـ حرـارـةـ عـالـيـةـ وـلـاـ فـيـ درـجـةـ حرـارـةـ وـاطـيـةـ ، فـكـيـفـ اـنـقـقـ ، عـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ دـوـنـ سـواـهـ مـنـ الـكـوـاـكـبـ ، اـنـ اـصـبـحـتـ حرـارـةـ مـلـائـمـةـ لـاتـحـادـ هـذـينـ الـمـنـصـرـيـنـ وـتـكـوـنـ هـذـاـ الـمـاءـ الـذـيـ هوـ اـصـلـ الـحـيـةـ ؟

قد تقول ان الاتحاد يمكن ان يقع بالصادفة . ولكنك سوف ترى ، اذا حدثتك عن العناصر ، ان اتحادها لا يتم الا على اساس قانون دوري ثابت من جهة احكامه ان عدد الالكترونات في سطح النرة لا يكون اكبر من ثنائية وان العنصر المضييف لا يستقبل العنصر الضيف ولا يتآخذ معه الا اذا كان عدد الكتروناته الضيف مساوياً لعدد الاسرة الفارغة عند المضييف . فهل كانت هذا القانون من عمل المصادفة ؟ وهل كان من عمل المصادفة ايضاً ان عنصر الاوكسجين يستطيع اضافة عنصر الهيدروجين والاتحاد معه لي تكون لنا هذا الماء الذي تقوم به حياة كل حي على الأرض ...

هندایا انجمن

6

الشيخ - وهذا الهواء الذي به تحفي ونعيش نحن ، وكل الاحياء على الارض من حيوان ونبات ، ما هو حظ المصادفة في تكوينه ، وتوفيره ، وتسخيره للحياة ، من مصنع لا يتوقف سيره ، ولا يتضىء خيره ، مما دامت الحياة على الارض ؟

حيران - لقد حدثني يا مولاي عن الانبيق الاعظم (مصنع الماء) العجيب ، ولكني ما كنت احسب ان الهواء مصنعا ، بل الذي اعلمك ان الهواء شيء موجود متوفر ميسور بمحيط بالارض ، فما معنى ان له (مصنعا) لا يتوقف سيره ولا يتضىء خيره

الشيخ - تعلم يا حيران ان الهواء مؤلف من الاوكسجين بنسبة (٢١) بالمائة ، ومن النتروجين بنسبة (٧٨) ومن بعض الغازات الاخرى . والاوكسجين عنصر طيار سريع الانفاس فمن شأنه ان يفلت او تتصه الارض ، فلماذا لم يفلت كله كما افلت من كواكب اخرى ، ولماذا لم تتصه الارض كله . وكيف اتفق ان يهي منه في الهواء ٢١ بالمائة لا اكثر ولا اقل ، وهي النسبة اللازمة لحياة كل حي ، ولو زادت لاحتصرت زروعنا وغاباتنا عند اقل قدرة في الجو ، ولو نقصت لاختفتنا . فهل كان تحديد هذه النسبة أولاً من آثار المصادفة يا حيران

اما مصنع الهواء فالسر في تكوينه وتنظيمه ادق واعظم والحكمة في انتاجه اعجب واحكم :

ذلك ان اجسامنا تفتقر الى توليد حرارة دائمة ، والحرارة تفتقر الى وقود ، والوقود هو الاوكسجين الذي تنفسه فيدخل من طريق الرئتين ويحرق طعامنا . ولكن كمية الاوكسجين في الهواء محدودة ، ولا بد لها

على ححر الدبور ، ان تتفقد ، لأن الاوكسجين الذي تأخذه يتحدد ، بالاحتراق ، مع الكربون الذي في طعامنا ، فيتكون من هذا الاحتراق (ثاني اوكسيد الكربون) وهو س قاتل لنا نافذه بالزفير الى الهواء . فلا بد ، اذا استمر الحال على هذا المثال ، ان يتفقد ما في الهواء من الاوكسجين ، فما العمل ؟

من حكمة الخلق ان النبات قد جعل مفترقا في حياته وغذيه وتكون من ماره الى الكربون ، وانه لا يستطيع تناوله من الطبيعة مباشرة ، بدل قُضي عليه ان يتناوله من طريق (ثاني اوكسيد الكربون) ، ولكن كمية ثاني اوكسيد الكربون لا بد ان تتفقد فما العمل ؟

هنا تجلست حكمة الخلاق العظيم باعجوبة (المقابلة) بيننا وبين النبات : فثاني اوكسيد الكربون ، كما علمنا ، سم قاتل وغذاء كامل في آن واحد . هو سُم للحيوان وغذاء للنبات . وهو ينبع من اتحاد الكربون مع الاوكسجين ، على اثر كل احتراق . فتحن عندما تنفس الاوكسجين ، ونخرق طعامنا ، ثم نفخ ثاني اوكسيد الكربون ، لا ندري ، ونحن نتخلص بالزفير من هذا السم القاتل ، اتنا نرسله (هدية) منا الى عالم النبات الذي يستخدم منه غذائه ويحفظ به حياته وينتج به ماره ؟ فان اوراقه تأخذ هذا السم القاتل ، وبتفاعل كيميائي سحري عجيب مدهش ، يحصل بين المادة الخضراء التي فيها وبين ضوء الشمس ، تحمله الى عنصر (الكربون والاوكسجين) . امسا الكربون فيأخذه النبات ويدفعه بالله المتص من جذوره ليصنع منه لنا (هدايا) الشكر من ازهار وثمار ، واما الاوكسجين فيلطفه ليزد لنا ، بالمثل ، نسمة الحياة ...

وهكذا اوجدت قدرة الخلاق ، بهذه التنظيم العجيب ، (مصنعاً داماً لتقديم الاوكسجين لنا والكربون للنبات ، ولو لا هذه المقابلة المدهشة تعطلت الحياة على الارض ...)

فهل كان كل هذا امراً من آثار المصادفة العجيبة يا جيران

حيوان - سبحان الخلاق العظيم ، حقاً انه لصنع مدهش يكاد يكون

اعجب واسعك من مصنع المطر .

الشيخ - وهل كان من قبيل المصادفة ، يا حيران ، ان يقول القرآن
للناس ، قبل ثلاثة عشر قرناً من الدهر :
(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ بِهِ نَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ
فَأَنْجَرَ جَنَّتَاهُ مِنْهُ خَضِيرًا شَخْرَجَ مِنْهُ حَبَّاً مُتَرَاكِيًّا ...) .

حيران - لم الهم يا مولاي .

الشيخ - لم قفهم لانك لم تتأمل في الآية . يقول الله : (فَانْجَرَ جَنَّاتَهُ ،
إِيٰ بِلَاهٍ ، نَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ) ، ثم يقول (فَأَنْجَرَ جَنَّاتَاهُ ، إِيٰ مِنَ النَّبَاتِ ،
خَضِيرًا) ، ثم يقول (شَخْرَجَ مِنْهُ حَبَّاً) ، فلن يعود هذا الضمير في
قوله (شَخْرَجَ مِنْهُ حَبَّاً) ؟ أيعود للهاء ، ام للنبات ، ام للخضير ؟
حيران - ظاهر انه يعود (للخضير) ، ولكن ما معنى ان يخرج الله
الحَبَّ من الخضير ؟

الشيخ - هنا سر الاعجاز في الآية يا حieran ؛ بل هنا الاشارة للسر
الذى لا يزال عند العلماء سرًا الى اليوم .

لقد عرف العلم ، كما قلت لك ، ان بناء النبات وغذاؤه من (الكريون) ،
وان النبات يأخذ هذا الكريون من ثاني او كسيد الكريون ، ذلك السم
القاتل ، وعرف العلم ان النبات يحمل ثاني او كسيد الكريون الى عنصرين
(الكريون والاوكسجين) ، فيأخذ الكريون ويذيه بالهاء المتصن من جذوره
واغصانه ، ويصنع منه كيانه وثاره كلها ، ولكن كيف يحمل النبات
(ثاني او كسيد الكريون) الى عنصريه ؟

هذا الاعجموية . لقد وجد العلماء ان هذا (الحل) يحصل نتيجة
لتفاعل كيماوي عجيب بين المادة الحضراء التي في خلايا الاوراق الماء
الكلوروفيل (Chlorophylle) وبين ضوء الشمس . وهذه الكلمة اليونانية
مؤلفة من (Khlōros) و معناها الأخضر ، و (Phullon) و معناها الورقة .
ولكن كيف يحصل هذا التفاعل الكيماوي العجيب بين ضوء الشمس والمادة
(الحضراء) ؟ هذا سر لم يزل العلم يعده اعجموية من اعجوبة المخلق .

وكلّ ما عرفه العلماء انه لولا المادة (الأخضراء) هذه لما حصل تفاعلاً ، ولما امكن (حلّ) ثاني او كسر الكربون الى عنصري (الكربون والأوكسجين) ، ولما امكن للنبات ان يأخذ غذائه ، وهو الكربون ، ويصنع منه ثماره

فهل كان تكوين هذا المصنوع للهواء ، وخلق هذه المادة الأخضراء ، وتحويل السم بها الى غذاء ، وتنظيم ذلك التهادي الدوري بين الجيران ، بهذه الأحكام والاتفاق ، أثراً من آثار المصادفة يا سhiran ... ؟

الفندق الكبير

٦

الشيخ - وهذا الفندق ، الذي بناء لنا صاحبه وركته ، وحاء وحرائه ،
ولجنته وطرائه ، وبكل الحفارات والنعم بجهاته ، ما هو خط المصادفة
فيه يا حيران ؟

حيران - اي فندق هذا يا مولاي ؟

الشيخ - فندق هذه الارض ، الذي ننزل به في سفرنا من المهد الى
البعد ... ، هذا الفندق الذي لمجد فيه المأوى ، والدف ، والنار ، والنور ،
ومطمئناً تقدم لنا فيه الواقع الماكل والمشرب ، من العلوم والآيات
والحضار والفوائد ، حتى الحلوى ، وأصناف الملابس التي تقينا فر الشتاء
وحر الصيف . ألم تلاحظ ما فيه من تصميم وعناية واتقان ، يا حيران ؟
انظر الى حجارته الصغيرة الصغيرة ، التي يتكون منها هذا الفندق
المهيب ... هذه المادة التي فتشوها وحللوا ، والذراتها وصلوا ، والي
نوافتها دخلوا ، والى فلقها توصلوا ، وعلى طاقتها حصلوا ، فخرّبوا واحرقوا
واهلكوا وقتلوا ، أترام عرفوا حقيقتها ام يجهلوا ... ؟

وهل دفهم ما رأوا فيها ، من التركيب الفريض ، والتنظيم العجيب ،
والتنسيق الساحر والتصميم الباهر ، على انها اثر من آثار المصادفة العجيبة ؟
كلا ثم كلا يا حieran . فرجل العلم كان ، في عصر مضى ، ينظر الى
ظاهر المادة ، ولا ينخدع الى احتشائها واجوافها ، ويروي (العناصر) في
تعدداتها ، فلا يدرك سر تناقضها واتلافها ، ويبصر النور بالوانه فلا
يدري سر توعها واحتلافها ... اما اليوم فقد نفذ الى الصمم ، فرأى
الله عنده ...

فلو سأل سائل علماء العصور البعيدة من اي شيء تكون مادة هذا

الكون لا يحابه أنها تتكون من ذرات العناصر الاربعة (التراب والماء والنار والهواء) . ثم تقدم العلم فعرفوا أن هذه العناصر الاربعة تتكون هي نفسها من عناصر وعناصر ، وإن هذه العناصر الكثيرة تتكون من أجزاء صغيرة لا ترى ولا تتجزأ . ثم فقر العلم قفترته الكبيرة في الفتن الماضي فعرف أن تلك الأجزاء الصغيرة التي كان يحسبها لا تتجزأ ، لأنها أصغر شيء يمكن تصوره ، مؤلفة من أجزاء ، أصغر منها بكثير هي الذرات (atoms) التي تبلغ من الصغر ، يا حيران ، أن قطر الواحدة منها يقدر بخمسين مليون جزء من (البوصة) وزنها يتراوح على اختلاف العناصر بين جزيئين تقريباً و ٣٩٥ جزء من (مليون مليار ميليار جزء) من الفرام .

حيران - يا للعجب !

الشيخ - وهذا الحجم يراه العلماء عظيماً بالنسبة لحجم الالكترونات والبروتونات التي تتألف منها الذرة ، ولأنني يقرّبوا لنا تصور الفارق ضربوا مثلاً (كما فعلوا بين الهمامة والارض وسيجيّم المرأة المسلمة إن كنت قد ذكر) فقالوا أن الفرق بين حجم الذرة كلها وبين حجم الالكترون الذي فيها هو كالفرق بين قرة العين وهذه الفرقا التي نحن فيها يا حيران ... حيران - يا للعجب العجائب . أيكون هذه الذرة وهي بذلك الصغر جوف وأجزاء ؟

الشيخ - نعم يا حيران إنهم عرفوا أن للذرة غلافاً تدور فيه نواة أو نويات كثيرة . أما الغلاف فهو مولف من الكترون (electron) واحد أو الكترونات كثيرة بحسب العنصر ، وأما النواة فتتألف من بروتون (Proton) واحد أو بروتونات كثيرة ومن نويرون (Neutron) واحد أو نويرونات كثيرة ، إلا في الهيدروجين فلا نويرون فيه .

حيران - ما هي هذه الالكترونات والبروتونات والنويرونات ؟

الشيخ - الالكترون عبارة عن وحدة كهربائية سالبة ، والبروتون عبارة عن وحدة كهربائية موجبة ، والنويرون عبارة عن وحدة كهربائية محيدة (neutre) لا سالبة ولا موجبة .

حيران - اذا ، أصبحت المادة والعالم كله ونحن معه عبارة عن وحدات او شحنات كهربائية ؟

الشيخ - هذا هو الواقع يا حieran ، فالمادة التي يتألف منها العالم ونحن معه عبارة عن طاقات كهربائية متجمدة بشكل ذرات وعناصر . وقد جاء العالم اثنين بنظرية النسبية يقول للعالم (ان المادة والقوة شيء واحد) ثم صدق رأيه عندما امكن فلق الذرة وتحويل مادتها الى قوة .

حieran - اذا كانت المادة والقوة شيئاً واحداً ، وقد امكن ان تتحول المادة الى قوة ، كما ثبت عملياً بخلق الذرة ، فلا مانع من ان يثبت يوماً امكان تحويل القوة الى مادة .

الشيخ - ليس هذا بعيد . ألسنت ترى نفسك بهذا اقرب الى الايان بامكان خلق مادة العالم من العدم . (إن " القوة " فهو جمِيعاً) يا حieran ... (إن " الله قويٌّ عَزِيزٌ") يا حieran ...

حieran - ما حدثني مولاي قبل اليوم عن فلسفة النسبية .

الشيخ - ليست النسبية فلسفة ولكنها نظرية عملية عضماً ، وسأحدثك عنها اذا شئت ، اما الان فدعوني اتم لك وصف الذرات لأريك ما فيها من نظام واحكام ، فارشادك الى وجود النظام هو همي وبنفي .

حieran - الامر لك يا مولاي .

الشيخ - من عجائب النظام والتنسيق ان عدد الالكترونات في مدار الذرة الخارجي (الذي سيناه غلافها) يكون بعدد البروتونات التي في نواةها ، فاذا كان في نواتها بروتون واحد كان في المدار الكترون واحد كما في الهيدروجين . واذا كان في النواة بروتونان كان في المدار الكترونان وهكذا يتدرج العدد واحداً واحداً من اخف العناصر الى اقليها وزنة ذريها وهو الاورانيوم . وبهذا التعادل المعمير بين الالكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة ، اما النوترات (المعايدة) فان عددها في نواة الذرة قل او كثر لا يتعادل مع عدد الالكترونات لانها معايدة ، فتأمل يا حieran بهذا التنسيق العجيب .

واعجب من هذا يا حيران واعظم هو ذلك القانون الدوري الذي يتحكم في ترتيب الالكترونات في مدار الذرة بل مداراتها ، ويتحكم بالتالي في تأليف الناصر المختلفة وتركيبها ، تبعاً لترتيب الالكترونات وعددتها . ذلك انهم وجدوا ان موقع الالكترونات في خلاف الذرة تنظم في ترتيب (ثانية) فاما بلغ عدده الالكترونات في مدار الذرة السطحي الثانية (ثانية) فاما بلغ عدده الالكترونات في مدار الذرة السطحي الثانية (ثانية) فاما بلغ عدده الالكترونات في مدار الذرة السطحي الثانية (ثانية) اكتملت حركة هذا السطح بل امتلأت امسّته الثانية فلم يمكّن يتسع لالكترون آخر ، فاما كان للعنصر n الالكترونات اخذه الناصف مركزاً له في مدار ثان من خلاف الذرة ، وهكذا حتى تنتهي الامساقة الثانية في المدار الثاني ثم في الثالث فالرابع الى النهاية ثانية .

واعجب من هذا ان اتحاد الناصر ببعضها يتمشى على اساس هذا الترتيب **الثاني** في السطح تمشياً فيه الكثير من (ادب الصياغة) . ذلك ان اتحاد الناصر اما يحصل بين الالكتروناتها ، فاما كان عدد الالكترونات العنصر الضييف في سطح الغلاف اقل من ثانية اي كان عنده امسّة فارغة فانه يستطيع بكل رحابة صدر ان يستقبل ويضيف في هذه الامسّة الفارغة عنصراً آخر ، بشرط ان تكون عدد الالكترونات العنصر الضييف يقدر عدد الامسّة الفارغة عند العنصر الضييف . فالعنصر الذي في طبقته الخارجية ثانية الالكترونات لا يستطيع ان يستقبل احداً في ضياعته ، وهو معذور ، اما الذي في طبقته الخارجية سبعة كهارب فانه يستطيع الاتحاد بعنصر آخر في طبقته الالكترون واحد ، والذى في طبقته الخارجية ستة الالكترونات يتحدد مع الذي في طبقته الالكترونات ، وهكذا .

ولما كان اختلاف الناصر الاصلية في الكون اغا هو باختلاف عدد الالكتروناتها كما سبق البيان ، ومقى عرف (الوزن النوري) لأى عنصر عرفت خواصه كلها ، فقد استطاع العالم الرومي (منديف) ان يصنّف الناصر بحسب وزنه النوري ، فوضع لها جدولأ في سلم صاعد متدرج ؛ ولكنه فوجيء بفشل (الفراغ) الذي فوجيء به علماء الفلك بين المريخ والمars كلام تذكر يا حيران ، فوجد ان درجات السلم الدوري للعناصر تطرد

بتتابع لا فراغ فيه الا في ثلاثة عناصر ؛ فاما ان يكون هذا (القانون الدُّورِي) غير مطْره وغير صحيح ، واما ان يكون صحيحاً ومطْرداً فلا بد حيلثـ من وجود هذه العناصر الثلاثة المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة .

ومن العجيب ان مندلـيف الذي كان مؤمناً بصحـة قانون الدُّورِي اخذ يؤكد ان هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الارض ، بل انه استطاع على اساس وزنها النـوري الذي يأقـي في الدرجات الفارغة ان يحدد كل الخواص الكـيمـاوية التي لها كـانه يراها . ومن المدهش حقاً يا حـيرـان ان مندلـيف اسعـده الحـظـ ان يـرى قبل موته في سنة ١٩٠٧ صـدق نـبوـةـ العـلـمـيةـ ، فقد اكتـشـفـ العـلـمـاءـ العـنـاصـرـ المـفـقـودـةـ ، وكان لـكلـ واحدـ منهاـ نفسـ الوزـنـ النـوريـ وكـلـ الخـواـصـ الـكـيمـاـوـيـةـ التيـ تـنبـأـ بهاـ منـدـلـيفـ . فـهـلـ يـعـقـلـ ياـ حـيرـانـ انـ يـكـونـ هـذـاـ النـظـامـ العـجـيبـ والـقـرـيبـ الغـرـيبـ فيـ النـرـةـ وـفـيـ الـمـحـرـةـ عـلـىـ حدـ سـوـاهـ أـوـاـ منـ آـثـارـ الـمـصادـفـةـ الـعـبـيـاءـ ؟

حـيرـانـ - لقد صـدقـ الشـيـخـ حينـ قالـ انـ الـعـالـمـ قدـ نـفـدـ الـيـومـ منـ الـمـادـةـ الـصـمـيمـ فـرـأـيـ اـهـمـ عـنـدـهـ .

الـشـيـخـ - وهذا النـورـ ياـ حـيرـانـ ، الذيـ اـتـىـ الـقـرـآنـ عـلـىـ ذـكـرـهـ فيـ آـيـاتـ كـثـيرـةـ ، ماـ هوـ حـظـ الـمـصادـفـةـ فيـ خـلـقـهـ وـتـكـوـينـهـ وـتـنـظـيمـ نـوـامـيسـهـ وـقـوـافـينـهـ . وـتـنـوـيـعـ أـلـوـانـهـ وـتـصـرـيفـهـ فيـ الـأـبـصـارـ ؟

يـقـولـ الـقـرـآنـ :

- (الـمـلـهـ الـذـيـ خـلـقـ السـيـارـاتـ وـالـأـرـضـ وـجـعـلـ الـظـلـمـاتـ وـالـنـسـوـرـ) .

- (وـمـاـ يـسـتـوـيـ الـأـعـنـ وـالـبـصـيرـ) وـلـاـ الـظـلـمـاتـ وـلـاـ النـورـ وـلـاـ الـظـلـلـ وـلـاـ الـحـسـرـوـرـ) .

- (قـلـ أـرـأـيـتـمـ أـنـ جـعـلـ اللهـ عـلـيـكـمـ الـلـيـلـ سـرـمـداـ إـلـيـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ ، مـنـ اللهـ غـيرـ اللهـ يـأـتـيـكـمـ بـضـيـاءـ أـفـلاـ تـسـمـعـونـ) .

- (فـلـاـ أـقـسـمـ بـمـاـ تـبـصـرـونـ وـمـاـ لـاـ تـبـصـرـونـ) .

نـاـ هوـ هـذـاـ الضـوءـ الـذـيـ نـرـىـ بـهـ الـأـشـيـاءـ ، وـمـاـ هوـ هـذـاـ الـذـيـ اـقـسـمـ

الله باتنا نبصره ولا نبصره ، وهو ، جلت قدرته ، لا يُقْسِمُ فِي الْقُرْآنِ
إِلَّا بِأَعْظَمِ آيَاتِهِ مِنَ الْخَلْقَاتِ ؟

ان الاشعة التي تصل الى ارضنا من الشمس ومن كل كواكب مضيٍّ
تأتي عبر الفضاء او عبر (الأثير) ، كما كانوا يقولون ، مهتزة باهتزازات
مختلفة في عددها ، اي في امواج مختلفة في اطوالها ، ولكن ابصارنا لا
تستطيع ان ترى من هذه الامواج الا جزءاً قليلاً جداً ، وهي الامواج
التي تحدث ألوان الطيف الشمسي السبعة . اما الامواج الاخرى الكثيرة
التي تأتي في السلم تحت الامر ، وفوق البنفسجي ، فلا تراها ابصارنا ،
لانها "خلفت حاجزاً" عن رؤيتها ، بل قل ان هذه الامواج ما خلقت
لشرى وتبيضر .

واختلاف الامواج في اطوالها ، هو الذي يفرق بينها في الوانها
وتأثيراتها : فاطول الامواج التي يقدر طولها بالاميال ، ولا تصر عن ست
موجات في البوصلة ، هي الامواج التي تؤثر في اللاسلكي . فاذا قصرت
الامواج عن ذلك اصبحت تحدث الحرارة ، فسميتها (امواج الحرارة
المظلمة) لاننا لا نراها ما دام طولها لا يزيد عن جزء من ثلاثة الف
جزء من البوصلة . فاذا تجاوزت هذا الحد بسرعتها تصبح قادرة على
التاثير في ابصارنا ، فسميتها (امواج الضوء) وهي التي تحدث الوان الطيف
الشمسي السبعة . وينتظر لون هذه الامواج المرئية باختلاف سرعتها ،
فعندما تكون سرعتها في البوصلة الواحدة (٣٤) الف موجة ، تحدث الضوء
الاحمر ، فاذا قصرت عن ذلك تحدث البرتقالي ، ثم الاصفر ، ثم الاخضر ،
ثم الازرق ، ثم النيلي . فاذا زاد قصرها كثيراً ، واصبحت الامواج متقاربة
البنفسجي . فاذا ازداد قصرها عن ذلك تصبح (غير منظورة) وتحدث الضوء
الضوء المسئى (فوق البنفسجي) الذي يظهر لنا تأثيره في المواد الكهرومغناطيسية .
ووراء ذلك سلام كثيرة ، فان العالم المنظور ليس الا شيئاً ضئيلاً
بالنسبة الى العالم غير المنظور . فالامواج الاثيرية المعروفة حتى الان تنتظم

في أكثر من (٢٧) سلماً، المنظور منها سلم واحد، والسلام الآخر غير منظورة.

فهل فهمت يا حيران معنى قوله تعالى : (فلا أقْسِمُ بِمَا تُبصِرُونَ وَمَا لَا تُبصِرُونَ) ؟ وهل يعقل يا حieran ان يكون هذا الترتيب والتحديد والتنظيم أثراً من آثار المصادفة ؟

حيران - سبحان الخالق العظيم ، ولكنني ارى هولاي ينكر وجود الاثير الذي كان العلماء بمحمرين على القول بوجوده .

الشيخ - ما احد من العلماء الذين قالوا بوجود الاثير ، يعلم ما هو الاثير ، ولكنهم فرضوا وجوده فرضاً ، لأنهم وجدوا انفسهم امام امور زعموا انه لا يمكن تعليلها إلا بفرض وجود الاثير ، وقادوا الضوء على الصوت فقالوا انه لا بد من وجود وسيط يتخلل الاشياء ، ويعمل على نقل التأثير من جسم الى جسم . فانه عندما ينطلق مدفع ، مثلاً ، من مسافة بعيدة ، ويصل صوته اليانا ، نتسائل ، ما الذي انتقل من المدفع الى آذاننا ؟ فلا نجد شيئاً قد انتقل ، ولكننا نجد الوسيط الذي يتخلل بيننا وبين المدفع ، وهو الهواء ، قد اهتزّ باطلاق المدفع ، فوصلت اهتزازاته الى اساعنا . ولكن هذا الهواء الذي صارخ ان يكون وسيطاً لنقل الصوت ، ليس بوسطي صالح لنقل النور . فاننا اذا كنا ننتظر الى فور مصباح كهربائي يشع من مسافة بعيدة في ريح طيبة ، ثم هبّت زوبعة هوجاء لم نجد ان الزوبعة تحدث في النور اضطراباً او تغيراً ، كما تحدث كثيراً من الاضطراب والتغير في صوت المدفع . واما اخليانا كرة زجاجية من الهواء ، وركلنا فيها بعد التخلية ، جرساً ومصباحاً كهربائين ، ثم اطلقنا تياراً كهربائياً على الجرس لم نسمع له صوتاً ابداً ، واما لو اطلقنا تياراً كهربائياً على المصباح رأينا قد ادار حالاً ، فندرك بهذا ، ان الهواء ليس هو الوسيط الذي ينقل الضوء ، هذا الوسيط هو الذي اطلق عليه العلماء اسم (الاثير) بدون ان يعرفوا مقتضيه . ولكن التجارب العلمية ثبتت عكس ذلك وجود الاثير ، والقياس بين الصوت والضوء قياس مع الفارق . فالصوت هو في

حقيقة صدم للهواء وهزّه هزات مختلفة تصل إلى آذاننا ، فلولا وجود الهواء لم يكن صوت ؟ أما الضوء فإنه أمواج الأشعة تسير في الفضاء بلا حاجة إلى وسيط .

وسواء كان الإثير شيئاً موجوداً ، أو أمراً مفروضاً ، فإن الذي يهم في حديثي ، يا حيران ، إن أكشف لك داعياً عن ناحية المذكرة والنظام في الخلق ، فهل تنبئ إلى ما جعل الله من فرق ، في الانتقال البنا ، بين الصوت والنور ؟

وهل تصورتَ ماذا يكون حال إسماعنا لو أن الصوت كان ينتقل البنا كالنور ، من الشمس والكتواكب واجرام السماء ؟ أو عُكس الامر فاصبح النور ينقل البنا بواسطة الهواء ؟ اذن "لاختل" السمع واختل الإبصار ... فهل كان كل هذا التمييز والتنظيم والاحكام أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران - زدني يا مولاي زدني .

الشيخ - وهذه النار يا حيران ...

حيران - ولكن مولاي لم يحدثني عن (النسبية) كما وعدني .

الشيخ - أراك ثلح في السؤال عن النسبة كأنها تطلق بالك .

حيران - كيف لا تطلق بالي وهي تقلب الأوليات العقلية والبدويات رأساً على عقب حين تذكر ان الخط المستقيم هو اقصر الخطوط بين نقطتين ، وتدعى ان الابعاد ليست ثلاثة بل اربعة احدها الزمن ، الى غير ذلك من الغرائب .

الشيخ - من اين عرفت هذا ؟

حيران - قرأته في الصحف السيارة وسمعته من كثير من الناس .

الشيخ - لا أأخذ يا حيران حقائق العلم عن صحف الاخبار ، ولا تلاقها من افواه غير العلماء ، ولا تدع عقلك يتماذا في مجال الأوليات والبدويات ولو خذلتك عنها علم الأرض قاطبة ، ولا تُصدق ان عظيمَا كائنتين يتناقض مع عقله قينكر البدويات .

ان الشترين لم يقلب التفكير ولكن صحيح بعض جوانبه ، ولم ينكر البدويات العقلية ولكن نبهنا الى ان تدخل في فهمها وادرايتها حساب

المكان والزمان والحركة اللواقي يقع فيهن الشيء المذرك . فالنسبية حينها تقول ان الخط المستقيم ليس اقصر الخطوط بين نقطتين تدخل في حسائص تحديب الارض التي تتصور عليها الخط " المستقيم مستقيماً " ، وما هو كذلك بل هو يتعدد وينبع مع سطح الارض ، فلا سبيل الى ان تتصور اهـ اقصر الخطوط بين النيويورك وباريس مثلاً هو المستقيم ما دمنا نقيس على سطح الارض المحدب ، ولكن اذا قسنا المسافة في باطن الكرة بين النقطة التي تقع فوقها النيويورك والنقطة التي تقع فوقها باريس فان البداهة التي تتحكم بان المستقيم هو اقصر الخطوط بين نقطتين تبقى سليمة على حالها . وحيثما تقول النسبية ان الابعاد ليست ثلاثة بل اربعة احدها (الزمن) فانما تقرر ذلك بالنسبة الى الجسم المتحرك لا الجسم الثابت الساكن ، وبالنسبة للمكان والزمان اللذين تقع فيها الحركة ويقوم بها الشخص المدرك .

وبما انه قد ثبت علياً انه ما من جسم في الكون من الذرة الى ال مجرة الا وهو في حركة دائنة بسرعات مختلفة . وبما انه قد ثبت ايضاً ان الاجسام تتقلص وتتکشن في خط اتجاه سرعتها تتقلصاً نسبياً بزداد بزداد السرعة وينقص بنقصها . وبما انه قد ثبت ان كتلة المادة هي صفة نسبة ايضاً بزداد قيمتها بزداد سرعة الجسم . وبما انه ثبت ايضاً ان بين الكتلة والطاقة تناسب مطلقاً اي ان الطاقة لساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء فعدد وحدات الطاقة في جسم من الاجسام يساوي دائماً عدد وحدات كتلته مضروباً بمعدّ ثابت وهو مربع سرعة الضوء . وبما ان هذا التناسب الثابت بين الطاقة والكتلة اي القوة والمادة يجعلها شيئاً واحداً ، فكلما زادت الكتلة زادت الطاقة ، وكلما فنيت الطاقة من جسم نقصت كتلته ، وبهذا صارت المادة شيئاً قابلاً للفناء . وبما ان الزمن نفسه يختلف ادراكه عند شخصين مدررين يقف احدهما في كوكب والثاني في آخر باختلاف سرعة كل واحد من الكوكبين ، لأن الزمن هو تعاقب الحركات كما تعلم ، وبهذا اصبح قياس الزمن نسبياً ايضاً . فقد تتج عن كل هذه الحقائق العلمية التي خلصنا لك عدة نتائج علمية منها ان تصورنا

لابعاد الاجسام المتحركة لا يجوز ان يقوم على اساس ابعادها المكانية الثلاثة وهي الطول والعرض والعمق التي نعرفها ، بل لا بد ان يدخل فيه عنصر (للزمن) اي عنصر السرعة التي تحكم كاملاً على (طول) المادة وفي (كتلتها) وفي (طاقتها) وبالتالي في طول مدة بقائها او فنائها ... وهكذا لم يعد لنا ان ننظر الى المادة والطفل والكتلة والطاقة والمكان والزمان نظارات متفرقة وتابعة (بطلاق) ، بل صار حقاً علينا ان ننظر الى الاشياء المدركة نظرة نسبية تخرج بيهما بين مكانها وزمانها وحركتها وسرعتها . وهذا هو معنى (النسبية) (Relativité) . فهل رأيت فيه يا حيران شيئاً يقلب العقولات او ينكر البديهيات ؟

اما كنت تحسب يا حيران اي اتهرب من ذكر (النسبية) لانها تبعد عن الايات ؟

حيران - هكذا كنت احسب

الشيخ - كلا يا حيران كلا . فالنسبية بما قررتنه من عدم مطلقة الزمان والمكان اوضحت ما قاله الفرزالي قبل الف سنة وقررتنا الى اليمان بالله ربنا قررتنا من الوحدة بين المادة والقوة ، ومن تحويل المادة الى طاقة وفنائها ، وبها استنتاجه من عدم استحالة (الخلق والفناء) خلافاً لمبدأ لفائق ان (لا شيء في الطبيعة يخلق ولا شيء ي消滅) ، ذلك المبدأ الذي كان يتتحكم في عقولنا ويسيطر علينا اليمان بالخلق بعد العدم ... هذه للنسبية قد قررتنا ، بكل هذا ، الى اليمان وقربتنا من الله .

حيران - اذن كان اشتئن من المؤمنين بوجود الله .

الشيخ - لم يكن مؤمناً فحسب ، بل كان يرى انه ما من عالم جعري بتفنن الى بعض امرار الحكمة والنظام في الخلق الا ويكون ايمانه بالله عظيماً ، بل انه ليروى ان العلم لا يستقيم في مشيته بلا ايمان ، وان اليمان لا يستقيم بغير العلم ، وفي هذا كله يقول وما اروع ما يقول :

أن أجمل هزة نسمة نشعر بها هي تلك الهزة التي تغزونا عندما

نقف على عتبة البقاء من باب النسب . اتها النواة لمعرفة الحق في كل فن وكل علم . وانه لم يلت ذلك الذي يكون غريباً عن هذا الشعور ، فيعيش

مستفلاً رعباً ، من غير أن تجد روعة التعجب إلى نفسه سبيلاً . إن جوهر الشعور الديني في صيغته هو أن نعلم بأن ذلك الذي لا سبيل إلى معرفة كُنه ذاته موجود حقيقةً ويتجلى باسم آيات الحكمة وأبهى آثار المجال التي لا تستطيع ملائقتها القليلة المسكينة أن تدرك منها إلا صورها الجينية في السطح دون الدقائق في الأعماق) .

ثم يهتف بإيمان العالم الذي يدرك ما بين الإيمان بوجود الله والعلم من تعاون : (أي إيمان عيق بالحكمة التي بني عليها هذا الكون كان إيمان كپلر ونيوتن ؟ واي شوق لكتاب كان شوقها لأن يريا أضال شاعع من نور العقل المتجلي في هذا الكون ؟ ... ابني لا استطيع ان اتصور عالمًا حقيقةً لا يدرك أن المبادئ الصحيحة لعالم الوجود مبنية على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل . ان العلم بلا إيمان ليس يشي مشية الاعرج ، وإن الإيمان بلا علم ليتأسس تأسيس الأعمى .)

حيران - هذا عظيم يا مولاي .

الشيخ - والأكيد دعمنا يا حيران توجع إلى الفتنى وإلى النار التي يجعلها صاحبه في مطابخه وغرفه .

هذه النار التي أشار إليها القرآن في بعض الآيات ، ومن علينا بها ليذكرنا بوجود القصد والحكمة في خلقها ، قل لي ، يا حيران ، ما هو خط المصادقة في إعداد عذتها ، وهي عناصرها ، وتوفير مادتها ، وتقديرها وجعلها كامنة ، وتسليط الإنسان على توزيتها ، هذه الحاجة ، يتحققها
لراميس محددة وخصوص معينة ؟

يقول القرآن :

- (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي شُوَرْوْنَ . أَلَيْتُمُ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشَوْنَ . تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْنِفِينَ . فَسَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .)

- (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ .)

اما العلم فيقول ان النار هي عبارة عن ظاهرة لتزاييد الحرارة الناتج من احتراق بعض الاجسام ، وان (الاحتراق Combustion) بمعناه العام ، هو عبارة عن ظواهر كيماوية تحصل عند اتحاد جسم من الاجسام مع الاوكسجين . ولكن الاحتراق الذي يولد الحرارة انما يحصل من اتحاد الاوكسجين مع الكربون) . وهذا الكربون موجود في الطبيعة في اجسام مختلفة من الجمادات والاحياء ، ولكن اعظم وجوده واينسره في النباتات ؛ فالنسبة النبات ، كما تعلم ، كلها من الكربون ، بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد في تركيب جسم النبات وغذائه وثاره . فهل ادركت الان ، يا حيران ، ما تتطوی عليه هذه الآيات ، وما اعظمها واوضحها (تذكرة) في بيان القدرة والحكمة ؟ فالنار من اعظم الضروريات لحياة الانسان ، في دفنه وطعامه وصناعته . ولو وجدت مكونة كلامه والهواء لاهلكت الحياة ، او كانت خطراً دافئاً عليها . فانتظر كيف اعد الخالق لها نوميسها ، وعناصرها ، وجعلها (كامنة) في الشجر الاخضر كمونا بالقوة ، وسلطنا على قوريتها ، عند الحاجة ، وقدر المزوم ، وجعلها لنا متعة وتذكرة تذكر بها (حيثا لستخرجها من مكennها في الشجر الاخضر الطري المائي الذي لا تتوقع كون النار فيه) ، تليسك القدرة العظيمة والحكمة الباهرة التي انشأت لنا شجرة النار . فان هذا التذكرة بما يشير عجب البدوي السافر ، ويدله على قدرة الخالق ، كما يشير عجب العالم ، فيدرك ما وراءه من اسرار القدرة والحكمة والنظام والقصد والتصميم . فهل كانت هذه النار ، يا حيران ، هذه النار (غير المكونة بالفعل ، ليقال انها تكونت بالصادفة العجيبة ، بل مُعدّة ومهيأة لتكون بالقوّة ، ومتوقفة على عمل يلتعمها ويخرجها عن كمونها عند الحاجة ، وفقد نوميس دقائقه) ؟ هل كانت هذه النار التي من الله علينا بها ليدركنا بوجوده ، أولاً من آثار المصادفة العجيبة ، يا حيران ؟

حيران - سبحان الله العظيم .

الشيخ - وهذه النباتات ، يا حيران ، التي اقى على ذكرها القرآن في

آيات كثيرة، وذكر ذكر (الختانها في الألوان والثمرات) ما هو حظ المصادفة في تكوينها، بأواعها وأشكالها وطعومها وروائحها وخصائصها ومنافعها، وهي قنبلة في تراب واحد، وتُنسق باء واحد؟ يقول القرآن :

- (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعَةٌ سُجَّلَوْرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْتَابٍ
وَزَرْعٌ وَنَخْيلٌ مِثْوَانٌ وَغَيْرُ مِثْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ
وَنُفَضِّلُ بِعَضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَارٍ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .)

- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا مِنْ
ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ أَوْ أَنَّهَا ...)

- (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا مِنْهُ نَبَاتٌ
كُلُّ شَيْءٍ فَأَخْرَجَنَا مِنْهُ خَضِرًا ثُخْرَجُ مِنْهُ حَبَّا
مُشَرَّكًا وَمِنَ النَّخْلِ إِنَّ طَلَمِهَا فِيَوْانٌ دَاهِيَةٌ وَجَنَّاتٌ
مِنْ أَعْتَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشَتَّبِهَا وَغَيْرُ مُشَتَّبِهِ
أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرٍ إِذَا أَنْتُمْ وَيَنْعِمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَارٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .)

- (وهو الذي ازل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه
تُسِعُونَ يُنْبِتُ لكم بما الزرع والزيتون والنخيل والأعناب
ومن كل الثمرات ان في ذلك لذة لقوم يتفكرون .)

- (وَالْأَرْضَ مَدَدَنَا وَالقِنَا بِهَا رَوَامِيَ وَابْنَتُنَا فِيهَا مِنْ كُلِ زوج
بَهِيجٌ . قَبْرَةٌ وَذَكْرٍ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مِبَارِكًا فَانْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٌ وَسَبَّابَ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بِاسْقَاتِهِ
طَلَمَعَ نَضِيدٌ . رِزْقًا لِلْعِبَادِ ...)

- (وَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرِ فَاسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابِ
بِهِ لَقَادِرُونَ . فَانْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخْلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا
فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ مِنْهَا

تبثُّ بالدهن وصين للاكلين .)

- (فلينظر الانسان الى طمامه ، اتا صبّتنا الماء صبا ، ثم شقّنا الارض شقا ، فأنبثنا فيها حبا ، وعنبًا وقضبًا ، وزيتونا ونخلا . وحدائق علبًا ، وفاكهه وأبا ، متعًا لكم ولانعامكم .)

فانظر كيف يسوق القرآن الحجة البالغة على وجود الله وقدرته ب مختلف الآيات الدالة على ان هذا التكوين أثر من آثار القصد والارادة والحكمة ، لا من أثر المصادفة العفية ،

ان العلم نفسه يقف مدھوشًا أمام «هذه القدرة التي جعلت الارض الواحدة تنبت الواقعًا مختلفاً من النباتات ، فيقول العلماء ان العناصر التي تتألف منها كل النباتات معلومة ، وكلها تتغذى من الارض من تراب واحد ، وتستقي بماء واحد ، وتتنفس من هواء واحد ، وتتصنع غذائهما وثمارها من كربون واحد ، فالاقرب الى المصادفة ، انت تنبت كلثها نوعاً واحداً . فما هو السر الذي يجعلها تختلف بعضها عن بعض في الثمرات والأكمل ، كما قال القرآن ، حتى لو زرعنا في مساحة لا تزيد على ذراع مربع من الارض ، الحلو والحامض والمرّ والسام ، وسقيناهما بماء واحد ، نجد أن كل صنف يخرج ثماره المختلفة المتميزة من دون اقل اختلاط او امتزاج ... ؟

لقد عرف العلم اليوم ، ان الله جلت قدرته جعل في بنور النبات ، كما في بيوض الحيوانات ، عناصر التخطيط النوري "للخلية" ، حسب نوع النبات ، وبهذا التخطيط يتبع سيره في تكوين الثمرات والأكمل على اختلاف الوانها وثراتها ، فهل كان هذا التخطيط النوري العجيب أولاً من آثار المصادفة يا حيران ؟

ثم انظر كيف اختار القرآن من اروع النباتات التي تبلغ الملايين ، الحب والزيتون والتخييل والاعناب والرماد ، شخصها بالذكر من بين كل الثمرات التي تنفع الناس . ليشير الى وجود القصد و (العناية) في الخلق : فلما تعلم ان الاغذية التي تحتاج اليها تتألف ، من المواد النشوية السكرية

الكربونية ، والمواد الدهنية ، أما البروتين فسيأتيك بيان القرآن لمناسبة عند ذكر الانعام . وأما الثلاثة الأولى ، فالنشوية منها تستخرجها من المحبوب على اختلافها ، والسكرية الكربونية تستخرجها من الأعشاب والنخيل والرمان ، وأما الدهنية فتستخرجها من الزيت ... فتأمل يا حيران في أسرار الخطاب : انه خاطب العرب ، اذ خاطبهم ، باشيه يعرفونها ، ووجهه المنّ بها ظاهر لهم ، ومخاطب من ورائهم اقواما علم الله انهم سوف يأتون ، بعد اكثار من الف سنة ، ليفهموا من ذكر هذه الانواع ، ما ينطوي تحتها من عناصر التغذية الاولية الضرورية للانسان ، فضلا عن الحيوان الذي خصه بذكر الاعشاب .

حيران — ارى القرآن يكتئن من ذكر الزيتون ، ويصف شجرة بانها مباركة ، وقد ادخلها في ضرب المثل عن نور الله .

الشيخ — الزيتون شجرة مباركة ومقدسة عند جميع الامم ، التي عمرت حوض البحر المتوسط من قديم الزمان ، وكانت عندهم رمز (الحكمة) و(الخصب) و(المجد) ، وهي اكثـر ما تنبت في هذه البقعة المتوسطة التي هي ، كما وصفها الله (لا شرقية ولا غربية) وفي ما جاورها من الارض المقدسة ، مهد المدنيات ومهد الديانات السماوية كلها ...

وكيف لا تكون مباركة وقد باركها الله ، حين جعلها ، في عالم النبات ، من اعجـب آيات خلقه ، الدالة على قدرته ، وحكمته ، وعجائبه ، بما اكتـمنـا لـنـا فـيـهـا مـنـ غـذـاءـ وـدـفـاءـ وـنـارـ ، وـنـورـ ، ما كـنـاـ نـرـجـوـ وـلـاـ نـتـوـقـعـ ، وـلـاـ يـخـطـرـ بـبـالـنـاـ ، انـ يـكـوـنـ كـامـنـاـ كـلـهـ فـيـ مـنـهـ الشـجـرـ ذاتـ الـوـرـقـ الدـائـمـ الـخـضـرـةـ ، الـقـيـاسـ عـنـهـ الـدـهـنـ عـذـاءـ اـصـيـلاـ لـاـ بـدـائـنـاـ ، وـصـيـفـاـ لـطـعـامـنـاـ ... دـفـقـاـ لـاجـواـفـاـ ، وـنـسـتـخـرـجـ النـارـ ، وـالـنـورـ ، مـنـ زـيـتـهاـ هـذـاـ ، الـذـيـ يـكـادـ يـضـيـهـ وـلـوـ لـمـ تـسـكـنـ هـنـاكـ ... (نـورـ عـلـىـ نـورـ يـهـدـيـ اللهـ نـورـهـ مـنـ يـشـاءـ) يا حـيـرانـ ...

حـيـرانـ — نـورـ عـلـىـ نـورـ .. يـهـدـيـ اللهـ نـورـهـ مـنـ يـشـاءـ ...

الـشـيـخـ — وـهـذـهـ الـحـيـوانـاتـ ، ياـ حـيـرانـ ، مـنـ الدـوـابـ وـالـطـيـرـ ، الـقـيـاسـ ذـكـرـهـ

القرآن في آيات كثيرة ، وأشار إلى اختلافها وقد خلقت من أصل واحد ، هو الماء والتراب ، ما هو سطح المصادفة في خلقها وتكونها ، واختلاف الأوعيـاـ وأشكالها ، وأقدارها وأعضائها وقوامها ، والوانها واصواتها ، ومناقبها ومضارها ؟

يقول القرآن :

– (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ فَتَسْأَلُهُمْ مَنْ يَشْيَى عَلَى بَطْنِهِ وَمَنْ هُمْ مَنْ يَشْيَى عَلَى رَجْلَيْنِ وَمَنْ هُمْ مَنْ يَشْيَى عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .)

– (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ .)

– (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ لَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِهِنَاجِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْتَالُكُمْ .)

– (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَا يَجْعَلُوْهُ .)

– (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فَانِيـاـ بـهـ ثـرـاتـ مـخـلـقاـ الـوـانـهـاـ وـمـنـ الـجـيـبـالـ جـهـدـ بـيـضـ وـحـمـرـ مـخـلـفـ الـوـانـهـاـ وـغـرـابـيـبـ سـوـدـ . وـمـنـ النـاسـ وـالـدـوـابـ وـالـأـعـامـ مـخـلـفـ الـوـانـهـاـ كـذـلـكـ إـنـاـ سـيـخـشـيـ اللـهـ مـنـ عـبـادـهـ الـعـلـمـ .)

ويقول العلم أن المناظر التي تتالف منها أجساد هذه الحيوانات معلومة ، وإن كل حيوان نشا ، في أصله ، من تراب هذه الأرض وماها . ثم تزوج وترقى على أساس قوانين النشوء والارتفاع التي سبق ذكرها ، وقد يكون الأمر كذلك ، فإن الخلق المباشر ليس أدل على الله من الخلق بالنشوء والارتفاع ، كما قال الجسر ؛ ولكن هذه التوأميس التي تسير عليها الحياة في نشوء الأحياء وارتفاعها ، وتبنيها وتأليها ، وتوارتها ، وتنوعها ، هي قوانين ، ومعنى أنها قوانين أنها أثر من آثار التصميم والإرادة والحكمة ، فهل يعقل أن تكون آثاراً من آثار المصادفة ؟

وأنت تعلم أنه ما من حيوان إلا ويتكون من بسيطة من الأنس ولقاح من الذكر ، وقد كشف العلم أن لكل نوع من الحيوانات خطوطات أصيلة خلقها الله في البيوض وفي الحيوان المنوي . وبهذه الخطوطات العجيبة يتميز

كل جنس عن الآخر بصفاته ونحوها ، مع ان كل الحيوانات قد خلقت من الماء كما يقول القرآن . فهل يكون هذا التنظيم والتخصيص والتمييز أثراً من آثار المصادفة العجيبة يا حيران ؟

وأي مصادفة هذه التي كونت البرغوث والقيل ، والبللة وفرمن البحر ، والضدقع والحوت ، والعلقة والتمساح ، والفزاول والكركدن ، والهامة والنعامة ، والفرasha والعقاب ، والجرادة والطاووس ، والأسد والحمار ، والملمة والجمل ، والعقرب بسمتها الناقع ، والنحله يسلها النافع يا حieran ..

حieran - اعوذ بالله من الضلال . اي مصادفة ...؟ والله اني طالما فكرت ، في صيفري ، بهذرم النحل كيف تصنع لنا العسل الذي كنت احبه ؟ واتسائل ، والا العب في المقل ، لماذا لا يصنع الفراش مثل هذا العسل الذي تصنعه النحل ؟ اذاً لكان جنتيه اهون علينا واقل خطراً ... الشيخ - ومن اين للفراش ان يصنع العسل . ان القضية ليست قضية مص "السكر" من كوكوس الزهر ، ليتسارى ، في صنع العسل النحل والقراش . ولكنها غرائز عجيبة خص الله بها كل حيوان بما اراد له ، وتجهزه ، بعد ذلك ، بما يصلح ، في جسده ، لبلوغ الغرض الذي وجهه اليه . والى هذه الغرائز اشار القرآن في ذكر النحل خاصة ، لانها اوضحت في الدلالة على خلق الله وحدته ووحينه وامامه ، والصدق بهذا الانسان ، المبطان ، المترف ، الشره الى الطيبات ؛ ليتذكر ، وهو المقصود بالهدایة ، ويتفكر ، في هذا الخلق العجيب الذي يستحيل تكوينه ، بهذه الصورة ، دون سواه من انواع النباب ، من طريق المصادفة العجيبة ...

- (وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذُنِي مِنَ الْجِيَالِ بَيْوتًا

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمَا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

فَاسْكُنْكِي شَيْلَ رَبِّكِ ذَلِكَ دُلُو يَخْرُجُ مِنْ بَطْوَنِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفٌ أَوْاَثٌ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَدْرِي

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

حieran - سبحان الله العظيم ،

الشيخ - أليس عظيمًا مطعم هذا (الفندق) الكبير ، يا حيران .
حيران - لا إله إلا الله .

الشيخ - تأمل يا حيران بهذه الفرائز التي في النحل وغيرها من الحيوانات الدنيا ، وقل ما هو حظ المصادفة في خلقها ؟

لقد قال بعض العلماء عن الفرائز أنها ضرب من التعلل يتصاعد في سلم التطور . وقد يكون لبعض الحيوانات عقل بدني يسير في سلم الترقى كما قالوا ، ولكننا نشاهد من الحيوانات الصغيرة ، التي يفترض أن تكون أدنى مرتبة في سلم التطور ، أعمالاً يعجز عنها الكبير الأرقى ، فينعكس معنا الدليل ، وينقلب سلماً التطور العقلي من الأعلى إلى الأدنى . وهذه الحيوانات الصغيرة نفسها غير متساوية ولا متقاربة في تلك التصرفات الغريزية المعقدة ، إذ منها ما لا يحسن عملاً سوى أن يبحث عن طعامه ، ومنها ما يدهش العقول ب أعماله كالتمل والنحل والمناكب والطيور . وبهذا الشذوذ والاختلاف يختل دليل التطور ، وتصبح الفرائز على غير قاعدة ، فيضطر العقل السليم إلى التسليم بأنها أثر لارادة حكيمية شاءت أن تتميز بها بعض الحيوانات الضعيفة ، للدلالة على وجود الله . وقدرته ونصرته في الخلق بمشيئة .

هذه النحل التي اشار اليها القرآن ، انظر يا حieran كيف تصنع لنا العسل ، وكيف تبني بيوبتها ، وكيف تقسم البيت إلى غرف في نظام هندسي عجيب ، منها الصغيرة للعمال ، ومنها الكبيرة للibus ، ومنها غرف للملكات الحوامل . وانظر كيف يقتسمن الاعمال كما يتقاسمن المساكن ، فنها ما يقوم بمحنتي السكر من كؤوس الازهار ، ومنها ما يقوم بإعداد الغذاء للأطفال ، فيمضي لها العسل ليسهل هضمها عليها ، فإذا بلغ الأطفال الحد الذي به تستفي عن هذه المساعدة ، كفت العاملات الطباخات عن المضي . ولكن هذا الدلال يبقى للمرشحات للعرش .. ويستمر هذا التعاون الجاهي ، من دون أن يختل أو يتبدل ، على كر الأيام والسنين ، بدقة لا يتيسر لنا أن نراها ، في احسن مؤسسة اجتماعية يديرها الانسان العاقل .

وهذا التمل الذي نعرف عنه الشيء العجيب في تعاونه على جمع قوته ، وتكوين مساكنه وبيوته ، ولقاسم الاعمال والمصالح ، وصبره ، وحياته في نقل الطعام ، وتخزنه ، ونشره وتجفيفه ، وخرقه للعينة حق لا ينفي في الرطوبة ؟ باي عقل ، بل باية غريرة يقوم بهذه الاعمال التي يعجز عنها ارقى الحيوانات في سلم التطور كالفيل والقرن والاسد والقرد ؟

وهذه العنكبوت التي تبني بيوتها من لهاها بذلك التنسيق الهندسي العجيب ، لتجعلها شاكاً وسمايل لصيد طعامها ، ما هي درجتها في سلم التطور حق تقدر على هذا الاتزان المدهش والاحتياط الفريد ؟

وذلك الطيور التي يروى عنها أنها تداوي نفسها ، اذا كسرت ارجلها ، بالتجعير ، فتجمع على محل الكسر الطين والعشب وتوقف في الشمس حتى يخفقا ، ويستكون منها رباط قوي متين كالجليدية ، تقيها على المكسر حتى يتلجم وينجذب .

وهذا الحيوان المائي الذي يسمى (الفندر) الذي يروى عنه ما يدهش العقول في طريقة بنائه لبيوته وسدوده التي يقتن فيها طعامه طيبة أيام الشتاء والثلوج ، فيقطع الشجرة بأسنانه ، ثم يحرّك الجزء في مجرى الماء الى المكان الذي اختاره ليبني فيه سدّه وخزنه وبيته . وحين يعلو السد ، بما يترافق على الجزء من الطين ، وبما يضمه الفندر عليه من الورق واللحاء والالياف ، يشرع كل زوجين من القنادر في بناء مسكنهما فوق السد من عيدان واغصان وحجارة يحبkanها حبكة متينا ، ويجعلان منها غرفة مقببة مطينة ذات باطن ، وارض من خشب جاف . ثم يأتيان بطعمانها من الاغصان فيجعلانه في الموضع تحت بيتها مخزونا ، فكلما ارادا ، اخرجوا من (بيت المونة) طعاما فاكلاه واوريا الى بيتها الجاف يسكنانه هادئين دافئين آمنين ...

باي عقل ، بل باية غريرة ، تقوم هذه الحيوانات بهذه الاعمال المدهشة التي يعجز عنها الفيل والخscar والاسد بل القرد ، وما هي علاقة التطور بين التمل والنحل والعنكبوت وكلب البحر ؟

حيران - صدق الله العظيم . (وربك يخلق ما يشاء ويختار) .
الشيخ - وهذه (الانعام) التي ذكرها القرآن في ايات عديدة وامتن
 علينا بمنافعها الكثيرة ، قل لي يا حيران ، ما هو حظ المصادفة في خلقها ،
 وتقسيمتها ، وتأديبها ، وجعلها ، (على كونها من آكلات العشب) ، خزننا
للمواد البروتينية والدهنية ، وتمكينا من ضروب الانتفاع بالبانها ولحومها
 وأصواتها وأشعارها وأوبارها وبجلودها وعظامها ، فضلا عن استخدامها في
 حرث الأرض ، والركوب ، وحل الاثالال وجرها ؟

يقول القرآن :

- (أَوْ لَمْ يَرَوَا أَنَا خَلَقْتُهُمْ مَا عَمِلُتُ إِنِّي بِإِنْعَامٍ فِيهِمْ هُنَّ
 مَا لَكُونُ . وَذَلِكُنَّا هُنَّ فِيهِمْ كُوْبِيْمٌ وَمِنْهُمْ يَا كُونُ . وَلَمْ فِيهَا
 مُنَافِعٌ وَمُشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) .

- (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِبَرْةً تُسِيِّكُمْ بِهَا فِي بَطْوَنَهُ مِنْ بَيْنِ فَرْنَسٍ
 وَدَمِ لِبَنٍ خَالصًا سَائِفًا لِلشَّارِبِينَ) .

- (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُّوْقًا تَسْتَغْشِيُوهُنَّا يَوْمَ
 طَعْنَتِكُمْ وَيَوْمَ إِقْتَمَتِكُمْ وَمِنْ أَصْنَافِهِمْ أَوْبَارِهِمْ
 وَأَشْعَارِهِمْ أَنَّا نَأْمَنُهُمْ وَمَنْتَاعًا إِلَى حِينِ) .

- (إِنَّهُ جَعَلَ لَكُمْ أَنْعَامًا لِتَرْكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا كَأْكُلُونَ .
 وَلَكُمْ فِيهَا مُنَافِعٌ وَلَتَبَثُّوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي سُدُورِكُمْ
 وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلُكِ تُحْتَلُونَ) .

هذا بعض ما ذكره القرآن من المنافع الصرحة المقصدة ، والمنافع
 الخفية الجملة .

فماذا يقول العلم عن هذه الأنعام ؟

انه يقول كما يقول القرآن ان هذه الحيوانات البرية من (آكلات العشب)
 هي من النفع للانسان في المرتبة العظمى : فهي تمطيه الحليب ، واللحم ،
 والصوف ، والوبر ، والشعر ، خاصة ، فضلا عن ما ينتفع به من جلودها
 وعظامها وقرونها . ويقول العلم : ان الانسان يحتاج لحفظ حياته الى اغذية

تتألف من المواد البروتينية ، والمواد الكربوهيدراتية ، والمواد الدهنية ، والاملاح المعدنية والفيتامينات . وان البروتينات منها الكاملة ومنها الناقصة . وأن اعظم مصدر للبروتينات الكلاملة هو (اللحم واللبن) . وابت المواد الدهنية هي اغنى الاغذية في انتاج الحرارة ، وان من اعظم مصادرها (السمن والزبدة واللبن واللحم) - اي الانعام - ، واما المواد المعدنية فاول مصدر يذكره لها هو (اللبن) ، وكذلك اهم انواع الفيتامينات موجودة في (اللحم واللبن) . ويقول العلم ان هذه الانعام هي وحدها ، من بين جميع الحيوانات التي تتخرج للبن باستمرار ، ومحكمة عظيمة ، ولو قطع عنها رضيعها ، وهي وحدها التي تجمع بين هذه الخصائص ، وبين القدرة على الحركة والحمل والجر .

فائية قدرة ، يا حيران ، هذه القدرة التي جمعت في الانعام بين ان تكون آكلة عشب ، ميسوراً غذاؤها ، يسيراً تذليلها ، وبين ان تكون مخزناً دائماً ، ومصنعاً دائياً للحليب والسمن واللحم وكلها من المواد البروتينية ؟ وقد كان المترقب ، عقلاً ، ان تنتج هذه الانعام ، التي كلها غذائها العشب ، (وهو عبارة عن كربون) ، مادة " كربوهيدراتية نشوية سكرية ، لا ان تنتج مادة كلها بروتينات ، من لحم ولبن وسمن ودهن وشعير ؟ فهل كان كل هذا أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

واية قدرة هذه القدرة التي جمعت ، كما اشار القرآن ، في هذه الانعام الى الضعف والذلة والانقياد ويسير التغذى بأهون عشبة ، تلك القوة العظيمة الكافية لحمل ارض وجزر العالم وحملها ، وجمعت فيها بين طعام الانسان ، ولباسه ودفنه ، ومسكنه واثاته ، ومركيه وحراته ، حتى لو ملأك الرجل منها بقرة واحدة نهضت بكل اعبائه ، وقضت كل حاجاته ، بدون ان تتكلف سوى ان يطلق سراحها لتأكل من رزق الله الذي يقول (وما من دابة في الارض إلا وعلى الله رزقها ...) . أكمل " هذا من اثر المصادفة العبياء يا حieran ؟

حيران - اعوذ بالله من الضلال المبين ، والله انت يا مولاي ما احلك

حين سمعت هذه الأرض التي نسكنها (الفندق الكبير) ، حقاً أنها لفندق عظيم ، هيأ لنا فيه المثالي العظيم كل أسباب الراحة من المأوى واللبس والدفء ، والنار والنور ، وكل الطيبات من الأطعمة والاشربة والفاكه ، حق الحلوى .

الشيخ - لقد نسيت أن تذكر ما فيه من صور الجمال يا حيران .

حيران - ما كنت ناسياً لهذا الجمال الرائع يا مولاي ولا غافلا عنه .

الشيخ - ما كنت ناسياً له ولا غافلا عنه ، ولكن هل خطط على بالك ، وانت تقف في هذا الفندق مبتعداً مشدوهاً امام سحر الاواني والطلال ، في ياقوت الشفق ، وذهب الاصليل ، وزمرر الدليل ، ولجمين الماء ، واوراق الزهر ، واجنحة الفراش ، وريش الطير ، واذناب الطواويس ، ان تسأل عنحقيقة هذا الجمال ، الذي تسحرنا آياته وروائعه ، او تسأل عن خط المصادفة في تكون اشكاله وألوانه ، وخطوطه ومقاييسه وصوره ، وما ينطوي عليه هذا التكون من احسان ، والهان ، وتفعيم ، وازان ، وتناسب ، وتنسيق ، وتزيين ، وتزويق ؟

حيران - كلام يا مولاي .

الشيخ - ما هو هذا الجمال يا حيران ؟ وهل هو معنى نسي "اعتباري" كونت صوره عقولنا ، أم هو شيء له وجود ذاتي في الخارج ، تتذوقه حواسنا وتدركه عقولنا كما تدرك غيره من صور المخلق ؟ وهل ننتهي نحن بصور الجمال لأنها بذاتها تفرض علينا هذه البهجة ، التي اشار اليها القرآن ، أم ننتهي بها لأننا تعودنا بتأثير مصالحتنا ورغباتنا وعواطفنا وادراكنا وشهواتنا ان ننتهي بها فصرنا نسيها جيدة ؟

حيران - لم افهم كيف يكون للجمال وجود ذاتي في الخارج .

الشيخ - ليس المراد ان هنالك شيئاً مستقلـاً في الخارج يسمى جمالاً ، لا ان هنالك شيئاً يسمى هواء او ماء ، ولكننا نتسائل هل هنالك اشكال ، ومقاييس ، وألوان مقدرة ، يتسبـبـ معينة ، كلـا اجتمـتـ وتلاـمتـ تكونـ الجمالـ لـذـائـهـ ، أمـ هـذـاـ الجـمالـ شـيءـ اعتـبارـيـ خـلقـتـ عـقولـناـ وـحدـهاـ

بوسي المصالح والرغبات والعواطف والشهوات التي ترثينا مثلًا ان الاحمر جميل لاننا تعودنا ان نراه في الوجه الاحمر رمزاً للصحة ، وان "الاخضر الزمردي" جميل لاننا تعودنا ان نراه في المقل النضير مبشرًا بالغيثة الكريمة والخير العميم .

ام ان هذا المجال مزيج من حقيقة موجودة في الخارج وخيال من نسيج الذكريات والعواطف تضفيه عقولنا على تلك الحقيقة ؟ -

"الحق" يا سيران ان هذا الاخير هو الواقع ، فهناك في الخارج مجال صحيح نفسه احساساً مادياً وندركه ادراكاً عقلياً ، ولكننا اذا اضفينا عليه ذلك الخيال من عواطفنا وذكرياتنا تزداد احساسنا به ، وفي هذا يظهر سر التفاوت في تدوين المجال بين الطفل والرجل .

نعم هناك حالات يطفئ فيها خيال العواطف والاندراون على حقيقة المجال الاصيل طفياناً يكاد يخفى او يُعطَل ادراكنا لما يحييها الصحيح ، فيصبح احساسنا بال المجال مشوياً ، ولكنَّه يبقى صافياً في الصور الأخرى التي لا تكون فيها تحت حكم الذوق والعادة ، فتنتفق مع الفهم ، بل مع الطفل الرضيع ، بل مع الحيوان الاعجم ، احياناً ، على ادراك سحر الالوان في مجال الزهور والفراش والطبيور .

فاذًا هناك في الخارج مجال واقع "حق" اصيل ، ونحن في ادراك هذا المجال الاصيل امام عملية احساس تتعقله ، كاً لحس ونتعقل كل صور الوجود المادية الأخرى .

فما هو هذا المجال الاصيل ، وما هي عناصره ؟

انه صور من التناسق ، والتناظر ، والتناغم ، في الاشكال والالوان والاصوات ، تتكون من نسب مقدرة خاضعة لناموس ثابت ، ليس ادل' عليه من الايقاع الموسيقي ، الذي يتتألف من اصوات تتكون في اصلها مختلفة متنافرة ، ثم تخرج نحن بينهما ، على نسب مقدرة من الايقاع والتناغم ، تبعاً لقانون ثابت معلوم ، فتخلق منها انفاماً شجية ساحرة . وهكذا الالوان والاشكال تخضع ، في تكوين صور المجال التي نراها في

الطبيعة ، للسب مقدرة تبعاً لقانون ثابت احكته القدرة لتكون الجميل ؟
فليس لنا ، اذن ، ان نعتبر الجمال الذي رأه في الكون وهذا كونه
عقولنا ، بل هو حقيقة موجودة في الخارج لحسها كاحسن الحجم والشكل
والوزن والطعم والرائحة التي يتكون كل منها من سبب مقدرة ايضاً في
العناصر والذرّات . و اذا كان نضفي على صور هذا الجمال الاصيل ثوباً
من ليسج عواطفنا وذكرياتنا ، فتلك اضافة تزوير في ابتهاجنا ، كما يزداد
الطفل ابتهاجاً بالثوب الاحمر اذا قيل له هذا ثوب العيد ، فانه في غير
العيد يراه جيلاً ، ولكنه بذكريات العيد يراه اجمل واينج .

فهل يعقل ، يا حيران ، ان يكون هذا القانون الثابت الباهر الذي
يتتج هذا الجمال الساحر ، بهذا الاحسان والاقان ، والتقويم والابزان ،
والتناسب والتنسيق ، والتزيين والتزويق ، أولاً من آثار المصادفة العجيبة ؟
حيران - اعوذ بالله من الضلال المبين .

الشيخ - وهل يعقل ان يكون هذا اللندق العظيم ، بكل ما رأيت فيه
من نظام ، واحكام ، وعناية ، واحتراز ، وكمال ، وجمال ، قد تكون هكذا
بالصادفة العجيبة يا حيران ؟

حيران - حقاً انه لندق عظيم !

الشيخ - واعظم من ذلك ان صاحبه لا يطلب منا عليه اجرأً سوى
ان نقول له شكرأً

حيران - ما اهونه اجرأً وما ارضاه .

الشيخ - وما اكثراً ما ننساه ... ولعلنا لا ننساه يا حيران ، فلاتا
اليه راجعون ...

وَفِي أَنفُسِهِمْ

كُلُّ رِبِّيْمٍ آيَاتِنَا فِي الْأَقْوَافِ وَفِي أَنْشَئِيهِمْ
خَفَّ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهُ أَنْجَقٌ

(سورة لقنت)

فِي ظُلْمَاتِ ثَلَاث

١

الشيخ - وهذا النظام العجيب (نظام الزوجين) الشامل المطرد في كل حي ، الذي ذكره القرآن في آيات كثيرة لم يدل على الفصد والارادة والحكمة في الخلق ، ما هو حظ المصادفة في خلقه وتمكينه وتنظيمه واطراده في الحيوان والنبات يا حيران ؟

يقول القرآن :

- (وَاللَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ)

- (سَبِّحُوا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مَا ثَبَّتَ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ)

- (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ عَوْنَاءِ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ إِزْوَاجًا ...)

- (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَامِيًّا وَاهْنَارًا وَمِنْ كُلِّ
الثُّمُراتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنَيْنِ)

- (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا زَوْجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

هذا بعض ما يقوله القرآن عن نظام الزوجية الذي تشير الآيات إلى شموله واطراده في كل شيء من الأحياء ، بنياتاً كان أو حيواناً أو إنساناً ...
فماذا يقول العلم عن هذا النظام العجيب ؟

يقول العلماء ، والموجب يأخذ منهم مأخذهم ، إن نظام الزوجية مطرد وشامل لمجموع الأحياء من الحيوانات والنباتات كلها بطريقه واحدة ، ونسق واحد ، وأعضاء تكاد تكون متماثلة ، ولنماح يكاد يكون متماثلاً ، وينساقون

كيف اتفق هذا الاطراد والشمول والتماثل في كل حي ؟

إن هذا الاطراد العجيب كُشفَ لي فيه عن بصيريتي ، كما سبق القول يا حيران ، بفضل ما قرأته للfilisوف المعاصر (هنري برغaison) . فقد كنت ، قبل ذلك ، لا ادرك أبداً سر الحكمة في تكرار ذكر الزوجين الذكر

والاثني . و كنت اظن ان هذا التكرار انا يريد به الحالى سبحانه بحسب داد
المن " علينا ، فـلا افهم وجه المـلة في خلق الزوجين وما الوسـية لبقاء
الحياة التي شـاء الله بـقاءـها واستمرارـها على الـأرض بالـتـنـاسـل . ولـكـنـي بعد
ان قـرأت بـرغـسـون ادرـكـت ان تـكرـارـ ذـكـرـ الزوجـين لا يـرادـ بهـ المـلةـ ، وـاـنـماـ
يـرادـ بهـ شـيءـ اـعـظـمـ ، وـهـوـ التـنبـيهـ الىـ ماـ فيـ اـطـرـاءـ الزـوـجـيـةـ فيـ النـباتـ وـالـحـيـوانـ
منـ دـلـيـلـ عـظـيمـ عـلـىـ القـصـدـ ، وـنـقـيـرـ للـصادـفـةـ .

انـ هـذـاـ اـطـرـاءـ اـسـتـلـفـتـ ، كـاـحـدـتـكـ قـبـلـ الـيـوـمـ ، نـظـرـ بـرـغـسـونـ ، فـبـعـدـ
انـ تـكـلمـ عـنـ حـاسـةـ الـابـصـارـ وـاـسـبـيدـ انـ يـكـوـنـ اـطـرـادـهاـ فـيـ الـاـسـانـ وـفـيـ
جـيـعـ الـحـيـوانـاتـ ، عـلـىـ نـسـقـ وـاـحـدـ وـرـكـيـبـ مـقـاـلـ ، أـفـرـآـ منـ آـثـارـ الـصـادـفـةـ قـالـ :
وـاـذـاـ سـلـتـنـاـ بـاـنـ هـذـهـ الـصـادـفـةـ بـيـاـزـةـ الـحـدـوـثـ فـيـ تـكـوـنـ حـاسـةـ اـبـصـارـ
واـحـدـةـ فـيـ جـيـعـ الـحـيـوانـاتـ ، وـقـلـنـاـ اـنـ الـحـيـوانـاتـ تـرـجـعـ اـلـىـ نـوـعـ وـاـحـدـ ، فـاـذـاـ
تـقـولـ فـيـ النـبـاتـ وـهـوـ نـوـعـ آـخـرـ يـسـيرـ فـيـ طـرـيـقـ خـتـلـفـ كـلـ الـاـخـتـلـافـ عـنـ
طـرـيـقـ الـحـيـوانـ اـذـاـ نـحـنـ رـأـيـنـاـهـاـ يـسـيرـانـ عـلـىـ طـرـيـقـ وـاـحـدـةـ فـيـ عـلـيـةـ
الـتـنـاسـلـ ؟ فـكـيـفـ اـتـقـنـ اـخـتـرـعـ الـحـيـوانـ الـذـكـورـ وـالـأـنـوـةـ وـوـقـقـ النـبـاتـ
اـلـىـ طـرـيـقـ تـقـسـهاـ وـبـالـصـادـفـةـ تـقـسـهاـ ?

حيـرانـ - (سـبـحـانـ الـذـيـ خـلـقـ الـأـزـوـاجـ كـلـهـاـ مـاـ قـنـتـ) الـأـرـضـ وـمـنـ
أـقـسـمـهـ) سـبـحـانـهـ .

الـشـيـخـ - وـهـذـاـ التـكـوـنـ الـجـنـيـيـ لـلـاـسـانـ الـذـيـ ذـكـرـ الـقـرـآنـ فـيـ اـكـثـرـ
مـنـ عـشـرـ آـيـاتـ بـيـنـاتـ ، مـاـ هـوـ ، يـاـ حـيـرانـ ، حـظـهـ مـنـ الـصـادـفـةـ فـيـ تـصـوـيـرـهـ
وـخـلـقـتـهـ ، مـنـ بـيـضـتـهـ وـنـطـفـتـهـ ، وـعـلـقـتـهـ وـمـضـغـتـهـ ، وـعـظـامـهـ وـكـسـوـتـهـ ، وـقـرـارـهـ
وـمـيـكـنـتـهـ ، اـلـىـ قـدـرـهـ وـمـدـتـهـ ، فـيـ زـوـاـياـ ظـلـمـتـهـ ... ?

يـقـوـلـ الـقـرـآنـ :

- (يـاـ اـيـاهـاـ النـاسـ اـنـ كـنـتـ فـيـ رـيـبـ مـنـ الـبـعـثـ فـاـنـاـ خـلـقـنـاـكـ مـنـ تـرـابـ
ثـمـ مـنـ نـطـفـةـ ثـمـ مـنـ عـلـقـةـ ثـمـ مـنـ مـضـغـةـ مـخـلـقـةـ وـغـيـرـ مـخـلـقـةـ لـنـبـيـيـنـ
لـكـمـ وـتـقـرـيـرـ فـيـ الـأـرـحـامـ مـاـ لـشـاءـ اـلـىـ اـجـلـ مـسـىـيـ ثـمـ تـحـرـجـكـ طـفـلاـ ...)
- (اـلـاـ خـلـقـنـاـ اـلـاـسـانـ مـنـ نـطـفـةـ اـمـشـاجـ نـبـتـلـهـ فـجـعـلـنـاهـ سـيـعاـ بـصـيرـاـ)

- (يا ايها الانسان ما غررك بربرك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلتك
في اي صورة مَا شاء رَبَّكَ)

- (او لم ير الانسان اما خلقناه من نطفة ...)

- (قُتِلَّ الانسانُ مَا اکثره . من اي شيء خلقه . من نطفة
خَلْقَهُ فَقَدَرَهُ)

- (قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذي خلقك من راب ثم
من نطفة ثم سواؤك رجالا)

- (ألم خلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم .
فَقَدَرْنَا فَقَدِيمْنَا الْفَادِرُونَ)

- (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار
مكين . ثم خلقنا النطفة عذقة فخلقنا العلة مضغة فخلقنا المضفة
عظاما فكسوا العظام لها ...)

- (الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم
جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوأه وفتح فيه من روحه
وجعل لكم السمع والبصر والأفهام قليلا مَا تشکرون)

- (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ...)

- (يخلقكم في بطون امهاتكم - ملئاً بعد خلقهم في ظلمات ثلاثة ...)

هذا بعض ما يقوله القرآن يا جبران فما الذي يقوله العلم ؟
ببيضة مثل بيضة الدجاجة ولاتها اصغر منها بكثير . قطرها يتراوح
بين جزء وجزئين من ٢٤٠ جزء من القيراط ، اي جزء او جزئين من
عشرة اجزاء من الميليمتر . وزنها جزء من مليون جزء من الغرام . وفيها
(مع Cytoplasme) وفي المح (الحويصلة الجرثومية noyau) التي يبلغ
قطرها جزء من (٧٠٠) جزء من القيراط ... وفيها تكون (النقطة الجرثومية
nucleole) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط ...
هذه البيضة تتكون في ظلمة البيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها

الألومني . فإذا نَسِمَتْ هذه الموسيقة وازداد السائل الذي في باطنها يمدد غشاوتها ويرقّ ثم ينفجر وتخرج البيضة منها ومن المبيض كله . فلما أين للهب هذه البيضة الصغيرة الغريبة المنزاء وحُدّها في هذا الظلام ... ؟ إنها على موعد مع العثير الذي تحلم به من غير أن تعرفه ولا يعرفها ، فهي تسعى إليه وهو يسعى إليها ، ويتقابلان في الطريق ، ثم يسيران متعاقدين متراوجين إلى بيت الزوجية الأمين المهيأ لها ليصنعا فيه من نفسيهما بشرًا سوتاً ...

ولكن هذا الطريق (الملتقى) عبارة عن بوق مظلم مظلم ، ضيق ضيق ، رفيع رفيع ، قطر شعرة ، يختفي وراء الرحم ويتدلى منه إلى المبيض . فمن أين وكيف يأتي إليه الحبيب للقاء الحبيبة ... ؟

إن هذا الحيوان النوي "الذكر خبير" ذكي شاطر ، وجريء ، وقع ماكر يا حيران ... إنه عرف أن البيضة تنتظره في قلب البوق ، وإن لا طريق إليها إلا من الرسم فدخل إليها وخرج منه لا يلوي على شيء حق وصل إلى البوق فلاقاهما ... ورأى نفسه صغيراً صغيراً بالنسبة إلى البويضة الضخمة ، لأن طوله عبارة عن ٦٠ جزء من ألف جزء من الميليمتر ، فعلم أنه إن لم يكن له رأس مكواز لم يستطع خرق جدار البيضة ... وعلم أنه إن اقاها سابحاً سباحاً رهواً بطيئاً ، مثل سبعها ، فإنه الوصول إليها في الوقت المناسب ... وعلم أن السبح يكون أسرع أن كان في حركة لولبية ... وعلم أن السبح السريع لا يكون إلا بتلبيط في الماء ... وعلم أن جوهره في رأسه لا في ذنبه ... : علم الحيوان النوي "الصغير كل هذا فجعل لنفسه رأساً مكوازاً ، وجعل لرأسه عنقاً لولبياً ، وجعل لعنقه ذنباً طويلاً يضرب به الماء الذي يسبح فيه ويتلبيط ، وجعل لهذا الذيل معقوداً بانشودة يلتفك عنه إذا دخل إلى البيضة ...

وان" هذه البيضة الاتي ذكية وفيها عينة حَصَان يا حيران ... إنها عرفت أنها وحيدة ، وأن الذكور كثُر كثُر يربو عددهم على (٢٠٠) مليون تستند سبعاً إليها ، وقدور حولها تفاصيلها من وراء الجدار تستفتح . فإذا أتتها

القوى السابق رضيت به زوجاً وفتحت له الى قلبها باباً خاصاً يسمى (باب الجاذبية Cone d'attraction) فاذا دخل اغلقت بابها وقطمت بجذبها واستفاقت، واحصنت وصدت الملايين الأخرى من الخطاب وردتهم شائين ليموتا حزناً واسفاً ...

وانه "هذا الرسم (البيت الزوجي) لمضياف" رسم عطوف يا حيران ... انه يستعد ويتها كل شهر لاستقبال العروسين وابراهمها واطعامها ، فلتلتぬخ خلايا غشاء المخاطي ، وتتنفس الشعيرات الدموية فيه ، وتنشط الفدود . فاذا تم التزاوج استقبل الزوجين على الرحب والاسعة ، وان تعرقل الزواج ، بسبب من الاسباب ، تبكي غيظاً وتزق اسفاً وبكى على البيضة الميسنة دماً غزيراً ...

حيران - يا للعجب ثم يا للعجب . سبعان الخلاق العظيم .

الشيخ - والذى يكون بعد ذلك اعجب واغرب يا حيران وادل على اعجاز القرآن واعنون على فهم اسراره . فما يكاد يتم التزاوج والاختلاط حتى يبدأ العمل المشترك في بناء الانسان الجديد . فيمشي الشريكان كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النؤوي (الكروموزومات Chromosomes) وما فيها من الخلق المخلقة (الجينات Genes) التي خطتها وخلقتها وسوّتها يد القدر باقلام الارث المتعدد ، عبر الاجيال ، من الجندوه والآباء الى الابناء وابناء الابناء (سلالة من طين) ثم "سلالة" من ماء مهين) ، ومن هذا الاختلاط تتكون النطمة الامشاج التي اشار اليها احسن المتألقين .

حيران - ما هذه الكروموزومات والجينات ؟

الشيخ - هي كما عرفتها لك عناصر التخطيط والتخلقي والتسوية التي يخلق الله بها المضفة تكون بشرأً سوياً فرداً يتميز عن غيره من الناس بكل صفات الجسدية والعقلية من شكل وقدّر ولون وذكورة والرقة وجمال وقوه وذكاء واخلاق ، ترسم كلها للفرد المخطوط الاولى من حظه في الحياة . فقصد كان الناس في الماضي يعرفون ان الجنين يتكون من التلاقي

بين بيضة الاش وعاء الذكر ، واده يـ من ابويه واجداده كثيراً من صفاتهم ، ولكتنهم ما كانوا يـ عـون ما هـ الحـيـانـ التـويـ ، وما هـ هيـ الـبيـضـةـ وما تـركـيهـاـ وـماـ خـلـيـاهـاـ وـماـ الرـادـبـاـ وـوـظـائـفـهاـ ، وكـيفـ يتمـ التـلاـقـ وـكـيفـ يـحـصـلـ التـوارـثـ ؟ وـيـحـارـ المـفـسـرـوـ ، للـقـرـآنـ فـيـ تـفـسـيرـ (ـالـمـضـفـ الـخـلـقـةـ وـغـيرـ الـخـلـقـةـ) . اـمـاـ الـيـوـمـ فـقـدـ عـرـفـ الـعـلـمـ اـكـثـرـ اـسـرـارـ هـذـاـ الـخـلـقـ العـجـيبـ حـينـ كـشـفـواـ عـنـ الـخـلـاـيـاـ وـعـرـفـواـ وـظـائـفـ كلـ قـسـمـ مـنـهاـ ، وـرـأـواـ بـعـيـونـهـ ماـ يـحـمـلـ الـحـيـانـ التـويـ فـيـ رـأـيـهـ وـماـ تـحـمـلـ الـبـيـضـةـ فـيـ رـوـاتـهـ منـ عـنـاصـرـ التـخـطـيـطـ الـقـيـ ذـكـرـهـ لـكـ ؟ فـاـمـرـكـواـ فـرـقـ بـيـنـ خـلـيـاـ الـمـضـفـ الـخـلـقـةـ الـتـيـ شـكـوـنـ الـجـنـينـ بـذـاتهـ ، وـبـيـنـ غـيرـ الـخـلـقـةـ الـتـيـ قـتـولـ اـمـرـ حـفـظـهـ وـوـقـاـيـتهـ وـقـعـدـيـتـهـ ، فـامـتـلـأـتـ قـلـوبـهـ بـالـحـشـيـةـ الـتـيـ خـصـ اللهـ يـهـاـ الـعـلـمـ اـنـ عـبـادـهـ ماـ حـسـنـانـ ...

حیران - زدنی ، بربک ، ایضاًحاً . زدنی ..

الشيخ - وتسير هذه البيضة انسلفة الامشاج سيراً رهوا بطيئاً في البرق فلا تنتهي منه الى الرحم الا بعد ثانية ايام او عشرة تقوم خلاها ب التقسيم تقسها لتقسيماً بعد تقسيم ، لكي : تيء كلّ قسم وتُعده للدور الذي سيقوم به في تكون الجنين الجديد ، او في حفظه وحياته ووقايته ، او في تغذيته .

وتصل البيضة النطفة الى بيت الرؤوبة المهيأ لها فتلتتصق بيمداره وتبدأ خلايا الاقسام علّتها العظيم بالتعاون مع بعضها او مع خلايا بجدار الرسم ، فتجمل حول الجنين غلافاً فوق غلاف فوق غلاف . اما الغلاف الاول الظاهر الذي يحيط بجميع الاغشية ويسمى (السلى Chorion) فتتخد من جانبه الاصغر بيمدار الرحم وسيلة للتقدية الاولية ثم لتكون المشيمة العجيبة ، وتتخد من جانبه الظاهر غير المتتصق بيمدار الرحم وسيلة لوقاية الجنين وحفظه . اما الغلاف الثاني الباطن فتنسبه بعد ذلك تحت الكوريون ليحيط بالجنين احاطة كاملة من وراءه غلاف مائي يحيط بالجنين احاطة مباشرة لقيمه مع الغلافين الاولين كل صدمة او رجفة تأتي من الخارج ...

فَلَّهُ مَا أَعْقَلَهَا هَذِهِ الْخَلَائِيَا وَمَا أَحْرَصَهَا عَلَى حِيَاةِ الْجَنِينِ ...

وَتَبْدَأُ ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، الْخَلَائِيَا الْجَرْوِيَّةِ (الْخَلْقَةِ) الَّتِي تَكُونُ الْجَنِينَ سِيرَهَا فِي تَطْوِيرِهَا مِنْ نَطْفَةٍ إِلَى مَضْفَةٍ ، عَلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي ذُكِرَهُ فِي الْقُرْآنِ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَضْفَةِ الْمُخْطَطَةِ الْخَلْقَةِ بِكَرْمِهِ وَمُزْوِّدَاتِهِ الْمُخْتَالَةِ وَجِينَاهَا يَبْدُأُ تَكُونَ الْأَعْصَاءِ وَالْأَحْشَاءِ ، كَمَا يَبْدُأُ تَكُونَ اغْشِيَّةِ الْمَحْفُظِ وَالْوَقَائِيةِ وَالْتَّغْذِيَّةِ مِنْ الْخَلَائِيَا الْحَيَّةِ غَيْرِ الْخَلْقَةِ . فَيَقُولُ قَسْمٌ مِّنَ الْخَلَائِيَا الْجَرْوِيَّةِ بِتَكُونِ مِبَادِئِهِ الْقَلْبُ ، بَيْنًا يَقُولُ قَسْمٌ آخَرُ مِنْهَا بِتَكُونِ مِبَادِئِهِ الْمَخْرُوفُ وَمِبَادِئِهِ الْعَسُودُ الْفَقْرِيُّ ، إِلَى جَانِبِ خَلَائِيَا أُخْرَى تَقُولُ بِتَكُونِ مِبَادِئِهِ الْأَحْشَاءِ مِنَ الْجَهاَزِ الْفُضْمِيِّ وَالْتَّنَفِّيِّ وَالْتَّنَاسِليِّ ، إِلَى جَانِبِ أُخْرَى تَقُولُ بِتَكُونِ الْعَظَامِ ؟ كُلُّهُ فِي دَائِرَةِ اخْتِصَاصِهِ . فَلَا يَلْتَهِ الشَّهْرُ الثَّانِي إِلَّا وَتَكَادُ الْمَضْفَةُ تَصْبِحُ انسَانًا كَامِلًا يَجْمِيعُ أَعْصَائِهِ وَأَحْشَائِهِ وَأَعْصَابِهِ . فَلَّهُ مَا أَعْلَمَهَا هَذِهِ الْخَلَائِيَا بِالْخَلْقِ وَمَا أَفْدَرَهَا عَلَيْهِ ، يَا حِيَانَ ، حِينَ تَخْلُقُ انسَانًا كَامِلًا ... وَمَا أَعْجَزَهَا ، حِينَ تَصْبِحُ هِيَ نَفْسًا انسَانًا كَامِلًا ، عَنْ أَنْ تَخْلُقَ ذَبَابَةً ...

حِيَانَ - سِبْعَانَ الْخَلَاقِ الْعَظِيمِ .

الشِّيْعَ - وَلَلَّهِ مَا اذْكَارَهَا هَذِهِ الْخَلَائِيَا خَلَائِيَا الْكَوْرِيُّونَ وَخَلَائِيَا جَدَارِ الرَّسْعِ وَمَا احْكَمَهَا وَمَا ارْجَمَهَا حِينَ تَشَارِكُ فِي صُنْعِ الْمَشِيمَةِ لِلْجَنِينِ الْعَزِيزِ ... اهْنَا تَعْلَمُ أَنَّ الْأَنْسَانَ الْجَدِيدَ سُوفَ يَحْتَاجُ ، إِذَا صَارَ مَضْفَةً وَتَكَوَّنَتْ أَعْصَابُهُ ، إِلَى طَرِيقَةٍ مِّنَ التَّغْذِيَّةِ غَيْرِ الطَّرِيقَةِ الْأَمْتَصَاصِيَّةِ الْأَرْتَشَاجِيَّةِ السَّافِجَةِ الَّتِي تَحْصُلُ بَيْنَ خَمْلِ الْكَوْرِيُّونَ وَبَيْنَ جَيْوَبِ الدَّمِ الرَّحِيمِ ؟ لَا نَحْاجَةُ الْجَنِينِ إِلَى الدَّمِ إِذَا كَثُرَ سُوكُونُ أَكْبَرُ ، وَحَاجَةُ الدَّمِ إِلَى التَّصْفِيَّةِ إِذَا كَثُرَ سُوكُونُ أَكْثَرُ ، وَعِلْمٌ أَنَّ دَمَ الْأَمْ لَا يَحْوِزُ أَنْ يَدْخُلَ بَذَانَهُ إِلَى الْجَنِينِ ، وَأَنَّ دَمَ الْجَنِينِ حَقٌّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ اقْذَارِهِ وَسَعْوَدِهِ كَمَا يَتَخَلَّصُ كُلُّ حَيَانٍ ، فَلَا بدَّ مِنْ احْدَاثِ آلَةٍ كَبِيرَى تَتَولِّ هَذِهِ التَّرْشِيحِ وَالتَّوْرِيدِ وَالْتَّصْدِيرِ بَيْنَ دَمِ الْأَمِ الْمَوَارِدِ الطَّهِيرِ وَدَمِ الْجَنِينِ الصَّادِرِ الْقَذَرِ ؟ فَاخْتَرَعَتْ (الْمَشِيمَةُ) الْمَجْيِيَّةُ وَبَتَّشَهَا مِنْ خَلِ الْكَوْرِيُّونَ وَاهْدَابَهُ وَمِنْ جَيْوَبِ الدَّمِ

الرحمة ، وجعلتها موصولة ببررة الجنين بجبل يحمل منها اليه عناصر
الفناء والاوكسجين التي تستخلاصها المشيمة من دم الام ، ثم يحمل الجبل
من الجنين الى المشيمة ، في وريد اخر ، ما يتكون في جسم الجنين من
سوم واقدار ، حتى اذا خرج الجنين من ظلماته الثلاث الى عالم النور
والهواء والشדי ، واصبح قادرآ على ان يتنفس الهواء برتقبه ، ويعتص
الذى بشفتيه ، ويحرق ثمامته في سحره ويلفظها من ثحنه ، قطعت
المشيمة عن ربيبها المستغنى عن حليبها ، وانصرم الجبل عن الولد ، وشدَّ
باب السرة الى الأبد ...

حيران - سبعان الخلاق العظيم .

الشيخ - الكل هنا الابداع والتنظيم والاختراع والتصميم الذي اشار
اليها القرآن في تكوين الانسان وخلقه ، من بيضته ونطفنته ، وعلقتها
ومضفتها ، وعظامها وكسوتها ، ومشيمتها وسرتها ، وقرارها ومكنته ، الى
قداره ومدله ، في زوايا ظلمته ، افر من آثار المصادفة العجيبة يا حيران .

حيران - سبعان الخلاق العظيم .

الشيخ - وهذا الحب الذي تسحر الناس مباهجه ، وتكتوبيهم لوعده ،
ما هو حظر المصادفة في خلقه يا حieran ... ?

هذا الحب الذي ما قدرت اقداره ، ولا قضحت اسراره ، ولا رثت
اوثاره ، ولا أوقدت فاره ، الا لفرض واحد عَبَر عنه القرآن احلى تعبير
واللطفة ، واسكه واسرقه ، واصحه واصدقه ، وابسطه واعمقه ، حيث قال :

- (وَمِنْ أَيَّاتِهِ أَنْ تَخْلُقَ لَكُمْ مِنَ النَّفَرِ كَازِوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعْلُ بَيْنَكُمْ مُوَدَّةً وَرَحْمَةً) ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

هذا الحب الذي من وده ينشأ الود كله في كل الصدور ، ومن سكنته
تحيم السكينة لا على كل النفوس ، ومن رحمة قفيض الرحمة كله على
كل القلوب ...

هذا الحب الذي من خيوطه ينسج الزوجان (او كار الصغار) ... وهي اجل
واحلى وقدس صورة خلقها الله في ملكوته من السموات والارض ... يدخل

اليها الرجل وحشاً فيصبح انساناً ... وتدخل اليها المرأة لعنة فتصبح
الجنتة تحت اقدامها ...

تلك الاوكار التي تخيم عليها السكينة ، وتورق فيها الرحمة ، ويزهر
بها الخنان ، وتشمر منها عبادة الله ، فيبدأ اول دعاء صادق نستطر به
رحمة الله على افلاذ اكبادنا الذين جعلهم الخالق الحكيم بسرّ الحب اعزّ
عليها من اكبادنا ...

(هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وجعل منها زوجها ليسكنُن
اليها فلما تَغشَّيَا حَمْلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَرَأَتْ بِهِ فَلَمَّا اتَّقْلَتْهُ دَعَوَا
اللهَ رَبِّهَا لَئِنْ أَتَيْنَا صَاحِبَ الْكَوْنَ مِنَ الشَاكِرِينَ) .

هذا الحب الذي بسرّه صرنا نحب اطفالنا وزواجهنا وآباءنا وامهاتنا
والأهل والاخوان والخلان والجيران وكلّ انجٍ لنا في الانسانية ، بسل
الحيوان الاعجمي التسعي الذي نؤمن عليه اذا وأينما يفقد عشيره او
صغيره ، حتى نكاد نبكي عليه من الرحمة ...

هذا الحب الذي من اجله خلق الله المجال كله ... وفي خدمته صنع
الانسان الجميل كله ... من الشجاعة الى الكرم الى الزهو والخيلاء الى
الأنفة الى الظرف الى الترف الى المداء والغناء الى الشعر والنحت
والتصوير ... وهو يظن بهذا انه يتبعيد الحب والحبوب ، من غير ان
يدري انه ، في اعماق نفسه ، اثنا يعتمد الذي خلق فيه هذا السر العجيب ...
هذا الحب الذي يبدأ الله فيينا شهوة وينتهي بنا فيه الى عبادة ...
قل لي يا حيران ما هو حظ المصادفة العجيبة في خلق آياته ، وتوفير اسبابه
وآلاته ، وسوقه الى اعظم اغراضه واقدوس غاياته ... ؟

أكل هذا النظام العجيب والتصميم الغريب ، من خلق الزوجين ، الى
خلق هذا التعاطف الغريزي التلقائي الساحر الطاغي العنيف ، الى خلق
الانسال في اصلاب الرجال ... والبيوض والاجنة في بطون النساء ...
او من آثار المصادفة العجيبة ؟

فِي مَسَاكِنِ الْجِنِّ

٢

الشيخ .. وهذا (السمع) يا حيران ، الذي كرر الله آن ذكره مع (البصر) في آيات كثيرة حيث يقول :

- (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) .
- (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نُطْفَةٍ فَبَشَّرْنَاكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .
- (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَيْمَانَ وَالْأَقْدَمَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكِرُونَ) .
- (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَتْهُ وَبِدَاءَ خَلَقْتَكَ إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ .
- ثم سُلْطَنَ نُسُلْطَنَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَيِّـنَ . ثم سُوَاءَ وَفَخَ فِيهِ مِنْ دُوْسَهِ وَسِعْلَهِ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَيْمَانَ وَالْأَقْدَمَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكِرُونَ) .

هذا السمع يا حيران ، ما هو سلطان المساعدة في بناء مقارنة العجيبة الشريعة بآدابها وصلادتها ، وكذاها وغشايتها ، وفضاريفها وعظمياتها ، وكروافها ومتاهاتها ، وسائلتها وطرقها ، واعصامها ورباطاتها ، وجoadتها ومانعاتها ، وسلامتها وقنواتها ، ولوالبيا وقوائمها ، وأكياسها وجرابها ، واحجارها وحصواتها ... ؟

حيران - ما هي هذه المقارنة العجيبة التي تكاد تشبه صادر الجنسيات في قيungan البخار أو كهوف الشياطين في غناهات القفار .

الشيخ ... الله لم تبعد يا حieran في خيالك وسأجاريك فيه .

حieran -- كيف ؟

الشيخ - ساقتها لك يا سان سكانها من الجن والشياطين ، فكثيراً ما يكون الخيال عوناً على الأدراك والتعقل ، فاسمع .

قال شيطان من شياطين الشعر : مألت (جنتي) من عشيرة (الأنسان) ابن مساكنكم ؟ قال اتنا نظير ونرقص بين السماء والارض على مت الرحال

والأمواج ، وإذا أردنا أن نستريح أويناً إلى آذان هذا (الإنسان) المضياف
الطروب الذي يتلقانا تارة بالسرور وتارة بالدمع ...

قلت : صف لي هذه المساكن كيف حالها ؟ قال أني اعجز عن وصفها
 فهي تكاد تشبه ، بدهاليزها وقاعاتها وسراديبها واقنيتها ومنافذها وكُواها ،
 مسكنًا من مسكن جنّيات البحر في أعمق أغواره ... وليس الخبر كاليمان .

قلت : هل لي أن أزورك مرة لأراها ؟ قال حتّى وكرامة ، ولكن
 تعال إلى بعد نصف الليل ، حين يستغرق صاحبي في نومه فلا يشعر بذلك .

قال شيطان الشعر : وجئته في الموعد فوقفت من (آذن) الرجل إمام
(بؤبة) عظيمة تحيط بدخل ضيق ، لم أر في الم بوابات مشيلاً لها في أقواسها
 وحنينتها ، واطرافها وطياراتها ، فقلت هذه أولى العجائب ... واحتدى
 اتلت لأرى صاحبي ، فوجدهما واقفًا عند المدخل الضيق ، يتحمّل ورائهما
 شعيرات نباتات عند نهجه ، فشار إليه بالصمت ، ومشى إمامي قبعته ،
 ودخلنا في قناة كالنفق تذهب في أوكاراً صُعدًا ثم تتحدر عند نصفها
 وتضيق ، وفي أرضها دهن لزج أصفر ، ولما انتهينا إلى آخر النفق وجدنا
 إنسنا إمام ستار صغير رقيق نصف شفاف كفشهما العليل ولكنه مقعر ...
 فلما ذكر منه مس صاحبي كالخائف قال : لا سهل لدخولك أنت من
 هامنا ، قلت وانت ؟ قال أني أدخل كعادتي ، وأما أنت فترجع وتدخل
 من دهليز آخر . قلت كيف أرجع وحدني ؟ دعني أشق هذا الفشام شقًا
 قليلاً . قال إياك أن تفعل فأنك إن فعلت عطلت آذن الرجل وأغضبه
 وحرمني من دخول هذا المسكن إلى الأبد . قلت وain المبر الثاني ؟
 قال تخرج وتلتف عند شفي الرجل فإذا انفرجتا مراته ، عند غطيه ،
 عبرت بطفلك المهدود إلى بلعومه ، وهنالك تجد قناة مكتوب عليها (بوق
 اوستاكيوس) وهي السبيل الوحيد الذي تتصل به الآذن بالهواء ، فتدخل
 أنت منها إلى القاعة التي وراء هذا الفشام ، فتراني في انتظارك .

قال شيطان الشعر : ففعلت ما أشار به ، ودخلت إلى البلعوم ، وعبرت
 من تلك القناة صُعدًا ، فوجدت نفسى في قاعة واسعة من العظم الرقيق ،

وقد شدَّ في جدارها ذلك الفشام الطبلي الذي منعى من الدخول . وفي الجدار المقابل له كوة بيضية الشكل مسدودة بفشاء ، وскوقة مستديرة مسدودة بفشاء ايضاً ، وفي الجدار الخلفي ثقب كبير وثقوب صغار . وبين هذه الجدران عُلقت سلسلة عظام عجيبة : احدها على صورة (المطرقة) ، والثاني على شكل (سنان) الحداد ، والثالث على شكل (ر CAB) السرج الافريجي ، وهي تتصل ببعضها : (فالطريق^٤) يتصل بالفشام الطبلي ويدخل بين طبقتيه ويرتبط بها ويشد الفشام الى داخل الغرفة فيجعله محدياً من الداخل مقعرأ من الخارج ، (والركابي^٥) يتصل بفشاء الكوة البيضية المقابلة ، اما (الستنادي^٦) فهو متوسط بين الاثنين ويتصل بها عقاقيل . فقلت لصاحب ما هذه العظام المعلقة ؟ قال لا ادري ولكنني اعلم اننا اذا قرعنا (الفشام الطبلي) ودخلنا تهز اهتزازاً خفيفاً . قلت وما السر في كونها معلقة هكذا في الهواء ؟ قال لا ادري ولكن اعلم انه ان نقصت واحدة منها او تعطلت مفاصلها ضعف السمع . قلت وما هذه الكوة المستديرة المتشاء والى اين تؤدي ؟ قال ابها معبر تان الى احصاب السمع . قلت وما وراء هاتين الكوتين ؟ قال وراءهما القاعة الاخيرة التي تستقر بها في نهاية مطافنا ، وهي اعظم القاعات واعزها على صاحبها ، وفيها دهاليز واقندة وسلام كبيرة يئيدها السالك وهذا يقال لها (التيب) (labyrinth) . قلت من اين ندخل اليها ؟ قال : انا ادخل من الكوة البيضية او الكوة المستديرة ، واما انت فلا تستطيع الدخول منها لانها مسدودتان بفشنائهما كما عرى . قلت ما العمل ؟ قال لا اعرف لك حيلة في هذه الساعة ... قلت ، وقد ظهر في وجهي اثر الغضب ، وهل من حيلة في غير هذه الساعة ؟ قال نعم ولكن هذا يحتاج الى وقت وفرصة سالحة . قلت ما هي هذه الفرصة ؟ قال تبحث عن الانسان شاعر له ولع بالموسيقى ، فتذهب انت اليه وتلهمه ابياتاً من الشعر لا تصلح الا للغناء ، واذهب انا اليه فالقنه انفاماً لا تصلح الا لهذه الابيات ... فاذا استفواه الشعر ، واستهواه النغم جمع بينها فتقتصني وتقمصتك فصرت شيئاً مني ، واستطعت الدخول معك الى حرم التيبة العجيب ... قلت ان الشاعر الذي انا شيطانه

من اكبر الشعراء ، ولكنك لا تحسن الغناء ، فهل تعرف ؟ بين هواشك اذن ، من ينظم الشعر ؟ قال لا يخلو البلد من مثل هذا ، ولكن الذي يتابع له ان يكون شاعراً موهوباً يائف من انت يكون مغشياً ... قلت وكيف عرفت ذلك ؟ قال ، وقد اخفي بين فككك ابتسامة ماكرة ، عرقته من صاحبي هذا الذي تحن في اذنه ، فانه يحسن الشعر ويجيد الغناء ، وان كان يستتر فيها عن الناس ... قلت : مالك اذا تصعد علينا المبعث والتنبيب ؟ قال اخشى ان يقظت الرجل ان يغضب . قلت لا عليك . انا افتش اياتاً من الشعر الباكى في قلبي احلامه ، فإذا افاق بريدها تراقصت انت في حلقة فناتها ... قال ولماذا اشتربت له الشعر الباكى ؟ قلت الا زاد سجوراً يكاد يشرف على ابرذل المسر ... ؟ لقد خبرت هؤلاء الشعراء ، وهم على عتبة الابر ، فلم اجدهم يستفهمون مني الا شعر الشكوى والخذين الى الصبا ...

قال شيطان الشعر : وكان ما كان ، واستيقظ الرجل يردد الابيات باكياً ، وما انقضت لحظة الا وسمناه بـ^{يُدَكِّدُنْ} بـ^{يَهَا} ويجمينا كلينا في حلقة ويوحد ميتنا شمراً ونفساً كـ^{أَرْدَنْ} ، فانطلقنا متهددين ودخلنا ثانية من قناعة البلعوم الى حيث كانت في قاعة الاذن الوسطى ، فقلت لصاحبى : من اية كوة ندخل الساعة الى قاعة التيه ؟ قال انها مدخلان مستطرقان ولكن الاول ان نركب من هذه العظيبات المعلقة وندخل غير اهتزازاتها من غشاء الكوة البيضية ، فهذا الطريق هو الطريق المفضل . وفعلنا فوجدنا انفسنا في دهليز بيضي الشكل على جدرانه حفر وثقوب وطاقات ثلاثة دخلنا من احداهما فوجدنا انفسنا في (قنوات هلالية) الشكل ، منها قناتان في وضع عمودي وقناة في وضع افقي . ثم دخلنا من الدهليز الى قاعة عجيبة لها شكل المازون ... فقلت لصاحبى : انك لم تبالغ حين وصفت مسكنك بأنه يشبه مساكن جنيات البحر ، فما هذه القاعة التي تشبه (القوفة) ؟ قال انك لم تخطي ... انهم يسمونها (القوفة) ... ثم سرت فيها غادة هي مؤلفة من محور مرکزي (العمود) ، وقناة تدور

حول العمود على هيئة لولب دوّري، وزيادة . وهذه القناة تقسمها صفيحة "رقيقة بعضاً مظمى وبعضاً غشائى" ، ثم تنتهي القناة بقبة مسدودة هي رأس القوقة . ومشينا في أحد قسمى القناة اللولبية المستطريق إلى الدهليز حق وصلنا إلى رأس القوقة فوجئنا القسم الذي نحن فيه يستطريق إلى القسم الثاني من القناة فادى بنا إلى (الذكورة المستدرية) التي سبق ذكرها . قلت لصاعيها قد انتهينا إلى حيث بدأنا . قال نعم هذان سليمان في داخل القناة اللولبية أعدتها يسمى (السلم الدهليزي) لأنه يستطريق إلى الدهليز ، والثاني يسمى (السلم الطبلي) لأنه يستطريق إلى غرفة الطلبة من الحكوة المستدرية ، وكل السلمين يستطريق الآخر عند قبة القوقة كما رأيت . أما الصفيحة التي رأيت أنها تقسمها فتدنى (الصفيحة اللولبية) ونصفها العظمي يبدأ من الدهليز ، وهو يفرز سائلاً صافياً يسمونه (اللتمفا الظاهرة) ونصفها الغشائي عبارة عن زقّ غشائى مسدود يحتوى على سائل أيضاً يسمونه (اللتمفا الباطنة) وهذا الزقّ مؤلف في أوله من زقّين يقال لأحددهما (الجلراب) ولآخر (العنبر) والجلراب يستطريق إلى القنوات الهلالية وفيه حجران صغيران من حبيبات الكلس المتبادر يقال لها (الحجران الأذنيان) .

قال شيطان الشعر : واردوا ماحي ان يتسلل في الوصف فقلت له كفى كفى ، فقد احتقن ، والله ، أسي وزاغ بصري وتأه عقلي في هذا المكان الذي حقّ لهم ان يطلقوا عليه اسم (الثئي) . ولكن قبل لي بكلمة مختصرة ما هذه المبال وانطبق الدقيقة المتشرة في كل مكان ، والداخلة في كل ثقب ، والساخنة في كل نناة وقوقة ، والغائصة في كل سائل ؟ قال هذه بعضها شرايين واوردة ، والدقيق منها الغائص في القنوات والقوقة والسوائل اعصاب السمع التي تذهب إلى الدماغ وتتقلص الصوت إلى الرجل . قلت ولم كل هذه العظيمات والدهليز والأقنية واللوالب والقرابع والسلام والأغشية والصفائح والكتوي والثقوب والسوائل والاحجار وغيرها ؟ أما

لأن يكفي أن يقف عصب السمع عند الطلبة فيتلقى هزة الصوت وينقلها دماغ الرجل ؟ قال لا ادري من اسرارها الحفية شيئاً سوى انه اذا اختل احدها او انسد او تلف ، اختل سمع الرجل او قعطل ، فاصبح لا يهشُ لنا ولا ييشُ ابداً .

قال شيطان الشعر : فبادرت ، قيل ان يتم صاحبي كلامه ، الى الخروج من حيث دخلنا من فناء (اوستاكيرس) فردعته شاكراً ، وانا اقول له : حقاً لقد كنا في مسكن من مساكن الجن .

حيران - ولكن ما الحكمة في خلق هذا الجهاز المعتقد العجيب ؟
الشيخ - باختصار اقول لك انه لولا هذه الترتيبات الحكمة ، التي تسير من البوابة الخارجية التي تسمى (الصيوان) الى (الصماخ السمعي) الى (الفشاء الطبلي) الى (الاذن المتوسطة) الى (الاذن الباطنة) وتنتهي عند اعصاب السمع ، لما امكن وصول الاصوات الى الدماغ بشكل محتمل او مفهوم ابداً . فكل هذه الفضاريف المرتجة والدهاليز الموعجة ، والقاعات المتداخلة والاقنیة المتواصلة ، والفضادات المشوددة والكتوي المشوددة ، والعظيمات المعلقة والصفائح المطرقة ، والسلام النازلة الصاعدة والمياه السائلة الرائكة ، والاكیاس الرقيقة والاحجر الدقيقة ، اعا خلقت وأحكت لاجل ترقية توزيع الاهتزازات الصوتية على وجه يضيق فوقها ويقوّي ضعيفها ، ليتّقى الجهاز السمعي كل رجمة وصمة ، ويشعر الاحساس بالعلم نفمة واضعف نامة .

حيران - اني مؤمن باث هذا الجهاز لم يخلق عبثاً ، ومدرك لفائدة بعض اجزائه ، ولكني اسأل مولاي الشيخ عن الحكمة في خلق هذه الترتيبات المقيدة من العظيمات والصفائح والكتوى والمنافذ والمياه والقواعد والقنوات والسلام .

الشيخ - سل عنها (المصادفة) التي خلقت هذا الجهاز العجيب ...

حيران - اعود بالله من الضلال المبين .

الشيخ - اذا كنت لا تؤمن بالمصادفة ، فاسأل خلايا المُضفة التي صنعت

الاذن ، فانها ، على ما يظهر ، عاقلة " ومدركة " وحكيمة " وعلمة " بطبعها
الاشياء وخصائصها والتواتر والسرارها

انها علمت ان الاصوات تأتي اليها بتموجات الهواء ، وان هذه التموجات ،
منها الشديد الحاد القاسي ومنها الضعيف الواهن اللذين ، ومنها ما يقع عمودياً
ومنها ما يأتي جانبياً ، فخلقت (صيوان الاذن) وجعلته غضروفياً بين
العظم واللحم ، وجعلت فيه طيات ولثات ليتلقي امواج الصوت ويعكسها
من طية الى لينة ويوصلها الى الصداع

وعلمت ان الرياح التي تحمل الصوت قد تكون عنية هوجاء وقد
تحمل معها المؤذيات من غبار وتراب وحشرات ، فجعلت (الصداع) موججاً
متقوساً نحو الاعلى ، وجعلت في فه مياجاً من الشعر ، وفي باطنها ديناً
اصفر شعيراً ، ليتنقى بموجبه صدمة الرياح ، وبسياجه ودبقة المؤذيات ،
فلا تصل الى غشاء الطلبة الرقيق الواهن

وعلمت ان بعض الاصوات تكون وجساً او هساً ، فجعلت من
الصداع بشكله الكيفي الملوء بالهواء وسيلة لتقوية الصوت ومضاعفته (بالتصدية)
على النحو الذي نسمعه في الحمامات والكموف من ضجة الصوت الضعيف
بريشع الصدى

وعلمت ان الغشاء المخاطي كالطبل هو افضل الاجسام الصلبة في ايمال
الصوت فجعلت غشاء الطلبة وغشاء الكوة البيضية والاغشية الاخرى في
الاذن الداخلية

وعلمت انه اذا ثبّت جسم صلب صغير في طرف غشاء مشدود متور
اوصل الاهتزازات الصوتية على وجهاً افضل ، فخلقت سلسلة العظيمات
الثلاث وربطتها بين غشاء الطلبة وغشاء الكوة البيضية

وعلمت ان كل جسم صلب محاط بوسط مختلف عنه في الجوهر يرسل
الاهتزازات في جوهره باشد مما يرسلها في الوسط العديم به ، فجعلت
العظيمات الثلاث معلقة في الهواء يحيط بها ويفصلها عن عظام الرأس ،
وفعلت مثل ذلك في الصفيحة التولية فاحاطتها بسائل مختلف عنها في

الجوهر كي لا تنتقل الاهتزازات السارية في العظيمات والصفحة اللولبية إلى عظام الحنودة وتبعد فيها ...

وعلمت أن سلسلة العظيمات قد تصاب بما يعطل عملها في نقل الصوت من غشاء الطلبة إلى غشاء الكوة البيضية فخلقت "الكوة المستديرة" وخطتها بغضها يساعد على إيصال الصوت إلى الأذن الداخلية، وجعلت لكل كوة من الكوتين طريقاً سلماً في داخل القوقة ...

وعلمت أن الشكل المزاوني اللولي هو الشكل الأصلح لانتشار الألياف العصبية السمعية على مساحة متسعة من حرم صغير في حيز ضيق، فخلقت "القوقة" وجعلت فيها القناة اللولبية سلرين مستطرقين يصعد أحدهما الذهابي¹ من الكوة البيضية وينزل ثانيةما الطلبي² إلى الكوة المستديرة، وجعلت في القناة اللولبية هذه الصفحة اللولبية المظمية الشائكة التي تترزق سائل اللقا ...

وعلمت أن بعض الأصوات تأتي من الحنودة فخلقت القنوات اللالية لتساعد على جمع التعبيرات الصوتية الآتية من الحنودة وتجهيز صير الأصوات بحسب اتجاه تجارييفها المنعنية وتوصيلها إلى أعصاب السمع المنتشرة في سوانحها وسائل القوقة، وخلقت الرقين الشائعين الممدوتين باللقا وجعلتهما في أحدهما المجررين الآذين المتباورين ليزيدا يصدراها شدة المزارات الصوتية ... وعلمت فوق ذلك، تلسك الحاليا العاقلة، المدركة³ يا ميران، أن للهواء ضغطاً خارجياً عنيفاً طاغياً يؤذى غشاء الطلبة إن لم يقابل من داخل الأذن الوسطى بهواء يعادله ويقاومه وينحفظ الموازنـة في ضغط الهواء وحرارته، كما تعلم ذلك من نفسك اذا حصل لك زفير أو شهيق عابر طويل وكان الأنف والقلم مسدودين فيتوتر الغشاء الطلبي ويتحدد ب نحو الخارج عند الزفير ونحو الباطن عند الشهيق فيتشوش السمع، فخلقت بوق (اوستاكيمون)، ودخلت منه الهواء إلى الأذن الوسطى، وجعلت من هذا البوّق في الوقت نفسه موضحاً للأصوات كاً توّضح تقوّب الآلة الموسيقية أصواتها، وجعلته منفذآ للمخاط الذي يفرز من باطن الطلبة ...

أليست عاقلة مدركة حكيمية علية قديرة ، يا حيران ، تلك الخلايا ،
حق امتناع عن تعرف كل هذه الاسرار والطباخ والتواميس التي عرفها
العلماء اليوم بعد ان مضى على خلق الانسان حين من الدعر ، فخلقت
جهاز الاذن المعتقد على مقتضى هذه الاسرار ؟

حيران - سبحان الحلاق العظيم العليم الحكم القدير ... سبحانه .

الشيخ - سبحانك يا حيران ... وتبّا للغافلين الذين (كُلُّمْ قُلُوبَ
لَا يَقْعِقُونَ بِهَا وَلَمْ أَفْعِنْ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَمْ آذَنْ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا ، اولئك كالانتعام بسل هم أضل اولئك هم
الغافلون) .

احفظ لسانك

٣

حيران - عن اي آيات الله يريد مولاي ان يحدثني الليلة ؟

الشيخ - عن اي آيات الله يريد ان احدثك باحيران ... ؟ كل ما في جسمك يدل على الله ، لأن كل ما خلق الله قيك بدبيع في تركيبه حكم في تركيبه ، رائع في اتقانه دقيق في اتزانه ، مناسب في حركاته متوافق في غالياته ، سواء في ذلك ما تراه بعينك من اقل الاعضاء شأنها وأثرها كالشعرة والقلامة الى اعظمها قدرأ وخطرا كالعين والاذن والقلب والكبد والمعدة والامماء واللسان والشفتين ، وما لا تراه بعينك المهردة من ملايين الخلايا والاعصاب التي هي اعجب بسراورها واغرب ، وابشع واروع ؟ ولكنني يا حيران احصر لك القول حسرا في آيات الله التي اخترتها هو ، بعثت حكته ، واكثر من ذكرها في القرآن ليقيم البرهان القاطع للناس على وجوده وقدرته وحكمته ، من غير ان يتعنتهم بذكر اعضاء ما كانوا يعرفون اسمائها فضلا عن وظائفها . ولو اردنا يا حيران ، في هذا الحوار معك ، انت تتناول كل ما خلق الله فيما من الاعضاء كيبرها وصغيرها ، ظاهرها وباطنها ، لانتقلت هذه الامالى التي اردت ان ادلك بها على اليمان (بدلائل القرآن) الى مجلدات في الطب والتشريح ومنافع الاعضاء . وما اظن ان العمر يتسع في انا ، ولا الوقت يتسع بذلك انت ، لكل هذا ويكفيك منه ما يشرح صدرك للبحث والتنقيب عن كل حركة من حكم الله في نفسك او في الآفاق ، لعلك تكون من اولئك الذين يصدقون عليهم قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنْ قُوَّلَا مِنْ دُعَا إِلَى اللَّهِ ...) . وقد حدثتك عن العين بلسان الجسر ، وحدثتك عن بعض ما ذكره الله من آياته في الآفاق ، ثم انتقلت يدك الى بعض ما ذكره الله من آياته في نفسك ، فحدثتك عن

تكوين الجنين في بطن امه ، وعن السمع ؛ والآن سأحدثك عن اللسان والشفتين .

حيران - ولكنني لا ارى في هاتين المضيلتين المضيقتين ما يستحق ان يتبع مولاي الشيخ نفسه بالكلام عنها .

الشيخ - ابىذكرها الله في القرآن ليدلنا على القدرة والحكمة والاتقان ، وانت تستخف بها يا حيران ؟

حيران - معاذ الله .

الشيخ - احفظ لسانك يا حieran ، واباك ان تستخف بهذا الرائع الأربع ، الصامع الاصم ، ذي الوزارات الأربع ، الذي ان حفظته ستدلك ، وان سببته سالمك ، وان استطعته اطعمك ، وان كلامك كلامك ، وان سأله علّمك ، من قبل ان تعرف اسرار الحكمة في توسيع وظائفه واعماله ، وتصريف حروفه واقواله ، وتعدد حلباته ، واختلاف حركاته ، بين شفتيه وهما ، وتمييز اعصابه ، وتوفير لعابه ، وتيسير تلعابه ...؟

حيران - ما كنت احسب ان هذه العضيلة البسيطة لها كل هذا الشأن ، لها معنى ان اللسان ذو الوزارات الأربع ؟

الشيخ - كل عضو من اعضاء الحس يا حيران له وظيفة واحدة الا هذا اللسان . فالعين للبصر ، والاذن للسمع ، والانف للشم ، والانامل اشد جوانب الجلد احساناً بالحس . اما هذا اللسان فقد شامت له المصادرات ان يكون آلة للذوق ، آلة للمضغ والبلع والضم ، آلة للحس والحس ، آلة للتكلم ...

فن اجل ان يكون آلة للذوق شامت المصادفة اى يُفرض سطحة وجنباه بحليبات تغرس الطعم وترتديها الى الاعصاب المنتشرة في باطنها ... وشامت المصادفة ان يكون صنفان من هذه الحلبيات للذوق خاصة دون الحس كي لا يختلطوا فيتعطلا عمل احدهما عند فقد الآخر ، فقد يفقد الحس العام عند الانسان وتندوم له حاسة الذوق ، او يفقد الذوق ويدوم له الحس العام ... ومن اجل ان الحلبيات لا تغرس الطعم الا اذا كانت

ذائبة محلولة ، والأ إذا كان اللسان رطباً ، شاءت المصادفة ان يزوده اللسان بعشام مخاطي فيه اجرية وحدد تفرز المخاط ، وان يزود من تحته بقدرة تفرز اللعاب فوق ما تفرزه الغدد اللعابية الأخرى ؛ ولو لا ذلك ما استطاع اللسان ان يتذوق الطعام ، وما كان يحدث له سوى الاحساس بمس الطعام ، كما تعرف ذلك من نفسك اذا كانت لسانك جافاً من الرذايم مثلما فاته لا يتذوق الطعام ولو كانت مذايبة ... ومن اجل ان الطعام مختلف المذاق ، ولها في تلاقتها تاليف وتناقض ، على نسب معينة ، كتاليف الالوان والاصوات وتناقضها ، فقد شاءت المصادفة ان تختلف الحليبات الدوافقة بعضها عن بعض ، شيئاً قليلاً ، في تذوقها وفي قدرها على الاحتفاظ بطعم بعض المواد حقاً بعد زوالها ، وعلى هذا يقوم الطهاة المهرة في خلط الاطعمة ومزجهما ...

ومن اجل ان اللسان مفتر بحكم مركزه ووظائفه الى ان يكون حاساً ، قوي الاحساس ، ليترك اللقمة ويدور بها من حنك الى حنك ، ومن من الى ضرس ، ويستقصي اصغر اجزاءها في مطاوي الفم وتثابا الاضراس ، وينتفي باحساس المرهف كل ما يدخل الفم من المؤذيات من كلو ومحرق ولاذع وشائك وجارح ، شاءت المصادفة ان تكون له حلبات للحس واللمس خاصة ، كما سبق القول ، وان تكون هذه الحلبات (الحيطية) مرهفة جداً في رأس اللسان وجانبيه لا يساوتها في حدة الاحساس الا طرف البنصر ...

ومن اجل ان اللسان آلة للمضغ والبلع فقد شاءت المصادفة ان تكون هذه العضيلة قوية قوية ، نشيطة ، لعوبياً ، لعابية ، مخاطية . ولو لا ذلك ما تم مضغ ولا بلع ... فاللسان هو الذي يلاعب اللقمة ويلوسها ويعجنها عجناً باللعاب ، حتى اذا اكتمل مضغها واصبحت صالحة للبلع لفتها بمخاطه ، وضغطها بين سطحه وسفح المخالق ، ودفعها بقوته وزلقها حق تعبير فوس (الله) فيكون البلع بعد ذلك بغير ارادة الاقل ... ومن اجل ان اللسان آلة للهضم فقد شاءت المصادفة ان يكون هضم

الاطعمه مختلفاً مكانه باختلاف عناصرها : ففيها ما يهضم في المعدة ، ومنها ما يهضم في الامعاء ؛ ولكن شيئاً واحداً منها ، وهو النساء ، لا يهضم في المعدة ، بل ان عصارات المعدة تعيق هضمه وتبطل تحويله ؛ ولذلك شاءت المصادفة ان يكون الوسط الوحيد الصالح لتحويل النشائيات الى سكر وهضمها هو اللعاب . ولو لا هذا اللسان التلعاب ، الذي يزج اللعاب باللقمة ويجهنها ، لما تم هضم النساء ، وهو من اهم عناصر الغذاء ...

ومن أجل أن اللسان آلة للتalking ، ومن أجل أن الاصوات تخرج من الحنجرة كأداة تعلم ، ومن أجل أن الحنجرة لا تستطيع توليد الحروف كلها بل يقتصر عملها على توليد الحروف الصوتية المعروفة بـ حروف العلة ، دون الحروف الأخرى المعروفة بـ حروف الصحة التي لا بد لتوليدها من تقطيع مجرى الهواء الذي يحمل الصوت من الحنجرة ، فقد شاءت المصادر أن يُخلقَ هذا اللسان مع الشفتين ليكون وسيلة لتقطيع الهواء وأجحروف الصحة ؛ ولولا ذلك ما كان لنا الكلام فصيح ، بل كنا نحن كالحيوانات نطلق أصواتاً مدمّة ، فلا نحسن إلا عواه ونعيقاً ، أو صغيراً ونقيقاً ، أو صهلاً ونحيطاً ...

فما اعجبها يا حيران هذه المصادفات التي كثرت ، وتوالت ، وتلافت ،
وتلائفت ، وتوافقت حتى كونت لنا هذا اللسان العجيب ...
حieran - حقاً يا مولاي ان اللسان عضو عجيب ... ولكن ماذا في
الشفتين سوى انها تساعدان على لفظ بعض الحروف .

الشيخ - أكان يرضيك يا حيران ان تُخلق بلا شفتين مكثراً ، فاغرًا ،
يسيل لعابك ، ويدخل الغبار الى صدرك ، والذباب الى هاتك ...؟ ألا
تشكر المصادفة التي خلقت هذا الانسان (في احسن تقويم) فجعلت له ، من
الشفتين ، زينة لوجهه ، وستراً لفمه ، وحاجزاً للعابه ، ومانعاً من دخول
الغبار الى رئاته ، والذباب الى هاته ، ليتنفس من حيث ينفع التنفس بانفه
وتحيشومه ، ويصدّ المؤذيات عن حلقه وبلعومه ...؟ ألا تشكر المصادفة
التي ملتحت هاتين الشفتين بقوة مرهفة من الاحسان لصداً كل مؤذ

وَكَافِرْ وَمُحْرَقْ، وَزُوْدَتْهَا، تَحْتَ غَشَائِهَا الْخَاطِيْ، بَفَسَدِ تَفَرْزِ اللَّعَابِ
لَتَقْلَالِ رَحْبَتِينِ حَرْطُبَتِينِ، وَرِبْطَتِهَا بِأَصْبَابِ تَجْعَلُ كُلَّ حَرْكَةٍ لَهَا، مِنْ فَتْحِ
وَاغْلَاقِ، وَمَطَّ وَزَمَّ، بَارَادَةِ الْاَنْسَانِ وَاخْتِيَارِهِ، لِيَقْتَحِمَهَا سَاعَةً يَشَاءُ
وَيَغْلِقُهَا سَاعَةً يَرِيدُ، فَيَقْطَعُ بِهَا الْهَوَاءَ وَيَجْبَسُ الصَّوْتَ لِيَتَسْكُنَ مِنْ لَفْظِ
الْمَرْوَفِ الشَّفْوَةِ ... فَلَوْلَا كُلَّ هَذِهِ الْمَصَادِفَاتِ، يَا حِيرَانَ، لَا تُنْقَلِبُ هَذَا
الْاَنْسَانُ الْمَلِيعُ الْفَصِيحُ، الْطَّرِيفُ النَّظِيفُ، مَسْحَا، قَبِيحاً، مَكْشِرَأً، فَاغْرَأً،
عَيْتَأً، قَدْرَأً، يَسِيلُ لَعَابَهُ عَلَى ذَفْنَهُ وَثِيَابِهِ، وَيَرْدَحُمُ النَّذِيبَ عَلَى رَضَابِهِ ...
حِيرَانَ - مَلَّا يَكْرَرُ مَوْلَايِ ذَكْرُ الْمَصَادِفَةِ كَأَنَّهُ يَتَهَكَّمْيَ؟

الشِّيخُ - لَسْتُ اتَّهَمْكَ يَا حِيرَانَ، وَلَكِنِي أَرِيدُ أَنْ أَقْتَصِمَ بِكَ الْعَقْبَةَ
لِأَبْلَغَ بِنَفْسِي الدَّرْوَةَ .

حِيرَانَ - أَيْ عَقْبَةٍ وَأَيْ ذَرَوَةٍ؟

الشِّيخُ - عَقْبَةُ الشَّكِّ الَّتِي يَرِيدُ اللَّهُ مِنَّا أَنْ نَكَبِدَ لِتَقْتَحِمَهَا، وَذَرْوَةُ
الْإِيمَانِ الَّتِي يَرِيدُ سَبَاحَاهُ مِنَّا أَنْ نَكَبِدَ لِنَصْلِي إِلَيْهَا ...
حِيرَانَ - وَمَا هِيَ ذَرَوَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي تَرِيدُ أَنْ تَبْلُغَهَا أَنْتُ الْمُؤْمِنُ
بِاَمْوَالِيِّ؟

الشِّيخُ - هِيَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَا حِيرَانَ ... (أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْتَنَيْنِ،
وَلِيَسَانَ وَشَفَتَيْنِ، وَهَذَيَّنَاهُ النَّجْعَدَيْنِ). فَلَا أَقْتَصِمُ الْعَقْبَةَ، وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ، قَلْكَلَةُ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْنَفَةٍ، يَكِيمَا
ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مَسْكِنَا ذَا مَتَّرِبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ...)، هَذِهِ هِيَ الذَّرَوَةُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمِنْ أَجْلِهَا
سَهْرُ الْلَّيَالِي الطَّوَالِ عَلَى حَافَّةِ قَبْرِي لِأَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ يَا حِيرَانَ ...

الصَّبُورُ الدُّرُوبُ

٤

يقول حيران بن الأخفف : سرّج الشّيخ الموزون ، بعد صلاة الصبح ،
إلى الرياض على جاري عادته في النهار ، ولكنّه خالقها ، لأول مرّة في
حياتي معه ، عندما أمرني ، وهو يخرج من المسجد ، أن أحمل إليه
طعامه بنفسه بعد أذان الظّهير ، فكان فرحي بهذا الأمر عظيماً ، لأنّي
طالما تمنيت أن أرافقه في النهار ، وارى كيف يقضيه بين الرياض من
الفجر إلى (الشّجر) ...

ولما جاء خادم المسجد يحمل جونة طعام الشّيخ ، وصعد في المأذنة
ليؤذن بصلوة الظّهير ، قلت له : لا عليك ، اتّي ساضع الجونة في مكانها
من السياج ، ثم اذهب إلى (خرقناك) في شغل عاجل ، فشكري وهو يقول :
إياك أن تغسل في المكان ... انه المكان الذي وضعتها فيه يوم قدومك
 علينا ، أما عزالي تذكره ؟

وهرولت أهل الجونة إلى البستان ، وأوغلت فيه ابحث عن الشّيخ
فلا أجده حيث أتّقّع أن يكون في ظل الشّجر ، أو على اطراف
السوق . فأخذت المادي ليسمعني ... ولما كررت النداء ولم أسمع مجيباً
عرتني هزة من الهلع ، فأخذت أعدو إلى آخر البستان ، حتى خرجت
منه إلى أرض جرداء واسعة ، فرأيت الشّيخ قاعداً في آخرها . ولما
وصلت إليه تبسم وقال أقدر معك ؟ ولما قعدت أخذ بشكري ، ويعذر
عما سببه لي من عناء .

حيران - ولكنني ناديت كثيراً فلم أسمع جواباً ، حتى انتابني المواجه .
الشّيخ - اتّي سمعت ندائك واجبتك ، ولكن من أين للشّيخ الهرم
صوت المزارع مثلك ، يا حيران .

قال حيران : وبعد انت تناول الشیخ غدائہ ، وادتی صلاة الظہر ،
سأله :

حیران - ولماذا اختار مولاي هذا المكان ، وترك الرياض والماء .
الشیخ - لم اجده باختیاري ، ولكن جرّنی اليه احد اهل القرية الذي
جاء يستشيرنی في امر ارضه هذه ويطلب مني العون على اعماهها .
حیران - ومن كان مولاي الشیخ فلاحا علیما بزراعته الارض واعمارها ؟
الشیخ - انه لم يطلب مني علما ، ولكن طلب مني معجزة ...
حیران - معجزة ... ما الذي يطلب ؟
الشیخ - انه يملك هذه الارض الواسعة الجرداء ، ويريد ان يشجرها
ويسقيها .

حیران - هذا سهل ، فزرعها بالأشجار وسقيها بالماء لا يحتاج الى معجزة ...
الشیخ - هذا صحيح عن الزرع ، ولكن الماء بعيد ، وارضه عالية ،
فقلت له ليس لك الا ان قبني حوضا خزانة يحفظ لك مياه الشتاء لتسقي
منها ارضك .

قال : ولكن ماء الحوض سوف يتضخم . وانا اريد ان اجعل لا يتضخم .
قلت : كيف ؟

قال : اريد اخراج طريقة يجري بها ماء الحوض على حركتك فيحركه
ليدفع الماء الى الارض فيسقيها ، ثم يعود الى الحوض ثانية ، ليعود الى
الارض ، ثم الى الحوض ثم الى الحرك ، وهكذا الى الابد .
قلت : الى الابد ! مالك ولابد ؟

قال : طيبة حياتي ، وما امری ، لعلی اعيش مائة سنة .
قلت : العمر الطويل انشاء الله . ولكن الماء الذي تطلب عودته ، لو
امكن رد بعضه ، سيعود محلا بالوحش والتربة فيؤذی الحرك ويعطله .
قال : ألا تستطيع ان تحمل له مصفاة تصفيه من التراب قبل انت
تعود الى الحوض .

قلت : وما الذي يسوقه الى المصفاة ؟

قال : المرك نفسه ، ألا يستطيع سوقة إلى المصفاة من قناة أخرى .

قلت : ولكن لو قدر لنا ارن تخترع مثل هذا المرك ، فمن الذي يرد الماء ، بعد تصفيته ، إلى المرك ليدفعه إلى سقي الأرض ؟

قال : المرك نفسه يدفعه إلى المصفاة دفعاً قوياً ، فيدخل في ثقوبها وينتزع منها ليعود إلى المرك .

قلت : ولكن هذا الماء سينصب أخيراً منها كان الموضع كبيراً .

قال : أليس هنالك طريقة جعله لا يتضب ؟

قلت : كيف ؟

قال : أليس بالامكان ان تخذل الموضع باء آخر جديد ؟

قلت : من أين تأتي بالماء الجديد ؟

قال : ألا تستطيع أن تضع على طرف الموضع عركاً ثانياً ونجعل له اذرعاً طوية يتناول بها ، من فواكه الأرض وحشائشها ، مما يضره وينتزع منه ، ويغذي به الموضع : فلا ينقص ... ؟

قلت : بلى ، ولكن من يحرك المرك الثاني ليتناول الفواكه والحمائش ويعصرها ؟

قال : ألا تستطيع أن تجعل للمرك الثاني عركاً آخر يحركه ؟

قلت : بلى ، ولكن من يحرك هذا المرك الثالث ويغذيه ليتحرك ؟

قال : ألا تستطيع أن تجعل من قوة المرك الأول ما يغذي المركبات لآخرى ويحركها ؟

قلت : بلى ، ولكن كم تتحمل المرك الاول من مشاق ومتاعب ؟

قال : ألا تستطيع أن تجعله من القوة والمتانة والدقة بحيث لا يتوقف لحظة عن الحركة .

قلت : بلى ، هذا يمكن في عراك يتحرك يوماً او شهراً او سنة او سنتين ، واقت ، فربما يظل يتحرك ، بلا توقف ، مائة سنة .

قال : أهذا مستحيل ؟

قلت : لا ، ما هو بالمستحيل عقلاً ، ولكن هذه المركبات العجيبة

تحتاج الى مهندس عظيم عالم قادر ، يعرف كيف يختارها ، ويعرف كيف يربط بعضها ببعض ، ويسفي بعضها من بعض ، ويعرف كيف يصوّرها من معدن لا يصدأ ولا يتآكل ، أو من ذرات لها عقل وتدبر ، لتصنع مكان النّرة المتألّكة غيرها .

قال ، وقد حسبني اتيكته ، وهل للذرات والمعادن عقل وتدبر ؟

قلت : سل المهندس العظيم .

قال : أحتاج الامر الى مهندس عندي ؟

قلت : أرى كل هذا الذي طلبته ورسنته يحصل من نفسه بلا هندسة ولا حساب ولا تفكير ؟

يقول حيران بن الأضعف : وهنا لم ينالك الشيخ نفسه فانفجر بالضحك ...

حيران - أهزأ بي يا مولاي ؟

الشيخ - لست اهزأ بك يا حيران ، ولكنني اروي لك قصة (القلب) في فعله وائره ، وغرضه ووطره ، وقدره وقدره ، وحيطاني وجدره ، ومنافذه وحجره ، وايايه وسره ، وصهوة وحقره ، وجداوله وغضره ، وصفاته وسكنده ، وداببه وسهره ، وصبره وحدره ، وعظيم خطره ...

حيران - أكل ذلك في هذا القلب الصغير ؟

الشيخ - هذا بعض ما يسمح به المطبع من اوصافه ، والروي من الطافق .

لقد اراد الله لهذا الحيوان ان يعيش ويحيى . والحياة غذاء ودفء ،

فخلق فينا هذا الدم الذي يحمل غذاء الابدان ودقها . ولكن هذا الدم يحتاج الى ماء من الغذاء ، فخلق لنا المدة والكبد والامعاء ، وجعل في غذائنا (الكريون) الذي يوفر لنا الغذاء والحرارة بالاحتراق الناتج من التحاده مع الاوكسجين . ولكن هذا الاحتراق في داخل ابداننا يولد سماً هو ثاني او كسيد الكربون ، فلا بد من طرحه عنا مع كل السموم الاخرى ، التي تلتقط في اجسام ابداننا من جثث الحشائيا الموتى ، فكيف نطرح عنا هذه السموم ؟ لقد اراد الخالق الحكيم ان يجعل لنا في اجسامنا مصفاتين

عظيتيين ، بل عرقين هائلتين ، الخلق الرئتين غلاؤها من الهواء بالشهيق
لنحرق بأوكسجينه طمامنا ، اي كريوننا ، وأكثر الفضلات والسموم التي
في الدم ، ثم نلقط هذا السم المحرق ، بالزفير ، إلى خارج البدن ...

ولكن هذا الدم ، لو بقي في الجسم ساكناً راقداً لا يتحرك لامتنع
عليه ان يذهب إلى المصفاة ، ليلاقي فيها سومه وجثث المرضى وغير
ذلك من الفضلات والقمامات ، ولعسر عليه ان يتناول الغذاء الجديد من
مخازنه في المعدة والأمعاء والكبد ، بل امتنع عليه ان يفرّق هذا الغذاء
الجديد ، ويروزعه على جميع اجزاء الجسد بالسرعة الازمة . فلو بقي
راقداً في الجسم لنجم عن ركوده موت الجسد : لانه من جهة لا يستطيع
تناول الغذاء من مخزنه بسهولة ويسير ، حق لو تعلّب له هذا الغذاء
من جدران الأمعاء والكبد ، فإنه لا يتعلّب إليه إلا نِّزاً ، فلا ينتشر
في الدم مع سكونه وركوده ، ولا يصل إلى اطراف الجسد ، الا بعد
ايام طويلة ، وفي هذا الموت من الجوع ، ولأنه لا يستطيع ، مع السكون
والركود ، اتصال سومه وفضلاته إلى المصافي ليحرقها فيها ، وفي هذا
الموت العاجل من التسمم ، ولا أنه لا يستطيع ، مع هذا الركود ، ان
يتناول ، بالسرعة المطلوبة ، من الرئتين او كريوناً جديداً يحرق به طعامه ،
بدلاً من الاوكسجين الاول الذي تحروّل بالاحتراق إلى سم "قاتل" ، وفي هذا
الموت من الاختناق ...

فلا بد ، اذاً ، لهذا الدم ان يتحرك وان يسير ، وان يكون في سيره
سريعاً سرعة عظيمة ، فإنه بهذه السير السريع يمرّ على مخازن الغذاء
فيتناول منها حاجته ، ويوصلها ، باسرع من لمح البصر ، إلى كل اطراف
الجسد ، وبهذا السير السريع يصل إلى المصافي سومه وفضلاته ليطرحها
فيها ، باسرع من لمح البصر ، ويتناول من الرئتين وقوداً جديداً من
الاوكسجين ، فيعود به ليكرر عملية حرق طعامه فيوفر للجسد غذائه
حرارته ...

حيران - سبحان الخالق العظيم ... ولكن لم كل هذه السرعة في سير

الدم؟ وكيف تكون كلمع البصر ...؟

الشيخ - لم كل هذه السرعة ... لازم الاحتراق من شأنه ان يتم بسرعة ، والتسنم يقع بسرعة ... جرب ان تنس افاسنك وانظر ، كم تصرير ، منها ملات رئتيك من الهواء ... أم يريد ان تكون رئتيك بمجم الاجرة لتتسما سمية من الاوكسجين تكفي الى ان يسير الدم بطريقها ، حق يصل الى رئتين بعد ساعة ؟

واما قوله كيف تكون تلك السرعة كلمع البصر ، فانها كذلك لأن الله القادر يجعلها كذلك ... فقد ثبت ان نقطة الدم لا تحتاج ، لتخروج من القلب وقرار في الجسد كله ثم ترجع الى محل خروجها ، الا لعشرين ثانية تقريباً ، اي بقدر ما يدق نبضك المعتدل ٢٥ دقة تقريباً ، او بقدر ما ققول ، يا حيران ، (لا الـ الا الله) تكررها عشرأ ...

- حيران - لا الـ الا الله اخلاق العالم .

الشيخ - هذا في حالة الراحة والاعتدال ؛ وجرب ان تأخذ نفساً عميقاً ، اي زيادة من الاوكسجين ، فترى نبضك يبطيء ، ثم جرب ان تكتم افاسنك لينقص الاوكسجين ، او ان تجري ليزيد الاحتراق ، فترى قلبك يدق دقاً عنيفاً ليأخذ الدم حاجته من الاوكسجين بسرعة مدهشة .

حيران - سبحان اخلاق العظيم .

الشيخ - والآن ، يا حيران ، تحققوا لك ان الدم يحتاج الى حركة سريعة جداً ، والى حركة ، وهذا الحراك العظيم هو القلب . ولائي هنا يكون الامر بسيطاً اذا اعتبرنا القلب «باردة عن مضخة تضخ الدم فيذهب الى الجسد» ، ويعود اليها فتضخه ثانية .

ولكن الامر اعقد من ذلك : انه يحتاج الى مضختين ، واحدة تضخ الدم الى الجسد ، واحرى تضخه الى الرئتين ، ليتصفى فيها ويعود الى القلب تقريباً طارحاً قوياً نشطاً مجهزاً بالوقود اللازم . ولا تكفي ضخة واحدة لدفعه الى اطراف الجسد وايصاله الى الرئتين ثم رده الى القلب ، لأن الدم حين يندفع عند الضخة الاولى في الشريان الاعظم الاكبر الذي

يسمى (أورط)، يتفرع إلى فروع وفروع، ثم يرتد بقمة الضفة الأولى، بعد أن يغذى الجسد، إلى (الأوردة)، ومنها يتجمع في الوريد الأجواف السفلي الكبير وفي الوريد الأجواف العلوي، فتنقص، بهذا السير الطويل المشتمب ذهاباً وإياباً، قوة اندفاعه من الضفة الأولى، فلا يستطيع أن يصل إلى الرئتين ثم يعود منها إلى القلب. فلا بد له إذاً من ضخة ثانية، تدفعه إلى الرئتين، ليتصفى فيها ويعود منها إلى القلب. ومن هذا ترى أن الأمر، كما قلت لك، يقترب إلى مضختين ...

فما العمل؟ أيخنق الصانع مضختين منفصلتين؟ إنه سهل عليه، ولكنه جلت حكمة وعظمت قدرته، جعلها مضختين في قلب واحد، تعملان في لحظة واحدة، لحكم كثيرة: منها إلى تجنب شر ما قد يقع، لمرض أو سوء هضم أو توسر عصبي، من تقطيع، في أحدي المضختين، يُسبِّبُ تشوشاً فاتلاً في سير الدم واحتراقه، ومنها أن المضخة الواحدة أهون على الجوف وأخف وأقل حيزاً. ومنها أن الحكم القادر يحسن كل شيء خلائقه، فالمضخة الواحدة أعجب خلقاً، وأغرب توافاً وانسجاماً، وأدل على القدرة؛ وهذا سر الإبداع الذي يحيي الأليل.

ولكن إذا أراد الصانع أن يجعل المضختين في قلب واحد وإن يتحدا في لحظة الضخ، ويشعدا في لحظة الاملاه، وإن لا يختلط فيها الدم الأحمر الظاهر، بالدم الأسود الفذر فكيف العمل؟

إنه قسم القلب قسمين: أحدهما أين والآخر أيسر، وجعل بينهما جداراً مصمتاً ليس فيه باب.

ولكن إذا كان لكل مضخة حجرة واحدة فحسب، أدى الأمر إلى أن يتقطع الضخ في لحظة، أو يتقطع انسكاب الدم في تلك اللحظة.

حيران - لم أفهم يا مولاي.

الشيخ - إن القلب، يا حيران، يضخ في كل دقيقة ما يقرب من عشرين سائقيمترًا من الدم. أي أنه يضخ بسرعة فائقة وبدون انقطاع، فإذا كانت الحجرة محل الضخ واحدة، فإنه إذا عصر حجراته ليضخ الدم،

توقف بهذا العصر ورود الدم الظاهر الجديد من الرئتين ، وارتداد بالعمر
بها الفهري ؟ وكذلك حال المضخة التي تضخ الدم القذر الى الرئتين ،
اذا كانت مؤلفة من حجرة واحدة ، فانها حين تضخ الدم الى الرئتين ،
تقلص وتتصدر ، فتصدر ورود الدم القذر من الوريدين الاجوفين الى القلب
غير قدر الدم فيها . فما العمل ... ?

لا بد ان يكون في القلب اليسير صاحب الدم الاحمر طهراً حبراناً ،
احداها علية والثانية سفل ، ولا بد ان يكون في القلب اليمين صاحب
الدم الاسود القذر حبراناً كذلك . فالحجرة العليا في القلب اليسير ،
وهي التي تسمى (الأذنين اليسير) تستقبل الدم الاحمر الظاهر الآتي من
الرئتين ، عند استرخاء القلب ، ثم تسوقه الى الحجرة السفل التي تسمى
(البطين اليسير) ، ومنه يدفعه القلب بالضخ الى الشريان الاكبر .

وكذلك الحجرة العليا في القلب اليمين ، وتسمى (الأذنين اليمين) تستقبل
الدم الاسود القذر الآتي من الوريدين الاجوفين ، ثم تسوقه الى
الحجرة السفل وهي (البطين اليمين) ، وهذا يعصره ويدفعه الى الرئتين
ليظهر ، ثم يعود بقوة هذه الدفعة الجديدة من الرئتين صافياً نقىًّا ليدخل
الى الأذنين اليسير ، ثم الى البطين اليسير ، ثم الى الشريان الاكبر ، وهكذا
دوالياً ما دام الانسان حياً .

ولكن لو كان المدخل الذي بين كل من الحجرتين في القلب اليسير
والقلب اليمين مفتوحاً دائماً لفسد الامر ، لأن العصر الذي تقوم به عضلات
القلب بقوه وشدة لا بد ان يوجه الدم الوارد من الرئتين او من الوريدين
ويدفعه الى الوراء ، ولمن اردناها حجرتين لتتحقق هذا التدافع بين دم
يُضخ ، ودم يُردد ، فما العمل ؟

لا بد ان يكون بين كل من الحجرتين باب موصى ، يمنع ارتداد الدم
عند العصر والضخ ، فاذا وجد هذا الباب ، استطاع الأذنين اليسير ان
يستقبل دم الرئتين بلا مانع ولا دافع ، واستطاع البطين اليسير ان يعصر
الدم وبضخه الى الشريان الاكبر بلا ازعاج بخاره الأذنين اليسير .

ولكن يجعل هذا الباب موصداً دائماً؟ هذا غير معقول، فن إن يدخل الدم الأخر الجديد إلى البطين الأيسر، والدم الأسود إلى البطين اليمين؟ لقد شاءت قدرة الخلاق العظيم أن يجعل البابين بشكل صمامين عضليين عصبيين ينفتحان وينغلقان، من نفسها، لحظة بعد أخرى بلا توقف، ولكنها صمامان لبابين في قلبين منفصلين عن بعضها بحائط، فهل من الضروري أن يكون انفراجهما معاً، وانطباقها معاً في آن واحد؟ إنما قلبان مستقلان، أولاً يمكن أن يلتاربا الفتح والغلق في دقتين مختلفتين؟

ابداً لا يجوز، لأن القلب في المقيقة واحد، من حيث حرسته وتقلصه وعصره وضنه، وإن كان قلبياً في اقسامه، فكيف يكون الحال إذا انصر القلب كله، في وقت يكون به صمام القلب اليمين، الذي يندفع منه الدم الأسود إلى الشريانين الرئويين مثلاً...؟ إن هذا يفجّر القلب وييذقه.

إذاً يجب أن يجعل الصمامين كلتيهما ينفتحان معاً ليسهلاً دخول الدم إلى الأذينين، وينطبقان معاً ليتمكنا البطيتين من ضخ الدم في آن واحد. وهكذا الحال في خرج الدم الأخر من البطين الأيسر إلى الشريانات الأكبر، وفي خرج الدم الأسود من البطين اليمين إلى الشريانين الرئويين: فإنه لا بد، في هذين المخرجين أيضاً، من صمام لكل منها، كي لا يرتد الدم من الشريان الأكبر، أو من الشريانين الرئويين إلى الوراء، ولا بد أيضاً في هذين الصمامين أن ينفتحاً وينسداً معاً، كالصمامين اللذين بين الحجرات... وإن هنا انتهينا من أحكام عملية الضخ للدم، واستقباله، بنوعيه الأخر والأسود.

ولكن يجيء علينا أن نوصل الدم إلى كافة أنحاء الجسم. وفي المسد اطراف علوية هي الرأس والذراعان، وأطراف سفلية وهي الرجلان، وفيه الأعضاء بباطن الجسم. فكيف نوصل الدم من شريان واحد إلى الجهات الثلاث؟ الجمود يمر أولاً على الرأس ثم على الأعضاء ثم على الرجلين؟

انه اذا لا يصل الى الاختفاء والرجلين الا قدرأ مسموما . بل هذا متعدد ، لأن الدم يذهب الى الرأس بفروع ، والى الدراغين بفروع اخرى ، ومن الرأس والدراغين يذهب الى كل زاوية وخلية عبّر عروق وعروق لا تزال تتفرع وقدق ، حتى تصبح (اووعية شعرية) ، كما سموها لبقتها ؛ فكيف ، بعد ان يذهب الدم في هذه الفروع والشعريات ، يرجع ليتجمع مرة ثانية في الشريان الاكبر ، ليذهب منه ثانية الى الاختفاء حيث يتفرع مرة ثانية الى فروع وعروق وشعريات ؟ وكيف يعود ليتجمع مرة ثالثة ليجتمع الى الشريان الاكبر ليذهب الى الرجلين ... وبماي حال يكون هذا الدم من القذارة والتسمم ؟

لا بد ، اذا ، من جعله فروعا كبارا تتفرع من الشريان الاكبر ، فيذهب فرع كبير منها الى الرأس والدراغين ، ويذهب فرع كبير الى الاختفاء ، ويذهب فرع كبير ثالث الى الرجلين .

والى هنا تكون قد وقنا للجسد الفداء والحرارة ، وبقي ان نوفر لهذا الدم ، الطهارة والتصفية ، والمتد الجديـد من الاوكسجين ، عن طريق الرئتين ، فكيف نزده ونوصله اليهما ؟

لقد جعل الخالق الحكيم ، سبحانه ، لهذا الـ" عروقاً خاصة يقال لها (الاوردة) ، يرجع فيها الدم الاسود من الرأس الى (الوريد الاوجوف الملوى) ، ومن الاختفاء والرجلين الى (الوريد الاوجوف السفلي) ، وساق هذين الوريدين حتى ردهما الى (الأذين الاعـين) ثم الى (البطين الاعـين) ليذهب الدم الى الرئتين فيتـم له حرق فضلاتـه واوسانـه وسمومـه ، والتزوـد باوكـسجين جـديد ، ثم يعود احمر قـوياً طـاهراً ليـدخل من (الوريدـين الرئـتين) الى القـلب حيث يـصب ، عند انبـاطـة القـلب ، بين طـلـقة وـلحـظـة وـضـخـة وـضـخـة ، في الأذـين الـايـسر ، ليـدخلـ منه الى البـطـين الـايـسر ، ويـصـبحـ منه في الشـريـان الـاكـبرـ وهـكـذا ...

حـيرـان - سـبـحانـ الـخـالـقـ العـظـيمـ ... سـبـحانـهـ .

الـشـيـخـ - اـتـظـنـ هـذـهـ الـعـجـائـبـ وـالـغـرـائـبـ اـتـهـتـ عـنـ هـذـاـ الـحدـ منـ

العروق والشرايين والأوردة؟ كلا يا حيران، بل هنالك شرايين وأوردة أخرى في القلب.

حيران - كيف؟

الشيخ - أليس من حق القلب الذي غذى الجسد كلّه أن يتقدّى هو أيضاً؟

حيران - بل أنه يتقدّى من الدم الذي فيه.

الشيخ - ولكن القلب، كغيره من الأعضاء، بل أعظم من غيره من الأعضاء، فيه عروق وعروق، وشعريات تصل إلى أعمق خلية في سبيمه، تغذّيها وترجع منها بالقدر وفضلات وسموم؛ ولا بدّ لهذا الدم القدرة أن يتبع الطريقة السابقة نفسها، فيرتدي إلى القلب في أوردة خاصة تصب في الأذين الأيمن، ليرسلها البطن الأيمن إلى التصفية. وهذا جعل المخلوق الحكيم لتوريّد الدم الظاهر إلى القلب نفسه، شريانين يقال لها (الشريانان التاجيان) يتفرّعان من الشريان الأكبر (الأورط) عند خروج الدم من القلب، أي في وقت يكون الدم فيه أطهوراً ما يكون واقويّاً ما يكون. كيف لا، والقلب، وأهم الدماء للأعضاء، أحق منها وأحوج إلى الدم كثراً وغذاءً وظاهراً وقوةً، فله وحده خمس دم الجسد، مع انتسجه لا يزيد على واحد من مئة من جرم الجسم، وله وحده أكثر ما فيه من الاوكسجين، بينما الأعضاء الأخرى لا تأخذ أكثر من ربع الاوكسجين الذي يصل مع الدم إليها؛ ولذلك جعل المخلوق العظيم لهذا القلب شريانات خاصة وأوردة خاصة.

هذا هو القلب يا حيران... هذا هو القلب في فعله وأثره، وغرضه ووظيفته، وقدره وقدرته، وحيطاته وجدره، ومنافذه ومحجره، وايوائه وستره، وكهوفه وحقيره، وجداؤه وعدره، وصفاته وكدره، ودأبه وسهره، وصبره وعذرته، وعظيم خطره...

هذا هو القلب المسكين الذي يضرّب سبعين عاماً، أو تسعين، ليلاً ونهاراً لا يستريح طرفة عين، يا حieran...

كل عضو في بدنك يستريح ، اذا ارحته ، كل الراحة او بعض الراحة ،
الا هذا القلب المسكين الذي يظل ساهراً عليك ، دهرك كله ، لا ينuss
ولا يغفو ، ولا ينسى ولا يسهو ، ولا يعثر ولا يكتبو ، ولا يخمد ولا
يختبئ ، ولا يمل ولا يشکو ؛ وانت يعبرونك تؤذيه ، وبهمتك تصليه ،
وبأسقادك تکویه ، وبهواك تُضئيه ، وبدموعك تبکيه ، وبأحزانك
تُبلیه ... وهو عفو غفور ، دائم صبور ، بأمر الذي احسن خلقته ،
واعد له عدته ، واقتنص فيه جزءته ، وقدر له اجله ومدته ؟ فاذا
انقضى الأجل ، وانقطع العمل ، مسكن في قفصه ، واستراح من غصصه ...
(فویل للقاسیة قلوبهم من ذکر الله) يا حیران ...

الصَّخْرَةُ الضَّاحِكَةُ الْبَاكِيَةُ

٥

الشيخ - وهذه الحياة يا سيران ، وما أدرك ما هذه الحياة التي خلقها الله
في المسيرة الموات العماء القاسية ، فاصبعت حبة ساعية ، مدركة واعية ،
فأصبة رافية ، شاكرة شاكية ، ضاحكة باكية ... ليت شعري ما هو
حظ المصادفة في خلقها من التراب والماء يا سiran ؟

- (أوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَبْنَاهَا
فَنَسَّقْنَاهَا وَجْهَنَّمَ مِنَ الْمَاءِ كُلِّهِ شَيْءٌ حَسِيرٌ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

- (وَإِنَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ ...)

- (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلَقَكُمْ مِّنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تُتَلَشِّرُونَ)

- (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلًا وَاجْلًا مُسْتَحْشِيَ عَنْهُ
ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ .)

- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلُّكُمْ فَاسْتَعِوا لَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَيَّا بِمَا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الظَّاهِرُ
شَيْئًا لَا يَسْتَقْدِمُهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا
اللَّهُ أَعْلَمُ بِقُدْرَتِهِ أَنَّ اللَّهُ أَكْبَرُ عَزِيزٌ .)

- (فَاسْتَفْتَهُمْ أَهْمُّ أَشْدَدُ خَلَقُوكُمْ أَمْ مِّنْ خَلَقْنَا أَنَا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ طِينٍ
لَازِبٌ . بَلْ هُمْ عَجَيْبُونَ وَيَسْتَغْرِفُونَ . وَإِذَا ذُكْرُوا لَا يَذَّكَّرُونَ .
وَإِذَا رَأُوا آيَةً يَسْتَنْجِرُونَ .)

هذا بعض ما يقوله القرآن في خلق الحياة من (المطين اللازب) ؟ وهو
نفس ما يقوله العلم . لما هي هذه الحياة التي اجمع العلماء مع القرآن ،
على أنها تكونت من الماء والمطين ، ثم وقفوا على عتبة المكان من ميرها
حائزين ... ؟

انهم عرّفوا الشيء الكثير من فروعها واصولها ، وعنصرها وطبيعتها ، ونظمها وقوانينها ، وعلموا ان جميع الاحياء تتألف من خلايا ، وان الخلية تتكون من النطفة الاولى (بروتو پلاسما Protoplasma) وعلموا ان هذه النطفة الاولى مكونة من الكربون والاوكسجين والميدروجين والنيدروجين ... وجرروا ان يختلفوا الحياة في شيء فمعجزة ... ثم اعترفوا ، مع القرآن ، باستحالة خلق ذبابة ...

الاشيخ - لا تذكر يا حيران قول بخشنـ (ان الكمية ذاتها ، على بساطتها ، ذات بناء وتركيب يتبين معه صدورها من الجماد مباشرة . بل ان ظهورها من الجماد **لـ يـعـدـ** ، في نظر العلم ، معجزة ليست اقل بعداً عن العقل من ظهور الاحياء العليا من الجماد مباشرة) .

حيران - كيف لا اذكره !

الاشيخ - الا تذكر قول توماس اكرونام (ما يـ من عالم عـرفـ حتىـ اليومـ حـقـيقـةـ ذـبـابـةـ ...)

حieran - كيف لا اذكره

الاشيخ - الا تذكر قول روجر باشكون (انه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع ان يعرف كل شيء عن طبيعة ذبابة واحدة) .

حieran - كيف لا اذكره .

الاشيخ - ولكنـ هذا القرآن الذي يقول للناس (يا ايها الناس ضربـ مـثـلـ) فاستمعوا له ان الذين قد نعون من دون الله لن يختلفوا ذباباً ولو اجتمعوا له ...) قد سبقهم جميعاً يا حieran ...

حieran - ابراهيم قد اقتبسوا قول القرآن يا مولاي ؟

الاشيخ - ان المقول السليم تلاقى على الحق يا حieran . وكلما ازدادت علماً كان تلقيها على الحق ايسراً واقرباً . ومن اجمل هذا رأينا العلام ، بعد ذلك الانسكاب المادي الذي اعترى بعضهم في اواخر القرن التاسع عشر ، يرجعون الى التلاقى على الحق ، ويكافئون بمحضهن اليوم اجهاماً ، يلسان اكابرهم ، على ان هذه القوانين والتوصيات ، التي نشأت على اساسها

الحياة وتطورت ، تتطوّر على وحدة ، في القصد والارادة والعنابة والحكمة ، يستحيل معها على العقل السليم المفكّر ان يؤمن بـأـن هذه الحياة خلقت وتطورت بالصادفة العمياء .

فهذا اللورد كلفن العالم الانكليزي الكبير يعلن هذا اليمان على الناس ويستخر من القائلين بالصادفة في حلقة هذه الحياة ويتعجب من اغضاء بعض العلماء بما في آثار الحكمة والنظام من حجية دامنة ويرهان قاطع على وجود الله ووحدانيته ، حيث يقول (يتقدّر على الانسان ان يتصور بداية الحياة او استمرارها دون الله تكون هنالك قوة خالقة مسيطرة . وانني لا اعتقد من صحي نفسي ان بعـدـ العـلـمـاءـ ، فيـ الجـاهـيـنـ الـفـلـسـفـيـةـ عنـ الـحـيـوانـ ، قد اغـضـواـ اـغـضـاءـ عـظـيمـاـ مـفـرـطـاـ عـماـ فـيـ نـظـامـ هـذـاـ الـكـونـ منـ حـجـيـةـ دـامـنـةـ . فـاتـ لـدـيـنـاـ فـيـماـ حـوـنـاـ بـرـاهـيـنـ قـوـيـةـ قـاطـعـةـ عـلـىـ وـجـوـهـةـ نـظـامـ مـدـبـرـ وـخـتـيرـ ، وـهـيـ بـرـاهـيـنـ تـدـلـنـاـ ، بـوـاسـطـةـ الـطـبـيـعـةـ ، عـلـىـ مـاـ فـيـهـاـ مـنـ اـنـ اوـرـ اـرـادـةـ حرـرـةـ وـقـلـعـنـاـ انـ جـيـعـ الـاـشـيـاءـ (ـ الـحـيـةـ)ـ تـعـتمـدـ عـلـىـ سـخـالـقـ وـاحـدـ اـعـدـيـ اـبـدـيـ)ـ .

وهذا اشتين العظيم يأتي من بعد كلفن ليقول (ان جوهر الشعور الديني ، في صيغته ، هو ان نعلم باـنـ ذـلـكـ الـذـيـ لاـ سـبـيلـ لـعـرـفـةـ كـثـرـ ذـائـبـ موجودـ حقـاـ ، ويتجلى باـمـيـ آـيـاتـ الـحـكـمـةـ وـاـيـهـ اـنـوـارـ الـجـمـالـ ...ـ وـانـيـ لاـ اـسـتـطـعـ اـنـ اـتـصـورـ عـالـمـاـ حـدـ لاـ يـدـرـكـ انـ الـمـبـادـيـ الصـحـيـحةـ لـعـالمـ الـوـجـودـ مـبـلـيـةـ عـلـىـ حـكـمـةـ تـجـعـلـهاـ مـفـرـطـةـ عـنـ الـعـقـلـ . فالـعـلـمـ بـلـ اـيـانـ يـشـيـ مـشـيـةـ الـاعـرـجـ وـالـاـيـانـ بـلـ اـعـلـمـ يـتـلـفـ ، تـلـئـ الـاعـمـ)ـ .

فهل تريد احسن من هذا التلاقي بين عقول العظماء ، وبين القرآن الذي يقول لنا (انا يخشى الله من عباده العلماء) ...؟

حيران - حقاً انا يخشى الله من عباده العلماء .

الشيخ - وهذا الانسان يا حيران ، الذي يقول الله تعالى انه خلقه في (احسن تقويم) ما هو حظ المصادة في خلقه وتقويمه ، ورعايته ونكرره ، وتعقيمه وتعلبيه ...؟

- (لَهُدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَفْعِيلٍ .)
- (يَا إِيَّاهَا النَّاسُ مَا غَرَّكُوكُ بِرَبِّكُ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكُ فَسُوَّاً كُوكُ فَعَدَّكُ .)
- (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّهُ لَهُ، خَلَقَهُ وَبِدِّ خَلَقَ النَّاسَ مِنْ طِينٍ .)
- (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ سُوَّاً كُوكُ رَجُلًا .)
- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَاجْلًا مُسْمَىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ اَنْتُمْ تَقْرُونَ .)
- (أَنَا خَلَقْتُهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٌ .)
- (هَلْ أَنْتَ عَلَى الْأَنْسَانَ حَسِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .
أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ أَمْ شَائِجٍ نَبَتَلَهُ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا بَصِيرًا .)
- (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ النَّاسَ مِنْ عَلَقَةٍ . اقْرَأْ
وَرِبِّكَ الْأَكْرَمَ . الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَ . عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .)
- (وَعَلِمَ آدَمَ الْإِسْمَاءَ كُلُّهَا ...)
- (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالقٌ بِشَرَاءٍ مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتَهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَتَقَعُوا لِهِ سَاجِدِينَ .)

هذا بعض ما يقوله القرآن في خلق الله لهذا الإنسان ، من التراب والملائكة ، في الأجل المسمى عنده ، بعد أن لم يكن له وجود على الأرض ، ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وهو يكاد يكون نفس ما يقوله العلم عن تكوين الإنسان من التراب والملائكة الأولى ، في آجال من التطور ، بعد أن لم يكن له أثر في طبقات الأرض السفل . فما هو حظ المصادفة في خلق هذا الإنسان يا حيران ؟

هذا الإنسان العجيب الذي يبدأ حياته من تراب ومهام ثم من نطفة ، مثل كل حيوان أعمى ، ثم يصبح فيليسوفاً (يتعلم الاسماء كلها) ويتسع عقله لادراته كل ما في هذا الكون من وجود ، ومادة ، ونظام ، وحق ، وخير ، وجمال ، فيصوغ منها علمًا ، وفنًا ، وادبًا ، وشعرًا ، وتقى ، وحكمة ، وفلسفة ، وتصوفاً ، يكشف بآثارها ، وهو لا يدرى ، بما فيه من روح الله ... هذا الإنسان هل كان خلقه أثراً من آثار المصادفة العجيبة يا حيران ؟

ما هذا الان... بأيِّ عجائبِه اذْكُرُكَ؟

كيف يخلق في الظلامات الثلاث...؟

كيف يتتطور في بطن امه من نطفة الى علقة الى مضغة الى انسان
كامل، خلقاً بعد خلق...؟

كيف يتغذى في بطن امه بذلك الطريقة العجيبة؟

• كيف يتنفس... كيف يرضع... كيف يأكل... كيف يضئن...
كيف يبلع... كيف يهضم... كيف يتمتص غذاءه... كيف يدفيء جسده...
كيف يكتسب جوفه... كيف يلقط كناسته... كيف يقايس عليها
بوقود جديد...؟

كيف يدفع دمه في جداوله ليسقى حقوله الواسعة الشاسعة بذلك
المضخة العجيبة ذات البيوت المقسمة والصمامات الحركة، التي تعمل دهراً
كاماًلاً في دورة دموية مستمرة تذهب فيها الجداول الحمراء بالدم النظيف
الصافي الى اقصى اطراف الجسد، وترجع الجداول الزرقاء به، مليئة
بالسوائل والثنيات واشلاء العمال الموتى، الى مصفاة بل محرقة هائلة تقتيه
وتطهره وتحممه الرقاد الجديد، ليرجع الى المضخة التي تدفعه ثانية في
الجسد، لستمر الحياة دهراً كاماًلاً لا تقف فيه لحظة واحدة...؟

كيف يحوّل هذا الانسان غذاء في كبده ويعدّله ويختزنه؟

ما هو هذا الكبد...؟ ما هذه الفدة العظيمة الجليلة، الكريبة البخلية،
المترنة العاقلة، المعدلة العادلة، المدخرة الموفقة، الخازنة المقترة، التي
اذا زاد السكر (Glucose) في دملك عن واحد في الالاف منعت "وحرمت" ،
وان نقص اعطيت "وقكرمت" ، وان كثر الفائض خزنته بعد تحويله الى
يوم حاجته ولزومه، لتغدو لك بذرقاء وتحميك من سومه...؟

ما هذه الغدد (الهرمونية) ذات الافرازات الكيماوية السرية التي
تعتمد في الاعصاب والمussels والمعظام والعقل والقلب والشرابين والجلس :
فتكتبر الجسم وتصغره، وتطوله وقصره، وتذكي العقل فلا يهدى ،
وتدفع الجسد فلا يبرد ، ورفع الضغط وتهبطه ، وتنشط العصب وتُثبطه ،

وتحفظ على الملح نسبته ، وتضبط له حسته ، وترزيد في السكر عند تقصانه ، وتحرقه عند طفيانه ، وتسك على المخنام كلها ، وتعطي خلايا الجنس جلسا ... يا حيران ؟

ما هي هذه الخلايا التي لا ترى بالعين والتي يبلغ عددها في جسم الانسان تريليونات ، وحكيف تتنظم جماعات ليصنع كل منها جانبا من الجسم ، كأنها العمل او النحل تعرف الدور الذي كتب عليها ان تقوم به في رواية الحياة ... ؟

ما هذا التنسيق الآلي الكيماوي العصبي العجيب الذي يجعل كل عضو وكل غدة وكل خلية تجذب وتشعاون لايجاد توازن ثابت دقيق في دم الجسم ، وماهه ، وحرارته ، وامصاله ، وعصاراته ، واملاحه ، واحماضه ، وقلوياته ، وسكرياته ، وتقوم باصلاح كل فساد ، وترميم كل خراب ، وتعويض كل نقص ، وتسديد كل عجز ، وتعديل كل افراط او تفريط ، ورتوى كل فتق ، ورفع كل خرق ، ويجبر كل كسر ، وقطع كل تزيف ، وتعيش كل قوة ، وشحذ كل سلاح ، وصنع كل سُمّ ومَصل لرد كل عدوان ، وتحطيم كل عدو ، وامداد الجيش بجنود جدد ، بدلاً من شهداء الوطن العزيز ... ؟

وهذا العقل الذي حارت كل العقول ، وما زالت حائزة ، في اسراره يا حiran ، عن اي عجائبه احدثك ... ؟

كيف نفهم يا حiran ؟ كيف ندرك ، كيف نعقل ، كيف نحفظ ، كيف نخزن ملايين الملايين من المعرف ، وابن نخزنها ، وكيف نستخرجها من مخازنها عند الحاجة ، وكيف تتذكر ، وكيف تقارب ، وكيف تتمثل ، وكيف تستنتج ، وكيف تحكم يا حiran ... ؟

وما هي هذه القطعة من اللحم والشلة من الاعصاب التي عثمنا بها المثالق الاسيء كلها وجعلنا بها فرق الملائكة يا حiran ... ؟

ما هذا الجهاز العصبي العجيب المدهش الذي نسيطر عليه ، ويسطر علينا ، من حيث ندري ومن حيث لا ندري ، فنتحكم ، يجانب منه ، في

بعض اعضائنا ، بارادتنا ، ويتحكم هو بمحاب آخر من خيوطه ، في اعظم اعضائنا خطراً بل في كل خلية من جسمنا ، بارادته الخاصة المطلقة بدون علم منا ، كأنما في هذا الجهاز عقلان مستقلان : الوعي ، وغير الوعي الذي هو احق واجدر ان يوصف بالوعي ، لأن ذلك الوعي قد يخطيء وهذا لا يخطيء ابداً ، ولأن الوعي لا يعي اعمال زميته ولا يتدخل فيها ابداً ، ولو وعها وتدخل فيها لافسدها ، اما غير الوعي فيشعر بكل اعمال الوعي وينتقل سرآ بتنسيقها . واذا سكن الوعي او تعطل فكل الذي ينتج عن سكونه او تعطيله ان عضلاتنا تتوقف عن الحركة ودماغنا يكمل عن التفكير الصحيح ، ويصبح حالنا اشبه بحال النائم ؛ واما اذا اذا تعطل غير الوعي فالقلب يختزل ، والمعدة تختزل ، والكبد يختزل ، والسمع يختزل ، والبصر يختزل ، ... بل كل شيء فيما يختزل ويكون مصيرنا الموت الحتم ... فهل كان هذا الفصل العجيب الحكم الحكم بين السلطتين اثراً من آثار المصادفة العجيبة يا حيران ؟

وما هذه المادة الخبيثة المحتوية على اكثر من ۱۲ مليون خلية تتصل احدهما بالآخر بليف عصبي ذي فروع لا تعد ولا تحصى ، فتعمل ، بدقة عجيبة وتناسق مدهش ، كأنها خلية واحدة يا حيون ... ؟

وما هذا السحاج الدماغي الذي ~~كانه~~ مركز قيادة في كل بيت من بيوته ضابط يتلقى من الخارج ألاف الرسائل الواردة من طريق الحواس ويخبر بها القيادة العليا ... ؟

وما هو هذا القائد الاعلى الذي يتولى تنسيق تلك الرسائل العديدة ، فيقرأ هذه ، ويؤخر هذه ، ويطرح تلك في الاعماق ، ثم يقارن ، ويعمل ، ويصحح ، ويعدّل ، حتى يستنتج ، ويكون ، من الاحاسيس الجديدة والقديمة المهزولة ، ادراكاً عقلياً عجيباً يخرج به هذا الحيوان الأعمى السالفك الدماء عن بنيته ، حق يسمو احياناً الى عتبة ذلك الذي جعله في الارض خلقة وكرمه ، وبالقلم علّمه يا حيران ... ؟
افكل هذا الاحسان ، والاتقان ، والتقويم في الخلق ، والتقدير ، والازان ،

والتنظيم ، والاسحاق ، والتعديل ، والترابط ، والتجاوب ، والتعاون ، والتناسق
بين ملايين الملايين من النرات والخلايا والاعصاب هو اثر من آثار المصادفة
العجيبة يا حيران ... ؟

(أتكلف بالذى خلقت من تراب ثم سوأك رجلا) يا حيران ... ؟
(بل عجبت ويسخرون . اذا ذكروا لا يذكرون . اذا رأوا
آية يستخفون) ...

يقول حيران بن الاضعف : وهذا اجهش الشيخ وشرق يدعوه فاكبنت
على يديه اقبلاها واغسلها بدموعي فجأر بالبكاء وهو يقول (فويل للاقصية
فليوهم من ذكر الله) يا حيران ... يكررها حتى هدأت نفسه فاستلم الى
سكون عميق .

وما زلنا ساكنين ساكنين حق نبيتنا اشعة الشمس الشرقية من خلال
الشجرة التي نظلل ضريح الامام . فقال الشيخ ، بصوت ضعيف لا تزال فيه
بحنة الباقي : يا حيران اني تعب . احضر لي وضوئي ... وبعد ان توضأنا
وقضينا صلاة الصبح اوى الشيخ الى فراشه وهو يقول . دثريني دثريني ،
يا حيران ، فقد بردني الليل وانهكتني السهر ...

وصيَّةُ الشَّيخِ

٦

« وَمَا أَنْجَسَنَّ فَلَا مِنْ ذَرَفَ إِلَى اللَّهِ ؟ ... »
الْقُشَّاَتُ ۚ

صنفان من الناس فقط يجوز أن نسميهما عفلاه
(وهم الذين يخدمون الله لأنهم يعرفونه) والذين
يجدون في البحث عنه لأنهم لا يعرفونه)
باسكال

يقول حيران بن الأضعف : وبعد ان دُرْت الشَّيخ وخرجت من عنده لم أتم لاني كنت على موعد مع رجل من أهل (خرتتك) فذهبت اليه ، وقضيت النهار عنده ، ولما عدت بعد الغِيَاب ، وصلتِي العشاء مع المؤذن العجوز ، قال لي : هل رأيت مِرْلَا نَفَقَ في هذا النهار ؟ قلت : كلام أره لاني ذهبت عند طلوع الشمس الى القرية ، ولم اعد منها الا الساعة . قال : أني لقليل عليه ، فقد ذهبت بعد المغرب لآخر جُونة طعامه كعادتي فوجدتها لا زال معلقة في سياج البستان ، حيث نضجها له ، والطعام فيها على حاله ؛ فهل عرى ان تتفقده في الغياض ؟ ان البرد قارس في هذا المساء . قلت لا داعي لهذا ، فنه لا يبقى في النبضة مع هذا للبرد ، وارجح انه في غرفته ، ولعنهه سريض ، فقد تركته عند الفجر مفروراً تعباً ، وسانفده الان . ناذب ات الى عيالك وكن مرتاح البال .

وبعد ان ودعني هذا العجوز أسطيب ، اوصدت باب المسجد ، وعدت الى غرفة الشَّيخ ، فرأيتها مظلة ، فاعتبرتني رعدة من الحروف حين خطر بيالي انه اصيب بـمـكـروـه ، وتهـبـت الدخـولـ عـلـيـ حقـ لا اهـجـمـ عـلـىـ الفـجـاءـةـ ، فـعـدـتـ اـدـرـاجـيـ مـتـجـسـساـ ، فـغـرـتـ مـنـ المسـجـدـ وـدـرـتـ حـوـلـ فـنـائـهـ حقـ دـخـلـتـ اـلـىـ الرـوـضـةـ الصـغـيرـةـ المـسـوـرـةـ ، الـقـيـ يـهـ ضـرـبـ الـامـامـ ، لأنـظرـ اـلـشـيـعـ الشـيـعـةـ تـشـيـهـ النـعـاءـ ... ولـتـاـ دـنـوتـ مـنـ طـرـفـ الشـبـاكـ ، وـسـعـتـ لـشـيـعـاـ وـدـشـدـشـةـ تـشـيـهـ النـعـاءـ ... ولـتـاـ دـنـوتـ مـنـ طـرـفـ الشـبـاكـ ، وـاصـحـتـ اـلـصـوـتـ سـعـتـهـ يـقـولـ : (رـبـ) اوـزـعـنـيـ انـ اـشـكـ نـعـمـتـكـ الـتـيـ اـنـعـمـتـ عـلـيـ وـعـلـىـ وـالـدـيـ وـانـ اـعـمـلـ صـالـحـاـ عـرـضـاهـ وـأـصـلـحـ لـيـ فيـ فـرـيـقـيـ إـنـيـ تـبـتـ بـيـكـ وـإـنـيـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ) ثم نـشـجـ نـشـجـةـ عـبـيـقـةـ سـعـتـهـ يـقـولـ

بعدها (ولتبخثُنَّ الْذِينَ لَوْ رَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرَّةً فَيُعَاافَى حَافِوا عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتَقْبَلُوا إِلَهٌ وَلَمْ يَكُوْلُوا قَوْلًا سَدِيدًا .) ، ثم رفع يديه الى السماء ، واعتل في البكاء وهو يقول : اللهم جنتنا مصارع السوء برحتك يا ارحم الراحرين ...

هنا عدت ادرادي الى المسجد عجلأ ، وقد ارعدني البرد القارس ، فدخلت على الشيخ ، فبل ان ياذن لي . فلما رأته قال : لا تخف ... ابني لا ازال حيّا ... ولكنني مريض ... اصرخ المصباح ، وأأنتي بشيء من الدين اسد به رمقي ، فقد قضيت النهار كله طليا . وبعد ان شرب الدين ، امر بوضوئه ، ثم صلّى العشاء قاصدا . وعاد بعد الصلاة الى سريره ، وجلس متكتئا ، ونظر الي مبتسما وقال :

— يا حيران ! أما قال الله (ولا تجسّسُوا) ؟ ، أما قال (وأتُوا البيوتَ من أواهاها) ؟

حيران — بلى . ولكنك تجسسُ المحب الملوّع يا مولاي ... فقل لي ، بربك ، ما الذي كان يبكيك ، وبماذا كنت تنددن ؟

الشيخ — إنها وحشة الشيخ الفاني ، اذا شعر بدنو أجله يا حيران ...

حيران — العمر الطويل يا مولاي

للشيخ — لقد طال يا حيران ... ومن نعم الله على عبده ، ان يقبضه اليه قبل ان يصبر الى ارذل العمر . وما كنت ابكي من خيبة الموت . ولكنني كنت اضرع الى الله في وحدني ... فانه ، سبعاً ، يحب من عبده ان يدعوه تضرعاً وخشية .

حيران — ما هذا الذي كنت تدعوه به يا مولاي ؟

الشيخ — لكلِّ مَا آلامه ، وآماله ، ومخاوفه ، وذكرياته ، يا حiran . وكلِّ يدعو بما يتصل بذات نفسه .

ثم حول الشيخ وجهه عني نحو النافذة ، والدمسيح يحول في عينيه ، وقال ، وهو يتشاغل بأغلاقها ، ليصرفني عن النظر اليه : أرجُّعها يا حiran ، فان برد الخريف اضر من برد الشتاء .

ولما دلت من سريره ، والختنات عليه لأرجح النافذة ، احس الشيـــخ
أني اشرق بالدموع ، فقال :

ـ وخلائقـــ الانسان ضعيفاً ، يا حـــيران ...

ـ حـــيران - ومن هو ابوك يا مولاـــي ؟

ـ الشـــيخ - أبي وابوه عبدان من عباد الله الصالحين .

ـ حـــيران - وـــاينـــ هـــمـــ اـــوـــلـــادـــكـــ يـــاـــمـــوـــلـــاـــيـــ ؟ـــ وـــمـــاـــحـــاـــلـــهـــمـــ ؟ـــ

ـ الشـــيخ - انـــهـــمـــ هـــنـــاـــكـــ فـــيـــ ســـمـــرـــقـــدـــ ،ـــ وـــهـــمـــ بـــأـــلـــفـــ خـــيـــرـــ وـــقـــعـــةـــ مـــنـــ اللهـــ يـــاـــحـــيرـــانـــ .ـــ

ـ حـــيرـــانـــ - اـــذـــاـــ لـــمـــاـــذـــاـــ اـــرـــاكـــ جـــزـــوـــعاـــ عـــلـــيـــهـــمـــ ،ـــ هـــلوـــعاـــ عـــلـــ مـــصـــيـــرـــهـــمـــ ؟ـــ

ـ الشـــيخ - ليســـ المـــالـــ كـــلـــ شـــيءـــ يـــاـــحـــيرـــانـــ ...ـــ اللـــهـــمـــ جـــنـــتـــهـــمـــ مـــســـارـــعـــ

ـ الســـوءـــ وـــاســـتـــرـــهـــمـــ بـــســـتـــرـــكـــ الـــجـــيلـــ ...ـــ

ـ حـــيرـــانـــ - اـــمـــاـــ اـــشـــرتـــ الـــبـــعـــدـــ عـــنـــهـــمـــ ،ـــ وـــاعـــتـــزـــلـــ النـــاســـ فـــيـــ هـــذـــاـــ الـــمـــســـجـــدـــ ؟ـــ

ـ الشـــيخ - لـــتـــ بـــعـــيدـــ عـــنـــهـــمـــ ،ـــ قـــســـرـــقـــدـــ عـــلـــ بـــعـــدـــ فـــرـــســـخـــ مـــنـــ خـــرـــتـــنـــكـــ .ـــ

ـ ولـــكـــنـــ ســـعـــيـــتـــ لـــهـــمـــ فـــيـــ زـــادـــهـــ اـــرـــبـــعـــينـــ عـــامـــاـــ ،ـــ وـــجـــتـــ ،ـــ الـــيـــوـــمـــ ،ـــ اـــســـعـــ فـــيـــ زـــادـــيـــ ...ـــ

ـ حـــيرـــانـــ - أـــلـــيـــ الســـعـــيـــ عـــلـــىـــ الـــعـــيـــالـــ ،ـــ وـــالـــقـــيـــامـــ عـــلـــهـــمـــ ،ـــ مـــنـ~ــ اـــعـــظـــمـ~ــ الـــبـــرـ~ــ عـــنـ~ــدـ~ــ اللهـ~ــ ؟ـ~ــ

ـ الشـــيخ - بـــلـــ بـــلـــ يـــاـــحـــيرـــانـــ ...ـــ وـــلـــكـــنـ~ــ الـــاـــنـ~ــسـ~ــانـ~ــ ،ـ~ــ اـــذـ~ــاـ~ــ شـ~ــعـ~ــرـ~ــ بـ~ــدـ~ــنـ~ــوـ~ــ اـ~ــجـ~ــهـ~ــ

ـ اـــحـــبـ~ــ الـ~ــاـ~ــقـ~ــطـ~ــاعـ~ــ إـــلـ~ــىـ~ــ اللهـ~ــ ...ـ~ــ وـ~ــهـ~ــذـ~ــاـ~ــ مـ~ــاـ~ــ لـ~ــاـ~ــ يـ~ــتـ~ــيـــسـ~ــ فـ~ــيـ~ــ زـ~ــحـ~ــةـ~ــ الـ~ــمـ~ــدـ~ــيـ~ــةـ~ــ .ـ~ــ وـ~ــلـ~ــيـ~ــ

ـ فـــأـــجـ~ــدـ~ــ فـ~ــيـ~ــ أـ~ــثـ~ــاـ~ــ لـ~ــاـ~ــ اـ~ــجـ~ــهـ~ــ فـ~ــيـ~ــ مـ~ــكـ~ــاـ~ــنـ~ــ سـ~ــوـ~ــاهـ~ــ ؛ـ~ــ وـ~ــطـ~ــلـ~ــاـ~ــ كـ~ــنـ~ــتـ~ــ"ـ~ــ ،ـ~ــ اـ~ــذـ~ــاـ~ــ حـ~ــرـ~ــبـ~ــتـ~ــنـ~ــيـ~ــ

ـ الـــصـــائـــبـ~ــ ،ـ~ــ اـ~ــحـ~ــدـ~ــ تـ~ــقـ~ــيـ~ــ ،ـ~ــ وـ~ــأـ~ــمـ~ــتـ~ــبـ~ــاـ~ــ بـ~ــيـ~ــوـ~ــمـ~ــ اـ~ــنـ~ــقـ~ــطـ~ــعـ~ــ فـ~ــيـ~ــ إـ~ــلـ~ــىـ~ــ اللهـ~ــ فـ~ــيـ~ــ هـ~ــذـ~ــاـ~ــ الـ~ــسـ~ــجـ~ــدـ~ــ

ـ عـــنـ~ــدـ~ــ قـ~ــبـ~ــرـ~ــ هـ~ــذـ~ــاـ~ــ الـ~ــبـ~ــدـ~ــ الصـ~ــالـ~ــحـ~ــ ...ـ~ــ فـ~ــالـ~ــنـ~ــفـ~ــسـ~ــ ،ـ~ــ يـ~ــاـ~ــحـ~ــيرـ~ــانـ~ــ ،ـ~ــ اـ~ــذـ~ــاـ~ــ اـ~ــسـ~ــتـ~ــوـ~ــحـ~ــتـ~ــ ...ـ~ــ

ـ الـــخـــلـــقـ~ــ ،ـ~ــ لـ~ــاـ~ــ نـ~ــأـ~ــسـ~ــ إـ~ــلـ~ــىـ~ــ الـ~ــخـ~ــالـ~ــقـ~ــ ،ـ~ــ وـ~ــلـ~ــاـ~ــ تـ~ــحـ~ــسـ~ــ بـ~ــالـ~ــقـ~ــرـ~ــبـ~ــ مـ~ــنـ~ــهـ~ــ ،ـ~ــ أـ~ــلـ~ــاـ~ــ لـ~ــادـ~ــتـ~ــ

ـ يـــجـــوارـ~ــ عـ~ــبـ~ــدـ~ــ مـ~ــنـ~ــ عـ~ــبـ~ــادـ~ــهـ~ــ الـ~ــقـ~ــرـ~ــبـ~ــينـ~ــ ...ـ~ــ

ـ حـــيرـــانـ~ــ - هـ~ــذـ~ــاـ~ــ صـ~ــحـ~ــيـ~ــ ،ـ~ــ وـ~ــقـ~ــدـ~ــ اـ~ــعـ~ــتـ~ــدـ~ــنـ~ــاـ~ــ اـ~ــنـ~ــ تـ~ــقـ~ــرـ~ــبـ~ــ مـ~ــنـ~ــ مـ~ــلـ~ــوـ~ــكـ~ــ الـ~ــاـ~ــرـ~ــضـ~ــ وـ~ــرـ~ــاءـ~ــ اـ~ــحـ~ــدـ~ــ الـ~ــقـ~ــرـ~ــبـ~ــينـ~ــ ...ـ~ــ

ـ الشـــيخ - شـــتـــانـ~ــ وـ~ــهـ~ــبـ~ــاتـ~ــ يـ~ــاـ~ــحـ~ــيرـ~ــانـ~ــ ...ـ~ــ (ـــمـ~ــنـ~ــ ذـ~ــاـ~ــ الـ~ــذـ~ــيـ~ــ يـ~ــشـ~ــفـ~ــ عـ~ــنـ~ــهـ~ــ

الا يأذن له لا...) ولكننا ، مع هذا اليقين ، نشعر بلذة التذلل الى الله من طريق الاستشفاع بارليانه واحبابه ؛ كأننا نعرف بذنبينا ، ونرى نفوسنا اذلّ واهون ، امام الله ، من ان تدّو من باب رحمة الا متوازية وراء عبد من عباده المقربين ...

حيران - الان فهمت معنى قوله ، يوم جنتك ، اني ازعجتك ، وافسدت عليك لذة استغراقك في ذلك وانكسارك الى الله . حقاً لقد قتلتُ عليك يا مولاي ، وقطعتك عن العبادة .

الشيخ - لقد زدتني عبادة باحيران ... بل اتحشتَ لي خيراً ضرورياً العبادة ... (ومن احسنَ قولَ ايمَنْ دعَى الى الله) باحiran ؟

حيران - احسن الله اليك يا مولاي .

الشيخ - ولكنك شغلتني ، الليلة ، بالحديث عن نفسي .

حيران - كل الحديث معلمك خير ... وقد وجدتك تعيَا مكتتبًا ؛ وما اراني اطيق السهر ، فاني لم انمْ منذ تركتك بعد طلوع الشمس ابداً ، بل ذهبت الى خرتتك ، وعدتُ اليها بعد الغياب تعيَا مقروراً كاني محوم .

الشيخ - وزدتَ نفسك اذى حين خرجتَ الى الروضة ، متوجّساً على ، في هذا البرد القارس ... ثم وادهبي الى فراشك ، واليك هذا الدنار فاستدفي به .

يقول حيران بن الاضعف : ولما عركت الشيخ ، راویت الى غرافي ، اخذت اشعر برعدة المحن ... ثم قضيت الليل كله اقلب على مثل الجمر . ولما طلع الفجر وجاء الخادم العجوز ، تحاملتُ على نفسي ، حتى فتحت له الباب . فلما رأى ما في جزاع ، وبادر الى الشيخ ، فاخبره بحاله ، فاقبل على يده لف في مشيته ، ودنا مني حتى امسك بيدي ، فلما احس لذع المحن اكثیر وجهه ، وامر خادم المسجد ان يدعوه له كثیر القرية ليجعلني الى المستشفى في سرقسطة .

وعيّنا حاولت ان اصرفه عن ارسالي الى سرقسطة ، فانه اصرَّ بعناد وهو يقول : لا بأمن عليك ، انشاء الله ، يا ولدي . ولكن انت غريب

بعيد عن اهلك . والحمد لله شديدة الرطأة . قلت : يا مولاي ، اني اعرف من انواع المحن ما يكون موقتاً ينتهي في يوم وليلة ، فدعني في جوارك الى الغد ، لعلها تفوت عنى ، والا فاني اصدع بامرك . قال : عسى انت تكون موقتاً ، ولكن اعراف منك بانواع المحن . فهذه التي تأتي من البرد ، هكذا صاعقة ، بعد يوم كامل ، تحتاج الى معالجة وعناية ، والتأخير لا يأتي بخيراً .

وما اتصف النهار حتى شئت علي " وطأة المحن " ، وشعرت بدوار في رأسي ، ثم غبت عن الوعي . ولم افق من غيبوبتي الا بعد يومين ، فوجدت نفسي في المستشفى . وعلمت بعد ذلك ان الشيخ (الموزون) احضرني بنفسه اليه ، وامر بالعناية بي ، وكان امره مطاعاً .

وقضيت في المستشفى اسبوعين كاملين ، حتى زال الخطر عنى ، وسمح الطبيب بدخول العواد علي" . وكان اول الداخلين خادم المسجد . فسألته عن الشيخ ، فبلغني سلامه ، وخبرني انه اصيب بنوبة ، بعد عودته من سهرة ، وانه يلازم فراشه من ذلك اليوم . فدعوت الطبيب ورجوته ان يسمح لي بالخروج ، فأبى وقال : انت في اول النقاوة ، ومن الخطر عليك ترك الفراش قبل انقضاء اسبوع على الاقل . فذكرت له قلقى على الشيخ ، فقال : انه الان بخير ، وقد مررت النوبة عليه بسلام . وقد حذرته من ترك السرير ، ومن كل سجنثة نفسية ، ومنعت اخانا العجوز من اخبار اهله ببرضه ، كي لا تكون زيارة اولاده له سبباً لحزنه قد يحدده النوبة ، ويفضي عليه ، وحدّقه من المطالعة والكتابة .

قال الخادم العجوز الذي يسمع الحديث : ولكنه يكتب طيلة النهار يا سيدى ، وعيشاً حاولت ان امنعه . وكل ذلك من اجل سيدى حيران . قلت : من اجل ما ؟ قال : نعم من اجلك يا سيدى . فاني سكنت احتلس النظر اليه ، فاقرأ ، فيها يكتب ، اجعل انت يكرره ...

قلت : هذا عجيب . وابن الكتاب . ولماذا لم پبعث به اليه ؟ قال لا ادري ، انه مكتوب طويل يا سيدى .

وبعد أيام جاء الخادم العجوز يحمل إلى "دفتر الأمالي" ويلتفى سلام الشيخ ، فأخذت الدفتر وخباره في خزانة ، واقفلت على بابها . ثم سألت العجوز ، لم يبعث إلى الشيخ بهذا الدفتر ، فقال لا ادرى ، ولكن اوصاني ان اسلمه إليك بيديك ، فتناولتني الهواجرس ... واقسمت على العجوز ان يصدقني الخبر عن الشيخ ، فاقسم انه يختر وعافية . قللت : وain مكتوبه الذي قلت انه يكتب إلى ؟ قال لا ادرى .

وانقطع عن الخادم العجوز ، بعد ذلك ، خمسة أيام كاملة ، فقلقت على الشيخ . ولما سألت الطبيب عنه تشاغل عن الجواب . وفي اليوم السادس دخل على "الخادم العجوز وهو مكسف وجهه ، منكس الرأس ، مقرح الاجنان . وما سأله عن الشيخ حتى انفجر بالبكاء وهو يقول مشنولاً : انه مات يا حيران ... انه مات وهو يذكر كلاماً يذكر اولاده ... واعوّلنا كلانا حتى ضج المستشفى . وجاء الطبيب فأخذ يعاتب الرجل على انباتي بوفاة الشيخ . وبعد ان سكتت نفسي اخبرني ان الشيخ اصيب بتنوية ثانية لم يتتحملها قلبه . وانهم دفنه ، عملاً بوصيته ، قرب المسجد بين الرياحين التي كان يقضى بها آخر أيام حياته .

ثم سمح لي الطبيب بالخروج ، فارتديت ثيابي ، وحملت دفتر الأمالي ، ورافقت الخادم الى خرتتك ثم الى المسجد ، وهناك قدمت الى قبر الشيخ الحبيب ، اسفى قرابه بدموعي . وما زلت ابكي حتى اقبل الليل ، وشعرت بأشد البرد ، فدمت الى المسجد ، واوتيت الى غرفة الشيخ مع الخادم العجوز الذي لم يشا ان يفارقني تلك الليلة .

وبعد ان نام الخادم ، اخذت ابحث في خزانة الشيخ ، عن ذلك الكتاب الذي قيل انه كان يكتب إلى ؟ فلم اجد له اثراً .

وامتنع على النوم من فرط حزني وغضبي ... وضاق بي المسجد ، على سعته ، ومكدت اخرج منه الى المراء لولا خوفي من البرد القارس ... وطال على ليل الشتاء ، فالتمست في الغرفة كتاباً اقطع الليل بقراءته ، فلم اجد شيئاً ، لأن اهل الشيخ قد اخذوا كل متاعه الى بيتهم ... ولم

أجد امامي ما اتسل به الا دفتر الامالي . فتناولته وفككت رباطه الذي عقده الشيخ ، رحمة الله ، بيده . وما انفرجت دقتاه حتى وقع نظري على اوراق بخط الشيخ ، فاذا هي كتابه ، الذي علمت انه كان يكتبه الي ... وهذا هو :

يا ولدي يا حيران بن الضعف !

السلام عليك ورحمة الله . والحمد لله على شفائلك .

وبعد فاني اشعر بدلواً اجي منذ اصبت ، في غيابك ، بفأد في القلب ، لا ارجو ان انجو من عوقيبه ... وقد عزّ عليّ ان اقضي نحبني وألتقى ربّي قبل ان ألقىَ اليك بالآخر امانة لك في عنقي ، فككتب اليك هذه الرسالة ، لتلتحقها بدفتر الامالي ...

يا حيران بن الضعف !

لقد جئتني ، حيران ، ضالاً ، متورطاً في وحول معرفتي بشراء ، وعلم قطير ، تلاقياً فيك على عقل غرير ، متطلع ، بفطرته ، الى الادراك ، مستشرف ، بغير ورده ، الى ما وراء الادراك ... بذلك كل ما في وسعه لأهدبك الى الحق الذي لا رب فيه .

واحسب اني كنت موافقاً في هديك ، لاني وجدت بك مرآة نفسي في شبابي ، فعرفت من اين أخذت وعلمت من اين تؤخذ حق تردد الى الحق . فجاريتك كاجاريتك نفسى ، وداوينتك كاداوينتها ، ولعلى ابراؤنك كابرأتها ...

يا حيران بن الضعف .

اعلم ان الایمان بالله (حق) و (حاجة وضرورة) . فاما انه حق فقد عرفته بما حدثتك به في تلك الليلات الطوال التي عشتها معي .

وأمتا اته حاجة وضرورة فانك تعلم ، يا حيران ، حين تدرك ، كا ادرك المؤمنون والملحدون قاطبة ، على السواء ، ان الایمان بالله هو :

أُنْ الْفَضَائِلِ ،
وَرِحَامُ الرَّذَائِلِ ،
وَقُوَّامُ الضَّمَائِرِ ،
وَسَندُ العَزَامِ فِي الشَّدَائِدِ ،
وَبِلَسْمِ الصَّبْرِ عَنِ الْمَصَابِ ،
وَعِدَادُ الرُّضْنِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْمَظْوَطِ ،
وَنُورُ الْأَمْلِ فِي الصَّدُورِ ،
وَسَكَنُ النُّفُوسِ إِذَا أَوْحَثْنَا الْحَيَاةَ ...
وعزاء القلوب اذا نزل الموت او قربت ايامه ...
والعروة الوثقى بين الانسانية ومشتملها الكريمة .

ولا يخدعنك ، عن هذا يا حieran ، من يقول لك ان مكارم الاخلاق تغْنِي ، ووازع الضمير ، عن الایمان ، لأن مكارم الاخلاق التي تواضعنا عليها ، للتوفيق بين غرائزنا و حاجات المجتمع ، لا بد لها ، عند اعتلاج الشهوات في الشدائيد والأزمات ، ان تعتمد على الایمان . بل ان "هذا الشيء الذي نسميه ضيراً اما يعتمد في سويداته على الایمان ...

واتقياد الناس لمكارم الاخلاق ، يا حieran ، اما يكوف يزاجر من السلطان ، او وازع من القرآن ، او رادع من المجتمع ، فاذا كنا في ثبوة من سلطان القانون والدين والمجتمع لم يبق لنا وازع الا الضمير . ونحن في معركة الشهوات والغرائز مع الضمائر ، قل "ان نرى الضمير منتصراً ، الا عند القلة من الناس ؛ وهذه القلة نفسها لا تستمسك بضمائرها ، عند جوح الشهوات ، الا اذا كانت تخشى الله يا حيران .

ولو تركنا مكارم الاخلاق جانباً ونظرنا الى حاجتنا الى الایمان من حيث هو مستند في الشدائيد ، وبليس لالمصاب ، وسكن للنفوس ، وعزاء للقلوب ، وعلاج لشقاء الحياة ، لوجدنا انتا ، عند فقد الایمان ، نكون

اسوء حظاً في الحياة ، وادنى رتبة في سلم الخلقات ، من اذل البهائم
واضعف الحشرات واشرس الضواري :

فالبهائم تجوع كا نجوع ، ولكنها في نجوة من هم الرزق ، وخوف
الفقر ، وكرب الحاجة ، وذلّ السؤال ...

وهي قبيلاً كا نلد ، وت فقد اولادها كا فقد ، ولكنها في راحة من هلع
المشكلة ، وجزع الميسمة ، وهم اليتامى المستضعفين ...

وهي ، في اجسادها ، تلذذ كا تلذذ ، وتأم كا نائم ، ولكنها في راحة
متى يأكل القلوب ، ويقرّج الجنون ، ويقطّن المضاجع ، ويقطع الارحام ،
ويفرق الشمل ، ويحرّب البيوت من المهلّكات : كالحسد ، والكذب ، والنميمة ،
والغريبة ، والقذف ، والنفاق ، والخيانة ، والعنوق ، وكفر النعمة ، ونكaran
الجحيل ...

وهي تعرف ، بنوع من الادراك ، ما يضرّها وما ينفعها ، ولكنها في
نجوة من اعباء التكليف ، وانقال الأوزار ، ومغضض الشك ، وكرب الحيرة ،
وعذاب الضمير ...

وهي تمرّض كا نمرض ، وتموت كا نموت ، ولكنها في راحة من التفكير
في عُقبى المرض ، وفارق الأحباب ، وسكرات الموت ، ومصير المولى
وراء القبور ...

والضواري تسفك الدماء لتشيع بلا سراف ، ولكنها لا تسفكها انتفا ،
ولا جنفا ، ولا صلفا ، ولا ترقا ... ولا علواً في الأرض ولا استكماراً ...

اما هذا الحيوان الفيلسوف ، الضعيف ، الملوّع ، الجزوّع ، المطاع ،
المحتال ، الفخور ، المترف ، المتكبر ، المتجرّ ، السافق الدماء ، الذي لا
يأتيه شفاء الحياة ، اكثر ما يأتيه ، الا من قنطرته ، فانه لا علاج لشقائه
الا بالایمان . فالایمان هو الذي يقويه ، وهو الذي يعزّيه ، وهو الذي
يسليه ، وهو الذي يُمنّيه ، وهو الذي يُرضيه ، وهو الذي يجعله انساناً
يسعى الى مثله الاعلى للتسجد له الملائكة ... ومن دون هذا الایمان
يكون هذا الانسان المسكين اتعس الخلاائق ، واسوأها حظاً ، واعظمها

شقاء ، وآشتها بلاء ، واحتضنها رتبة ، وارذها مصيرأ ...

وسبيله الى الایان هو ذلك (التفكير) الذي كان سبب شقائه ، انه عبد لتفكيره قبل ان يكون عبداً لربه ، ولا يكون عبداً لربه ، **ـ** حق العبد ، الا بهذا التفكير ... الذي ينسج اكثرا خيوط سعادته ونحوه في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

لقد خلق الله هذا الانسان ورفعه ، وكرمه ، وميّزه بهذه النفس الماكرة المفكرة التي عمله بها الاسماء كلها ، وخلقه بها على الارض ، رصيده فيها فوق الملائكة ، وكتب الفلاح لمن زكّاتها والخيبة لمن دسّها (وَتَفْسِيرُهُ وما سواها . فافهمها فجورها وتقوها . قد افلح من زكّاتها وقد خاب من دسّها) فكيف تزكيها يا حيران ... ؟

انتا نَزَّكَيْهَا بالتفكير حق تسامى الى مَثَلَهَا الاعل ، وتنصل الى (البيتين) من الحق والخير والجمال ، فترى الله عنده ... وتجد من حلوة الایان ما تدرك به سر^١ شقايتها وسعادتها ، وضعفها وقوتها ، وعجزها وقدرتها ، وعبيديتها وحرفيتها ، بدل سر^٢ خلقها ، ووضعها على مفترق (التَّجَهِيدَيْنِ) ، وتركها على هذه الصورة القاتمة (للضَّدَّيْنِ) ، التي من دونها لا يفهم معنى (المبودية) ، ولا يستقيم معنى (العبادة) يا حيران ...

لذلك كان حقا علينا ، من باب الحاجة والضرورة ، ان لم يكن من باب الحق والعبادة والتقوى ، ومن اجل سلامه عقولنا ، وسلامه قلوبنا ، وسلامه خوازننا ، وسلامه انسانيتنا ومثلها العليا ، وسلامة المجتمع ، ان ندعوا الى الایان باهله ، ونُتَبَّشره للعقل ، ونشرح له الصدور ...

يا حيران بن الأضعف !

لقد عراني ، في عهد الشباب ، من كُب الشك والطيرة ، مثل الذي عراك ، واغراني بالفلسفة ، مثل الذي اغراك .

وأولعني بالجدل والسفطة ، مثل العلم الابقر ، والنظر الاخرير ، الذي اولعك .

وأوجعني ، من بعض رجال الدين ، مثل المجدد ، الذي اوجعك .

وقطعني ، عن البحث والدرس ، مثل الذي قطعك .
وكبرت بنا الايام والسنون ، واللت ت على الحياة بالاها ، في ذات
نفسي ، وقيم أحبت فاستشرى بي الشك من جديد ، حق صرت اقرب
الى الاخاد مني الى اليمان ...

وما زال سوء الطالع يدفعني في ظلمات الحيرة ، حق اوقفني ، في
عبادة ربى ، على سرّف ، بين الابيان الموروث ، والقطوط من رحمة الله ...
ودارت في الايام ، ودخلت في خدمة الامير ، مرافقا اثيراً عنده ،
وصاحبته الى الحجاز . وهنالك في المدينة التورة ، هديت الى شيخ
جليل صالح ، يدعى الشيخ عبد القادر ، رأيته في المسجد النبوى ، يقرأ ،
بعد صلاة الصبح ، درساً على رهط من شيوخ الهند ، الذين جاءوا لاداء
فرضية الحج . وقعدت ، بعد الصلاة ، بينهم في حلقة الدرس ، استمع الى
الشيخ ... وطال عجبى ، حين سمعته يقرأ في كتابه ، امامه ، سرداً لا
يقف فيه لقرير ، او شرح ، او ايضاح ، او تعليق . وازدادت عجباً حين
رأيت ان الذي يقرأه كلام في تلخيص مذهب الفلسفة الطبيعيين المتكلمين
لوجوده الله ؟ فاني ما سمعت ابداً بأن مثل هذا يقرأ في المساجد .

ولما انتهت ساعة الدرس ، وانفرط عقد المتعلّقين حول الشيخ ،
دنوت منه وسألته عن هذا الكتاب . وذكرت له عجبي فقال : يا ولدي .
هؤلاء رهط من علماء الهند ، كل واحد منهم اعلم مني بالفقه والحديث
والتفصير . وقد حَرَّت عادتهم انت يسمعوا ، طيلة اقامتهم في المدينة ،
دروساً من علمائها ، للتبرّك ، ثم يطلبون منا الاجازة للتبيّن ، ويجزوننا
على ذلك خير الجزاء ...

ولما اتوني اول مرة ، شاورتهم فيما اقرأ لهم ، فتركوا الأمر اليّ .
فذكرت لهم كتاب (رسالة الحيدية) للشيخ الجسر ، وهو شيخي وانا
من بنده ، فخرعوا به ، وابتسموا ، لانه كان معروفاً لديهم ، ومتربّحاً
بالاوردية ؟ فأخذت اقرأ لهم ، من غير شرح ولا تقرير ، لأن كلامه
واضح جداً ، ولاني قليل الاطلاع على الفلسفة ، فخفت ان يعارضني احدهم

سؤال او إشكال لا استطيع له جواباً ولا حلّ ..

وقد اتفقت^١، ببركة شيخنا الجسر^٢، من هذه القراءة^٣، وما زلت اتفق منها في كل عام : نما من عالم او طالب علم ، يأتي من الهند ، الا ويطلب مني ان اقرأ عليه كتاب الجسر^٤، ويشتري منه نسخاً ، يأخذها معه ، هدية ، الى بلده .

وبعد ان حددتني الشيخ عن اصله وبلده^٥، وكيف هاجر منها الى المدينة المجاورة^٦، طلبت منه نسخة من (الرسالة الحيدية) ، فاتاني بها . فشكرته ، وودعت ، وعدت الى مأواي^٧ ، فتفرغت لقراءة الكتاب في ليتين . ثم اعدت قراءته لـما رأيت من سمو تفكير الجسر^٨ ، وسعة علمه^٩ ، وسداد نظره^{١٠} ، ونفوذ بصيرته^{١١} ، وبعده عن المبود^{١٢} ، واعتقاده على العقل^{١٣} ، واحترامه للعلم^{١٤} ، وبراعته في التوفيق بين حفائق العلم القاطمة وحقائق الدين الساطعة .

فلا قضى الامير ستة الزيارة لمسجد رسول الله^{١٥} ، وعدنا بطريق البصر الى ديار الشام^{١٦} ، استاذته بزيارة الجسر في بلده^{١٧} ، فاذت لي . ونزلت في طرابلس الشام^{١٨} ، وزرت الشيخ في جامع يُسمى جامع الامير (طينال) ، وهو اشبه شيء بهذا المسجد ، الذي نحن فيه ...

ولما عرّفته بنفسي^{١٩} ، وذكرت له اصلي ولنبي^{٢٠} ، وقصصت عليه حكاية اطلاعي على كتابه^{٢١} ، وقصدني لزيارته^{٢٢} ، وعرّفَ ما اشكو من مرض الشك^{٢٣} ، وكرّب الحيرة^{٢٤} ، وحثّ بي^{٢٥} ، وسألني عن علماء بلادي فرداً فرداً^{٢٦} ، ثم اكرم مشاوي وازلاني في داره له هناك في سفح الجبل^{٢٧} ، تطلّ على المسجد والرياض التي حوله . ثم صررت ارافقه^{٢٨} ، كل يوم ، الى الجامع^{٢٩} ، استمع الى دروسه^{٣٠} ، مع برهط من اجلة العلماء من تلاميذه .

وبعد ان قضيت^{٣١} في ضياقته شهراً كاماً ، استاذته في السفر^{٣٢} ، والعودة الى بلادي^{٣٣} ، وذكرت له عندي^{٣٤} ، وارتباطي بالامير^{٣٥} ، فقال لي : يا أبا النور ! هذه الايام المضطربات التي سمعت بها الناس لا تكفيك^{٣٦} ، ولكنني انصحك ان تُكتئر من قراءة الفلسفة^{٣٧} ، حتى لا تترك منها شيئاً ، وتكتئر من

قراءة علوم الطبيعة ، و تكثُر من قراءة القرآن .

قلت : كيف أكثُر من قراءة الفلسفة ، وهذا الشك ما أثارني ألا منها ؟

قال يا ولدي يا أبي النور : إن الفلسفة سجّر ، على سلاف البحور ، يهدِ راكبه الحظر والزَّيْعَ في سواحله وشطآنَه ، والأمان والإيمان في لُجَيْه واعْتِيقَه . فاقرأها يا أبو النور ، بصبر وانتاج ، ولا تترك شيئاً مما قاله فلاسفة عن وجود الله وأحاديثه . ثم اجمع آقوالهم ، وقارن بينها ووازن ، ثم اجمع من القرآن كل الآيات الدالة على وجود الله ، واقرأها بتذكرة ، على ضوء مما قرأت من الفلسفة والعلم . وارجع ، في التوفيق بين العلم والدين ، إلى تحكيم العقل . وسوف تجد نفسك ، بعد ذلك ، في احضان الإيمان واليقين ... وأكثُر ، يا أبو النور ، من قراءة سورة الفُسْقِي ، وسورة الأنبياء . ولا تقنط من رحمة الله ، ما دمت تطلبها من أبواب التوبة والرجوع إلى الله ... ولو سوف يعصيك ربِّك فلرضي ... ولو سوف يُصلِح بالله ... ويهديك إلى الطيب من القول ، وإلى صراطِ المُهِيد ...

ولما عدت إلى بلادي لقيت شيخ الإسلام في (طشقند) ، فعدته عن الجسر وكتابه وزيارة زيارتي له في بلده وسؤاله عنه ، لما انتهيت من كلامي حق رأيت الدمشق يحول في عينيه ، ثم قال لي : إن " كتاب الجسر " هذا معروف في بلادنا ومشهور ومترجم بالتركية ، فلا تجد عالمًا عندنا إلا ويعرفه ، ولا داراً للكتب إلا وترى فيها (الرمالة الحديثة) مع ترجمتها بالتركية . وله أيضاً كتاب يسمى (المصنون) في العقائد مطبوع في بلادنا تحت اسم (العقائد الإسلامية) . ثم أفاض شيخ الإسلام في الحديث عن الجسر ، وإيمانه ، وآخلاقه في الدفاع عن دين الإسلام ، ولما استأنفت للخروج من حضرته شيعني ولده إلى باب الدار ، فسألته عن سبب بكاء الشيخ فقال لي : إن أبي يحب الجسر حبة عظيمة ، وقد بلغ من تعلقه به وحسن ظنه ، أنه كلما صاف صدره ، وكثيراً ما يضيق بعده أن طعن في السن وسأله صحته ، يطلب مني أن أقرأ عليه القصيدة التي نظمها

الجسر في مولد الرسول ﷺ ، فادا قرأتها عليه انتهت دموعه وقال لي :
جزاك الله خيراً يا ضياء الدين فقد اشرح صدري وارتاح قلبي ، وقد
حلقت ، واهد يا أبا التور ، هذه القصيدة الطويلة من كثرة ما قرأتها عليه ،
وبعد شرين من عودتنا من الحجاز است匪ت الأمير من خدمته ،
يا حيران ، وتفرّقت للمطالعة ، فقرأت من الفلسفة ما شاء الله ان اقرأ ،
في سبعين عديدة ، وألتفت فيها . وقرأت من القرآن ما شاء الله ان اقرأ ،
وجمعت هذه الآيات الدالة على وجود الله كلها . وترجمت ، في التوفيق بين
العلم والدين ، الى تحكيم العقل ، كما امرني الجسر . وخرجت من هنا
الجهد الطويل ، بعد عشر سنوات ، الى المدى واليقين ، وفتحت علي
ابواب الرحمة ، كما يشترفي الجسر ، حتى رضيت ...

اما المدى واليقين فقد بلغتها : بالموازنة بين كلام الكثرة العظمى من
اكبر الفلاسفة القائلين بوجود الله ، وكلام الفلة من الضعفاء الشراك ،
وبالمقارنة بين ادلة الفلاسفة وادلة القرآن ، ويجمع كل ما جاء في القرآن
من آيات الحق والتكون الدالة على الله ، وقد تبرأها ، على ضوء الحقائق
القاطعة التي ثبّتها العلم ، حتى استثار قلبي فرأيت الله فيه ...

فقد دلتني الموارفة بين اقوال الفلاسفة الأصلاء المستمسكين بشرط
الفلسفة (وهو النظر العقلي الخالص المجرد من الهوى ومن كل غرض وغاية
سوى البحث عن الحق) ، على انه ليس فيهم ملحدون ، بكل معنى الكلمة
(الالحاد) التي تعني تعمد انكار وجود الله انكاراً مطلقاً ، او تعمد
وصفة بما ينافق احدياته وكاله ، ولكن فيهم (شككالاً) يبحثون عن
الحق من وراء حجب الغيب ، فيأتיהם (الشك) الذي لا يتخلص منه
باحث مفكر متفلسف ، منها علا كعبه في الایمان ، لأنه من طبيعة (البحث)
عن الجھول المفتب الذي لو كان معلوماً ما كان بحث ولا فكير ، ولا
نظر ولا تأمل ، ولا شك ولا استدلال . ولكن الباحثين يختلفون عقلاً
وذكاً وصبراً وجلاً ، فنهم العاقرة الاقوياء الذين يكابدون ليل الشك
حتى يصل بهم التفكير السليم الى صبح (اليقين) ، فلا يعماون ، وبعد

البيين ، بشك مبهم لا يجندث تناقضًا عقلياً مع هذا البيين الذي ادركوه . و منهم الضمفاء الذين ترجم عقوتهم تحت عباءة الشكوك ، فيقف بهم التفكير في العِقاب الصَّعب ، و تقطع بهم الْهِمَم دون اقتحامها ، فيجعلون كُلَّ الْعُقْل عن (تصوّر) الشيء حجة على عدم امكان (تعظله) ، او يتخذون من غموض الحكمة ، في (فرع) من فروع الخلق والتدبر ، سيا للشك في (الأصل) الذي يشهد عليه البيين ، فيقرون حائزين بين و ميضا العقل وخبيوه (مَثَلُهُمْ كُلُّ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوَّلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ وَكَرِهُ كُلُّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُعْصِرُونَ) ... (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ إِبْصَارَهُمْ كُلُّهُمْ أَضَاءَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَاتَمُوا) وجندوا امام شكمهم و قالوا لا ندرى ...

و دلتني ذلك (التلاقي) على الحق والبيين والبيان ، بين العباقة ، في كل ملة وفي كل عصر ، على ان الحق واحد لا تختلف عليه العقول عند قوم (يتفكرون) و (يَمْلُؤُونَ) و (يَعْقُلُونَ) و (يُوقِنُونَ) و (يَوْمَئُونَ) ، كما وصفهم القرآن ، يا حيران ...

و دلتني المقارنة بين الأدلة المطلية التي ذكرها القرآن على وجود الله (الخالق ، الباري ، المصوّر ، الظاهر ، الحكم ، القاهر ، المرشد ، العدل ، الرحمن ، الرحمي ، الواحد ، الأحدي ، الفرد ، الصمد ، الذي لم يَبْدأ و لم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُواً أَحَدٌ) و الأدلة التي ذكرها الفلاسفة والمعلماء من المسلمين وغير المسلمين ، واستدراها بها على وجود الله ووحدانيته وجميع صفات كماله هذه بذاتها ، على أنَّ المُقْ وَاحِدَ ، وطرق الاستدلال عليه واحدة ، سواء كان اهتمام العقول بالتفكير قدّحًا في نفسها ، او قبساً من القرآن ؛ فهذا التلاقي ، بين وحْي العقل الذي خلقه الله لنا ، ووحي القرآن الذي ازله الله علينا ، دليل قاطع على ان الدين الحق لا يتنافي ولا يتمارض مع العقل في شيء ابداً . وهذا اعظم ما هداني اليه الجسر ، رحمة الله ، يا حيران .

و دلتني التوافق والتطابق بين ما اشار اليه القرآن ، في آيات الخلق

والتكوين ، من آثار القصد ، والحكمة ، والاسنان ، والاتزان ، والاتزان ، والتقدير ، والتدبر ، والعنابة ، الدالة على الله ، وبين اسرار العلم التي عرفها العلماء بعد أكثر من الف سنة من نزول القرآن ، على أنَّ هذا القرآن من عند الله الذي أرانا ، بعد حين من المدهر ، كما وعَدْنَا ، آياته في الأفاق وفي انفُسنا حق تبَيَّن لنا انه الحق ... فعرفت من اعجاز القرآن ما لم اكن اعرف ، من قبل ، ياجiran .

ثم احصَيت اسباب الشك وادلة الإيمان ، ومتىزتها ، ورددها الى الى مصادرها ، على ضوء ما خبرته في الحياة بمنفي ، وما فرأته وسمعته من كلام المجادلين في الله ، فعلمتُ واينتُ ان دلائل اليمان موجودة في كل ما خلق الله من صُور الوجود ، ران اسباب الشك منحصرة حصرًا فيها قدر الناس من اختلاف المظوظ : في الرزق ، والمال ، والولد ، والصحة ، والمرض ، والعز ، والذل ، والتوفيق ، والخذلان ، والشقاء ، والسعادة ؛ فما من عاقل يُنحِّ له ان يرى ، بنظرية شاملة كاملة ، جميع ما في هذا الكون من ابداع ، وقدر ، وعنابة ، وحكمة ، واتزان ، واحسان ، واحكام ، وتقديم ، وتقدير ، واتزان ، وتنشيق ، وجحال ، وجحال ، ثم يستطيع ، بعد ذلك ، ان يصدق ، منها استسلم الى الشك ، ومهما الح عليه سُوا الطالع ، باَنَّ هَذَا الْعَالَمُ خُلُقٌ وَتَكُونَ ، لنفسه ، بالصادفة العميم من غير خالق مدبر قادر على حكم . كما انه ما من مؤمن ، منها عظم ايمانه ، خلا الصديقين ، يستطيع ان يُقصي عن فكره المجبَبَ من اختلاف المظوظ ؟ فعلمتُ ان البحث في سر "القدر" مزلفة العقول .

ولكني وازنت بين هذا السبب الاوحد للشك والخيرة ، وبين ما لا يُعد ولا يحصى ، كثرة ، من البراهين القاطعة على وجود الله ، فوجدت ، بعد التأمل الطويل ، الصادق ، المجرد عن كل ميسل مع الهوى او مع التقوى ، ان اختلاف المظوظ يمكن تأويله ورده الى علة غابت عنـا ، او حكمة خفية علينا ، او خطأ في فهم معنى القدرة على حقيقته . وهو ،

على كل حال ، غيب ... والشك الآتي من وراء الغيب أضعف من أن يهدم (البين) المشاهد القائم على البرهان القاطع ...

نعم ، يا حيرات ، إن المصائب والكوارث كوجه الإيمان رجاء ، وقدذهب بالعقل إلى التساؤل عن السر في خلق هذا الإنسان الضعيف المهزوع المجزوع ، فميداً شيطان النفس المثلثة أصبعه ليست عن اعتنا رحمة الله وحكمته ... ولكن هذا الشك لا يدوم إلا ريثما تمر سحابة الأسى وتتشبع عن القلب الموجع المزمن ... بل لو أردت أن تختفظ لنفسك بشكك ، وتعدمت أن ترضاه ، وتوكل إليه ، وتغدوه بما شئت من سوء الظن باهلاً ، فإنه لا يسدوم إذا كنت موافقاً إلى سارية الإيمان بالف الف حبلٍ من هذه الأدلة التي قتلتها واحتكتها حول عقلك في هذه الليالي الطويلة التي عشتها معني ...

فهذه البراهين العقلية القاطعة الدالة على الله هي أكثر ، وأوضحت ، وأظهر ، وأقوى من أن يستطيع العقل السليم الافلات منها ، من أجل أمر من عالم الغيب يمكن تأويلاً وردةً إلى أسباب عديدة ، أو حكم كثيرة خفيت علينا كما خفي علينا الكثير من أسرار الحسوسات في عالم الشهادة . وطالب الحق ، إذا لم يبرد عن الموى ، لا يترك اليقين ليأخذ بالشك ، وإن فعل فاما يفعل بسانده لا بقلبه . والمؤمن الذي رسا بالبين على صخرة الحق لا (يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفِهِ فَهُوَ اسْبَابٌ تَخِيرٌ اطْمَانٌ بِهِ إِنَّ اسْبَابَهُ رِهْنَةٌ اتَّقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ تَخِيرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ...)

وقد علم الله سبحانه ، اتنا في شقاء الحياة ستفن ، من إيماناً به ، وعبادتنا له ، على (حرفي) ، فخذلنا . وعلم اتنا ستفن على كثير من الشكوك والشبهات فأمرنا أن تستمسك بما عرفناه ، بالبرهان ، من (البين) ، وإن تعرض عن المشاهدات التي لا يعلم تأويلاً لها إلا الله وحده ، فقال جلت حكمته : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أَمْ الْكِتَابُ وَأَخْرَى مَتَّشِيهَاتٍ فَمَنِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ كَرِيمٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَاءُ مِنْهُ مِنْهُ فَتَنَّتْ وَابْتَغَاءَ تَأوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ،

والراسخون في العلم يقولون آمنت به كذا من عنده، رأينا وسايده كثر الألباب).

فنحن المُحْكَمَاتِ المُحْكَمَاتِ، يا حيران، تلك الآيات الله على وجود الله دلالة قاطعة، يجعل العالمين بها، المدركين لأسرار معاناتها، راسخين على صخرة (اليقين)، لا تزحزهم عنها أمواج الشك منها تواتر، وتعالتْ وارغتْ وزبدتْ، في خضمّ الحياة وشقائها. وهؤلاء الراسخون في العلم هم الذين يُقرّون بعجز العقول عن ادراك كثير من أسرار الغيب، فيستمسكون (باليقين) الذي دلتُهم عليه (المُحْكَمَاتِ) من طريق البرهان العقلي القاطع، وتأبى عليهم عقوفهم ارنـ ينفلتوا من هذا اليقين الذي عقلوه من الجسل (متشبهاتِ) قد اتبس عليهم فهمها وتأوبلها، ولم ينكروا منها يقيناً آخر يعارض اليقين الأول أو ينافقه. وهؤلاء هم (أولوا الالباب) الذين يَقْفِفُون عند كمة (الله) يا حيران ...

ولكن الأدلة التي تنطوي عليها هذه الآيات المُحْكَمَاتِ اذا بقيت متفرقة، ولم تكشف اسرارها في أغوارها، لم يَقْنُوا كلُّ واحدٍ منها، بفرده، على التثبيت والتبرسيخ على صخرة اليقين، والشدة الى سارية اليقين. أما اذا "جمعت" مع حقائق العلم، على صعيد واحد، ظهر الحق الذي يستحبيل على الشك ان ينمازع فيه اليقين او يزعجه او يزلزله. وفي هذه الجمجمة قصدت حين جمعت ذلك، يا حieran، أدلة القرآن وادلة الفلسفة مع شواهد العلم، على صعيد واحد، التلerner لك، بكل جمالها وجلالها، الصورة الكاملة الشاملة للحق الذي نطق به الوحي، وابده العقل السليم

ولطالما ترمحّت على الجسر الذي هدّني الى هذه الطريقة يا حieran، فان جمجم هذه الأدلة القرآنية، مع الشواهد لعلمية، الى جانب الأدلة العقلية، على صعيد واحد، وفي "جزمة واحدة": هو الذي يجعل لها قوة البداهة في الاستدلال؟ فكثثنا، يا حieran، نقرأ القرآن، وكلنا نعرف تلك الحقائق العلية، ولكن "تشتت هذه الآيات والمعرف في الذهن يجعل كل واحدة منها ضعيفة". امام ضفت الشك المنيف الذي يشدّده علينا شفاه

الخسارة؛ فهي كالقطارات من الماء تكون أضعف شيء وأثقلته، فإذا تجمعتْ وقدفتْ في بحر واحد كوتلت السيل الجارف الذي يهلك الجبال، أو هي كالصورة التي لا يتم وجودها، ولا يمكن إتمان معناها، ولا يظهر جمالها، ألا إذا عرّضت للناظر بكامل اعجازها في إطار واحد.

فما هدّيت إلى جمع هذه المعرفة والآيات كلّها في بحر واحد، وحُمّلة واحدة، واطار واحد، بل فتح بنيسي، هذا اليقين الذي روّيتكَ لك بنوره (قصة الأيمان) بلسان الفلسفة والعلم والقرآن ...

يا حيران بن الأضعف:

إنّلحظ هذه الأمالي التي أملأتها عليك، مع هذه الوصيّة الأخيرة، والشرّها بين الناس، لعل الله يشرح لها، للإبان، صدور الحيارى، ويصلح بالهم، ويهدي من شاء منهم إلى الطيب، من القول والصراط المستقيم.

يا حيران بن الأضعف:

انْ كَانَ فِي الْأَجَلِ فُسْحَةً ثَلَقْتَنَا... وَلَا فَتَرَحْتَنَا عَلَيْنَا



Digitized by the Al-Azhar Library (Digitized by the Al-Azhar Library)